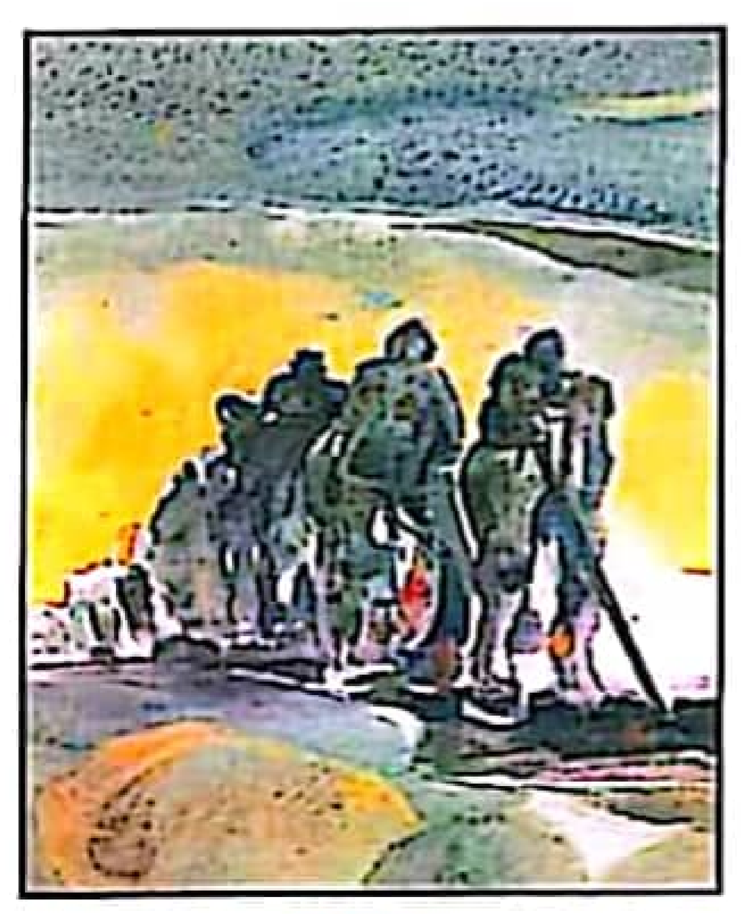
علي محمد زيد



رواية





بجهود شخصية

قام محرر صفحة شخصية من ريمة

بعمل الملف الخاص بقصة زهرة البن

لمؤلفها ابن ريمة د.علي محمد زيد

الذي تجدون سيرته الذاتيه

على الرابط التالي :

https://acharacterfromraimah.blogspot.com/2021/01/blog-post_3.html



علي محمد زيد

زهرة البن

رواية



زهرة البن / رواية
علي محمد زيد

الطبعة الأولى ١٩٩٨
دار الكنوز الأدبية
ص.ب: ١١ـ٧٢٢٦ بيروت ـ لبنان
هاتف: ٧٣٩٦٩٦

الإهـــداء

إلـى

د. أحمد الصياد

رمز مودة ووفاء

بجهود شخصية

قام محرر صفحة شخصية من ريمة بعمل الملف الخاص بقصة زهرة البن لمؤلفها ابن ريمة د.علي محمد زيد الذي تجدون سيرته الذاتيه على الرابط التالي :

https://acharacterfromraimah.blogspot.com/2021/01/blog-post_3.html





- ١ -

((من مشنقة إلى مشنقة فـرج)). ومـن سـجن إلى سـجن فسـحة في المكان وتمدد في الزمان قد يرخيان حبل المشنقة فينقطع قبل إسدال الستار الأخير على آخر ابتسامة. لكن لا يمكن استبعاد احتمال أن ينشـد حـول العنق المحاصر بغصة القبر حتى آخر رمق. وهذا السجن منفـى معـزول في أقصى الأرض. مكان مجهول لا يلتفت إليه حتى الشيطان. هاويـة مجنونـة تطل على الهاوية. مكان بلا مكـان. جحيـم غريـب لا يفكـر بإقامتـه إلا قاطع طريق سـفاح مـن الحقـد علـى النـاس الطيبـين إلى درجـة لا يمكـن تصورها. من الشـذوذ والقسـوة لدرجـة الوحشـية. أداة إعـدام خرافيـة. يموت السجين فيها موتا بطيئا، ويتشرب الموت قطرة قطرة حتى تتساوى في عينيه الحياة والموت. يمحي الخيط الرفيع في مخيلته بين الرغبـة في البقـاء على وجه الحياة والرغبة في مغادرتها. لا تـترك لـه وحشـة الحيـاة وظلمـة السجن سوى تمني الموت بأقصى سرعة ممكنة. تصبح أعز أمانيه أن يرتاح حتى بالموت. يموت السجين من الداخل حتى يغدو الموت في ناظريه لعبة مسلية سمجة. يعتاد الموت بالتقسيط لحظة بلحظة. ويلاعبـه بـلا اكـتراث دقيقة بدقيقة. لا يؤرقه سوى أن جسده المكـدود، العنيـد أحيانـا، يتمـرد على الغياب، ويعلن عن تذمره من آونة إلى أخرى بالإلحاح على حاجاتـه الغريزية الأولية. يفرضها فرضا مزعجا لا تساهل فيـه. لعلـه يفعـل ذلـك

عنوة ليذكر السجين بأنه ما يزال على قيد الحياة، أو على الأقل على الحد الفاصل بين الحضور والغياب. بين الحياة والموت.

وهذا السجن القبر المعلق في رأس جبل ضائع مزرعة خصبة للقمل والدود والحشرات. كأنما جندت خصيصا لتساعد في تعذيب السجين بلا انقطاع. تجتهد وتثابر في أداء عملها حتى تنتهي من التهام دمه في زمن قياسي. تحرض عليه مثيلاتها بهمة وحماسة. ويجهد السجانون من جانبهم لفرض التغييب التدريجي لهذا الجسد من خلال وسائلهم التي تختلف عن أساليب مساعديهم من قمل وحشرات وهوام: الجوع والعطش والضرب. الإهانة، وغيرها من ضروب التعذيب حتى يفقدون السجين الرغبة في أي شيء حتى ولو كان الحياة. يخصونه من الأمل والرجاء، ويفرضون عليه أن لا ينتظر شيئا حتى ولو كان الموت. لا يسمع شيئا غير صمته هو. ولا يحس شيئا سوى دبيب الحشرات ونهشها في لحمه ودمه، ولا يرى شيئا غير جدران السجن المكفهرة التي لا تتغير ولا تتبدل، تطوقه من الجهات الأربع وتبعث فيه الكآبة والغثيان.

الأسر في هذه الديار ليس سجنا. الأسر عملية تعذيب متواصلة. لا حقوق. لا واجبات. لا تسامح. لا رحمة. لا أمل. الأسر ورطة قاتلة لا فكاك منها حتى ولو بالقتل. وهذا السجن جحر صغير مجهول في جبال الحيات والحنشان والهوام. وكر للقمل والديدان والحشرات ومرتفع قميء في أعلى هاوية. لا يدخله سوى بصيص لا يكاد يرى من نور فقد لونه وطعمه. من حظ السجين أن (الشاقوصين) اللذين ينفذ منهما ذلك البصيص يقعان في جهة الجنوب. هذا يسمح بدخول شعاع ضئيل من أشعة الشمس في النهار. لا يحجبه إلا تعامد الشمس مع الجبل المقابل الذي يبدو وكأنما نصبه السجانون عمدا ليحجب أي شعاع عن النفاذ إلى السجن. يغلق الشاقوصين لوحان خشبيان متآكلان مندثران، لمنع تسلل الحيات والحنشان إلى الداخل. إذا فتحا ظل السجين في حالة رعب

من تسللها إليه. عليه أن ينتزع قدرا يسيرا من الهواء النقي من أنيابها. أرضية السجن ترابية رطبة لا يغطيها أي شيء يمنع تصاعد التراب والغبار. وتمتد مزرعة القمل والحشرات على اتساع الأرضية وعلى الجدران غير المدهونة والمخددة كأنما أصابها الجدري. الأرضية والجدران توفر بيئة لا تصلح إلا لتكاثر الحشرات والدود وتناميها بسرعة وكثافة، وتدربها على نهش بعضها بعضا، فتكتسب شراسة توظفها في خدمة السجانين حتى لا تترك للسجين أية فرصة للاستراحة. تتناوب العمل ليلا نهارا فما يكاد نشاط نوبة الليل يهدأ قليلا في النهار حين تخلد إلى نوم عميق لهضم ما التهمته من دم، والاستعداد لحفلة تعذيب جديدة، حتى تتولى نوبة النهار عملها بهمة ونشاط. تثابر على امتصاص الدم الآدمي بلا كلل وكأنها موكلة بازدراده كله في زمن قياسي. تفترس السجين وكأنها مقاول ملزم بزمن ينتهي خلاله من عمله الذي لا يقبل التأخير.

ألقي بالأسيرين أحمد وعمر جثتين هامدتين في هذا الجحيم الصغير، بعد أن هدهما السفر الطويل منذ أسرا قبل بضعة أيام حتى أعادهما إلى عناصرهما الأولية. لم يشعرهما بأنهما ما يزالان على قيد الحياة سوى شيء من تمسك غريزي لا معنى له بالبقاء على قيد الحياة. أنفت أحشاء عمر البقاء في مكانها وأسرعت متذمرة من ذلك الحال بنوبة استفراغ عنيفة يائسة. تحاول الصعود إلى فمه ومغادرة مكانها دون جدوى. لا يوجد في أحشائه ما يستفرغ بعد رحلة العذاب والجوع. تعلو أحشاؤه وتهبط بقوة. أنفاسه تعلو وتهبط حتى يكاد يختنق. يتكور حول نفسه. يدور ويدور في عنف، ويسقط منهارا على الأرض. روحه توشك على الصعود إلى باريها. جسده الطويل النحيل يرتعش وتصطك أسنانه بقوة. أنينه يختلط بنوبات الإستفراغ اليائسة. أصاب أحمد رعب حقيقي وهو يواجه هذا الوضع وحيدا في وحشة الظلام والإحساس بالضياع. فكر فيما عساه يفعل في هذه الوحدة المدمرة. رفيقه في الأسر يعاني سكرات

موت همجي بين يديه. أيقن أنه سيموت لا محالة دون أن يجد من يواريه الثرى. من يلفه في كفن. من يحمله إلى مثواه الأخير. نظر من الشاقوص إلى الخارج. انتابه خوف شديد من أن يلقيه العسكر إلى الهاويه لتفترسه السباع الضارية. الشمس توشك على الغروب. وقت لنعيق البوم والغربان. كان أبوه يرحمه الله يتشاءم من وقت الغروب. لفته وحشة قاتلة أيقن أنها وحشة الموت. أحس بسجن آخر أشد ضراوة ينتصب في داخله. سجن داخل السجن. سجون يلف بعضها بعضا. احتضن صاحبه وشد أوصاله نحو صدره بكل ما استطاع من قوة. ضمه إليه يتوسله أن لا يموت وحده. يرجوه أن يمسك بتلابيب ملك الموت حتى يأخذ روحيهما معا. أحس لأول مرة بعبث نجاتهما من الموت في المعركة التي أسرا خلالها. أمل بائس واستدراج نحو قعر الهاوية ومرارة الألم. أحس بسخافة استسلامه للمشي تحت مذلة الأسر كل تلك المسافات حتى وصل إلى هذا القبر الموحش. لماذا لم يقاوم حتى يقتل؟ لماذا قبل المشي إلى هذا العذاب المرعب. ود لو يبكي. عيناه تستعصيان على البكاء. جفت الدموع من العيون واستحالت أنينا وتأوهات تصعد بحرية وازدراء. أحس أعضاء عمر المشدودة إلى صدره تتراخى وتهدأ شيئا فشيئا. تمتم يقرأ سورة يس. أيقن أن روحه فاضت في تلك اللحظة إلى باريها. أرعبه أن يبقى لوحده في هذا القبر. حزن حزنا عميقا لأنه لم يغادر الحياة مع صاحبه. سمع حشرجة كحشرجة الموت تصدر عن عمر. ظلام الليل لا يسمح بتبين ملامحه. تحسس وجهه بيده يقرأ عليه آي من الذكر الحكيم ويكرر النظر إلى مكان ساعته التي نهبوها من فوق معصمه كأنما هو في موعد مع ملك الموت. وكانت المفاجأة بقدر مرارة اليأس والكآبة. نفث عمر نفسا عميقا حارا. وزفر زفرة هدت كيانه كله. واستيقظ من إغفائه منهكا ليطمئن صاحبه بصوت متهدج إلى أنه لم يمت بعد، وطلب أن يدعه ينام ويستريح. استرخت أعصاب أحمد أمام هذه المفاجأة السارة، وتغلب عليه الإنهاك ولفه النوم بدفئه الحنون.

جلس في زاوية ديوان بيته بجانب النافذة مصوبا نظره عبرها نحو الخارج. كوع يده اليسرى يتكيء على بقايا مدكى مكون من حشية من قماش سميك من الكتان، محشوة تبنا، ومخيطة بلا إحكام بخيوط سميكة من تلك التي يخيطون بها اكياس الحبوب، ومغطاة بقماش تمزق و لم تبق منه سوى نتف. يفترش بقايا فرش من قطن تصلب من كثرة الجلوس عليه وأصبح شبيها بالحجارة، مغطى بقماش كان له لون فقده من كثرة الإستعمال. في وسط المكان (تخته) من خشب الطنب، في شكل مكعب مطلي بالزيت لحمايته من التلف، لها أدراج تحفظ فيها الأوراق والأشياء الثمينة. على سقفها موقد وضع فوقه كوز من الفخار مليء بقهوة القشر لتبقى دافية. واجهتها الأمامية مزينة بنجمات وأشكال بسيطة من النحاس اللامع على خلفية الخشب الداكن. ربطت إلى إحدى حلقاتها (مداعه) بدأت الحياة تعود إليها من جديد منذ بدأ يجرب تدخين التنباك بعد وفاة والده الذي كان تدخين التنباك ولعته المفضلة وسلوته في لحظات الضجر والإنفعال.

سحب نفسا طويلا من القصبة الطويلة الممتدة من المداعة إلى فمه. أحيانا يدخن بحكم العادة وهو ينظر إلى الخارج ويسرح بصره في الأفق البعيد. تتالى الجبال الخضراء أمام ناظريه في سبات أسطوري، يقل ارتفاعها كلما اتجهت نحو الغرب. تنبسط القرية تحته في الأسفل كأنها كتاب مشرع للريح تعبث به كيف شاءت. بيته في مرتفع حاد يقع في أعلى القرية التي تمتد بيوتها على راس جبل ينتصب كالسكين والبيوت قطرات دم جف فوق حدها. تتلاصق البيوت في صف طويل يزاحم أحدها الآخر. أبواب بيوتها مفتوحة نحو الشرق، مستسلمة لطلوع الشمس وغروبها، ومشدودة إلى طريق تشكل شارعا ضيقا يربط القرية في خاصرتها من أعلاها إلى أسفلها، ويشدها دون جدوى نحو المناطق الأخرى، وبخاصة بمركز الحكومة المكون من قلعة مسورة تقع تحت سرة الجبل نفسه، أسفل القرية بقليل.

يرصد من مكانه حركة القرية، بيتا بيتا. سطوح مرتفعة وبعضها أقل ارتفاعا وأغلبها مقضضة لمنع تسرب المياه، والبقية مرصوفة بطبقة من التراب المشغول بطريقة تجعله يقاوم التسرب، الطريق أو الشارع الضيق الوحيد الذي يربط بين منازل القرية المتلاصقة بيوتها رأس الجبل، قبة الولي بجانب المقبرة، المساجد الثلاثة وبخاصة المسجد الجامع الذي يؤدي الناس فيه صلاة الجمعة ويعقدون اللقاءات ويتبادلون الأحاديث ويتناقلون الأخبار. يرقب القلعة، أوالكابوس الجاثم على الصدور، ينهب الناس ويذلهم، ويخيفهم بما فيه من جيش عرمرم من عسكر مستعدين لفعل أي شيء لاستلاب ما يكسب المزارعون بالعرق والضنى. نتوء قميء يشوه صورة الجبل الوادع دون أن يجلب له ولو منفعة واحدة. بؤرة إثم مزروعة في خاصرة الجبل.

على يمينه نحو الشرق، وعلى شماله نحو الغرب، واديان ضيقان يشكلان غابتين مستطيلتين من أشجار البن. مدرجات انتزعت عنوة من أشداق الجبل تتالى نحو الغرب ونحو الشرق، على جانبي الجبل، مزروعة بنوع من أشجار البن يختلف عن تلك المزروعة في بطن الواديين. بن المدرجات أشجار قصيرة، تعطي محصولين في السنة إذا جادت السماء بالمطر، وأشجار الوادي طويله، كثيرة الأغصان والفروع، تعطي محصولا واحدا في السنة لكنه غزير ووافر بغزارة نزول المطر وخصوبة التربة وسلامة المحصول من فتك الآفات.

منذ عاد من عدن خائبا مغموما واجهته مشكلتان كل منهما أصعب من الأخرى: أن يبحث عن مصدر رزق يعيش منه، وأن يتزوج ويخرج من حال الوحدة التي تجعل ينظرون إليه وكأنه غريب منبوذ في قرية يتزوج الرجال والنساء فيها في أول سن المراهقة وأحيانا قبل ذلك. زراعة الكفاف حرفة الجميع إلا هو. زراعة المدرجات التي ورثها بعد أبيه عمل شاق ينهك قواه دون مردود يستحق كل هذا العمل والكد. لم يرغب في يوم من الأيام ولا حتى في الحلم بالعمل في زراعة الأرض. كان أبوه

الحاج عبدا لله، يرحمه ا لله، يريد أن يكون أبنه الوحيد علما شامخا متضلعا في علوم الدين، ومرجعا يشار إليه بالبنان ويقبل عليه الناس من كل حدب وصوب ليستفتوه في أمورهم وليحتكموا إليه في شئونهم. دفعه في سن مبكر لحضور دروس الفقيه القطب الصوفي فبدأ حضور دروسه وعمره خمس سنوات، وتعلم على يديه بسرعة غير مألوفة قراءة القرآن والتجويد والتفسير والحديث والفقه وعلوم العربية من نحو وصرف وبيان. رافق استاذه خلال سنوات الطلب، وشارك في حلقاته، وأعتكف فيمن اعتكف من تلاميذه في المساجد، ومارسوا حياة الزهد في حياة كلها زهد وتقشف بالسليقة، وعبدوا ا لله حتى اسودت جباههم من أثر السجود، وزاد نحول أجسادهم النحيلة أصلا من أثر القيام والخشية التي تداخل بالجوع وسوء التغذية. هذا الطريق يؤهله للعمل فقيها يدرس الراغبين في العلم من الأطفال والشباب إن وجدوا. حرفة بائسة لا توفر أحيانا حتى عيش الكفاف، ولا تمكنه من الزواج الذي يرغب فيه.

منذ أن عاد من عدن يلح عليه هاجس الزواج بصورة غريبة. يرن في أذنيه لحنه العذب، ونداءه الشجي. أصبح الزواج في هذه اللحظة مشنقته التي يبحث من خلالها عن الفرج المنتظر، وكهفه الذي يستعد للهرب نحوه من حيرته الدفينة. تطرب مشاعره ويرتعش كيانه كلما مرت زهرة، نبض الجبل الجاثم في مكانه بلاحراك منذ ما بعد الطوفان بقليل، وعطره الفواح، ودمه الفوار بعنفوان حياة لا أجمل منها ولا أروع. من لا تهز زهرة مشاعره بلا قلب، وبلا رأس ولا أقدام. أعمى حتى ولو كان زرقاء اليمامة، أخرس حتى ولو كان أعلى صوتا من الصواعق التي تضرب رأس الجبل عند كل مطر. زهرة باقة من أزهار البن الزاهية الفواحة تعطر التلال الخربة والوديان المطأطئة، وغصن يتمايل برونق الجمال والجلال، ويعج بدفق الشبابَ المتخايل. ترافقه في يقظته ومنامه. كلما طردها عن خياله عادت مقتحمة عالمه بقوة وعناد. لم تشغله من

قبل لا امرأة و لا غيرها بهذا الإلحاح المزعج اللذيذ. آه من سحرها ومن خيالها العذب لا يفارق الخاطر في يقظة أو منام. والوصول إليها صعب، ونيلها أصعب، والاستحواذ على قلبها مستحيل.

يحاول لفت نظرها كلما صادفها على الطريق. من عادة الشابات أن يطرقن ويثبتن نظرهن الى الأرض كلما مررن في الشارع الضيق الوحيد الذي يربط بيوت القرية حتى لا يشك أحد في نظراتهن البريئة. وأجمل الجميلات تتوقع أن تكون محط أنظار الشباب المنهمك في مغازلة العذارى بل ومحط أنظار الشيوخ المتصابين. لفت نظرها غير ميسور. وأصعب منه إيصال رسالة مهمة تحكي ما يدور بخلده نحوها وما يفكر به من حياة مشتركة بينه وبينها. يحتاج إلى غير مألوف في بيئة ألفت كل شيء حتى سئمت وملت. لن يفوز بها دون عمل خارق للمألوف. لن يغامر بالتقدم لخطبتها قبل أن يعرف مدى تجاوبها معه، ومدى قبولها للمشروع الذي استولى عليه مؤخرا ويدفعه دفعا لاهوادة فيه للفوز بها بأية وسيلة. لن يسلك نفس الطريق التي سلكه من سبقوه لخطبتها وعادوا بخفي حنين. سيختط لنفسه أسلوبا مختلفا يجعل أباها يقبل به طوعا أو كرها. كد ذهنه لابتكار الأسلوب المناسب لنيلها. قدر أن لا سبيل اليها سوى اقتحام قلعتها المسيجة بألف سياج وسياج. سوى اقتحام قلبها الشاب البض، واكتشاف مداخلها الخفية والوعرة، وسلوكها واحدة فواحدة بصبر وأناة لا يعرفان التساهل والكسل. لن يقدم على مغامرة غير محسوبة تجعله يعود خائبا كغيره من خطابها السابقين. وحتى لو وافق أبوها، لا يريد أن يجلبها إلى بيته كما تجلب البقر والأغنام. يريد أن يفوز بقلبها. لا يريد أن تسلم إليه قلعتها ليجدها خاوية على عروشها لا نبض فيها ولا حراك. يريد أن يقتحمها ليجدها تعج بالحركة والحماسة والشوق. فكر بساحة للقاء والمبارزة والاصطدام والانفجار. كل شيء مشترك في هذه القرية المسطحة، المعروضة في الهواء الطلق. لا أسرار ولا أعماق. كل شيء مشترك، وكل شيء معروف للجميع، حتى علاقة الرجل بزوجه سرعان ما

تعرف للجميع بتفاصيلها، نجاحاتها التي تطلق العنان للخيال، وإخفاقاتها التي توحي بالخجل والمرارة. وذلك الشارع الوحيد الذي يربط بيوت القرية يتسع رغم ضيقه لكل الأخبار والقصص والمغامرات المثيرة والأقل إثارة، وتتردد فيه كل الإشاعات والقصص. ولذلك استحق تسمية أحمد له بشارع الصحافة في قرية تجهل أن في العالم شيء اسمه صحافة. ليس من اليسير أن يلتقي شاب أعزب، في هذا الشارع الخاضع لرقابة صارمة من الرجال والنساء والأطفال، بشابة جميلة غير متزوجة. هذا بلا شك أمر يثير الفضول ويوحي بنسج حكايات وقصص موغلة في خيالها. لم يجد من وسيلة آمنة محكمة في تخفيها وتنكرها غير أخذ دكان القرية المغلق منذ أفلس صاحبه بسبب البيع دينا وعجز المزارعين عن دفع ديونهم. سيضرب عصفورين بحجر واحد. سيوفر وكرا ملائما يتربص فيه بزهرة دون لفت نظر الآخرين ويوفر فرصة لكسب ما أمكن من الرزق. ربط الحب بالغذاء يجمع المجد من جميع أطرافه. لم يخطر بباله في يوم من الأيام أن يعمل بالبيع والشراء، ولم يفكر في أن المزارعين امتنعوا من الدفع لمن سبقه في الدكان لفقرهم. وموسم جنى البن مايزال بعيدا. حتى السماء أغلقت أبوابها في وجه مناجاتهم وحبست المطر الذي لا حياة لهم بدونه. فهم سمك بري يموت إذا لم يتوفر الماء. يموتون بلا مطر، ويستحيلون إلى غبار جائع تذروه الرياح في كل الإتجاهات.

كان هذا الذي يسميه زورا وبهتانا ((دكان)) قد أهمل منذ سنين بعد إفلاس صاحبه، ولم يعد أحد يجروء على المغامرة بفتح دكان في قرية البيع فيها دينا لوقت جنى محصول البن طبيعة ثانية. حين طلبه من صاحبه أسرع بتسليمه المفاتيح دون مقابل وكأنما يريد أن يتحرر منه بأقصى سرعة ممكنة خوفا من أن يجلب له النحس والبوار كما جلب لكل من تجرأ على فتحه. الجميع مستغرب من شجاعته أو رعونته التي تدفعه دون حساب للربح والخسارة لفتح دكان في مثل هذا الظرف المكفهر الكسب

منه في حكم المستحيل. وهذا الجحر ليس سوى اصطبل صغير شبه خرب، كئيب وبلا نوافذ. بادر بتنظيفه بنفسه بحماسة لا يعرف أحد سببها، وطلى جدرانه وأرضه بطبقة من الطين المخلوط بالماء والحشائش اليابسة، وبيض جدرانه الداخلية وواجهته الخارجية بالنوره. جلب الصناديق الفارغة ورصها بعضها فوق بعض لتؤدي وظيفة الأدراج. الأطفال يتحلقون من حوله ويشاكسونه ويشتركون معه في أداء هذه التمثيلية السمجة، يتسلون به في مكان غارق في الهموم بحيث تفر من خياله جميع وسائل التسلية، ويلفتون نظر الأهالي بضجتهم ولعبهم إلى أن القرية مقبلة على التغيير الوحيد على حياتها الآسنة. هم شركاؤه في المغامرة، وإعلاناته المتنقلة، ورقباؤه الذين يمنعون أن يكون لهذا الكمين الذي لا يدري أينصبه لزهرة أم لنفسه أم لهم أي معنى. ضجتهم من حوله تجعله يندمج في اللعبة ويتسلى بها عن التفكير بمغامرة فتح دكان في قرية لاكها الفقر حتى سئم، في وقت مدبر. بدأ بشراء البضائع. ماذا تحتاج أشباح تدب في قرية منسية تحلق رأس جبل تائه؟ الجاز لسراجهم، والسكر، والتمر والحلوى، والتعاع، والبهارات، والثوم، والبصل، والعطر، والبخور، والموز المحلي أحيانا. فكر بإدخال بعض البضائع التي لم يفكر بها من تعاقب قبله على هذا الاسطبل وفشلوا، مثل الأقمشه، وأدوات الزراعة. لكنهم يشترون الملابس مرة في السنة، ويشترون أدوات الزراعة مرة كل بضع سنوات ويجددونها عند الحداد. إنهم كائنات بلا حاجة، أو أدمنوا احتياج كل شيء حتى نسوا أنهم يحتاجون شيئا.

اهتم على نحو خاص بتخصيص زاوية للبضائع الجديدة غير المعتادة. الأقمشة اللامعة وصندوق صغير للخواتم القرمزية والوردية والزمردية، وآخر للبخور والعطورات وماء الورد. طيبت العطور والبخور هواء المكان المغلق، وجعلته واحة ظليلة يستطيب الجميع، للأسف، ارتياده والتبرك بزيارته ما عدا زهرة. لكن التجديد الأهم ساعة اليد الموضوعة على معصمه ينظر إليها بين

آونة وأخرى كأنما ينتظر حدثا مهما في قرية لم يتغير فيهـا شـيء منـذ سيدنا آدم، وتوفير جهاز راديو يعمل بالبطاريات الجافة يصدح بنشرات الأخبار العالمية من كل الإذاعات الممكن التقاطها ما عدا صنعاء، وبالأغاني وتراتيل من القرآن الكريم منذ أول لحظة ينفتح فيها الباب حتى الإقفال. جعل الراديو من دكانه مهرجانا دائما ومكانا لاجتذاب الناس وبخاصة الشباب. أصبح ناديهم الذي يقضون فيه أوقات الفراغ ويتجاوزون بواسطته حالة العزلة والحصار في راس الجبل. مكان للهرب من رقابة أسرهم وتبادل النكات غير المؤدبة وحكاية القصص الغرامية البريئة والأقل براءة، المحفوظة والمعيشة. تختلط روائح العطر وماء الورد برائحة الموز الناضج والنعناع فتجعل الهواء مشبعا برائحة مميزة غريبة. وتختلط ضحكات الأطفال بصوت المذياع على نحو يبعث في المكان ألفة عجيبة. لكن عين أحمد معلقة بساعة اليد التي لا يكف عن النظر إليها في معصمه وقراءة الوقت على صفحتها في قلق ظاهر. تتنقل نظراته بسرعة ملحوظة بين الساعة والطريق. كان في البداية يفعل ذلك أملا في أن تمر زهرة، لكن مرور الوقت جعله يكرر الحركة تلقائيا ودون تفكير أو أمل.

بدأ العمل بلا حماسة ولا تفكير. لا أحد يملك نقودا طوال السنة يدفع منها ثمن ما يشتري. الدين إلى ميسرة طبيعة ثانية في قرية لا تبيع ولا تشتري إلا أحيانا. يكتفون بالقليل، وإذا اضطروا طلبوا من بعضهم البعض، أو سرقوا بعضهم بعضا. ارتسمت في خياله في البداية أحلام وأحلام في قرية لا أحلام لها ولا طموحات، لا فرح ولاغضب ولا حزن. لا أمل ولا يأس. لا حركة ولا ارتعاش. حتى حين يطأون زوجاتهم، يتخشبون بلا حراك، وبلا لذة ولا اختلاج ولا تشنج. ثابتون في مكانهم منذ أن باعد أول بركان بين فخذي الأرض بقوة ورعونة ليمتد هذا النتوء الغريب كحد السكين نحو السماء. يدبون فوقه دون أن يتبينوا على أية نقطة منه يقبعون، ولا بأي سماء يستظلون. تزدحم رأسه

بالمشاريع العابثة في مكان عابث في هدوئه، عابث في ضياعه، سادر في نوم خرافي لا لون له ولا طعم ولا رائحة. تتلاطم المشاريع وتتضارب حتى يلغي بعضها بعضا. لا ينقصها سوى زبائن ممثلون قادرون على أداء أدوارهم ببراعة تفوق تصوره لأدوارهم، ومسرح مجهز يتسع لجمهور لم يخطر بباله قط في يوم من الأيام الملغية من حساب الزمن الذي تعده بدقة ساعة يده بإصرار لا معنى له. وسرعان ما بدأت الطموحات الحالمة تخبو بهدوء يليق بجلال هذا المكان القادم من عصور ما قبل الديناصورات المنقرضة. محتويات وكره الماكر على تواضعها تنقرض هي الأخرى بإصرار وعناد لم يخطر بباله، في حين يواصل لا شعوريا بانتظام رفع يده للنظر إلى ساعة اليد المثبتة إلى معصمه. أحيانا كثيرة ينظر إليها بلا مبالاة دون أن يقرأ الوقت على صفحتها. لا يهم تحركت عقاربها أم لم تتحرك. الأمر سيان. في داخله ساعة لاهية لا تتوقف عقاربها ولا تهدأ. تعبث بقلبه، وتعذب مشاعره، وتهد في أوصاله بلا انقطاع. وزهرة لا تمر إلا نادرا. وإذا مرت أطرقت بنظرها إلى الأرض كعادتها ومضت مذعورة بسرعة تتجنب نظرات الشباب الفضولية المصوبة إلى بؤر شاعرية من جسد مترع كالقصيدة بدفق الشباب وسحر الأنوثة. كلما رآها يخيل إليه أنها تهرب منه إلى أقصى الأرض. ظنها تعرف مخططه الجهنمي لإيقاعها في حبائله. لم يحدث أحدا بمشروعه الواله الحالم.. أهي من الفراسة إلى الحد الذي يجعلها تتبين مكره بها من النظرات الخاطفة القليلة التي استطاع أن يصوبها إلى عينيها الجميلتين الآسرتين. أهي من سلالة زرقاء اليمامة أم أنها عرافة عصر بلا متنبين وبلا كذابين ولا صادقين. ملأته الكآبة من حال لا يبيع فيه ولا يشتري ولا يستطيع الوصول إلى زهرة ولا إلى شيء له معنى. مغامرة فتح الدكان تكاد تصبح غير ذات جدوى. حركة سخيفة وتذاكي بلا خبث. زبائن جهاز الراديو أكثر بكثير من الزبائن المشترين. يحضر الناس لسماعه وينصرفون جماعات

ووحدانا دون أن يحس بهم المكان الذي يزحفون فوق ظهره. لا يشترون شيئا ولا يبيعون شيئا، ولا يرغبون في شيء، ولا يهربون من شيء. يأتون لسماع هدير مذياع لا يعني لهم شيئا، أو لتمضية وقت فراغ في حياة فارغة من أي معنى. أحيانا يبدون وكأنهم يكدون أذهانهم دون إلحاح في محاولة لفهم ما يحدث في العالم الغريب من حولهم. من باب تضييع وقت ضائع أصلا بأي شيء. يتناقشون ويتصايحون ويتضاحكون دون أن يستمع أحد إلى الآخر. يفسرون ما غمض لبعضهم بعضا دون أن يفهم أحدهم الآخر أو أن يعترض أحد على أحد، ودون تساؤل أو استغراب أو اندهاش أو قبول أو رفض. يتطوع أحمد دائما بتفسيراته بمناسبة وبدون مناسبة. أحيانا يبدون وكأنهم يوافقون أو يعترضون، تنفتح أفواههم كمن يحاول النطق دون أن يقول شيئا، لكنهم على أي حال سعداء بالمذياع وبرائحة العطر والموز أكثر من سعادتهم بالدكان، وإن كانوا غير راضين عن هذه الساعة اللعينة على معصمه تجلدهم بسيرها الملحاح وباجتذاب نظراته كالمغناطيس. لماذا تصر هذه العقارب على الدوران، ولماذا كل هذه النظرات العصبية إليها، ولماذا تتحمل يد أن تقيد بألة صغيرة مزعجة؟ ويزيد المذياع هو الآخر من إزعاجهم بهذه الأصوات الغريبة التي ترطن كما يرطن فقيه بخطبة بليغة في مكان مقدس. كان البعض يفسر صدور الصوت من هذا الجهاز الصغير بوجود جن يحدثون الأصوات. لكن ترتيل القرآن على هذا النحو الجميل أربك تفسيراتهم الواثقة وجعلهم يغيرون رأيهم بالتدريج وإن بصعوبة، وينسون وجوده بينهم على نحو أسرع. أكبر إبداع لهذا الجهاز الصغير أنه حاول ابتكار الحيرة في رءوسهم ولو إلى حين. لكنهم يتكيفون معه بسرعة غير معتادة وغير متوقعة وينسونه بسرعة تسابق الريح النافخ في بيوتهم المشرعة نحو الشرق تستقبل أشعة الشمس الحارة. يهربون إليه من ضنك

العيش وقسوة القلعة وضجة الأطفال في بيوتهم الفارغة من أي شيء ما عدا أطفال يولدون ويموتون بانتظام عجيب.

خاله يواظب في إلحاحه عليه كي يتزوج. وعلى الرغم مما يبديه خاله نحوه من مشاعر الحب والرعاية فإنه ينزعج لهذا القدر من الحق الذي يعطيه الخال لنفسه في التدخل في حياته الخاصة. لا يزعجه شيئ مثل انزعاجه من المساس بحريته الشخصية وحقه في أن يختار الطريقة التي يريد أن يمارس بها حياته. نبتة برية غريبة يضايقها أن تتكيف مع نباتات المرج المحيط بها. أوراقها مختلفة وزهورها لا تشبه الزهرات الأخرى ورائحتها متميزة لكنه لم يستقر بعد على طريقة معينة يشكل حياته وفقا لها. والبعض يكلفون أنفسهم بإيذاء الآخرين بإخلاص منقطع النظير، وإزعاجهم بتوجيه اسئلة جارحة واستفزازية. يتحدث الخال معه دائما عن الموضوع نفسه بانتظام رتيب ممل وكأنه مكلف بإزعاجه في الصباح والمساء وفي كل ساعة يلتقيان فيها. يصر الآن إصرارا عجيبا لم يعتده منه من قبل. يفكر ويختار ويقرر بحنان الأب الذي يحب ابنه إلى درجة نسيان أنه موجود، لا يردعه عن التنفيذ سوى أن احمد عصي إلى حد ما، وهذا ما يزعجه ويحيره. الزواج والميلاد والموت أهم مناسباتهم. من لا يتزوج لا يكون لديه أطفال. إذا وجد الأطفال يصبح الموت محتملا عندهم ومنتظرا. الإنجاب وظيفتهم الوحيدة وإبداعهم الوحيد. وخاله لا يريد له وهو الوحيد الذي رزق به أبوه أن يموت دون وارث يرث عنه الحيرة والعذاب. كأن البشر سينقرضون كما انقرضت الديناصورات إذا لم يخلف وفي أسرع وقت ممكن. كارثة مروعة تشغل بال الخال وتقض مضجعه. بل تشغل بال الجميع. يسألونه بإلحاح وسماجة متى تتزوج؟ أحيانا يرد بسؤال استفزازي:

ـ أتزوجني بأختك؟

وإن كان السائل ممن له بنت قال له:

ـ أتزوجني بابنتك؟

ينزعجون أشد انزعاج لهذا الرد الاستفزازي غير المؤدب، لكنهم لا ينتبهون لمدى إزعاجهم له بسؤاله دائما متى يتزوج. كل هذه الأسئلة العابرة على ما فيها من استفزاز له تهون، ويسهل عليه التعامل مع أصحابها أو تجنبهم. لكن أكثر ما يستفزه من الأعماق أن خاله يحاصره بالأسئلة والتعليقات والإقتراحات وفرض الأمر الواقع حول الزواج على نحو يفسد عليه حياته ويضطره للمبادرة خوفا من أن يجد نفسه متزوجا بالاحراج. والخال يصر على أن يورطه وبذلك يؤدي واجبه في فرض احترام التقاليد ومراعاة الأصول. عين نفسه بنفسه حارسا للتقاليد في أسرته دون أن يستشير أحدا في أمر توليه هذه المهمة الجلل. تجاوز التقاليد يعني الانقلاب على سلطته الوهمية والخروج على مملكته التي لا عرش لها. يردد دائما أن لوم الناس سيعود عليه. لكن أحمد لا يفهم لماذا يلومونه وعلى أي شيء. قال له:

ـ الأمر يخصني. عندما أقرر سأتزوج بلا تردد. الأمر أبسط من أن يحتاج إلى شجار وخصومة بيننا.

الزواج شأن عام يخص الأسرة أولا، ويخص الجميع. كل شيء فردي وشخصي إلا الزواج. قبل منه كل فعل بدا له غريبا. قبل أن يكون علامة استغراب يفكر بشكل مختلف، ويتصرف بشكل مختلف، وينظر لكل شيء بشكل مغاير للآخرين، لن يصل الأمر إلى حد حرمانه من حق المشاركة في قرار الزواج. هذا ضلال لا يقبل به. رد في هدوء غاضب:

ـ لم يعد لك أي عذر في التأخير. كنت أتمنى أن تحقق رغبة أبيك وتصبح عالما متفرغا للعبادة والإصلاح بين الناس. إرادة الله قضت أن تعمل بالتجارة. (ما عيب إلا العيب). التجارة حلال.

ضحك أحمد ملء شدقيه من تسمية خاله لفتح هذا الوكر الذي يكاد يفقد أية وظيفة بالتجارة. لو كان ما يفعله تجارة لهجرها الناس من أنفسهم دون حاجة إلى أن يصدهم عنها أحد أو ينافسهم عليها. الأمل

الوحيد الذي ما يزال يراوده أن تنجح رائحة العطر والموز في اجتذاب زهرة للتوقف ولو للحظات أمام سرة الشارع الضيق وإلا فإغلاقه أولى اليوم قبل الغد، فلم يعد فيه سوى صوت المذياع يصدح منذ الصباح وحتى المساء بنداء داخلي مستميت يتوسلها أن تسرع إليه قبل أن يغلق الباب المشرع بينها وبينه إلى الأبد. أن تمد طوق النجاة لانتشاله من حبل المشنقة الذي يكاد يلتف ويجعله يتشظى وينتشر في زوايا النسيان المحيطة بهذا الشارع الضيق الوحيد.

اعتاد معاملة خاله بأدب جم. تمالك أعصابه المشتعلة بلظى لا يقاوم وقابل غضبه بابتسامة. يريد أن تمر هذه العاصفة التي لا مبرر لها بهدوء دون أن يلين ودون أن يجرح مشاعره. يبدو هذه المرة جادا أكثر مما يجب. لا شيء يصرفه عن مقصده. أليس على حق؟ أحمد الشاب الوحيد في قريته بلا زواج. يعيش في وحدة غريبة داخل بيت يمتد في أعلى القرية كسبابة تبتهل إلى السماء، في حين يهرع الناس نحو زواج أبنائهم قبل أن يبلغوا سن الرشد. خاله ليس دائما على خطأ. فعلى الرغم من انزعاج أحمد من كل شيء، وتبرمه من تدخل خاله في ما يعد أخص خصوصياته، فقد كانت فكرة الزواج تراوده من حين لآخر، ثم أصبحت الآن شغله الشاغل. وربما مصدر انزعاجه الشديد أن خاله يمس موضع الجرح وينكش الألم الذي يعتصره في صمته وتكتمه. وهو لا يريد البوح بسره لخاله حتى لا يستعجل ويتصرف بطريقة لا تنجح في اجتذاب زهرة فيفسد خطته التي يحتاج اتقانها إلى صبر ودهاء ومكر.

لزهرة أب مزارع ميسور يذرع النهار والليل. يكرس وقته للعمل في الأرض نهارا وحراستها ليلا، ويشتري الأراضي التي هجرتها يد الإنسان ليستصلحها بنفسه، وحيدا لا يطلب مساعدة أحد. يخاف العين والحسد وأيدي الجيران الطويلة، ويتوجس خيفة من الجميع، يحس طمعهم في كل كلمة، ويلمس تطاولهم على ما يملك في كل حركة. مثابر لا تعرف

الراحة إليه طريقا. عبد للأرض، وعبد لنفسه، خشن في مظهره، وخشن في عيشته. يحمل العين والحسد مسئولية قتل أطفاله العشرة في الشهور الأولى من العمر ما عدا زهره. ولأنها بكره ووحيدته يعاملها برفق وتدليل لا علاقة بينها وبين غلظته وقسوته مع نفسه ومع الآخرين. علمها القراءة والكتابة في بحر الأمية التي يغرق فيه الرجال والنساء لتلاوة القرآن ومساعدته في حساب دخله الذي يكسبه بضنى وكد لا نهاية لهما، وحصر ممتلكاته المترامية المبعثرة فوق سفح الجبل وفي بطن الوادي الضيق، وقراءة وثائق الأرض التي ورثها والتي يشتريها والتي ينوي الاستحواذ عليها بمكر ودهاء. لا يأمن أحدا على أسراره وعلى معرفة خبايا حياته سواها بعد أن فاتته فرصة تعلم القراءة والكتابة وحرم من فرصة عدم إطلاع أحد على ما يعده أسرار حياته. لا يجد من سبيل لتجنب فضول الآخرين سوى الاعتماد على زهرة التي أصبحت أمينة سره، ومحل ثقته. كل الآباء يبدأون مشاريع تزويج أبناءهم بالتفكير بها وقد تفتح في عينيها نهر الجمال والشباب والأنوثة المتدفق في قرية ينسل السل في عروقها دون أن يدري به أحد. ولا شيء يزيدها سعادة ويزيد أباها غما سوى كثرة خطابها الذين يتوالى طنينهم في أذنيه كما يتولى طنين البعوض وحمى البلهارسيا، فيرفضهم جميعا بجفاء ويتراجع الآخرون قبل أن يوحوا برغبتهم في الاستيلاء على مملكتها الممنوعة. وزهرة تختال في جمالها وشبابها وتزداد ثقة بنفسها كلما تقدم خطابها وعادوا خائبين. لعبة مسلية تقضي بها وقتها وتتفاخر بها أمام زميلاتها اللواتي اقتدن إلى أزواجهن دون أن يسألن عن نوع الحلوى التي يفضلنها يوم زفافهن، ولون القماش الذي يفضلن ارتدائه، وأحيانا يكن وأزواجهن أطفالا يلهون ببعضهم بعضا في ظلام دامس يسمح بإخفاء الخجل الذي يستولي عليهم. لا شيء يملأ زهرة زهوا مثل شعورها بأنها مرغوبة من الجميع دون أن ينالها أحد. تلهو بهم وبمشاريعهم الفاشلة باستمتاع طفولي.

زهرة متوسطة القامة، بيضاء البشرة، عسلية العينين، تميل قليلا إلى البدانة وإن أخفتها بارتداء ثياب فضفاضة. صدرها ناهد من بين ثوبها الفضفاض يتحدى الاحتشام المنافق ويصد النظرات المكتنزة بجوع الحرمان والمحبوسة في أتون حجب لا هوادة فيها ولا رحمة. في عينيها بريق رائع مسيج بسياج من الكحل المدمى، وفمها الذي ترتسم عليه سيماء الحلم منحوت بإحكام في وسط وجه يميل نحو الاستدارة، أبيض ملوح بحمرة طبيعية شفيفة. بسمتها المشرقة الساحرة تكشف عن صفين متقابلين من أسنان بيضاء تؤطرهما شفتان بضتان. أريج زهره يعطر الأرض. خفيفة الظل والحركة. حاضرة البديهة، سريعة النكتة. شخصيتها قوية، وسحرها آسر، وشجاعتها واعتدادها بنفسها غير مألوف. تفرض نفسها على مجتمع النساء وتكسب ودهن واحترامهن بسلوكها الذي يجمع بين التواضع الجم والإعتداد بالنفس لدرجة المبالغة دون أي تناقض. تحس بجمالها، وبرغبة الرجال فيها فتزداد اطمئنانا وتكتسب رونقا بهيا. كثرة خطابها تزيد من ثقتها بنفسها. تقدم للزواج منها خاطبون كثيرون. شباب، ومزاعون أغنياء يافعون، ومشائخ كبار في السن. رفضهم أبوها جميعهم دون إبداء الأسباب. وشجعها على رفضهم دون تفكير في النتائج حتى بدا أن رفضه آت من رفضها. وأبوها طاغية في حق نفسه لكنه متسامح معها، عنيد في رفضه وكأنه ينوي أن لا يسمح لها بالزواج من أحد.

بدا وكأنه من تحصيل الحاصل أن يبدأ أحمد مشروع زواجه بالتفكير فيها، كما فعل الآخرون قبله. من البدع أن لا يفعل كما فعلوا، وأن لا يسلك الطريق التي سلكوا من قبله. لكنه لا يدري ما الذي يشده إليها ويجعله يخالف أولئك الخطاب السابقين الذين انصرفوا عنها بسرعة للزواج بغيرها دون عناد ومكابرة. فهو الشاب الأعزب الذي ترغب الشابات في الإقتران به وبخاصة من لم يتزوجن في سن مبكر ويستطيع أن يتزوج من أخرى دون عناء يذكر. هل سبب انجذابه إليها أنها رفضت

كثيرين قبله، أم أن شيئا من التحدي يستهويه في قصتها ويدعوه للمغامرة؟ يحس في أعماقه أنه مقدم على معركة لا يدري أيخرج منها منتصرا أم منهزما. الزواج في نظره مغامرة، أن يربط حياته كلها بشخص بعينه يقيده ويمنع عنه حرية الحركة وحرية اتخاذ القرار، ويثبت الزمان والمكان إلى جلده الواهن، ويحمله مسئولية تعذيب امرأة وأطفال بربطهم بحياته المضطربة التعيسة دون أن يستطيعوا في يوم من الأيام الانتقال بخيمتهم الصغيرة بعيدا عنه بحيث لا يستطيع اللحاق بهم، ويشدهم إلى مكان لا يستطيع لا هو ولا هم الهرب منه وتجنب العواصف الهوجاء تهب من أي اتجاه، ويفرض عليهم أن يقبعوا في أماكنهم تحت سقف سجن الزمن الكئيب. هذا بلا شك فخ أغرب ما فيه أن أحمد أصبح مستعجلا على الوقوع فيه بلهفة وشوق بعد أن هرب منه طويلا، وصارعه صراعا عنيفا حتى استسلم أخيرا ببساطة متناهية. كل هذه الاعتبارات المقنعة تقبع في زوايا ذهنه. يقلبها على كل الوجوه، ويفكر فيها المرة تلو المرة أملا في أن تثنيه عما ينوي الإقدام عليه، لكنه ينتهي من كل تفكير بالصعوبات والعقبات التي تباعد بينه وبينها وهو أكثر اشتياقا إلى عناق العاصفة التي تعده بها وركوب متن الريح. لا المخاوف ولا خاله ولا فضول الأطفال ولا نصائح المقربين استطاعت صده عن محاولة التحرش بها كلما مرت في الشارع أمام مكمنه الذي نصبه في الهواء الطلق فوق سرة الشارع معتقدا أنه أتقن تمويهه بما فيه الكفاية.

بدأ يجدد معرفة الطفولة بها بانتقاء أعذب الكلام وترنيم أعذب الألحان الشجية التي تحفظها عن ظهر قلب، واختراع فكاهة مدهشة في بيئة يخيم عليها الحزن منذ أقفلتها قلعة تجثم على صدرها منذ وقت لم يعد أحد يتذكر ما إذا كان قريبا أم بعيدا. يجهد نفسه ويبذل أقصى ما يستطيع من جهد للفت نظرها إلى ما يفكر به نحوها. يعرف أنها كانت ترتاح له منذ طفولتها وتختاره من بين أترابه للعب معه ومتابعته في كل حركة يديها.

لكنه لا يعرف ما تفكر به الآن نحوه، وما إذا كانت ما تزال تلك الطفلة اللاهية البريئة أم أنها قد كبرت وكبرت معها همومها ولامبالاتها به وبالآخرين. صحيح أنه كان دائما ينجذب نحوها، لكن ما يعتريه الآن وسواس مختلف وتحد مزعج. ينهد كيانه كله وترتعش أصابعه كلما توقفت أمامه حتى يفقد السيطرة على كلماته وعلى مشاعره فيبدو متلعثما مرتبكا على غير عادة. تستفيق العصافير في داخله وترنو إلى عش مرفرف فوق زهرات البن الفواحة بعطر لانهائي. ويكمن هو في وكره القابع في منتصف الشارع الوحيد الضيق الذي يربطه بزهرة. شيء ما يقض مضجعه ويلح عليه بهديره الحالم، وزغردته المتلألئة بموسيقى لم يسمعها قط و لم يقترب قبل من نوافذها الموصدة بإحكام. يرنو نحوها في مناجاة خفية، وتوسل مغلف بغلاف شفيف من كبرياء لا ترغب في هتك سرها. تبتسم بحياء وهي تراه في هذا الحال الذي يدعو للإشفاق أو للرثاء دون أن ترد على ملاطفاته الرعناء أحيانا. ومع الوقت، تتوق العين للقيا، فتلتقي النظرة بالنظرة. وتنفذ الكلمات المرسومة على جدار الهواء إلى القلب. وتقول العين ما لا يقول اللسان. يتبادل معها بلغة العيون حديثا مكتنزا بالمعاني. قالت له دون أن تنطق بكلمة إنها تدرك أنه محط أنظار الشابات والعوانس بخاصة. وإنه الوحيد الذي يتجاوز سنه عشرين سنة دون زواج. فما الذي يجعله يحث الخطى في عجلة من أمره بعد تريث مريب. سألته باللغة نفسها لماذا لم يخفق قلبه متجاوبا مع أية دعوة للحب أو للمغامرة قبل ذلك. أسئلة كثيرة باردة لا معنى لها ولا تحتاج إلى جواب. قال لها بغمزة خفيفة من طرف عينه اليسرى إن الأمر يختلف الآن معها وإنها باغتته على حين غرة وسدت عليه منافذ التفكير وسلبته النوم والحرية. اعترف لها أنه يتمناها من كل قلبه، وأنها أصبحت حلمه وهدف حياته. باح لها بسره بمصارحتها أنه إنما افتتح هذا الاصطبل لإيقاعها في حبائله. طلب منها الصفح والغفران لكل هذه الحيل والألاعيب التي يحيكها للفوز بها. قالت له تصبر يا رجل،

وتغلب على هواجسك وظنونك، وغدا تنساني كما تنسى أي وهم تتعلق به ثم تكتشف قدرتك على العيش بدونه. كشف لها عن حقيقة أن كل يوم يمر يزيد تعلقه بها أكثر من ذي قبل. حاصرها بنظراته حتى لم يترك لها مجالا للتهرب أو المراوغة. مثابرته جعلت لغة العيون تفصح عن مقاصدها. أصبحت نية الفوز بها ثابتة ومحددة في مخيلته لا يصده عنها أي عائق صغر أم كبر. المسألة مسألة وقت. لا تنقصه الجرأة. عندما يريد شيئا لا يتردد في المبادرة واقتحام الصعاب. إذا لزم الأمر لجأ إلى المغامرة. المغامرة المحسوبة أو الجنونية. خشية الرفض تجعله يتردد في انتظار وسيلة أجدى ولحظة أنسب. يعرف ان النساء في هذه القرية المنسية نادرا ما يستشرن في الزواج. وأحيانا كثيرة يكن مراهقات أشبه بالأطفال. يمنعهن الحياء من إبداء الرأي. هذا إذا سئلن. الأمر يختلف مع زهره. عمرها ثمانية عشر ربيعا لكنها تتصرف بطريقة تجعلها تبدو أكبر من سنها. مدللة في بيئة ما تزال تعيش عصر وأد البنات. وأبوها لا يرفض لها طلبا. لا بد أن يوافق على اختيارها، أو هكذا يمني أحمد نفسه الأماني. مقتنع بأن كسب ودها طريق التغلب على ممانعة أبيها. واظب على الحديث معها بلغة العيون واللسان والأحلام، واستمالتها بأعذب الأحاديث وأجمل الملح كلما سنحت له الفرصة. صمتها وبسمتها المشرقة بسحر لا يوصف على صفحة وجهها الجميل تشجعة وتدفعه دفعا للمواظبة والتقدم خطوة خطوة. ما يعيق هذا العمل المثابر الصبور هو أن المكمن أو المصيدة التي نصبها في منتصف الشارع الضيق الوحيد الذي يربطه بها مفترق التقاء الجميع بالجميع. يمر به الصاعد والنازل، الذاهبون إلى بيوتهم والمتجهون إلى الجامع والمتسكعون من الشباب والشيوخ والأطفال. النازلون إلى القلعة والعائدون منها، والذاهبون إلى السوق الأسبوعي والعائدون منه. كيف يمكن البوح بسر الأسرار دون هتك جلال هذا السر الدفين. وفرصها في الخروج والمرور به أقل. والحديث معها كلما مرت صعب. لاحظ أنها أحيانا تتعمد المرور لأسباب لا

يصعب تبين أنها مفتعلة. وأحيانا تبدو أكثر منه شجاعة واندفاعا على الرغم من ظرفها النسوي الصعب، ولا بد أن يلاحظ الناس ترددها أكثر مما اعتادت من قبل وهي الشابة الجميلة غير المتزوجة التي ينبغي أن تقر في بيتها ليحلم الجميع بالمجيء إليها أو أن تجي إليهم. يكفي أن تكون متزوجة حتى يقل استنكار خروجها والتقائها بالرجال والشباب غير المتزوجين منهم بخاصة. ألا تعرف بعد أن الزواج ساتر يحمي من التهمة وقناع يختفي وراءه من أراد حجب شيء ما لا يريد كشفه على الملأ؟ خشي أن يحدث ما لا تحمد عقباه قبل أن يتقدم خطوة ولو ضئيلة على الطريق الطويل إلى قلبها البعيد البعيد. أن يكتشف أبوها اللعبة الخفية التي يحاول أن يلعبها سرا في شارع مفتوح لكل الاحتمالات فيمنعها من المرور. حينها سيضطر هو قبل الأوان إلى إغلاق الصفحة التي يعمل لفتحها كي تضمه معها. لكنها هذه المرة كانت أكثر جرأة منه. لم تعد تحسب للنتائج حسابا. كأنما قررت أن تطلق صيحتها الأخيرة قبل الإنسحاب من اللعبة التي توشك أن تفقد دهشتها الأولى. وهو متردد بين الإقدام والإحجام. موقن بأن لا بد من عمل شيء ما على أي حال، وأن لا معنى للمراوحة عند هذا الحد من الكر والفر. المراوحة صبيانية ومضيعة للوقت. ولكن من أين يبدأ؟ البداية دائما مشكلة المشاكل. من السهل التفكير بأي شيء، ورسم الخطط المتقنة، وحبك المؤامرات والمكائد الماكرة، و...، لكن البداية هي الأساس. البداية نصف الطريق، أو كلها. لماذا لا يسألها رأيها؟ ولكن كيف ومتى؟ تواجهه من جديد مشكلة البداية. فليجرب قول أي شيء أو فعل أي شيء. لن يخسر شيئا لأنه لم يحقق بعد أي شيء. لاحت في طرف الشارع كطيف حالم يعبر مخيلته المشوشة من طرفها إلى طرفها. فرت الكلمات من خاطره، ودوت ضربات قلبه في أذنيه حتى هزت صدره، وعلت حرارته بسرعة، وخانته شجاعته خيانة لئيمة في وقت يحتاج لكل

خلجة شجاعة حقيقية أو مدعاة. انتفض على نفسه كالملسوع، واستجمع كل ما تبقى في عروقه من نبض مستميت وقال:

- ...

لا يدري كيف فرت منه الكلمات، وكيف خرجت، وهل كانت من الوضوح بحيث سمعتها وفهمتها، وهل تحدث فعلا أم أنه فتح فمه فاغرا وتصور أنه نطق بكلمات مفهومة. هذى بعدها بكلمات غزل لم يعد متأكدا من حقيقتها. كل ما يتذكره منها أنها جديدة على زهرة وجديدة على لغة الغزل وبخاصة في هذه القرية المشنوقة بجبل القلعة الغليظ. انتظر أن تجري هاربة مستنكرة وأن لا تعود إلى المرور به ابدا، أو ربما عادت بعد أيام يكون فيها غضبها قد خبا وهدأ. تعتريه خشية لا حدود لها من أن تعلن انسحابها من اللعبة التي ظن أنها فهمت أصولها وبدأت تتقن المشاركة فيها. استعد لكل شيء. دعى الله أن لا تنقطع عن المرور به حتى يعتذر لها عن رعونته. سيقول لها إنه لم يكن بكامل قواه العقلية عندما كلمها، وإن حالة من الارتباك والهذيان غشته، وإنه ربما أغمي عليه و لم يعد يدرك حقيقة ما يقول. لكنها ابتسمت بسمة رضى وانسحبت بهدوء في دلال بعد أن نظرت في عينيه مباشرة كأنما تشجعه وتربت على كتفيه، وربما تقبله بلغة العيون. لم تترك له فرصة لمواصلة الحديث. مشت بخطى أقرب إلى الجري منها إلى المشي. التفتت إليه بعد أن ابتعدت بضعة خطوات وشروق الإبتسامة على شفتيها. ود لو يترك بمفرده لاستيعاب كل معاني هذه اللحظة المهمة في حياته. انسحب هو الآخر بهدوء ومضى لا يدري إلى أين. يريد أن يخلو إلى نفسه لبعض الوقت. يلقي السلام على من يمر بهم كأنه لا يراهم. يحدثونه. لا يفهم ما يقولون. ذهنه مضطرب بأفكار مشوشة، وحالة غريبة من الوجد تجتاحه بلا رحمة.

أسرع إلى مصارحة خاله بقراره الحاسم. إما الآن وإلا خسرها إلى الأبد. لا يدري من أين جاءته الشجاعة لاتخاذ قرار حاسم كان يعد

اتخاذه طيشا لا قبل له به. لم يعد يطيق انتظارا وهو الذي كان يدعو دائما إلى الانتظار والتريث وعدم العجلة. يردد عبارة ((العجلة من الشيطان)) بمناسبة ودون مناسبة. سمع زغرودة جلجلت لا يدري من أين ردد الشارع صداها فأصيب بالذعر وأسرع خوفا من أن ينفضح سره الذي ما يزال حتى الآن دفينا في انتظار أن يعلن للجميع في الوقت المناسب. اذهلته نظرة اشمئزاز من عيني الخال، وهو الذي كان أحمد يعتبره أنه سيكون أول المتحمسين لهذا القرار الخطير. صارحه الخال بأن من الخير للجميع أن ينصرف عنها وأن يتزوج غيرها. رد أحمد قائلا:

- أرجو ألا تدفعني دفعا للتراجع عن قرار كنت أنت أول من دفعني دفعا لاتخاذه.

عندها فقط خاف الخال أن يتراجع ابن اخته عن الاقدام على زواج آن له أن يتم، فرد قائلا:

- على بركة الله. إذا، خير البر عاجله.

سر أحمد بهذا الرد وأحب أن يبدد ما تركه رده السابق من أثر سلبي فقال مازحا:

- كرامة الميت دفنه.

يعرف الخال ميله للمزاح والدعابة. يريد هذه المرة دفعه لأخذ الأمر مأخذ الجد. صارحه أحمد بخوفه من أن يرفض طلبه كما رفض كل من غامروا قبله بالسير على هذا الدرب المحفوف بالمخاطر. كان الخال واثقا من نفسه ثقة مطلقة. يتصرف وكأنه جنرال يقود جيش امبراطورية عتيدة لا يرد له طلب. نهره بلهجة آمرة:

- ليس أنت من يتردد. إذا رفضوا، أمامك شابات كثيرات. دع لي أمر زواجك وستتزوج اليوم قبل الغد. الأمر أبسط مما تتصور. أنت تعقد الأمور أكثر مما ينبغي.

- أريدها هي.

- قرر واترك الباقي علي. لا تهتم بالباقي.
- لماذا لا نجرب ونرسل من تسألها؟
- المرأة لا تسأل في زواجها. وإذا سألها أحد غير أمها من العيب أن تجيب.
- زهره اعتادت أن يسألها أبوها.
- أبوها مغفل. إنني أشفق عليك من مصاهرة شخص مثله.

سهل الخال مهمته بوثوقه المبالغ في نفسه، وبحسمه الذي لا يعرف الشك إليه طريقا. دفعه دفعا للمبادرة خوفا من أي تردد أو تراجع. لا يعرف انه هذه المرة جاد ومتعجل أكثر منه. بدا الأمر كما لو أن الخال قد رتب كل شيء مع أنه لم يرتب شيئا يستحق الذكر. يكفيه أن يتقدم للخطبة ولا يستطيع أحد الرفض. ولماذا يرفض؟ شاب لا يعيبه شيء يتقدم لخطبة امرأة في عمر الزواج. لعبة تتكرر منذ أن غادر الغابة أول إنسان ليعيش في خلوة مع امرأة. ما الغريب في الأمر؟ لا يوجد ما هو أبسط من طلب الزواج. تقدم الخطوة الأولى والبقية تأتي. والخال يعتمد أسلوب فرض الأمر الواقع على الجميع ويترك لهم الإخراج الأمثل لمسرحية تتكرر دائما ببساطة متناهية. الأمر واضح في ذهنه دون مجال لأي لبس أو تردد. لا حاجة للتفاصيل وإنما تدعو الحاجة إلى المبادرة والإقدام، والبقية تأتي من نفسها. تكتمل بقوة الواقع. الحساب المبالغ فيه للنتائج يفسد أي عمل. لا يحب كثرة التردد، وكثرة الكلام والأخذ والرد. التجربة خير برهان. إذا لم ينجح طرق محاولة أخرى وثانية وثالثة حتى ينجح. لا يرتاح منذ فترة لتردد أحمد في هذا الموضوع وتعقيده لأمر لا يوجد من شئون الحياة ما هو أبسط منه.

استعد أحمد يوم الجمعة منذ الصباح ليوم حاسم تتحدد فيه نتيجة قلقه بعد ليلة من السهر والأرق. لأول مرة يتهيب الإقدام على عمل يخصه إلى درجة تشل إرادته عن العمل وتجعله يلقي بالمسؤولية كلها على

كاهل خاله العجوز بتواكل كسول. اغتسل منذ الصباح لصلاة الجمعة وذهب للصلاة وقد ارتدى ثيابا جديدة نادرا ما يرتديها: فوطة عدنية مقلمة ذات ألوان زاهية تليق بسائق سيارة نقل. اعترض خاله بحدة على ارتدائها يوم خطبته وهمَّ أن يعطيه ثيابا كان أبوه يرتديها ولكنه نسي أو تجاهل الأمر متجها نحو الجامع، وحين رآه هناك بالفوطة العدنية تجهم وتظاهر بالانشغال بتلاوة آي من القرآن. كان أحمد يريد أن يبدو جذابا ومختلفا في نظر زهره. ظهوره بمظهر مشابه للآخرين لا يرضي غرورها ولا يقنعها بصواب ما ينويه، ولا يجعلها تنجذب إليه كما ينبغي وكما يطمح. لا أحد غيره يدرك هذا الفرق بين زهره وغيرها من الشابات. زهرة امرأة من طينة أخرى وهذا ما يسحره فيها.

حين وصل الحاج حيدر، والد زهرة، إلى الجامع لأداء صلاة الجمعة تهرب من النظر إلى أحمد كأنما يرى فيه عدوا لدودا رماه الزمان اللئيم به. لاحظ أحمد هذه الحركة العدائية الغريبة فاعترته الحيرة والذهول، وسرعان ما علل نفسه بردها إلى الإحراج وبأنه لا يريد أن يظهر أمام الناس وكأنه يخطب شابا لابنته. كان بإمكانه أن يتصرف كالمعتاد. قدرة الناس على التصرف في مثل هذه ألأمور المهمة تختلف من شخص إلى آخر. تشاغل بأمور أخرى بعيدة عن الصلاة وعن خطبته وعن الحاج حيدر وخاله عله ينسى بعض الشيء هذا الوسواس الذي بدأ ينخر رأسه ويصيبه بالدوار. يريد أن ينتهي من هذا الهم والقلق في لمحة عين. لاحظ في الخطبة الثانية أن الحاج حيدر ـ عمه المحتمل ـ غير موجود داخل الجامع. لا يمكن أن يكون غادر المسجد للصلاة في جامع آخر. الوقت متأخر. ثم انه ينتظر ضيوفا وخطابا. لم يجد تبريرا لغيابه. أصابه الذعر من فكرة أن يغادر البلاد ويتركهم يصلون إلى باب مغلق لا يفتح أمامهم فيعودون منكسرين يستعدون لمعركة يدافعون خلالها عن شرفهم المهان. ما هذه الورطة التي يوشك أن يوقع نفسه فيها دون أن يدفعه إليها أحد. لم يعد يسمع شيئا مما يقول الخطيب. يستعجله في

سره وينظر إليه يستحثه ويتوسله أن أن ينتهي بسرعة. تتردد نظراته بين وجه الخطيب وساعة الصليب على معصمه وقد اعترته حالة هياج عصبي. وعند إقامة الصلاة قفز واقفا قبل الجميع كأنه يستعد لصد هجوم مباغت. صلى دون أن يصلي. القلق يأكل أحشاءه. والشعور بالغنيق يضغط على صدره بقسوة. وما أن انتهى الإمام حتى أسرع خارجا كأنما شب حريق في الجامع. وقع نظره على الحاج حيدر في الصف الأول من المصلين في الصرح. توقف فجأة. أخذ نفسا عميقا. كاد أن ينفجر ضاحكا من تسرعه وهلعه. لم يعتد على هذه التصرفات المتسرعة. تكاد زهرة منذ لحظات التفكير بها أن تجرجره إلى وضع لا يحسد عليه ولا يدري أية نهاية ينتهي إليها.

أسرع الحاج حيدر عائدا إلى بيته دون أن يصلي ركعتي السنة كعادته. ابتسم أحمد لفكرة حالمة بأنه سبقهم ليستعد لاستقبالهم.. كل شيء على ما يرام، إذا. لا داعي للقلق. انتظر خاله بانزعاج من بطئه وتساهله. يريد منه أن يكون أنشط من كل يوم. يتصرف بصورة لا حراك فيها ولا نشاط وكأن الكون سيخر ساجدا عند قدميه دون عناء ودون أن يبذل هو أي جهد للإسراع في سيره ولو قليلا. كان المصلون يصافحونه مبتسمين. خيل إليه انهم يهنئونه قبل الأوان. فلينتظروا إلى الغد، بعد أن يكون قد أعلن خطبته رسميا. من ترى أخبرهم بنيته؟ بدا له أن ليس أمور القرية وحدها معروضة في طرقات شارع الصحافة الضيق فقط، بل وأمور قلبه التي لم يبح بها بعد. لا يهم. لا بد مما ليس منه بد.

لكن الحاج حيدر عكر مزاجهم منذ البداية بأن قابلهم حال وصولهم إلى بيته بجفاء على غير عادة الناس عندما يأتي أحد إليهم. وجهه منعقد، تنذر التلافيف المرسومة فوق حاجبيه بشؤم يفصح عن نفسه قبل الأوان. وجه أحمد سهام نظره المتوعدة نحو عينيه بحيث لا يترك له فرصة للتهرب وافتعال مشاكسة صامتة ليس وقتها الآن، إلا أنه تهرب منها بتحد متشاغلا بالحديث مع الحضور. (طبعه غليظ. محرج. لأول مرة يزوج إحدى بناته. لا يهم. زهرة تستحق كل هذا العناء. وغدا يصبح أمام أمر

واقع لا بد له من بذل جهد للتكيف معه وقبوله) ـ فكرة عبرت خاطر أحمد وقللت من همومه. على كل حال لم يكن أمامه من وسيلة لتحمل الجو الثقيل الذي يخيم على المكان سواها. سأل نفسه: ترى هل كل خطبة يخيم عليها الوجوم والكآبة كما يحدث الآن؟ لم يحضر من قبل مناسبة من هذا النوع حتى يستطيع المقارنة. ومع ذلك بدا تدشين علاقة زواج ينتقل فيها شخص من بيت إلى آخر، ومن أسرة إلى أسرة أخرى، وترتبط من خلاله أسرتان برباط جديد لم تستعدا له من قبل أمر غريب وإقحام أشخاص في علاقة لا يحتاجونها. ربما كان خطف أحد الزوجين للآخر من بين أهله والعيش معه أيسر على الجميع. يأخذ الشخص الذي يرغب في العيش معه ويجنب الآخرين الإحراج والتنازلات المشتركة. ماذا مثلا لو لم يستطيعوا تقبل بعضهم بعضا أو كان أحد أفراد الأسرتين ثقيل ظل، أو طفيليا، أو بلا أدب، أو متغطرسا، أو فجا عنيفا محبا للتسلط على الآخرين؟ لماذا تحمل كل هذه التضحيات ما دام الخطف يستطيع حل كل هذه المعضلات بضربة واحدة؟ جرب الابتعاد عن هذه الأوهام بمحاولة تليين الجو بممازحة بعض الحضور. الحاج لا يتجاوب وخاله يسايره. ربما كانت الأصول تقضي بالظهور بمظهر جاد في مثل هذه المناسبة. لم يسمع بهذا من قبل. ينتابه القلق من آونة لأخرى. يطرد الأفكار المزعجة من خاطره ويتشاغل بتقليب فكرة الاختطاف مطورا إياها بعض الشيء. مثل أن يختطف الحاج حيدر ويذهب به بعيدا حتى ينتهي الزواج ثم يعيده بجلالا مكرما إلى بيته وأرضه. فكرة يستطيع بتقليبها على كل الوجوه التهام بعض لحظات من وقت ثقيل يطول أكثر مما يجب. حاول تناسي الأمر مؤقتا حتى تعلن النتيجة. لا يستطيع سوى الإنتظار. والوقت يطول ويطول. انتابه ضيق لا يقاوم. سرح بصره من النافذة نحو المدرجات الضيقة التي تحدد سفح الجبل كما لو كان يراها لأول مرة متشاغلا بها دون جدوى. يكرر النظر إلى ساعته في انتظار ساعة الصفر التي يحددها خاله في لحظة مناسبة. بدا له أن خاله بالغ في تأخير الإفصاح عن هدف

هذه الزيارة المهيبة التي يخيم عليها جو حزين كئيب شبيه بمأتم. لم يفعل شيئا يستعجله. ترك له حرية تقدير اللحظة المناسبة. يجب أن يكون مستعدا. لا داعي لدفعه للحديث في لحظة لا يكون مستعدا فيها. ود لو يصرخ بأعلى صوته منفسا عن كربه الأليم. أن يشتبك بهم واحدا واحدا حتى يفرغ شحنة القلق والانفعال العصبي التي تكاد تعصف به وتخمد أنفاسه. سرح خياله في كل فكرة وكل أمر يبعده عما يحس به من وحشة ووحدة قاتلة في وسط الجمع. حديث واه يأتيه عن بعد كأنه أصوات أموات يستصرخون من القبور. يسمعها دون أي يعي حقيقتها. أنصت بإمعان لتبين ما تقول، فإذا به يسمع خاله يقول منفعلا:

ـ لم يبق ما يستدعي بقاءنا.

ونهض من فوره واقفا بلا مقدمات.

ـ ما يزال الوقت مبكرا.

ـ وقت صلاة المغرب يوشك أن يدهمنا. ينبغي أن نلحق الجماعة في المسجد.

كان أحمد يسمع ما يدور كأنه يشاهد مسرحية مملة استولى عليه النعاس حتى فاتته بعض مشاهدها. كأنه متفرج وليس أحد أبطال المسرحية. وجد نفسه ينهض مذهولا بعد خاله دون أن يصافح الحضور مودعا أو حتى يقول لهم كلمة وداع. يريد أن يعرف ما إذا كان خاله قد تحدث في أمر زهرة أم لا. كان الحضور مندهشين مثله.

أحس أن الغرض من تصرف الحاج حيدر بهذه الطريقة الوقحة إهانته أمام الجميع. صارح خاله بإحساسه. كان خاله أكثر منه حسما.

ـ ليس لتصرفه هذا أي معنى آخر. لن أدع هذه الإهانة تمر دون رد.

ـ اترك لي هذا الرد يا خال.

ـ ...

بدأ هدوءه يتحول إلى عاصفة لا يستقر لها قرار. (لماذا يصر هذا الإصرار الغريب على رفضي؟ يا له من وغد حقير. لم يوافق حتى على

الحديث في الموضوع. لم يكلف نفسه عناء أن يسألها كعادته مع الخطاب قبلي. ربما كانت صارحته بأنها ترغب في الزواج مني. ربما قللت من غطرسته الغبية. من يظن نفسه؟ سلطان زمانه؟ ملك العرب والعجم؟ جلف. فج. قرد. كلب بن كلب. كيف جاءت منه هذه الزهرة الجميلة؟ ﴿ يخرج الحي من الميت ﴾. وردة نابتة في وسط الشوك. قبوة كاذي محاطة بالأشواك). كان يهذي و يكيل الشتائم للحاج وأعصابه تغلي بثورة لا تهدأ.

أغلق وكره المنشور في الهواء الطلق واعتكف في بيته وحيدا لا يخرج لأي سبب، حائرا، يكوي ضلوعه جرح غائر في تلافيف أحاسيسه. لا يدري ماذا يفعل. يشعر أن الإهانة التي وجهت إليه لا تبرأ إلا بعمل كبير يحولها من إهانة إلى مفخرة. ماذا يفعل؟ كلما تذكر زهرة أصابته بالخور والتراجع وفرضت عليه أن لا يتهور فيخسرها إلى الأبد. بينها وبين إحساسه اللغين بالإهانة التي لحقت به صراع لا يهدأ ولا يستقر على قرار. لكن تعلقه بها يزداد ويزداد حتى أصبح الزواج بها تحديا. يريد أن يقنع نفسه بأنه رجل التحديات. صحيح أنه عنيد ومغامر إلى درجة التهور أحيانا، ولكن الزواج علاقة حسنى وليس غزوا ونهبا وسفك دماء. وهذا مصدر حيرته اللغينة. يقبع في معتكفه يستمع إلى صوت المذياع، ويطل من نافذته العالية ناقلا نظره الغاضب بين الشارع الوحيد وبيتها أملا في أن يراها ولو عن بعد. لكنها تختفي هي الأخرى من الشارع. كان أمامه خياران لا ثالث لهما، إما أن يتخلى عن مشرع الإيقاع بها ويحاول نسيانها، وإما أن يعود إلى وكره علـه يراها أو تراه وقد يجود الزمان بحيلة متقنة تسمح بالوصول إلى حل لهذه الورطة التي ورط نفسها بدخولها. كانت فكرة دراسة خيارات مختلفة حيلة ساذجة يقنع بها نفسه للعودة لانتظار أن تمر من أمامه ولو مرور عابر. أقنع نفسه بأنها قد تمر يوما ما. سيعرف أخبارها وسيسمع ما يقوله الناس عن رفض أبيها له، إلى غير ذلك من الحجج التي يسردها على نفسه ليوطد عزمه الثابت إلى العودة للتربص بها حتى ولو كان دون أي هدف ودون أي أمل في النجاح.

يشتبك كل يوم عدة مرات مع من يمازحونه في موضوع إخفاق خطبته. لا يدرون لماذا يأخذ الموضوع بهذا القدر من الحساسية. الكثير مروا من هذا الطريق وعادوا خائبين لكنهم أخذوا الأمور بروح رياضية وقبلوا الأمر الواقع ليحاولوا مع أخريات وينجحوا أو يفشلوا. لم ينفعلوا كما ينفعل، ولم يشتبكوا مع من مازحهم في هذا الأمر. النجاح والفشل متوقع في كل خطوة يخطونها وفي مسائل أكبر وأهم. والفشل يلازمهم منذ الولادة وحتى الممات. وأحيانا يفشلون في الممات أو ينساهم الموت فيظنون أنهم جنس معمر من البشر، ولا يدركون أنهم يعيشون العمر نفسه تقريبا، عاشوا طويلا أم ماتوا قبل أن يولدوا. توقعوا أن ينساها بسرعة كما نسوها من قبله، وكما نسوا من جئن قبلها ومن سيأتين بعدها. توقعوا أن يقدم على الزواج بأخرى بسرعة تفوق سرعة تحولهم عنها إلى غيرها، أو أن يستولي عليه اليأس كما يئسوا. أما هو فقد كانت عاصفته الداخلية تزداد هياجا. أعد نفسه لأن تنقطع عن رؤيته لوقت طويل. وأن يضطر على الأقل لارتكاب جريمة تلفت نظرها وتنفس عن كربه الذي يفتك به في صمت. قرر أن يكمن في هذا الوكر الواقع في منتصف الشارع الذي يضيق ويضيق حتى يكاد ينسد إلى الأبد. لن يبرحه لأنه لن يجد غيره مكانا مناسبا لرؤيتها أو لارتكاب حماقة كبيرة تدلها على صدق مشاعره نحوها واستعداده لفعل أي شيء للتعبير عن تلك المشاعر. سيحاصرها من كل الجهات بحيث لا يترك لها منفذاً تمر منه سوى وكره العتيد المنشور في الهواء الطلق. سيواظب الليل والنهار وسننتظر حتى تنهد الجدران من حوله وتحول القرية أبوابها نحو الغرب بدلا من انتظار الشمس كل صباح. وفي هذه الحالة سيفاجئها بنقل الشارع كله إلى الغرب لتنفتح نحوه الأبواب والنوافذ والأوكار. لن يستمع لنصائحهم له بالتعقل وشق حياته بهدوء وخنوع. من أين يأتيه الهدوء والحاج حيدر يقفل الشارع الوحيد الضيق، والقلعة تغلقه أيضا، وكل الطرق تمر منه لتعود إليه، حتى وإن عبر المسجد الجامع والمقبرة وقبة الولي ومجالس الفقيه القطب. لن ولن يهدأ.

سيثهم خلجات حنون تكسو عظامهم لحما طريا، ووجوههم بابتسامات فقدوها منذ عصر الطوفان. استعد لأي احتمال. من أجل زهرة تهون الصعاب.

أذهله أنها أسرعت في المجيء إلى وكره في أول يوم عاد إليه كأنما كانت هي الأخرى تنتظره تتربص به في وكرها أيضا. بادرت بالإبتسام في وجهه معاودة الحديث معه بلغة العيون البليغة. كان فيما مضى هو الذي يبادر بجرأة تشجعها على المغامرة وعدم الخوف او التردد. أسرع إلى مغازلتها بكلمات حب رقيقة يقولها في وله وخشوع. اعترته جرأة مبالغة في الحديث معها ومصارحتها بكل شيء. لم يعد يقنع بلغة العيون في الحديث معها. أصبح يخاطبها بكل الحواس والمشاعر. لم يعد لديه ما يخسر. يريد أن يفجر السجن الذي يحاصره من الداخل والخارج وأن يحيطها بحدائق وعود الحرية الوارفة. أمطرها بشآبيب حب لم تسمع بها ولم يكتشف خباياها من قبل. تنظر إليه بحنان ورقة وعيونها على الطريق خوفا من مجيء من يتطفل على هذه اللحظات الجميلة المغتصبة من أنياب البشاعة. لاحظ أنها تذوب شغفا ولها وبرق الإبتسامة يحثه على المزيد. أصبحت تغامر بالمرور بوكره للإستماع إلى ألحان الشوق ومزامير الفرح تنطلق من حناياه حتى دون أن ينطق بكلمة. وأخيرا سألها:

- لماذا رفضني؟
- لا أدري
- وأنت ما رأيك؟
- لم يسألني رأيي
- ولو كان سألك، ماذا سيكون جوابك؟
- ... (ابتسامة ودودة)
- وإذا قلت لك إنني لن اتزوج سواك؟
- إنشاء الله.

ـ منذ أن رفض أبوك زواجنا وأنا لا أفكر إلا بطريقة للفوز بك..
ـ وهل اهتديت إلى طريقة؟
ـ نهرب معا.
ـ هذا جنون.
ـ لا يوجد طريق آخر غير هذا؟
ـ نتعاهد.
ـ نتعاهد؟
ـ نعم.

أخذت إبرة وغرزتها في باطن إبهامها حتى خرجت قطرة دم. فعل مثلما فعلت. أمسكت بيده لأول مره. سرى خدر لذيذ في أنحاء جسده. التقى الدم بالدم. قالت وكفها تمسك بكفه في ارتعاش:

ـ هكذا سأكون لك وتكون لي.

بدا على وجهها الجميل اطمئنان اسطوري إلى صدق هذا العهد الوثني الغريب الذي يربط العشاق. لأول مرة يعرف هذا النوع من العهود العملية. ثقافته الدينية تجعله أكثر ثقة بعهود الكلام. شيء من الشك يداخله في ثبات هذا العهد أمام الزمن.

غضب خاله بدأ يهدأ بسرعة أشعرته بخيانته له. لم يعد يهتم بتأديب الحاج حيدر، ولا بتأديب أحد. الحل في نظره أبسط من أن يحتاج إلى إثارة شجار أو نزاع أيا كان وأحمد يتمنى أن تحدث المعجزة وأن يتصالح من جديد مع هذا الحاج اللعين ليصل إلى زهره. مستعد لنسيان الماضي وفتح صفحة جديدة. كل تهور وانتقام يجعله يخسر زهره إلى الأبد. اكتفى بأنها ما تزال غير متزوجة أو مخطوبة. ويصحو من نومه لينظر من النافذة نحو بيتها كأنما هو حارس مكلف بحراستها والتأكد من سلامتها. تضاءلت بمرور الأيام في مخليته المسافة بين بيتها وبيته، وتساوى حضورها العملي وحضور خيالها في خاطره.



-٢-

لا يريد أن يستيقظ. النـوم مـوت مخفـف. والموت في هـذا السـجن الموحش أيسر من الحياة. لماذا يستيقظ؟ لا شيء ينتظره. الآتـي أقبـح مـن الماضي. يتناوم دون أن يجرؤ على فتح عينيه، أو التحدث مع صاحبـه. لا يريد أن يكون سببا في مواجهة صاحبه لقبح السجن. لا يريـد أن يسـمع صوت السجان المزعج ولا أن يرى صورته القميئة. تمنى أحمد أن يرقـد حتى النهاية، أية نهاية كانت. نهاية السجن أو نهايـة الحيـاة. فجـأة سمـع أصواتا تتردد من بعيد. كأنها صدى يردده الجبل، وتطلقه الهاوية. قرقعـة الباب الخشبي الغليظ توحي بأن أحدا يحاول فتحـة. لم يفتـح عينيـه. ظـل متكورا على نفسه. تبدو الأصوات وكأنهـا قادمـة مـن مكـان قصـي. لا يريد أن يزعجه أحد. لا يريد أن يكلم أحدا حتى لـو كـان عمـر. انفتـح الباب. أحس بنور يملأ المكان دون أن يفتح عينيه. أشباح تتحـرك نحوه. يحسهم دون أن يراهم. أصوات غريبة تتردد في مسمعه أقرب إلى الهمس. انغلق الباب ثانية. بسـرعة لم يكـن يتوقعهـا. حـاول مواصلـة تجـاهل مـا حدث. حاول أن ينام من جديد. الفضول ينخر رأسـه. يريـد أن يعـرف سر ما حدث. ندم لأنه لم يحاول أن يختلس النظر لمعرفة مـا حـدث. فتـح عينيه على إتساعهما. أحس بألم ممض يمنعه من النظر. انتظـر قليـلا حتـى هدأ. حاول الوقوف. منعه الألم من الوقوف. زحف زحفـا نحـو البـاب.

وجد كسرتا خبز وإناء من فخار فيه ماء. زحف ثانية نحو صاحبه. هزه برفق يحاول معرفة حاله بعد تلك الليلة الليلاء. أما يزال على قيد الحياة؟ نهض عمر بسرعة. تطلع فيما حوله دون أن ينطق بكلمة. نهض متحاملا على قدميه المتورمتين وتناول كسرة الخبز وأسرع بالتهامها لكبح جماح غول الجوع الذي يسكنه منذ اشتداد الحصار والأسر. تنبه أحمد إلى أنه لم يذق شيئا منذ منتصف نهار أمس. بعد أن التهم عمر كسرته التي لا تسد رمق، وشرب من رأس إناء الماء حتى ارتوى، نادى أحمد بصوت لا يدل على أنه يحتضر أو حتى أنه مريض. صوته المعتاد المرح. فرح أحمد لأنه حي يرزق، وأن حياته ليست في خطر كما كان يتصور. اندهش لطاقة جسده على الإنتقال بين طرفي الحياة بسرعة مذهلة. بين المرح وذروة النشاط من جهة، وحشرجة الموت من جهة أخرى في دقائق. أحمد متيقن أنه لا يمثل ولا يفتعل المواقف. ألمه حقيقي. ومعاناته لا توصف. والعذاب الذي تعرض له منذ الأسر غير معقول. مشى عدة أيام بقدمين عاريتين غير متعودتين على السفر في رحلة إجبارية، على طرقات غير موجودة، طرقات افتراضية في جبال وعرة. تقرحت قدماه ونزف الدم منهما حتى أشرف على الهلاك. لديه طاقة تحمل واستعادة للنشاط غير عادية. إنه بركان صغير من الحيوية والنشاط. وأحيانا يسقط جثة توشك أن تهمد إلى الأبد. لا يجزع في حالة المرض، ولا يحفل كثيرا بلحظات الفرح. يدب صاخبا ويصمت ويغيب في لحظات الضيق. لا يبالي كثيرا بالصعوبات. يتعامل معها بلا تعقيد ولا تفكير عميق. كأنها أمور عادية. سأله أحمد:

- كيف أنت ياصاحبي؟ أأنت بخير؟

رد باسما بكلمات أغنية يحبها:

- صباح الخير من بدري أمانة شلها ياطير

- هل تتألم؟

- لا تقلق. سننتصر عليهم قريبا. لا تقلق.
- والمعنويات يا عنتر زمانك؟
- لا أحسن منها. لا يهم.
- يدهشني تفاؤلك حتى ونحن في قعر الهاوية.
- نفذنا من أشداق الموت بأعجوبة.

بدأ أحمد لأول مرة يتطلع فيما حوله في غرفة السجن الضيقة. زحف من مكان إلى آخر محاولا تحريك جسده الذي يوشك أن يتخشب من البقاء في مكانه منذ وصوله آخر نهار أمس. كل عضلة في جسده تصرخ بألم ممض. لا يطيق البقاء في مكانه. وقرص القمل يرغمه على الحك شبه المتواصل. تباعد القرص في النهار ولكنه ما يزال مزعجا وموءلما. فتح الشاقوصين. تسلل شيء النور إلى الداخل. أنس بهذا النور كأنه أمه أو أبوه. اقترب من أحدهما. تنسم نسمات من هواء رطب منعش. لاح له أن يقيس أطوال غرفة السجن لقضاء الوقت بأي شيء. زحف يبطء يقيسها بذراعه. الطول أربع مذارع ونصف والعرض أقل من أربع مذارع. عاد وقاسها بالأشبار دون أن ينهض. يزحف زحفا كالدود والحشرات. بماذا يمكنه أن يتعالى عليها؟ ظرفه يجعله أحط من حشرة. أقل حرية منها. أقل قدرة على الحركة. يريد أن يفعل شيئا يزيل عنه بعض ما يعتريه من شعور بالكآبة والإختناق. أن ينشغل بأي شيء. تقاوى على نفسه ونهض. يحاول قياس الإرتفاع. طوله لا يساعده على الوصول إلى السقف. طلب من عمر أن يساعده. نهض عمر في مرح ظاهر. السقف أعلى من رأسه بشبر. بدأ دماغ أحمد يعود للعمل. عاد يغلي كالمرجل. يفكر في مخرج ما. لم ير سجانيه الجدد. يريد أن يهتدي إلى طريقة مناسبة للتعامل معهم. للإحتكاك بهم أو لتجنبهم. ربما اهتدى إلى سبيل للخروج من هذا القبر الضائع في أقصى الأرض. من يدري. ربما عاد وصاحبه إلى الحياة بفضل معجزة ما لا يدري كنهها. قال لعمر:

- أريد أن أعرف نحن في قبضة أي نوع من السجانين.

- أحفاد قرود بالتأكيد. لا أريد أن أراهم حتى آخر لحظة في حياتي. أريد الآن أن أنام. لا أريد أن يزعجني أحد حتى أنت. أرجوك أن تصمت.

عاد عمر إلى النوم بسهولة عجيبة. غير مكترث بأي شيء. لا بقرصات القمل ولا بعواء ذئب الجوع في أمعائه. علا شخيره وتجاوز حد الإزعاج. صار ضوضاء لا تطاق. أحس أحمد في البداية بالوحشة من جديد لأن يجد نفسه وحيدا. عاد إليه خوف الطفولة من البقاء وحيدا. سد أذنيه دون جدوى. تقلب من مكان إلى آخر داخل غرفة السجن لشغل نفسه عن سماع هذا الشخير المدوي في أذنيه. لا يريد أن يوقظ صاحبه فيكون سببا في شقائه. لا يريد أن يحرمه من لحظات يتمتع فيها بسعادة الغياب من هذا الشقاء. راقت له لعبة التقلب من مكان إلى آخر. خففت عنه سماع الشخير المزعج، وخففت من غليان ذهنه بحثا عن حل معدوم. يقترب من الشاقوص ما بين آونة وأخرى ليأنس برؤية الجبل البعيد، وتنسم بعض الهواء العليل. رأى رأس أفعى يطل من الخارج. تبحث بلسانها عن منفذ إلى الداخل. صرخ صرخة الموت وقد تملكه رعب لا يحد. أسرع بإغلاق الشاقوص لمنعها من التسلل إلى الداخل. أسرع إلى الشاقوص الآخر وأغلقه وهو يرتعد من الخوف. لا يدري لماذا يخاف أحيانا الحيات والحنشان لدرجة تفقده القدرة على التفكير والحركة مع أنه أحيانا يتعامل معها بشجاعة غير معقولة. تعامل معها كثيرا في قريته وفي المنطقة التي حوصر فيها وخلال هربه إلى عدن، وتجاوز خوف الطفولة منها حين كان خوفه منها لا يوصف ومنظرها يصيبه برعب حقيقي. لا يوجد في هذا السجن ما يصدها به. لا حجارة لرجمها، ولا عصيان لتناولها من بعيد. يجد نفسه أمامها أعزلا من كل سلاح. لاحت في ذهنه فكره زادته رعبا فوق ما به من رعب. أن يكون السجانون أرسلوها لقتله وصاحبه. أو لتعذيبهما. ربما. من يدري. لا بد من مخرج.

البقاء هنا موت مؤكد. كيف. لا منفذ. الطوق هذه المرة محكم. والسلسلة محكمة الإغلاق. الجدران كلها صلبه. والشاقوص لا يسمح حتى لقط صغير بالنفاذ منه. لا يسمح سوى بدخول الدود والحشرات والحيات والحنشان. تمنى أن يعرف المنافذ في الخارج. ماذا في خارج هذا القبر. إلى أين تؤدي الطرقات. لو كان الأمر سهلا في الخارج سيفتح ثغرة في السقف. ماذا فوق السقف. كم من العسكر يحرسونهم. كلما سأل سؤالا تتالت الأسئلة. كلها بلا جواب. السؤال أول الطريق. أحس في داخله برضى وراحة أنسته الكثير من المعاناة. أنسته شخير صاحبه. أنسته أن له صاحبا. انتابه دفء شفيف، وحنين لذيذ.

يحيره تساؤل ملح عن حقيقة مدير المال في القلعة، عبد الكريم بن عبدالرحمن الذي أصبح جارهم بالصدفة، وبالصدفة أيضا أصبح دليلهم إلى السجن والتيه. شخص غريب الأطوار. تصرفاته تثير الضحك والسخرية أحيانا ' والإعجاب أحيانا أخرى، والحيرة في أحيان كثيرة. وأحيانا تثير الخوف بين من يتعاملون معه. في حوالى الأربعين من العمر. وسيم الوجه، بهي المحيا. له قوام أنثوي. طويل أنيق. يهتم على نحو غير معتاد بأناقته وهندامه، ويعتني بتشذيب لحيته وشاربه. إذا ابتسم أشرقت البسمة على صفحة وجهه. وإذا ضحك صدرت عنه ضحكة مرحة لاهية. كل لحظة وله شأن. يجمع في شخصيته شخصيات عدة. في الصباح عندما يذهب إلى العمل في القلعة يميل إلى الغطرسة والانقباض عن الناس والتعالي. يلبس صاية من المخمل الأزرق اللامع الناعم تشبه البالطو يلفها على نحو ضيق حول جسمه بحزام مزركش بخيوط لها لون الذهب في وسطه توزة ذات مقبض ذهبي. وعلى رأسه عمامة مرتبة بعناية مبالغ فيها فوق كوفية خاصة (قاوق). ينزل من مسكنه إلى مقر عمله على بغلة منعمة تتناغم في تبخترها مع هيئته المتغطرسة، بجانبها سائس مفتول العضلات يمشي بجانبها حافيا تبدو عليه الجلافة والانقياد. لا يكلم من يلقى في طريقه من المزارعين.

يمضي مقطب الحواجب، ناظرا إلى البعيد حتى لا تحرجه نظرات عابر تضطره لرد السلام عليه في طريق يكثر العابرون عليها ويزداد فضولهم وحديث بعضهم إلى بعض بمناسبة وبدون مناسبة. لا يجامل أحدا من المزارعين القادمين لدفع الضرائب الجائرة باسم الزكاة. لا يوقع بقلمه العباسي المذهب وبخطه الجميل الأنيق على استلام ما يدفعونه وهو قصاصة عادية تسمى النظير إلا بعد أن يراجع الحساب ويعد النقود الفضية المدفوعة بتأن ولمرات ويتأكد من دفع نصيبه الذي يسميه ((القباضة)) (وقدرها أربع بقش على كل ريال مدفوع، أي عشرة في المائة).

فإذا جاء وقت المقيل انقلب شخصا آخر. يمتنع عن أي حديث في مواضيع عمله. يغير ثيابه بثياب أكثر بساطة ويتجنب المقيل مع أهل القلعة أو الاستجابة لدعواتهم لتناول الغداء متعذرا بأعذار مختلفة. لا يجدون أي تفسير لتفرده من بينهم بالمقيل مع جيرانه المزارعين والإنطلاق معهم ببساطة في الضحك والمزاح والمرح دون أدنى ترفع حتى لكأنه واحد منهم. وأحيانا يتجاوز الأدب إلى الهزل الماجن حين يقص عليهم لدهشتهم أفحش ما في كتب التراث من نكت ماجنة، أو يحكي لهم ما يحفظ من النكت الخليعة حتى يخيل لمن يسمعه انه نشأ في ماخور. يعلق على كل شئ بخفة دم ومرح وسرعة بديهة. جمعته الصدفة المحضة بالحاج عبدا لله عند وصوله للعمل في القلعة، صارا جارين بالصدفة، ومع أن ليس من عادة موظفي القلعة الاحتكاك بجيرانهم من المزارعين فقد بذل جهدا غير عادي للتعرف على الحاج عبدا لله والمقيل معه. كان في البداية إذا حضر مقيل الحاج، أحس وجيرانه بشيء من الإنقباض والنفور من حضور أحد أهل القلعة بينهم لينكد عليهم حياتهم التي جعلتها القلعة جحيما لا يطاق. والد احمد مزارع متوسط الحال. حصل على قدر يسير من تعلم القراءة والكتابة. وسمحت له بمجالسة الفقهاء وحضور مجالس الذكر الصوفية أحيانا باكتساب قدر لا بأس به من الثقافة الدينية. لكنه،

مثل أغلب المزارعين، متسامح خلوق وفي. أكثر ما يضايقه من تصرفات مدير المال انه يبالغ في الهزل الماجن حتى إذا كان في عمله انقلب شخصا آخر لا يجامل أحدا ممن يكون في مقيل اليوم المنصرم قد ضحك معهم وتبذل حتى لكأنه يشترك معهم في عصابة بلاطجة. وبالعكس، إذا وجد في المقيل أديبا أو عالما انقلب حجة في اللغة والأدب والفقه والحديث والتاريخ والجغرافيا والسياسة، حفاظة للشعر لا يضاهى.

ومع الأيام زادت الألفة بينه وبين الحاج عبدالله الذي وجد نفسه يرتاح لوجوده بينهم فأحس نحوه بواجب الوفاء للجوار والصحبه، ولذلك كلف الحاج نفسه بواجب الدفاع عنه عندما يسمع ما تشيع عنه القلعة من أنه يشرب الخمر أو انه لوطي مأبون. يسأل من يقول ذلك:

- وهل رأيت ذلك بعينيك؟

- لا

- ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا﴾...

- قال ﴿إن جاءكم فاسق بنبأ﴾، ولم يقل إن جاءكم أي شخص...

وعلى الرغم من دفاع الحاج المستميت عنه ظل الناس يحكون عنه الحكايات ويشيعون انه لا يتردد حتى عن شرب السبرت، وانه يستقدم الشراب المستورد من الميناء أو البلدي المصنوع محليا من صنعاء، هو وبعض الموظفين الآخرين عبر شبكة تهريب غاية في السرية تكلف الكثير من النقود. ويحكون ان خادمه الأعور الذي يدعون أن علاقة مريبة تربطه بسيده هو رجل هذه المهمة الصعبة. يذهب إلى السوق ليلتقي بمهربي الخمر ويأتي بنصيب سيده وأصحابه في سرية تامة. ويشيعون عنه أيضا أنه يسخر من سحنة أمير المؤمنين القميئة، ومن لحيته الكثة، ومن حركاته الغريبة، وعنفه الوحشي، ويقلد في تهكم صوته الأجش، وفصاحته المتقعرة. ويضيفون أن خيال المدير يشطح لدرجة ادعاء أنه أكفأ من أمير المومنين وأطول وأوسم وآنق وأعلم... إشاعات كثيرة متناقضة تتردد

بتواتر، لكن الحاج باتزانه وحكمته ينفي كل هذا، ويقول ان المدير متقلب المزاج، غريب الأطوار، إلا أنه عالم وشهم، لا يتردد عن المقيل مع المزارعين والحديث معهم بتواضع، ويتبادل معهم النكت والطرائف وإن تجاوز الأدب أحيانا. ويستشهد على صلاحه بأنه إذا ذهب إلى الجامع يوم الجمعة او حين يصلي المغرب مؤخرا والعشاء حاضرا كل يوم يتقلب إنسانا خاشعا يطيل الركوع والسجود، ويكثر من النوافل والاستغفار، وأحيانا يبكي من الخشوع، وأنه بعد أن يفرغ من صلاة العشاء ينعزل مع أهله في الطابق الأعلى من البيت لا يخرج منه لأي سبب كان، ويترك للدويدار مهمة التوصيل بين الطابق الأعلى حيث ينعزل والطابق الأسفل حيث يقيم الخادم والوراد وسائس البغلة، وبالتالي لا يعلم سره وباطنه إلا الله وحده. كان الحاج عبدالله المدافع الوحيد عنه لأن لا أحد يدافع عن أهل القلعة. كلهم مختلسون نهابون يخافهم المزارعون ويتجنبونهم بكل السبل. والحاج يرد على منتقديه بالقول:

- أنا أحمل الناس على السلامة. احكم على ظاهرهم وعلم باطنهم عند ربي. والرجل متزوج وله خمسة أطفال. لم يعد مراهقا طائشا. ولو كان كما يقال عنه لكان مكانه الطبيعي في قلعة الشرور والآثام.

الخادم يبلغ سيده دفاع الحاج عنه ودعوة منتقديه إلى الكف عن الغيبة والنميمة فيزداد احترامه له، ويتعجب من دفاعه عنه دون طمع في شيء. وهكذا توطدت العلاقة بين هذا الحاج والمدير. وعلى غير عادة العلاقات بين المزارعين وأهل القلعة أصبح لا يستطيب المقيل إلا لديه ويستعين بهذه العلاقة على ما يحس به من عزلة ومن حسد أهل القلعة له وعلى ما بينه وبينهم من نفور.

وصدفة، في يوم خميس مشرق الشمس، والسماء صافية، والقرية جاثمة كعادتها على خد الجبل الجريح، خرج طابور من العسكر المدججين بالسلاح من باب القلعة الجنوبي يسرعون في سيرهم. لا يبدو

أنهم خارجون في الدورة المعتادة التي يخرجها أمير القلعة كل يوم لتحريك العضلات المسترخية استعدادا للغداء والمقيل. كل من شاهدهم من المزارعين في القرى المتزاحمة على منكب الجبل ردد (اللهم حوالينا ولا علينا). خروج عسكري من القلعة إلى بيت مزارع مصيبة. فكيف إذا خرج هذا العدد الكبير. أحمد يتابع مع أقرانه من المراهقين حركة سير العسكر. كلما مروا بجانب بيت دون أن يتوقفوا عنده أحس اصحابه بأنهم ناجون من الخطر. لعلهم ذاهبون إلى بيت الأمين. لم يسلكوا الطريق المؤدية إلى بيت الأمين. لعلهم ذاهبون إلى مكان بعيد. خرج السكان إلى سقوف منازلهم، أو استقاموا في المدرجات التي يعملون فيها يتابعون حركة العسكر خطوة خطوة، في حين انشغل أحمد باللعب مع أقرانه دون اكتراث. وفجأة، رأى ثلة من العسكر يقتادون معهم مدير المال. الذي بدا وجهه مكفهر، وشفتاه جافتان كأنه لم يشرب قطرة ماء منذ أيام، زائغ النظرات، خائر القوى. تبعهم أحمد مندهشا من حال صديق والده. أيقن في سره أنهم ضبطوه سكرانا. كانت الإشاعات عنه حقيقية إذا. رثى لحال والده ظانا أن دفاعه عن المدير كان في غير محله. تصور قدر الإحراج والحياء اللذين سيحس بهما أبوه.

اتجه العسكر إلى بيت المدير وأحمد يتفرج بين المتفرجين. خرج الحاج من بيته منفعلا يستطلع الأمر. اقترب من العسكر سائلا:

- ماذا حدث؟

اتجه إليه عسكري وأمسك بيده بقوة كأنه سيهرب. لم يفهم شيئا. التصق به أحمد يستطلع حقيقة الأمر. أطلت النساء من كل بيت والتم الرجال والأطفال واختلط الحابل بالنابل لمشاهدة ما يحدث. لا أحد يعرف أية مصيبة نزلت وبمن. أحدث الأطفال بلعبهم وتنقلهم من مكان إلى آخر حول الجمع ضجة كظيمة يدفعهم فضول غريزي لمعرفة ما يحدث. استعاد الحاج رباطة جاشه وسأل بثبات وهدوء:

ـ ما الأمر؟
احمد يلازم أباه كظله ويدور حوله في حركات سريعة مرتبكة.
رد الشاوش:
ـ أهذا ابنك احمد؟
ـ نعم. ماذا حدث؟ ماذا تريدون؟
أضاف عسكري آخر بابتسامة ماكرة:
ـ ألا تعرف ما حدث؟
وأطلق ضحكة ساخرة أثارت غضب احمد الذي بدأ يسب ويلعن.
أشرف الشاوش على تفتيش بيت المدير الذي جرجروه معهم إلى داخل البيت والحاج وابنه ينتظران كالأسرى في قبضة العسكر في ذهول حتى عاد الشاوش من التفتيش وأخذهما معه نحو القلعة والحشد بشيعهم على الطريق في استغراب. وعند وصولهم إلى القلعة توجه الشاوش إلى أمير القلعة يبلغه أنهم لم يعثروا على شيء فأجاب بلهجة آمرة:
ـ فتشوا بيت شريكه.
قال الحاج عبدا لله في غضب وذهول وهو ينظر إلى المدير:
ـ شريكه في ماذا؟
أشاح المدير بوجهه إلى ناحية أخرى ليتجنب النظر في وجهه زاهدا في أي كلام. تعمد أحمد ملاحقته بنظراته ليعرف منه أي شيء عما يحدث. رآه يقف باستسلام غريب وسط العسكر زائغ النظر، ينظر إلى لا مكان. أيقن أحمد في سره انهم يبحثون عن الخمر. قال في نفسه:
ـ أعوذ با لله. لكن ما علاقة والدي بالموضوع؟
أسرع الشاوش والعسكر باقتياد الحاج عبدا لله وولده وفتشوا البيت غرفة غرفة. سأل أحمد والده في ذهول:
ـ عم يبحثون؟
أجاب الأب بهدوء:
ـ لا أدري.

ـ ربما يبحثون عن الخمر الذي...؟

ـ استغفرا لله العظيم. اسكت. لا تقل هذا أبدا عن المدير.

همَّ أحمد أن يصرخ شاتما المدير والعسكر والقلعة. لم يرد أن يغضب أباه ويزيده ألما وانزعاجا فوق ما هو فيه. أدرك الأب حيرة ابنه وارتباكه. ما يزال صغيرا على هذه المواقف الصعبة. بادر يطمئنه قائلا:

ـ لا تخف يا بني. مسألة بسيطة ستنتهي بسرعة. لا تقلق. تجلد. كن رجلا. لا أريد ان تكون ضعيفا أمام مصاعب الحياة. كن أقوى منها.

هم أحمد أن يسأل أباه (وماهي هذه المسألة البسيطة؟ أريد فقط أن أعرف سبب ما نحن فيه؟). لكن الأب فضل الصمت. بدا شارد الذهن يبحث هو الآخر عن سبب لهذا اللغز المحير.

عاد الجميع إلى القلعة وأحمد وأبوه محاطان بعدد من العسكر الذين اقتادوهما إلى السجن وقيدوا رجلي الأب بقيدين من الحديد ومرود (قضيب سميك من الحديد يمنع حركة الرجلين). وبحثوا عن أصغر قيد قيدوا به الابن، في حين عزلوا المدير في غرفة خاصة من القلعة إذ لا يليق ان يسجن أحد أهل القلعة مع المزارعين في سجن واحد. عرف الحاج اثناء ضرب القيود أن سبب سجنهم ادعاء القلعة أن الخزنة الخشبية الكبير الغليظة التي تحفظ فيها موجودات المالية من الريالات الفضية اختفت. وان الكسر الحادث في زجاج المكتب الذي كانت فيه الخزينة المختفية قد تم من الداخل للقول إن السارق فتح الباب بالمفتاح وافتعل الكسر افتعالا. لأن سور القلعة عال ويطل على هاوية يستحيل أن يتسلقها إنسان وينزل بخزنة ضخمة مليئة بكتل ثقيلة من الريالات الفضية. وبعض شظايا الزجاج المكسور وقعت خارج النافذة مما قد يعني أن الكسر من الداخل وليس من الخارج، وأن لا أثر في السور بالقرب من النافذة يدل على تسلق أشخاص يقدرون على حمل الخزانة الخشبية الكبيرة بما فيها من فضة ثقيلة. قرر الأمير دون محاكمة ودون استجواب أو سماع دفاع

المتهمين عن أنفسهم أن مدير المال مسئول عن ضياعها بمساعدة الحاج وابنه، لكنهم حين فتشوا بيت المدير وبيت الحاج لم يجدوا أي أثر للخزنة الضائعة أو للنقود الفضية. عم الفرح أرجاء القلعة وتحول الحدث إلى مهرجان حشد كل من في القلعة من العسكر الذين أرسلوا إلى منازل المزارعين للبقاء فيها يأكلون ويشربون ويمضغون أفخر قات ويستخلصون النقود أجرة اضطهاد هؤلاء المزارعين الأبرياء بعد أن حملتهم القلعة مسئولية ضياع خزنة ضخمة لا يعرف أحد منهم على وجه التحديد ما إذا كانت قد اختفت أم لا.

حين عرف أحمد ان التهمة اختفاء الخزنة الخشبية أيقن انها تهمة باطلة. إنها أضخم وأثقل من أن يقدر عليها أبوه ولو ساعده جميع من في قريته من الرجال. والوصول إليها مستحيل لوجود الحراسات في أبواب القلعة، ولا يقدر على تسلق الهاوية إلى القلعة حتى القرود. وحتى لو اختفت فليس أبوه من يقدم على مثل هذا العمل الذي يحتاج إلى فارس متمرد شجاع. أيقن أنهم سيطلقون أباه حالا. سيعرفون دون عناء انه بريء وسيطلقونه. لم يخطر بباله أنه متهم هو الاخر. لا يوجد سبب لاتهامه هو وهو ليس بصديق للمدير ولا يقيل معهم، ولا يجالسهم ولا يقوى على حمل خزنة بهذا الحجم والوزن. قال لأحد العسكر:

ـ ما ذنبي أنا؟

ـ اسكت. تستحق ان يقصقصوا جسدك قطعا قطعا. لا ذمتي هذي (وأشار إلى عنقه). تسرقوا خزانة أمير المؤمنين؟ وا الله ان أحمد ياجناه سيقطع أعناقكم ويجعلكم تسيرون بلا رقاب ولا رؤوس إلى الأبد. نجمعها بشق الأنفس من أشباح جائعة كي تأكلوها أنتم حالي بارد؟

بدأ أحمد يحس بخطورة الوضع. الأمر ليس كما يقول والده. الموضوع خطير. لا يعلم إلا ا الله المخرج من هذي الورطة. أصيب بالذهول. توقفت حواسه عن النشاط. لم يعد قادرا على التفكير ولا على

السؤال أو الإحتجاج أو فعل أي شيء. التصق بأبيه، طوق النجاة الوحيد في هذا الموقف الصعب. والأب يردد ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون. حسبنا الله ونعم الوكيل. لا حول ولا قوة إلا با لله..﴾.

لم يفرج عنهم كربهم إلا وصول المزارعين زرافات ووحدانا إلى السجن والشاوش يجتهد في دق القيود على أقدامهم حتى نفدت جميع القيود المتوفرة. ولكي يساوي بين الجميع دون تفريق بدأ يفاوض المقيدين كي يدفعوا مقابل فك قيودهم ويوفروا قيودا يدقها على أقدام من لم يقيدوا بعد. لم تتح له فرصة للكسب منذ تولى أمر سجن القلعة مثلما أتيحت الآن. تحول السجن إلى مقيل معقول بوجود هذا العدد الكبير من الأقارب والجيران لا ينغصه إلا التزاحم على الأماكن بعد أن غص السجن بمن فيه. وسرعان ما وصل القات وبدأ الجميع بتناوله بنهم ليتصبروا به على وضعهم الغريب وعلى سجنهم الذي لا يجدون له سببا. يرددون أنه إذا كان المدير قد سجن فلماذا يسجنون هم. وأن الخزنة إذا اختفت فلن يقوم بالاستيلاء عليها جميع السكان وإلا لكانت حقا لهم. لكن من يسمع احتجاجهم ومن يقبل حججهم في قلعة صماء بلا آذان وبلا قلب. و لم تطل حيرتهم. فبعد أن انتهى الشاوش من مفاوضتهم على استلام مقابل دق القيود على أقدامهم ومقابل فك حلقة من حلقاتها لتسهيل حركتهم، ومقابل فكها نهائيا، بدأ بمفاوضتهم مقابل خروجهم من السجن. و لم تمض أيام حتى كان من قدر على دفع النقود قد خرج وكانت القلعة قد ازدهرت فجأة وزادت دخول أهلها بشكل لم يتوقعه أحد.

أحمد وأبوه وحدهما باقيان في السجن دون أن يغامر الشاوش حتى بطرق موضوعهما ولو من باب المزاح. وأحمد ينكمش على نفسه يوما بعد يوم، يزيد من معاناته أنه لا يتناول القات ولا يتسلى به من ضجر حياة السجن حتى ولو كان مع والده. يريد أن يدافع عن نفسه. أن يحتج، أن يشتم، أن يبصق عليهم، أو أن يسألهم. لم يحقق معه أحد. لم

يسأله أحد. اكتفوا بوضعه في السجن هو ووالده وقيدوهما بالقيود الحديدية. من يسمع دفاعه عن نفسه ومن يحاكمه. صدم الناس سجن الحاج دون أن تتاح له فرصة الخروج مثل الآخرين. لكنهم يعرفون أن سجناء القلعة مظلومون. ليس الحاج أولهم ولن يكون آخرهم. السجن للرجال. وأحمد موقن ببراءة أبيه. يمكن أن يشك في كل الناس إلا في أبيه. والحاج عاش حياته كلها ينصف الناس من نفسه ويتسامح في حقه حتى يتجنب القلعة، متفرغا لزراعة أرضه، وتربية ابنه الوحيد الذي يعامله برفق غير معتاد، وبحزم شديد. بعض جيرانه يقولون إنه يد لله لأنه وحيده، وبعضهم يقول إنه يبالغ في تشدده معه. لكنهم يجمعون على أنه لو كان الناس كلهم مثل الحاج في تسامحه وإنصافه لما احتاجوا إلى قلعة ولا إلى عسكر. أما هو فيكتفي بالتعليق على مصيبته بترداد: اشتدي أزمة تنفرجي. والأزمة لا تنفرج. تمر الأيام يوما بعد يوم والأزمة تدخل في نفق مظلم لا يبدو في نهايته مخرج سوى الفراغ والوحشة.

وبعد أن انتهى الشاوش من موضوع المزارعين الذي اقتيدوا إلى السجن حتى يعودوا عليه وعلى القلعة بأرباح مناسبة، بدأ يتفاوض مع الحاج لدفع مبلغ من النقود مقابل تخفيف قيوده التي زادها خصيصا لهذا الغرض، وهو ما أشاع الأمل في أن دور الحاج وابنه في الخروج من السجن قد قرب، قياسا على ما فعلته القلعة مع من سجنوا معهم. لكن الحاج عجز عن دفع أي مبلغ من النقود فرفض الشاوش تخفيف القيود، وظل عاجزا عن الحركة لكثرة قيوده. أما أحمد فقد كان من حسن حظه أن قدمه كانت ما تزال صغيرة تسمح بخروج القيده وإعادته عند المرور أمام العسكر. كان وجود جيرانه وأصحابه معه في السجن يشعره بالأنس والألفة، أما الآن وقد خرجوا فقد أصبح وحيدا مستوحشا رغم وجود مساجين آخرين في قضايا أخرى. لا يدري لماذا لا يحس بالألفة نفسها مع هؤلاء المساجين على لطفهم وبوادر الصداقة والمواساة التي أبدوها

نحوه ونحو ابنه. ربما لأن خروج المسجونين على قضيته يشعره أن حظه أكثر نكدا من غيره، وأن سجنه قد يطول لا يدري إلى متى.

ود لو يعرف حال المدير في هذه اللحظة. ود لو يسأله عن حقيقة لغز اختفاء خزنة بهذا الحجم والوزن دون أن تترك أثرا إن كانت قد اختفت، لكنه يشعر بالقرف من الوضع كله. يقبل على مضغ أغصان القات بنهم في صمت واستسلام علها تقيه مهاوي الانهيار. لا يجد في السجن ما يماثل وفرة القات في كل الأوقات. في الليل والنهار، في المساء وفي الصباح، يكفي أن يطلب من أحد السجناء اسعافه بقدر من تلك الأغصان الخضراء حتى يهب أكثر من سجين بوضع بعض منها بين يديه ولو كان الوقت منتصف الليل أو ساعة السحر. لا يدري كيف يحتفظون بها طرية متلألئة جاهزة للمضغ في أية لحظة. كلما انتهى من مضغ ما بين يديه منها طلب من جديد فتمتد الأيدي بها نحوه بسرعة مذهلة تملأ يديه من جديد. وهكذا يواصل مضغها طوال الليل والنهار دون أن ينام. يفرغ بالضغط من أضراسه على عجينتها الخضراء المتكورة في شدقه بعضا من إحساسه بالقهر والهوان. يواصل الضغط بأضراسه باستمتاع عجيب واسترخاء يسحق كل شعور عدا غيابه هو عن الزمان والمكان. وحتى حين يتوقف ليأكل، إذا أكل، أو ليصلي يخرج عجينتها الخضراء من فمه ليضعها في فنجان ليسرع إلى مواصلة مضغها فور الانتهاء. لا يجد ألذ من الاستسلام لدفء دوامتها طواعية ليتحرر من الحيرة والغثيان اللذين استوليا عليه منذ غادره آخر سجين من جيرانه. لا شيء سواها يساعده على التكيف مع وضعه الغريب وتحويل غثيان هذه الحفرة القذرة إلى مكان أليف. كما أن تحلق المساجين من حوله لتناول القات يلفه بقناع كثيف من الذهول الأليف. هكذا نسي انه سجين، ونسي الروائح النتنة التي تنبعث من أرض السجن ومن أجسام المساجين. نسي السجن والمساجين والشاوش والمدير والقلعة. لا يرى سوى أحمد يشده للخروج من قاع الوهم شدا مستميتا في أتون اليأس. لم يعد يقلق استراحته المستمرة

ويقطع عليه خدر الاستسلام للقدر أي شيء. يستمع لأحاديث المساجين وثرثرتهم في صمت وكأنه غير موجود معهم. وهذ ما ضاعف العبء الذي يتحمله أحمد الذي لا يمضغ القات، فلم يعد يجد لدى والده ما اعتاد أن يجد عنده من سلوى ومن إجابة على كل سؤال ومن تبديد لكل حيرة. ولا يستطيع فوق ذلك تحمل رائحة السجن النتنة، ولا مرارة الاحساس بالقهر، ولا الحرمان من الاستمتاع بأشعة الشمس، وباللعب مع أقرانه في الطرقات. يحس دائما برغبة شديدة إلى استنشاق شيء من الهواء العليل النقي وشرب قليل من ماء الغيول العذب النابع من جوف الصخر. يحس بما هو أكثر من الضجر، وأقسى من السأم. يحس بالوحدة والضياع.

السجن غرفة مستطيلة في المبنى الأكبر في القلعة، ليس له سوى منافذ صغيرة في الجهة الغربية بالقرب من السقف للإنارة. بقية الجهات صماء لا منافذ فيها، وبابه يؤدي إلى ممر ضيق مظلم يوصل إلى غرفتي الشاوش والسجانين وإلى الخارج. في الجهة الجنوبيه منه باب يؤدي إلى حفرة صغيرة مكشوفة، غير عميقة، داخل سور القلعة، لقضاء الحاجة، لها فتحة صغيرة على الهاوية لا تسمح لجميع القاذورات بالخروج. تنبعث منها روائح كريهة تحول السجن إلى جحيم. ولم ينقذ أحمد من جحيم السجن في لحظاته الأولى سوى نوم رحيم غشاه متوسدا قدمي والده القابع في حمى القات الظليل يستره من جحيم مواجهة الناس بتهمة لا قبل له بها. وأحمد يقلب الأفكار تلو الأفكار عله يهتدي إلى سبيل يخرج بها سجنه ويخرج بها أباه من جحيمه الهادىء وصمته الرافض. طنين البعوض يدوي في أذنيه يدوي كقصف راعد، يتشظى رأسه بألف سؤال لا تجد بداية الجواب. وشخير المساجين يعتصره حتى يكاد يسحق جمجمته المبعثرة في زوايا السجن. ينتظر حلول الصبح عله يأتي بجديد ينتشله من جحيم الجسد المنسحق. لكنه حين حل ظل ممتدا في مرقده لا يحرك ساكنا. حينها سمع بعض المساجين ممن كانوا قد استيقظوا باكر أو لم يناموا من أثر القات يتهامسون. يسمع أصواتهم دون أن يراهم.

(صوت١): أتعرف لماذا سجنوا هذا الحاج مع ابنه على صغر سنه؟
(صوت٢): قال العسكر إنهما ساعدا مدير المال في فعلته.
(صوت١): وكيف خرجوا من الحراسات في أبواب القلعة؟
(صوت٢): لا أدري.
(صوت١): حاج شاطر كما يبدو.
(صوت٢): أفدي شاربه. رجل.
(صوت١): مؤكد انه الآن (مريش)، وحالته متيسره.
(صوت٣): أقسم با لله لو أتيحت لي فرصة لأخذت كل ريال أخذوه من الناس بالباطل.
(صوت٢): الذين سجنوه يحسدونه. كل منهم يتمنى أن يكون هو الذي فاز بالخزنة. سجنوا الحاج حسدا.
(صوت٤): لكن يقولون إن المدير هو الذي فاز بالغنيمة.
(صوت٥): صاحبنا رعوي.
(صوت٣): لا يرجع دقيق من مكة.

حزن أحمد لما سمع. همَّ أن يصرخ فيهم. أن يشتمهم. أن يلطم أفواههم. بكى صامتا في مكانه المنحشر بين أبيه والجدار. واصل البكاء بصمت وأبوه يمسح دموعه صامتا ويواصل مضغ أغصان القات في الظلام. أحس بلمسته تنزل على رأسه بردا وسلاما. يشعر دائما بالاطمئنان والأمان له لهذه اللمسة الملائكية من كف والده. قرأ في سره خاشعا ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا. وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما.﴾

كل يوم يمر يكشف له حقيقة المأساة التي فاجأته على حين غرة، وقذفت به الأقدار في وهادها رغما عنه. بريء دون ذنب ولا جريرة. لا يفهم بالضبط حقيقة ما يجري. لم يسأله أحد ولو بمجرد سؤال. لم يجادله أحد. لم تتح له مقابلة مسئول يشرح له ظلامته، ليبصق على وجهه أو

ليسترحمه. يقضي سنوات أواخر طفولته في السجن بين نزلاء أغلبهم مظلوم مثله. يكتشف أن ما كان يظنه بمجرد غلطة عابرة ستنتهي خلال أيام قليلة يتواصل بلا أمل في مخرج أو حل. المتهم الرئيسي، مدير المال، نقل بعد اعتقاله بقليل وانقطعت أخباره، وإن كان يشاع أنه نقل إلى وظيفة أخرى، في مكان آخر لا أحد يحدد بالضبط أين ولا متى. وهذا ما يزيد حيرة أحمد وارتباكه. فإذا كان المتهم الرئيسي قد خرج من السجن أوكوفيء بوظيفة مماثلة لوظيفته السابقه أو أحسن منها، فلماذا يبقى هو وأبوه في السجن؟ خيل له أنه سيبقى فيه إلى الأبد. فقد تغير أمراء القلعة الذين سجنوه أو نقلوا إلى مناطق أخرى وهو قابع في مكانه. لا السجن تغير ولا تغير وضعه ووضع أبيه. كل شيء ثابت، والهلاك متربص في آخر المطاف. يقولون إن أمر إطلاقهما من السجن يجب أن يأتي من أمير المؤمنين، ليس من المؤمنين به وبإمارته. وأمير المؤمنين بعيد بعيد، لا يشغل نفسه بالصغار الضائعين في أقصى جبال الأرض فرارا من عدالته، جبال يسكنها رعية ما وجدوا إلا لإشباع كرشه المنتفخ، والكد حتى آخر رمق في حياتهم لتوفير وسائل الراحة البريئة وغير البريئة لحريمه العانسات، وغلمانه المرد، وعسكره المسعورين المكشرين عن أنياب ملطخة بدماء المعذبين في الأرض، ورجاله الجوف المتهالكين على قدميه ويديه ولحيته الكثة الملونة، يسفون من رائحة ثيابه المتسخة وإبطه المنتن. وليس الأخوان التوأمان المبعوجان، والمتصارعان الآن على تولي القلعة إلا خادميه المخلصين حين يتصارعا فيما بينهما ويتآمر كل منهما على الآخر بتفان ومثابرة بطولية متحدية، لكن وفاءهما له منقوص لأنهما من الجبن والضعف بحيث لا يجرؤان على قتل بعضهما البعض كما يفعل سيدهما الشجاع المقدام حين يذبح إخوته كما يذبح أي شخص آخر، مساويا بينهم كأسنان المشط، دون تفريق بين رعوي بسيط وأخ أمير المؤمنين.



أي ضلال وقلة دين وسخافة أن يطلب من أمير المؤمنين أن يشغل نفسه بمصير مزارع ضائع في سجن قذر في رأس جبل معزول.

تعلم أحمد في السجن أسلوب كتابة الشكاوى والبرقيات حتى أجادها وتفنن فيها في وسط مساجين أميين وأشباه أميين. كتب في البداية شكاوى كثيرة إلى أمراء القلعة باسمه وباسم أبيه. وأرسل برقيات كثيرة إلى أمير المؤمنين الناصر لدين الله رب العالمين، القابع في جنة المورفين البعيدة والغارق في أوحالها السعيدة. لم يتلق أي رد يذكر لكنه تدرب بما فيه الكفاية على ابتكار العبارات، وصياغة الظلامات بأسلوب يجمع ما بين الجدل المنطقي والفقهي والتهكم والسخرية. وأحيانا يدعم حججه بأبيات شعر يحفظها أو بأمثال شعبية أو بحكم عربية مسجوعة أو منظومة. وفي مرة يتيمة رد أمير المؤمنين على إحدى برقياته بإحالتها إلى أمير القلعة المنكوبة بالأخوين التوأمين اللذين يتصارعان على تولي إمارتها العتية المتهاوية. كل منهما قصير سمين مبعوج كخنزير، مناطح كثور أهوج، بليد كخرتيت. ما يكاد أحدهما يصل حتى يلحق به أخوه وقد اشترى أمرا بالحلول محله، ثم يذهب المخلوع لشراء أمر بالحلول محل أخيه الشقيق، وهكذا. يبدأ كل منهما فور وصوله باختلاس أكبر مبلغ لاستعادة مادفعه قيمة الحصول على أمر بإخراج أخيه والحلول محله. لكن أخاه لا يترك له الوقت الكافي لاستعادة المبالغ التي دفعها رشوة. يبادله التحية بمثلها. أصبحا مثار سخرية وتندر بين موظفي القلعة وبين المزارعين. لا أحد يحسدهما في بيئة الحسد وظيفتها الأولى، ولا أحد يحترمهما من الموظفين ومن العسكر وإن كانوا يتملقون القادم ويستفيدون من إسرافه في الإختلاس للحصول على نصيب من الغنيمة. الجميع يخاف شراستهما وغلظتهما ويتجنب الصدق معهما أو مصارحتهما ويستفيد ما استطاع من الدوامة التي يصران على الدوران

فيها حتى يغشاهما الدوار. والجميع ينافقهما ويمتدح فضائلهما التي لا وجود لها. تتكرر عملية شراء الأوامر لحلول كل منهما محل الآخر، ويدور الزمان حول نفسه في عبث لاه، يذهب الأول ويأتي الآخر، ويعود الذاهب ليطرد أخاه وهكذا حتى مل الناس هذا التغيير للأماكن والأدوار في بلاهة، وفقدان أية بوصلة ترشد إلى أي شيء أو إلى أي معنى. تزداد الرشوة ويزداد الجوع، ويزداد فقر الأخوين المبعوجين واستدانتهما لتغطية تكاليف صراع مستميت يثبت اليوم بعد الآخر أنه مغرم لا مغنم. لكن حدة الصراع تزداد وينهش الأخ لحم أخيه قبل أن يموت حتى تقطر مخالبه وأنيابه بالدم الواحد. ويزداد جوع الرعية ومعه يزداد استخفاف القلعة بكل شيء حتى بالأخوين المتناطحين كثورين بلا قرون. الكل يشحذ المدى الملطخة بفقر الدم والملاريا والسعال للإجهاز على قطيع ضال من هياكل بشرية هدها العطش، تشقى لتجوع، وتعيش لتشقى، وتعرق لتروي سدرة الإضطهاد والضياع التي تلتهم ما تبقى من أثر للحياة في عروقهم بلا أمل في الارتواء.

استدان كل من الأخوين المبعوجين مبالغ كبيرة دفعها لتثبيت نفسه واستبعاد أخيه حتى لم يعد الواحد منهما قادرا على الإستدانة. وامتنع الدائنون عن إقراضهما خوفا من أن يعزل أحدهما او كلاهما نهائيا. باعا كل ما يملكان من فضة وحلي نسائية ورجالية وجنابي وبنادق وسيوف وسكاكين وعصيان، واحتفظ كل منهما بجنبية من النوع الرخيص يتمنطق بها بكبرياء فارغ. شارك العسكر في هذا الصراع المرير، يرقصون على كل طبل، ويغنون لكل ليلى ليحصلوا على نصيب من جيفة متاحة لكل كلب كي يعض، ولكل دود كي ينخر. لم يعد أحد يقدر على التفريق بين اسمي الأخوين المتصارعين سوى أن اسم كل منهما يبدأ بعبد... (عبد الرحمن أو عبد الخالق أو عبدالعزيز...).

يرددون ساخرين أو شامتين عبارة (عبده وصل عبده رحل) ينشدونها على لحن محلي يردد عند اضطراب الأمور وعدم خضوعها لأي منطق.

للمرة الثانية رد أمير المؤمنين على إحدى البرقيات النارية التي بعثها أحمد عند وصول أحد التوأمين المبعوجين كطبل أجوف للمرة الثالثة في أقل من سنة ليتولى إمارة المؤمنين في القلعة. كان الرد عاديا وفارغا:

(أمير القلعة. ما معنى هذا؟). اغتاض أحمد لهذا الرد الذي لا يصدر إلا عن محشش، من الحشيش العادي وليس من حشيش الكيف، وربما العكس. من يدري؟ رد لا يسمن ولا يغني من جوع مع أن أحمد شرح له قضيته بتفصيل ممل، وببلاغة لا يقدر عليها حتى سيبويه. لا سبب لهذا الرد غير المبالي حتى ولو كان المورفين الذي أدمن أمير المؤمنين الناصر لدين الله رب العالمين الاستمتاع بفضائله قبل الصلاة وبعدها، وقبل الأكل وبعده، وقبل النوم وبعده، وبعد القات وقبله. أراد الأمير الجديد القديم ان يحزم في قضية وصلت إلى المقام غير الشريف. لا يريد أن يتسرب شيء من أحداث القلعة التي انتزع إمارتها بسحق جمجمة أخيه الشقيق إلى خارجها. لعل القضية كبيرة وإلا لما أضاع أمير المؤمنين وقته الثمين ووقت الجثث المحنطة المحيطة به للرد عليها. ولأن التوأمين المبعوجين كطبل موهوبان بلا نظير في عدم الفهم، فقد أعطى أمير القلعة لرد أمير المورفين أكثر مما يستحق من الأهمية. كان أحمد يدرك ان الرد كتب بقلم مسطول، أو بمجرد تحايل متغطرس، لكنه فرح بهذا الإهتمام الذي أبداه عبده المبعوج. على الأقل سيطرح قضيتهما على بساط البحث من جديد بعد أن نساها الجميع في القلعة ما عدا الشوش الذين يحل أحدهم محل الآخر دون أن يقدم أي منهم على الإفراج عنهما. سيتأكد لعبده أن سجنهما خطأ في خطأ وسيفرج عنهما، لأن نسيانهما بهذه الطريقة يجعلهما يقضيان حياتهما في السجن إلى الأبد.

استدعى عبده المبعوج شاوش الحبس لمعرفة سبب سجنهما. وما ان عرف أن لسجنهما علاقة بالأمور المحرمة في مملكة المورفين حتى تخوف وارتعشت يداه وقدماه من الهلع. ومع أن الشاوش تطوع بشهادة عنه وعمن سبقه من الشوش منذ سيدنا آدم بأن الحاج وابنه مظلومان، وان سلوكهما في السجن لا تشوبه أية شائبة، لأن الشاوش لا يحب المساجين الدائمين الذين لا يستفيد منهم شيئا، ويفضل عليهم مساجين يدخلون ليدفعوا مقابل تخفيف القيود ثم مقابل فكها، ويدفعون مقابل الخروج من السجن ومقابل العودة إليه، ويعرف أن السجين الدائم خسارة دائمة، إذ يصبح لا أمل عنده في الخروج ليدفع، ولا يطالب بتخفيف قيوده فيدفع، ولا يخاف فيدفع، ولا يفرح فيدفع، وبالتالي ما الفائدة من مساجين لا يدفعون شيئا؟ لذلك اقترح الإفراج عن أحمد وأبيه، أو أن تتم المزاوجة بين السجن والإفراج، فيسجنان يوما ويطلقان من السجن في اليوم الذي يليه، وهكذا حتى نهاية حياتهما. لكن عبده المبعوج رفض حتى بمجرد استدعائهما لسماع قصتهما. فهو لا يريد أن يتورط في قضية تمس الخطوط الحمراء في مملكة أمير المؤمنين تستخدم وقودا في طاحونة مملكة الصراع بينه وبين عدوه الشقيق، غلطة أمه وأبيه التي لا تغتفر. فلو فعل لاتهم بالتفريط فيما ينبغي التشديد فيه بحزم. وأحمد يزداد يقينا كل يوم بان السجن قدر لا طاقة له بالهرب منه قيد أنملة، وأن الحياة مأساة هازلة. كان أقصى طموحه أن يكون عالما يهدي الناس إلى صراط يمر على ضفاف حوض مورود وجنة عرضها السماوات والأرض، ويقدمهم أمامه كواكب من نور تسعى نحو حياة أبدية، تعمهم الرحمة الربانية فينطلقون عصافير تزقزق على أغصان خمائل لا عين رأت ولا أذن سمعت. وها هو سجين منسي بلا جريمة سوى جرأة البقاء على قيد الحياة. بدأ هذا اليقين يطبعه بطابع عميق من الإحساس بالحزن والمرارة. اعتاد بمرور الأيام على التعامل مع حياة السجن بشيء من اللامبالاة أو بشيء من التسليم بالسناريو المعد لكي يحتل كل مكانه المخصص له بلا محاولة لتغيير مكانه وبلا اعتراض

أو محاولة المساهمة في تشكيل اللوحة واقتراح بعض ألوانها. لم يعد يفكر في يوم يخرج فيه من السجن. يتصرف وكأنه سيقضي فيه حياته كلها. وحتى أبوه، غرق بمرور الأيام في ذهوله وانصدامه مستعينا برحيق شجرة ملعونة محيرة. نسي حتى ترديد معزوفته التي تلازمه منذ وعى أحمد نفسه (اشتدي أزمة تنفرجي قد آذن ليلك بالبلج). أيقن في قرارة نفسه أن الفرج لن يأتي أبدا، وأن الليل طويل بلا آخر.

الفرج الوحيد الممكن الذي أسلم أحمد نفسه له بلا أدنى ممانعة هو القلم والمداد. هذه الأداة السحرية الصغيرة التي تصنع المستحيل. أمسك بها بوّله وبدأ يرسم بها خطوطا متنوعة غريبة، يكتب للمسجونين ولغيرهم من الشاكين الذين حلت بهم لعنة القلعة. يكتب لهم ما به يتمسكون بالحياة بعناد غير معقول. حول ركنه الكئيب في سجنه الضائع وكرا لصياغة الشكيات والتظلمات، وصياغة الحجج الفقهية التي تثبت الحق وتبطله بجرة من قلمه، مقابل أجر يدفع إما إعجابا بقدرته على التعبير عما يشكون منه بصورة تجعلهم يحسون انه يعرف معاناتهم أكثر منهم، واما تضامنا معه ومع أبيه الحاج المعروف بالاستقامة والورع والحكمة. اكتشف من خلال كتابة الشكاوى ان في الدنيا مظلومين بلا عدد. بدت له الحياة سلسلة طويلة من المظالم لا تنتهي، وأن الناس ظالم ومظلوم بحيث لا تلاقي إلا نادرا إنسانا لا ظالم ولا مظلوم. اختار له القدر ان يكون بين الغالبية المظلومة. لكن السجن رق لحاله وفتح أمامه أبواب الكتابة، وأتاح له لحظات طيران ممتعة في سماء القلعة الكئيب، فاتخذ من وصف الظلم في العرائض التي يكتبها رقية تقيه من مهاوي الانهيار. اكتشف من خلال كتابة الشكايا عالما لا يصدق. عالما من الرشوة والقسوة والنفاق والكذب والمتاجرة بالشريعة وبالعرض، وبكل ما يقول الجميع إنهم ما وجدوا على وجه الحياة إلا لحراسته وإن كانوا لا يعرفونه قط. الشيء الوحيد الذي يعرفه علم اليقين هو أن من يدفع

يربح. يكبر داخل السجن ويشيخ قبل أن أن يبلغ العشرين من العمر، وتهتز أحاسيسه، وتنسحق مشاعره، تختزن ذاكرته الغضة قصصا يسمعها كل يوم من المساجين ومن غيرهم من القادمين إلى القلعة. بدا له السجن الضيق عالما مزدحما بالقصص الغريبة. وأغرب ما فيه ان الناس يضيقون به عند الدخول، لكن اجسادهم ونفسياتهم تتكيف على حياته وصعوباتها بسرعة مذهلة لا يتوقعها أحد. وبعد أن وطد قدميه في هذه المعمعة التي كان يتهيبها بقوة، قرر أن يقتحم ميدانا أصعب لا يقدم عليه الا العارفون بقواعد الفقه ومن لهم باع في أعمال القضاء والمرافعة أمام القضاء. بدأ يحرر مرافعات متقنة إلى محكمة الاستئناف تطلب نقض أحكام أصدرتها المحاكم العادية. لعبة صغيرة يتسلى بها داخل سجن الكبار الذي وجد نفسه وهو ما يزال طفلا يلجه فجأة ودون أي مقدمات. حرك القلم على البياض فانداح المداد حججا تلقف ما يأفكون، أكسبته إعجاب الناس، ومنحته شهرة واسعة جعلت المتخاصمين يأتون إليه في سجنه ليكتب لهم ما يدور بخلدهم وما لا يدور. باب من أبواب الهرب اللذيذ من طوق الحصار انفتح أمامه كأنما قلمه قمقم سليمان يتفجر بعفاريت صغيرة لا تقلق صباه، وإنما تلطف شروط حياة السجن من حوله وتجعله أقدر على تبديد الظلمات بجرة من قلمه الساحر، وبيانه الذي يتدرب في السجن على فتل عضلاته الطفولية. مصادفات حسنة تخفف من وطأة الحياة وتجعله يستهين الركود في هذه البؤرة القذرة التي لا مجال فيها للتفريق بين المجرم والبريء، والمعوج والسوي. الكل مساجين، والكل رعية أمير المؤمنين المتحصن بأمان المورفين في غيبوبته البعيدة، ورعية عسكره الذين يحتلون القلعة بشجاعة بطولية دون حاجة إلى إطلاق رصاصة، أو مواجهة أي تمرد أو حتى مظاهرة ودون أن يفتح أحد فمه ولو لمدح بطولاتهم وتضحياتهم نادرة المثال في إذلال الناس ونهبهم.

قصص أغرب من الخيال تتقاطع في السجن. قصص تدخل وقصص تخرج. قصص حزينة وقصص مضحكة. قصص تافهة وقصص مبكية. قصص لها شيء من المعنى وقصص تهرب من أي تحديد أو معنى. وأحمد وحده بذهنه المتوقد يسجل هذه القصص في عرائض تضج بالآهات المكبوتة، وتعبر عن الحاجة لعدالة لا تذبحها جنبية أمير المؤمنين ولا سيفه، ولا تلطم جبينها طبانات بنادق عسكره الميامين. تسجل ذاكرته تلك القصص التي لم يؤلفها مؤلف معروف أو مجهول، أو أن مؤلفها ضاع و لم يعثر عليه بعد، ويقصها أحيانا على من يصادفه من القادمين الجدد إلى هذا المستنقع المحروس باهتمام. يأتون إليه ليكتب شكاواهم فيعرف قبل غيره كل شيء. ما يقال علنا وما لا يقال. ما يبدون وما يخفون. يعرف أنهم لا يقولون كل ما يجول بخاطرهم، إما لأنهم يعجزون عن التعبير عنه، وإما لأنهم لا يريدون أن يقولوا ما قد يؤخذ عليهم ويمنع الإفراج عنهم. حلم السجين ان يخرج من السجن وحلم الشاوش أن يعود إليه في أقرب وقت ممكن. أحمد وحده فقد الأمل في الخروج. ليس له مدع معين يدعي عليه ليصدر الحاكم، أي حاكم، عليه حكما محددا، أيا كان، ينفذه ويخرج من السجن. لم يبق أمامه سوى التكيف مع حياة السجن وأن يطالب بخروج أي سجين غيره حتى يقنع نفسه بأن مغادرة السجن ليست من المستحيلات. أصبح يكسب عيشه ويساعد المساجين المحتاجين من هذه الحرفة التي اكتسبها غصبا عنه في السجن دون سابق تخطيط. يحسده عليها الكثير من المساجين لكنهم لا يستطيعون منافسته عليها لأنهم أميون وأشباه أميين، ولأنهم يخرجون من السجن قبل أن يسمح لهم الوقت كما سمح له بالتدرب عليها.

حوله السجن إنسانا آخر. لا يتفاءل ولا يتشاءم. لا طموح ولا أحلام. لا يتألم ولا يحزن. يدب كما تدب براغيث السجن إلا أنه لم يتعلم بعد قرص غيره من المساجين. لم تعد تخطر بباله أشياء كثيرة كانت من صميم حياته، مثل حضور مجلس استاذه، والإعتكاف في المساجد،

ومغازلة الصبايا الجميلات. لم يعد يحلم بأن يشب ويتزوج وينجب أطفالا كثيرين يموتون بمعدل يفوق من يبقون على قيد الحياة. غادرته الدموع والأحلام. أصبح يمارس الحياة المتاحة في ظروف السجن مثل عجل غير سمين، ويستفيد منها كلما كان ذلك ممكنا دون اكتراث. السجن حياته الأولى والأخيرة التي لم يعد يجرؤ على تصور حياة غيرها. لا منفذ يلوح في الأفق المسدود من جميع الجهات. لا يفكر حتى في الهرب. لا ينتظر أي فرج قادم. لا ينتظر حتى معجزة. فقد البيت الشعري الذي كان يردده أبوه ليوهم نفسه بالفرج أي معنى. الجديد الوحيد في حياته أن صحة أبيه تسوء. لا طبيب ولا ممرض ولا حتى مشعوذ ولا علاج في السجن. بدا له السجن قبرا كبيرا بعض الشيء يستعد لالتهامه لقمة سائغة. إنه السجين الوحيد الذي لا يعرف كم سيبقى في السجن ومتى يحتمل أن يغادره وبأية وسيلة، ولا يعرف الحكم الصادر عليه. في بلاد يحكمها أمير المؤمنين وعسكره الميامين إصدار الأحكام ترف لا معنى له. أمير المؤمنين نفسه حكم إدانة، وعسكره حكم بالأشغال الشاقة. كل شيء مات في حياته. المراهقة والشباب والكهولة والشيخوخة، وتساوى الميلاد والممات. يعيش في عمر انتظار الموت الذي جاء منذ وقت و لم يستعجل الذهاب به إلى القبر. قد يطول الانتظار وقد يقصر. لكنه الأفق الوحيد المفتوح أمامه. لم يعد أحد يهتم بمصيره حتى الذين سجنوه. من ينتظر الموت لا يحتاج إلى من يهتم بمصيره. يحتاج إلى من يخرجه من حفرة الإنتظار الى حفرة المآب الأخير. لن يعدم من يقوم بهذه المهمة. المزارعون كلهم في حفرة انتظار الموت، أو في حفرة انتظار الحياة الميتة. الفارق بينه وبينهم ان العسكر والإمام يريدون منهم أن يكونوا آلات تصنع نقودا تملأ أفواههم وجيوبهم. يريدونهم أحياء ليدفعوا. أما هو فقد كف عن الدفع منذ زمن. لم يعد في عداد الأحياء في نظر أمير المورفين وعسكره الأبطال الميامين. هو نفسه لم

يعد يحس في داخله انه مايزال على قيد الحياة. ربما كان ميتا أو قاب قوسين أو أدنى من الموت.

في هذا الظرف اليائس بدأت تلوح في حياته أميرة القلعة، حمامة. أميرة جميلة في قلعة متوحشة، تناقض يليق بجلال المشهد المحيط. امرأة تتدفق الحياة من أهدابها، تبث دفء المشاعر في زمهرير القلعة بإشراق ضحكاتها المجلجلة في جرأة لا تحدها قيود الحشمة المتصنعة أو المفروضة في مكان داعر. امرأة قوية الشخصية، تدير مع أمها مقهاية تأوي القادمين إلى القلعة من بعيد. تعد لهم الطعام وتوفر لهم القهوة والماء ومستلزمات المقيل والراحة مقابل دراهم قليلة. كتلة نشاط وحيوية، وسماحة وكرم. في الثلاثين من عمرها. رشيقة وجذابة. لكن ما يكسبها سحرا خاصا متميزا هو بشاشتها وصراحتها غير المعتادة وبخاصة عند النساء في الحديث مع أي كان بثقة كبيرة بالنفس. إنها المرأة الوحيدة التي تجاور جيشا من عسكر عازبين لا يعاشرون النساء. إنها الدليل الوحيد على أن رجال القلعة لا يتناسلون ذاتيا. واحة ظليلة جاد بها الزمن الكهل لتكون ومضة جمال وفن في قلعة يغلفها القبح من جميع الجهات. وجودها عند الباب الجنوبي للقلعة يحفظ لهذه القلعة توازنها حتى لا يغرقها الطوفان أو تنزل بها عاصفة مدمرة من تلك التي عصفت بقوم عاد وثمود ولوط وأمثالهم. تتمخطر بالقرب منهم بجسدها الطري المتمايل الذي يضج بالحيوية والشباب والإغراء. تبدو للجميع من حديثها ومن حركات جسدها الشهي المتصابي قريبة المنال لكنهم حين يحاولون استدراجها إلى ألعابهم المسلية وقد انهارت أعصابهم وخارت قواهم وعجزوا عن تمالك أنفسهم يجدونها سرابا يفر من بين الأصابع المرتعشة. أحد الذين لم يستطيعوا مقاومة إغرائها وكيل شريعة (محام) لم يجد وسيلة لنيلها سوى عقد قرانه عليها عن غير اقتناع، فعملت ما أراد حتى تحافظ على زواجها منه وقد حلمت بأن تنجب منه أطفالا كثيرين يزرعون

الأرض ويقيمون أكثر من مقهاية، لكنه لم يجرؤ حتى على الإحتفال بزفافها إليه أو زفافه إليها. بل مرر زفافه دون ضجة كأنه لص هارب من العقاب، وأقام عندها شهورا يلفه إحساس بالمتعة والإختلاء بعيدا عن أعين المتطفلين والمعترضين. يتجنب النظرات الحاسدة والشامتة التي تلاحقه في يقظته ومنامه، هاجراً أهله وذاكرته، طفولته وشبابه، زوجته وأطفاله، أرضه وزرعه. طلق كل شيء ليحتضن الجمال وحده بلا منافس وبلا حساب للنتائج. والكل يعترض. زوجته تعترض على تبديلها. وأطفاله يعترضون على تبديل أمهم. وأسرته تعترض على زواج غير لائق بهم وكأنهم هم الذين تزوجوها وليس هو. الكل يعترض إلا هو. وأخيرا، لكي يخرس الألسن المتقولة وإرضاءا أو تحديا لأسرته، أخذها معه إلى بيته بجانب زوجته وأطفاله، وبين أهله وأقاربه، وحجبها عن الرجال في منطقة لا تتحجب نساؤها، فإذا به يزيد الطين بلة ويصبح أضحوكة يتندرون بها. وذات يوم التقى فيه بأصدقائه وأقربائه في الدكان، بادره أحدهم قائلا:

ـ كاد الضمأ يقتلنا،

وأعطاه ريالا فضيا ثم أضاف

ـ اذهب وآتنا قهوة تروي ظمأنا.

فخرج غاضبا من قريبه وعاقبه بطلاق حمامة التي عادت إلى أمها وإلى عملها وعاقبت نفسها بطلاق فكرة الزواج نهائيا.

كان أحمد قد أصبح أحد أهم زبائنها بعد أن أصبحت حرفة كتابة الشكيات والمراجعات تدر عليه دخلا لا بأس به. كان في البداية يستحي من النظر اليها مباشرة، لكنه يتدرب بقدر ما يستطيع معها على التعامل مع سجن آخر أيقظته علاقته بها. وكانت تعلق على خجله بالقول (أمرهم إلى الله. سجنوك وأنت في هذا السن المبكر؟ ما تزال طفلا. ظلمة. لصوص...). كلماتها تنفذ إلى القلب. عوضت عنده شيئا من

حنان الأم، وأشبعت حنينا غامضا إلى جنس غريب بعيد. أيقضت مثابرتها في الإحسان إليه وملاطفتها له في داخله رجولة مبكرة. بدأ بمرور الأيام يبادلها الكلمات الطيبة بكلمات صداقة وود. يعزف في عينيها لحونا ممتعة، ويقرأ على صفحة خدها دعوات للمغامرة البريئة. ترتاح فيه إلى الكلمات التي لا تتجه مباشرة إلى النصف الأسفل من جسدها كما اعتادت من زبائنها. أحست فيه صديقا يستحق الثقة. تنتهز أية فرصة لتقص عليه شئون حياتها ومشاكلها وأحلامها. يرتاح للحديث معها، ويشجعها عليه بالتعاطف معها والأخذ بوجهة نظرها فيما تعرض من مشاكل مرت بها. وشيئا فشيئا، بدأ يتطلع بجرأة في عينيها البراقتين، وشعرها الذي يتسلسل كالحرير على الجانبين من تحت المنديل لينتهي بظفيرة في نهايتها وردة من قماش ملون. يجتذبه عنقها المرمري، وصدرها الناهد، وردفيها البارزين اللذين يهتزان كلما تحركت في قميصها الملون الضيق، ويأسره سحرها الذي لا يقاوم، وصراحتها لدرجة العري في الحديث عن الجنس وما يتصل به وإن كانت عصية وعنيفة في تمنعها على الطامحين في اقتحام أسوارها من العسكر المحرومين لسنين طويلة من الجنس سوى العادة السرية وتبادل المنافع فيما بينهم، ومتمنعة على النزلاء من المزارعين الذين أصابهم الملل من زوجاتهم المنهكات بالإنجاب والعمل في البيت وفي الحقول. أحس من خلال اقترابه منها الذي يزداد ويزداد حتى تختفي المسافات بينهما تدريجيا أنها تحمل في جوانحها قلبا واسعا رحيما، وقدرا لا يحد من طيبة تحتاج إليها هذه القلعة المكفهرة. سخية، متصدقة على الفقراء بلا منٍّ أو ادعاء، وبخاصة أيام الأعياد والمناسبات الدينية. تعطي الخبز مجانا للمساجين الذين لا يجدون ما يقتاتون به، لكنها في مشاكسات دائمة مع العسكر الذين يتهربون من سداد ديونهم لها وإن كانت تمزج الجد بالهزل حتى لا يعرف جدها من هزلها. قالت مرة لشاوش الحبس:

- يا ويلكم من الله، يا حياكم من الله، تسجنوا هذا الولد الصغير. ظلم. بلا ذنب. افرجوا عنه. عيب عليكم تسجنوه في هذا السجن مع الكبار. والله انكم حطب جهنم. يتصور لي أن جهنم خلقت لكم خصوصا. لو كنت حارسة عليها لأشعلت عظامكم مثلما يشتعل الحطب القديم.

- سرق أموال مولانا أمير المؤمنين.

- مولانا أمير المؤمنين (تقلد صوت الشاوش). لكأن مولاك كسب هذي النقود من العمل في مقهاية. مولاكم أكبر سارق، وأنتم عصابته وكلابه التي تنهش المساكين.

- أراك تهتمي بهذا الولد الصغير والرجال موجودون بكثرة؟

- دع الرجال لك. أنت أحوج إليهم مني.

- عليك اللعنة يا فاجرة يا بنت الفاجرة.

قالها الشاوش وهجم يهم بضربها فهربت بخفة وهي تضحك:

- ماشاء الله والبطولة والشهامة. نذل مثل مولاك. تضرب امرأة؟

تراجع الشاوش غاضبا بعد أن توارت وهي تضحك وكأن شيئا لم يكن. قال لأحمد:

- انظر ما قالت هذه الفاجرة بسببك.

- البادي أظلم. ولكن ما علاقتي بالموضوع؟

- أنت شيطان رجيم. اهتمامها بك ليس لوجه الله.

ابتسم احمد ولم يرد. لا يحب المضي في المزاح مع الشاوش وعسكره إلى حيث يسيئون إليه. يفضل دائما تجنب الاصطدام بهم مادام في قبضتهم. يتسم في ذهول مختفيا وراء قناع طفولي، وكأنه لا يدرك الكثير مما يدور حوله.

لم يكن الشاوش وحده من لاحظ اهتمام أميرة القلعة الجميلة الزائد بأحمد. تأتي في الصباح تتهادى في دلال تحمل له طعام الإفطار وقد توجته أميرا مدللا على قلعتها الحصينة، كما تحرص أن تأتي بالغداء

بنفسها وقد سمحت له كتابة المظالم بأن يأتي بجميع وجباته ووجبات أبيه من عندها وبمساعدة المساجين المحتاجين، واستضافة الشاكين القادمين إليه ليكتب شكاواهم أو للحصول على استشارة في قضاياهم المعروضة على المحاكم. لم يلق يوما في حياته مثل هذه الرعاية التي تحول سجنه إلى غربة يسهل تحملها والعمل فيها. كانت تستلم منه قيمة ما يطلب من وجبات وخدمات، لكنها بدأت مع الوقت لا تهتم باستلام القيمة حتى يلح على دفعها. ثم جاء وقت أصبحت فيه ترفض ان تستلم منه شيئا. يصر على الدفع وتصر على الرفض. تعمد تسليمها النقود أمام الناس حتى يحرجها فتستلم ثمن ما تعطيه. تضطر للقبول امام الناس لكنها تبحث عن أية وسيلة لردها. تشتري له هدايا بمناسبة وبدون مناسبة. تعطيها له حينما يكون بمفرده. لا تتردد في المجيء إلى باب السجن للحديث معه لأي سبب. يحاول إقناعها بأن لا تأتي أمام العسكر، لكنها لا تبالي إلا بما تريد هي لا بما يقول الآخرون. يحرص على أن يرد لها بعض الجميل. يعرف انها مولعة بالقات فيشتري أفخر أنواعه. يقدم لها الهدايا والمشاقر والعطورات. تمضغ القات وتنتشي، وتسف عبير العطر والمشاقر طوال النهار والليل. تخلد إلى النوم واضعة تلك الروائح تحت وسادتها تستمتع بشذاها الزكي. تنتظره في اليقظة وتحلم به في المنام. كانت في البداية تعطف عليه وعلى مقتبل شبابه الذي يضيع في السجن. أما الآن فإنها لا تعرف ما إذا كان العطف قد تحول إلى تعلق من نوع خاص. إلى هوس يلازمها في حركاتها وسكناتها. لا تريد أن تسأل نفسها ما إذا كانت تعطف عليه أم تحبه. لا يهم التسمية. المهم أنها ترتاح للحديث معه، للنظر في عينيه الخجولتين، وتقرأ دعوتهما المبطنة للإبحار في دنيا بلا حدود ولا قلاع محصنة، ولا أقنعة، لكنها عند ما تتأمل علاقتها به بهدوء ينتابها الضيق وعدم الرضى. مراهق صغير، مسجون بلا أمل في الخروج، يقتحم حياتها ويزج بها في مغامرة بلا معنى. الطبيعي أن تتعلق برجل في

سنها أو يكبرها يمكن أن يكون لعلاقتهما نهاية سعيدة. ولا تكون النتيجة سعيدة سوى بالزواج. وعلى الرغم من كل هذا الحساب المنطقي تنسى حين تراه حجج العقل وحساب الأرباح والخسائر وتفتح ذراعيها لعناق العاصفة وركوب بساط التهور والجنون. وأبوه متضايق أشد الضيق من هذه العلاقة المخالفة لكل مألوف من كل الوجوه. يرتاح لأن يكون ابنه محط انظار النساء. هذا دليل على ان الابن ليس سمحا وليس غير جذاب. بقدر اجتذاب الشاب للنساء يكون نصيبه من الرجولة والنجاح مع الجنس الجميل. ما يزعج الحاج ويقض مضجعه هو أن يقع ابنه وهو في هذا السن المبكر في حبائل امرأة تكبره سنا، وتعيش في القلعة. المرأة المحترمة لا تدخل القلعة حتى لو تعرضت للضرب والاضطهاد. كل شيء يهون ما عدا أن تعيش امرأة في القلعة أو في السوق. هذا يجرح شرفها ويجرح أشياء أخرى كريمة لديها. حمامة التي توجها ابنه أميرة على قلبه ليست ككل النساء. يحذره من أساليبها الدنيئة فيطمئنه الابن بأن لا شيء بينه وبينها يستحق خوفه وفي سره رغبة جامحة في الوقوع طواعية وعن طيب خاطر في أسر تلك الأساليب الدنيئة التي يحذره أبوه من مخاطرها.

ـ ألسنة الناس لا ترحم يا بني.

ـ فلتقطع ألسنة الناس يا أبتاه. ألسنة الناس لا تخفف عني وعنك عذاب السجن، ولا تحطم سور القلعة الملتف حول أقدامنا وأعناقنا.

ـ ألا تخاف على سمعتك؟

ـ لم يعد لدي ما أخاف عليه. من يجرؤ على أن يقول للظالم يا ظالم وفي وجهه، ويطالبه بأن يحاكمنا أو يقتلنا أو يطلق سراحنا؟ حمامة تاج على رؤوسهم المطأطئة دون أمل في رفعها في يوم من الأيام. يكفي انها مقتنعة ببراءتنا ولا تجبن عن أن تجهر بذلك بأعلى صوتها.

ـ لا أحد يستمع لمزاحها الثقيل.

ـ يكفي أنني استمع إليه.

ـ اسكت حتى لا يسمعك الناس ويظنوا أنك عشيقها.

ـ فليظنوا ماشاءت لهم الظنون. حياتي انتهت. وحياتك أيضا. لم نعد ننتظر شيئا. لماذا الخوف إذا؟

أغمض عينيه وسكت خشية الاصطدام بأبيه. واصل الحديث مع نفسه (حمامة أشرف منهم. أرق وأجمل. في نظراتها بشرى. وفي ابتسامتها فرح. دعوة للمغامرة واقتحام المجهول في حياة الحصار التي لا مجال فيها لأية مغامرة. طعامها لذيذ. وبشرتها ناعمة الملمس كالدهن. في جسمها نظارة تدعو للابحار في أدغالها. إنها الدليل الوحيد على أنني ما أزال حيا).

وقفت أمامه بلا حراك كصنم من المرمر. تنتظر أن يقدم. اهجم. تقدم. لا تخف. كن رجلا. كن شجاعا. لا تتراجع. لا تجبن. بادر. تحرك. وهو مستسلم لا يحرك ساكنا. أخذت زمام المبادرة بيدها واجتذبته بقوة إليها وطوقته بذراعين يتلويان كالأفاعي. أسلم نفسه بوله أشبع حاجته لأن يلقي بقهره المكتنز في رأسه الصغير في لحظات استراحة أبدية خارجة من حساب زمن السجن. أهداها ما تبقى من طفولته الباكرة وسني مراهقته التي لا يعرف لها معنى. سرى دفء جسدها الناعم المتلوي بلظى اشتعال داخلي بجنون إلى خلايا جسده الواهن حتى سمع وجيب قلبها المتسارع يرعد في عروقه، وهدير أنفاسها الحراء تلفح وجهه وعنقه، ومغناطيس شفتيها الآسرتين يمطره بردا وسلاما، حتى غشته موجة عنيفة من خدر لم يبلغه في نوبات استماتته لبلوغ الوجد المنشود. صوت استاذه القطب يهمس في أذنيه بتقريع عنيف (بلوغ الحال لا يأتي بالمقال. دونه أهوال وأهوال). وسرعان ما تذكر الآخرين وخاف أن يدخل أحد إلى غرفتها وهما على هذا الحد من القرب. انتزع نفسه بقوة من بين أحضانها وقد بدأت أمواجها تنحسر، ومدها يتراجع في اطمئنان وصفاء حالم. جرى مسرعا بخفة غير معهودة. يحس أنه بلا

وزن. لا يحس بشيء. لا يحس حتى القيد الذي يقيد رجليه ولا يسمع صوت صريره. لا يرى شيئا. لا يسمع شيئا. دخل باب السجن والإنشراح باد على محياه. قال أبوه:

ـ بشر. أراك مسرورا.

ـ لماذا لا أسر؟ (وارتسمت على وجهه ابتسامة رضى).

ـ ما الأمر؟

ـ لا شيء. يوم عادي من أيام الله. حالنا يثير الضحك. مسجونان بلا ذنب. سجن بلا نهاية. لا غريم يقاضينا، ولا حاكم نحتكم إليه.

ـ شر البلية ما يضحك. صدقت.

ارتاح لأنه نجح في إخفاء سبب سروره عن أبيه. حتى ومضة الفرح سجينة في داخله يخشى البوح بها. من أين للفرح بالبوح في سجون يغلف بعضها بعضا، ويتواطأ بعضها مع بعض. من أين للحب أن يفلت من قيود تتسلسل حتى آخر حرف في كتاب الجبل المخنوق بقلعة يحتاج الفكاك منها إلى معجزة. انتحى جانبا من السجن وتلفع برداء الظلام ليمنع أن يقرأ أبوه ما يعتمل على صفحة وجهه من أسئلة جارحة. تتزاحم الأفكار في ذهنه وتتصادم الأسئلة. (ماذا تريد مني؟ إن كانت تشفق علي فأنا استحق الشفقة فعلا. وإن كانت ترغب في فأنا في حاجة إلى امرأة تفتح ذراعيها لتشاركني الشقاء المقيم ولكن ليس في السجن. ما تفعله أكثر من إشفاق وأقل من زواج. لماذا أنا بالذات؟ القلعة كلها رجال. لا نساء في القلعة إلا نساء الأمير. إذا خرجن في النادر من مساكنهن، ملفوفات في أكفان سود من فوق الرأس إلى ما تحت أخمص القدم، أطلقن في العسكر المحرومين من أية متعة جنسية، سوى تبادل المنافع فيما بين البعض منهم، خيالات مبالغة في عريها ومجونها. حمامة الأثر الوحيد الدال في هذه القلعة على وجود جنس النساء، وعلى أن الجمال الأنثوي حقيقة وليس مجرد خيال واهم. فليكن داعيها للاهتمام

به ما يكون. الشفقة أم الحب أم غير ذلك. ما أنعم خدها، وما أنعم شفتيها. وما أنعم نهديها. لم ألمس قبلهما نهد. ترى كل النهود بهذه النعومة الآسرة؟ بلا شك نهداها مختلفان عن كل النهود. أكبر وألذ وأجمل). واصل تفحص تفاصيل هذه المغامرة الأولى في حياته. مفاجأة لن يجود الزمن بأكبر ولا أجمل منها داخل السجن وخارجه. بدت معجزة من معجزات السجن، وفلتة من فلتات الزمان التي لا يجود بمثلها إلا نادرا. تخيلاته اللذيذة تتواصل وتستولي عليه حتى غلبه النعاس في هدوء وسكينة. قالت له في اليوم التالي:

ـ أمرهم إلى الله. ظلموك يا أحمد. سجنوك وأنت ماتزال طفلا.

أدرك أنها تشير من طرف خفي إلى ارتباكه وقلة خبرته ليلة البارحة. أحس بطعنة تنغرز في أعماقه. اكتشف أنه لم يحسن مشاركتها اللعب المجنون كما ينبغي. جعلها تحس انه بمجرد طفل يلهو دون فراسة. هدته غريزة الدفاع عن النفس إلى حيلة يعتذر بها قائلا إن القيد اللعين الذي يشد قدميه ويضيق المسافة بين ساقيه يمنعه من الطيران ويحرمه من حرية المناورة واستيعاب الهجمات الأولى لإطلاق هجوم مضاد كاسح ينقله من الدفاع إلى الهجوم ويحقق له الإنتصار النهائي. جمع كل ما عنده من شجاعة وإقدام. تلفت يمينا وشمالا للتأكد من خلو المكان من الأعداء والطفيليين، واندفع إلى معركة حاسمة لا تقبل التأجيل، يستعيد فيها الكرامة المهدورة والشرف المهان. فانقض عليها بسرعة خاطفة مقبلا شفتيها وهي واقفة بلا حراك كالمتفرج على لعبة طفولية سمجة. قالت:

ـ ألم أقل لك إنك ماتزال طفلا؟

أجاب محتدا في انزعاج ظاهر، وبلهجة آمرة:

ـ لا تقولي لي هذا بعد اليوم أبدا.

ـ لا تغضب. لا أريد أن أراك غاضبا أبدا. أريد أن أراك دائما مسرورا مرحا.

اقتربت منه وهي تبتسم بحنان ورقة، وأمسكت به باشتهاء وقبلتـه في فمه قبلة أطارت صوابه، وأطلقت بركانا داخليا دفينا ما يـزال يتزحزح باحثا عن شقوق في قشرة الشـجون الملفوفـة في داخلـه لتفريـغ شـحناتها المكبوتة. لكـن مواصلـة القبلـة أشـعرته بالإختنـاق. تخلص منهـا متعـذرا بالتلفت يمينا وشمالا خوفا من أي قادم. قالت:

- لماذا لا تدفع لهم مبلغا من المال مقـابل فـك قيـدك. سـأدفع أنـا إذا أردت.

- دفعنا لهم أربع مرات.للتخفيف من قيود أبي. أنا كنت أنزع قيدي بسهولة وأعيده عندما أكون خارج السـجن. (وأضـاف باسمـا في إعتـداد بالنفس) الآن أصبح نزعه مستحيلا. كبرت بعض الشيء.

- اعرض عليهم أي مبلغ لنزعه.

- حاولت مرات والشاوش يمانع. أفكـر بإعـادة الكـرة، ربمـا نجحـت واحدة من هذه المحاولات.

- بـل اذهـب الآن واغرهـم بمبلـغ لا يحلمـون بـه وسأسـاعدك إذا احتجت. هؤلاء عبيد النقود. يبيعون أمهاتهم وآباءهم بالنقود.

ذهب فورا من عندها إلى الشاوش مباشرة وفاوضـه بإلحـاح ومهـارة حتى أغراه بمبلغ كبير أن يفك قيده. وما أن أصبح بلا قيد حتى بدأ جولة أخرى من المفاوضات العسيرة لفك ما تبقى من قيود أبيـه دون جـدوى. وبدأ المزاد غير العلني والشـاوش يرفـض بـنزق مفتعـل حتـى اقتنـع أخـيرا وبشق الأنفس بفك حلقة من آخر قيد ليبقى معلقا علـى إحـدى سـاقيه. قال له لا فائدة من بقاء القيد معلقا إلى إحـدى السـاقين، فذالـك لا يمنـع هربا محتملا، لكن الشاوش استشهد على ضـرورة بقـاء القيـد علـى هـذا النحو بالجرس الذي يعلق على أعناق البقر ليمنع الشياطين مـن الاقـتراب منها، وليدل بصوته المجلجل على وجودها وعلى حركتها. ومع أن أحمـد لم يفهم وجه المقارنة بين صوت الجرس وساق أبيه فقـد لا يتحـرك أبـوه

فلا يسمع صوت الجرس، فإن هذه الحجة قد أفحمته وأقنعته بالرضوخ للأمر الواقع. وأول ما رآه أبوه يمشي بحرية بلا قيد سأله:

- كيف اقتنع بفك قيدك وقد كان يقول إنك شاب قادر على الهرب؟

- (رسم أحمد بأصابعه علامة عد النقود وقال) بهذه الحجة البليغة.

فرح الأب بفك القيد من إحدى رجليه ليستطيع الحركة بحرية أكثر، وسجد شكرا لله واعتبر ذلك بشارة فرج. وحين جاءت بطعام الإفطار تمشي على عادتها بدلال وخفة حرصت على التأكد من أن أحمد قد أصبح بلا قيد بحيث يقدر على الطيران في كل الاتجاهات. نظرت إليه بغبطة وقالت:

- سمعت النصيحة وطبقتها بسرعة.

- الفضل لك على كل حال. كنت قد نسيت القيد فوق رجلي ونسيت أنني ما أزال على قيد الحياة.

أصبح لا شعوريا يختلق مثلها الأعذار لزيارتها. ذهب إليها في المساء بعيد المقيل بحجة إعادة أواني الطعام مع أن تلك الأواني كانت تبقى في السجن حتى الصباح عندما يأتون بطعام الافطار، وحين هلّ عليها وجدها متوردة يفيض من محياها البشر، ومن عينيها بريق الحلم. وكانت ترتدي ثوبا جديدا مزركشا، وعلى رأسها منديل يغطي القليل من شعرها المصفف بعناية، والموشى بمشاقر تختلط رائحتها برائحة العطر والبخور. نفذت رائحتها إلى زوايا الرغبة المنطوية في أعماقه هو المسجون في سجن العسكر وسجن الحرمان وسجن تربيته الأخلاقية. وجهت إليه سهام نظرة ملتهبة كالشرر وقالت بلهجة جادة وآمرة دون أية مجاملة:

- ادخل.

ظن أنها تريده لأمر ما. اقترب منها فاجتذبته بعنف وهزته هزة ارتعش لها كيانه كله فغاب في حلم لذيذ، وامتطى متن بساط الريح محلقا

فوق أرض لم ترها عين، وسماء وردية تسبح في أرجائها حور عين كثيرة، تنثر الزهور في حدائق من الماء وترشه برذاذ متواصل من عطر لم يتنسم رائحته من قبل. لأول مرة يحس إلى هذا الحد الفارق بين الأقدام المقيدة بسلاسل الحديد والأقدام المتحررة من كل القيود المرئية وغير المرئية، في لحظة انقتل في غمرتها ما تبقى من طفولته. لحظة لا توصف. تعجز الكلمات عن وصفها. لعله بفضلها كان يتقبل الحياة البائسة دون أن يقدم على الإنتحار. عاد من تحليقه في الأعالي بعد أن ذاق ألذ فاكهة، وطعم لذائذ جنة عدن قبل أن يطرد منها ليعود إلى سجنه مهموما يغشاه الغثيان الممض. ماسبب كل هذا الغثيان. كره الدنيا فجأة دون سبب. تمنى لو تفيض روحه في الحال. يريد أن يتخلص من هذا الشعور القاسي بالاختناق والدوار. عاد مسرعا إلى سجنه وانطوى في زاويته دون أن يكلم أحدا. وفي الصباح استيقظ وقد استولت على ذهنه فكرة واحدة لا يدري كيف قفزت إلى ذهنه بهذه السرعة العجيبة وبهذه القناعة المكينة: الهرب من السجن. اهرب تسلم. قال لأبيه:

- لماذا لا نهرب يا أبتِ؟
- يا الله رضاك. قل صباح الخير.
- لماذا لا نهرب؟
- إلى أين؟
- أرض ا لله واسعة.
- وأمك؟ والبيت؟ والأرض؟
- نحن الآن لا نفعل لها شيئا.
- سيلحقون بنا في أي مكان. سنفقد كل شيء.
- فقدنا كل شيء. فقدنا الحياة. لا أرى في الأفق أي حل. أحس بضيق يخنقني.
- الرعوي لا يهرب. الرعوي مزيل الدول.

- ماذا نعمل؟
- اصبر.
- إلى متى؟
- حتى يأذن الله بالفسح.
- سنموت في السجن.
- لا تقنط من رحمة الله.
- لا أستطيع البقاء.
- لا تيأس
-...

كان الشاوش قد تمرس طويلا في تتبع أي أثر للنقود حتى ولو كان ضئيلا في جيوب المزارعين أو حين تكون معقودة في أطراف أثوابهم المتهالكة. و لم يكن من اليسير أن يظل جيب أحمد الذي ينتفخ داخل السجن أكثر مما ينبغي بمنأى عن رقابته وأطماعه. حاول في البداية تفريغ هذا الانتفاخ المشبوه عن طريق فك القيود العديدة عن رجلي أحمد وأبيه، لكن هذا طريق ينتهي بفك آخر قيد ولا بد من وسيلة مأمونة أخرى تضمن أن يكون جيب الشاوش نفسه امتدادا طبيعيا لجيب أحمد. واهتدى بحاسته التي لا تخطيء في تتبع رائحة النقود إلى التفاوض مع أحمد للحصول على نصيب منها بهدف تطمينه وكسب ثقته استعدادا للحظة يحقق فيها السلامة بالهرب، بعد أن ترسخت فكرة الهرب في ذهنه دون مقدمات. لا يدري كيف قفزت إلى ذهنه بعد أن كانت لا تخطر له على بال. الأمور مهيأة الآن بعد أن أصبح بلا قيد، وأبوه أيضا شبه مقيد. وثق الجميع بعد هذه المدة في السجن انهما لن يهربا. ومع أن علاقته بحمامة تخفف من شعوره بالضيق وقد اعتاد على الاندهاش ببسمتها التي تشرق في داخله باستمرار، فإن أخطر ما فعلت به أنها بدأت تبعث فيه رغبة دفينة لمعاودة الحياة الطبيعية خارج السجن. بدأ يستطيب الحياة

أكثر من ذي قبل. أصبح بصيص الحياة في السجن لا يشفي غليله، ولا يرضي طموحه. كان واثقا من قدرته على إقناع أبيه بمرور الوقت. كلما طرق معه الموضوع تلفت شمالا ويمينا خوفا من أن يسمعه أحد خوفا من أن يخسر القدر الكبير من الحرية الذي اكتسبه في الفترة الأخيرة. لم يعد أبوه يوبخه كلما طرح معه أمر الهرب. أصبح يصمت أو يجيب بتعليق ظريف. كأنما راقت له الفكرة من حيث المبدأ وإن لم يوافق عليها. إلا أن تنفيذ خطته يصطدم بعوائق جدية كلما مر الزمن. فصحة الأب تتدهور بمرور الأيام بالتدريج وبصمت، كجدار بني على عجل ودون إعداد كاف للثبات لوقت طويل. بدأت الأطراف والمفاصل بالتذمر واحدة فواحدة. وتجاوبت معها منافذ الجسد للتواصل مع الخارج، كالعينين والأذنين والفم. وعاف الجهاز الهضمي امتصاص الغذاء وكأنما زهد في البقاء في سجن أشبه ببؤرة قاذورات، ووهن العظم، واشتعل الرأس شيبا بسرعة غير متوقعة. وإذا بالجسد كله يتهاوى على نفسه، ويضرب عن الحركة وعن الكلام، فلا تبقى سوى حركة العينين المحمرتين شبه المغمضتين تعلن عن ضجر دفين يسري فيما تبقى من دم يقطع آخر مسافة في جسد يوشك على الغياب. نسي أحمد في هذا الظرف المعجون بالحزن وبالاحساس بالعجز أي تفكير بهاجس الهرب، وحاصره الاحساس بأن الجسد ذاته يوشك أن يخونه وأن يهرب منه إلى غير رجعة. لا مستشفى ما يعيق خطته أن صحة الأب تتدهور بمرور الأيام، وهو ما يرغمه التأجيل والانتظار حتى تتحسن صحة أبيه ويستعجل السماء كي تساعده في هذا التحسن قبل الإقدام على مغامرة من هذا النوع. لا مستشفى ولا علاج. قانون الغاب يسري على الجميع. الحياة للأقوى، اجتماعيا وصحيا. من لا يقوى على مقاومه الأمراض والأوبئة يموت. الأدوية ترف لا يوفره أمير المؤمنين وعسكره. عرض أن يقدم ضمانة جماعة من الوجهاء ليسمحوا لأبيه بالذهاب إلى بيته والعودة

عندما تتحسن صحته. لكن القلعة رفضت رفضا باتا. تريد أن يموت في مرقده وأن يدفن في قبره الذي أعده قبل قبل شيء منذ زمن. فالناس في مملكة أمير المؤمنين وعسكره الميامين يعدون قبورهم قبل ولادتهم بقليل ويهتمون ببنائها قبل أن يهتموا ببناء بيوتهم ومستقبل أطفالهم. ليست المرة الأولى التي يمرض فيها. لماذا الآن يبدو كأنه يقدم استقالته من الحياة، او يعترض آخر اعتراض صامت في حياته؟ لم يعد يعبر عن ألمه سوى بالنظرات التائهة. ينمحي بالتدريج. كأنما اقتنع بأنه أصبح في عداد الموتى منذ أحس استحالة خروجه من السجن حيا. مستسلم للقدر. لا ينتظر شيئا حتى ولو كان إطلاق سراحه. واظب على الصلوات قائما أو قاعدا أو بالإشارة بعد أن عجز عن أن يصلي. السجن لا يسمح حتى بالعبادة. والمرض لا يسمح بذلك أيضا. استغرق في غيبوبته الأخيرة، وأعلن إضرابه الأخير عن الكلام وعن الحركة. أضرب عن المشاركة في حياتهم. لم يعد يطيق أن يشاركهم في أي شيء. لا شيء يجمع بينه وبينهم بعد الآن حتى الحياة. لفظ أنفاسه عند الفجر بعد ليلة ليلاء من الصراع مع المرض. وقف وحيدا يصارع غول المرض دون مساعدة من أحد. لا طبيب ولا قريب. عاريا من كل شيء سوى ظلم السنين وقهر لا يحد، قهر القلعة وقهر المرض. غادر حياتهم غير نادم على شيء.

كانت سكرات الموت فاجعة في حياة أحمد. لم يتصور في أية لحظة أنها رهيبة إلى هذا الحد. انهدت قواه وهو يرى أقرب الناس إلى نفسه يذوي بين يديه هكذا دون أن يستطيع أن يفعل شيئا. يرغب هو الآخر في أن يغادر هذه الحياة ليأمن من رؤية السجانين كل يوم. يحس في داخله بضيق واكتئاب شديدين. يحس أن الحياة سلسلة متواصلة من عذاب بعضه أشد من بعض. وجد نفسه يخرج من السجن دون استئذان في لحظة فتح أبواب القلعة في الصباح الباكر ليذهب إلى قريته للمجيء بأقاربه وجيرانه. أيقظ بعضهم من نومهم. تولى بعضهم فتح أحد قبر،

وذهب الآخرون معه للمجيء بالجثمان لدفنه. كان يمشي صامتا دون أن ينطق بكلمة ويمشون صامتين احتراما لمشاعره. القليل منهم يهلل ويكبر ما بين آونة وأخرى. دخل القلعة من الباب الجنوبي دون أن يلتفت إلى حمامة التي وقفت على باب مقهايتها تؤدي له التحية دون أن تدرك بعد أن أباه قد مات. وحين جاء الشاوش لنزع القيد من ساق الفقيد قال له:

ـ أفضل أن يقبر مقيدا.

ـ للميت حرمته.

ـ الحي أولى من الميت.

ـ القيد ملك الحكومة. سأحاسب عليه.

ـ سأدفع لك ثمنه.

ـ سنجمع العسكر للصلاة عليه في مسجد القلعة.

ـ لا. سيصلي عليه أهله وجيرانه في المسجد الذي صلى فيه طوال حياته.

ـ أنت تعرف أن ليس لدي أمر بإطلاقه. لا بد من إبلاغ أمير القلعة حتى يطلقه. لا أستطيع السماح بخروجه هكذا بلا أمر إطلاق.

ـ تريدون أن تسجنوه ظلما حيا وميتا؟ حكمكم يمضي على الحي. الميت خرج من هذه الدنيا ولا سلطة لكم عليه. أنت شاوش الأحياء ولست شاوش الموتى.

همَّ أحمد بحمل جثمان أبيه للخروج به، لكن الشاوش منعه بحزم حتى كادا يشتبكان بالأيدي. كشر الشاوش عن أنيابه مهددا متوعدا فحال الحضور بينهما. قال عسكري:

ـ دعنا نصلي عليه حتى يستيقظ الأمير. سيصدر أمر الإفراج عنه في الحال. ماذا يريدون منه بعد أن مات؟ كرامة الميت دفنه.

ـ لا. لن نصلي عليه إلا في مسجده.

حاول الحضور أن يقنع أحمد بالعدول عن رأيه لكنه رفض بعناد. قال الشاوش:

- اذا، يبقى في السجن حتى تتحول عظامه إلى تراب.

- لا تستطيعون بعد اليوم أن تسجنوه. خرج عن حكمكم.

بدأ بقراءة القرآن: ﴿ أعوذ با لله من الشيطان الرجيم. بسم ا لله الرحمن الرحيم. يس. والقرآن الحكيم. انك لمن المرسلين... ﴾. بدأ الحاضرون، من المساجين والمشيعين الذين بدأوا يتقاطرون على السجن منذ أن سمعوا بخبر وفاة الحاج عبدا لله، بالمشاركة في قراءة القرآن. تجمع العساكر خارج السجن ببنادقهم مستعدين للإشتباك. بدا السجن كأنه في حالة تمرد. مساجين في حالة غضب. ورجال غير مسجونين يدخلون السجن طوعا. أضفى الموت على الموقف شيئا من الإضطراب والرهبة واختلط الحابل بالنابل. عادت هذه اللحظات المهيبة بأحمد إلى سنوات دراسته وتدربه الصوفي. غاب عن الدنيا الفانية واتحد بعالم الحضور. نسى الناس من حوله. نسى الشاوش. نسى العسكر المتحفزين في الخارج كأنما يستعدون لخوض معركة مصيرية. نسى حمامة، الشامة الجميلة على خد القلعة القميء. نسى حتى موضوع دفن أبيه. واصل قراءة القرآن. لا يتوقف إلا ليتلو دعاءا مأثورا ثم يعود للقراءة من جديد. والحضور من حوله يتمتمون متظاهرين بمشاركته في القراءة ليخفوا عدم حفظهم لما يقرأ، ويستمعون لأدعيته كأنهم في حلقة صوفية كتلك التي اعتادوا حضورها في ليلة النصف من شعبان أو في ذكرى المولد النبوي الشريف. صوته المتهدج بالبكاء والمعتصر بالألم والحزن دفع كثيرا منهم إلى البكاء من الخشوع أو من الحزن أو من رهبة الموت. بدأ بعض العسكر بالإقتراب من باب السجن والإنصات مع الناس إليه. هزتهم رهبة الموت وجلال المشهد فأسرع بعضهم إلى الشاوش لطلب أمر إطلاق الجثمان. لكنه أمرهم بانتظار الإطلاق من أمير القلعة الذي مايزال نائما. قال عسكري:

- ارسلوا له ورقة مع الدويدار.

- الدويدار يقول إنه ممنوع من إدخال الأوراق عندما يكون الأمير نائما.

ـ هذا موت وليس شكية عادية.

ـ ماذا أعمل...؟

أغلق الشاوش الحوار بهذا التساؤل الممتد. وأحمد يواصل قراءة القرآن والأدعية حتى قرب وقت الظهيرة دون أن يتحرك من مكانه ، أو يطالب بأي طلب. والجمهور يتزايد ويتزايد معه تذمره من هذا الوضع الغريب.وأخيرا خرج أمير القلعة يمشي في خيلاء وتكاسل للدورة المعتادة قبل تناول الغداء. حين بلغه الأمر اتجه إلى باب السجن آمرا بإخراج الجثة لمعاينتها والتأكد من أن السجين مات فعلا وأنه ليس مقتولا. أفسح له الحضور الطريق كي يدخل. توقف في الساحة الصغيرة الواقعة خارج السجن متأففا وأمر باخراج الجثة إليه. واصل أحمد القراءة غير مكترث بما يجري، ودون أن يستمع إلى ما يقال. لم يعد سواه يقرأ ولا أحد يستمع إليه. الكل منشغل بمجيء أمير القلعة وأحمد في مقام آخر. لم يحركه حتى نقل جثة أبيه إلى الأمير خارج غرفة السجن. كشف الأمير عن الجثة وفحصها كأنه يفحص جثة سائمة ميتة، باحثا عن سبب للوفاة راغبا في وجود مسوغ يسمح له باتهام أحد بموته حتى تستفيد القلعة من هذا الموت الذي لا مسئول عنه سوى القلعة نفسها. لكن الحاج خيب ظنونهم. وعندها أصدر أمر الإطلاق ومضى إلى الدورة اليومية التي تفتح شهيته لتناول غداء شهي. وضع أحمد جثة أبيه في النعش ورفعه مع المشيعين. مضى يشارك في حمل النعش والشاوش يلاحقه في عبوس دون أن يلتفت أحمد إلى هذه الملاحقة. اقترب الشاوش ليمسك به ويعيده إلى السجن فدفعه بعض المشيعين قائلين: (استأجر. استأجر)، أي اطلب المثوبة من الله بالمساهمة في حمل النعش. وجد نفسه بجانب أحمد تحت النعش المحمول. قال له:

ـ كيف ستغادر السجن دون إذن؟

- ها أنذا استأذن منك. ألم تقتنع بعد بأن السجن بيتي الذي لن أبرحه؟

- لم تدفع أجرة إطلاق أبيك من السجن.

- فليدفع لك ملك الموت. هو الذي أخذ روحه. ها أنت تحمله إليه بنفسك.

تخلص الشاوش من حمل النعش وظل يمشي بجانب أحمد الذي يواصل انهماكه منذهولا في حمل أبيه إلى مثواه الأخير.

- لن تخرج من باب القلعة أبدا.

- دعني أخرج لثلاثة أيام أكمل خلالها الدفن وقراءة القرآن وقبول التعازي وسأعود إليك وأرضيك بما تريد حتى تطيب نفسك.

تذكر الشاوش المبلغ المغري الذي دفعه لفك قيده وقيود أبيه، وتذكر ما يكسبه من كتابة الشكيات والمظالم بعد أن أصبح شريكه في اقتسام العائد المغري، فأيقن أن الصفقة تستحق التساهل. غض الطرف عن خروجه دون استئذان، مهددا أنه إذا زاد عن ثلاثة أيام فسيأتي ويقلع حجارة بيته من جذورها ويعيده إلى السجن سحبا على وجهه. كان أحمد يستمع إلى هذا التهديد بابتسامة لا مبالية. فقد استولت عليه فكرة الهرب حتى سدت عليه كل المنافذ. اهرب تسلم. لم يعد يفهم شيئا ولا يسمع شيئا. الناس يعزونه، وأمه تبكي، والجارات يساعدنها في بكائها. تستحضر كل واحدة منهن حزنها الخاص، أو يبكين لأن حياتهن كلها أفق من حزن مقيم. وهو منشغل بإكمال مراسيم دفن أبيه شارد الذهن يقلب فكرة الهرب على كل الوجوه. يجدها تدفعه نحو تشرد لا يدري له حدودا. لكن القلعة نفسها قبر لا فكاك منه. من مشنقة إلى مشنقة فرج. إحتمال أن تطيح إحدى المشنقتين برأسه وارد. كل شيء محتمل. كل شيء جائز الوقوع. البقاء في السجن هو وحده المستحيل.

عدن، عدن، ياليت عدن مسير يوم شسير به ليله، ماشرقد النوم

-٣-

قرقعة الباب تعلن مقدم السجانين. لم يعد الآن يرغب في تجنبهم. يريد الاحتكاك بهم والتعرف عليهم. أن يعرف أي نوع من البشر. وحشة السجن تجعله يرغب في رؤية أي إنسان. أن يأنس بمنظره. لم يعد يتحمل هذه العزلة القاتلة. يريد أن يقنع بأنه أسير في سجن وليس في قبر. نهض من فوره وعمر ملتف حول نفسه لا يريد الحركة. انفتح الباب فأحس بفرح داخلي لهذا القدر من النور الذي يغمر المكان ويجدد هواءه الخانق. دخل ثلاثة عسكر. كل منهم يعلق إلى كتفه بندقية مختلفة عن بندقية الآخر. على كتف أحدهم بندقية قديمة من نوع سك، والثاني يحمل بندقية ألمانية قديمة من نوع موز، والثالث يحمل بندقية أحدث، من نوع بلجيكي، بشلي. وكل منهم يلف حول وسطه حزاما عريضا من الجلد المتهالك المتسخ المشكوك بالذخيرة. ملابسهم قبلية متسخة، ووجوههم كالحة لا تبشر بخير. غبر شعث. حركاتهم عصبية سريعة مستعجلة، وخطواتهم تسير على غير هدى. غطرسة مفتعلة، وتصرفات متعالية عنيفة. أصواتهم نكرة تجرح الأسماع بنبراتها النشاز. يبصقون بلا توقف، ويتأففون من كل شيء. لا ينظرون أبدا في عين الأسير مباشرة. ينظرون إلى بعضهم البعض ملقين نظرات سريعة زائغة إلى أحمد أو عمر. يبدو من سحنتهم ومن تصرفاتهم وكأنهم آتون من زمن يسبق التاريخ

بعصور. أحضروا معهم كسرتا خبز جاف ووضعوهما بجانب إناء الماء المعتكر الذي يشبه البول. حاول أحمد أن يتحدث معهم. جرب البدأ بإلقاء السلام عليهم عله يبدأ أي حديث معهم. صرخ به أحدهم بغلظة قاطعا أي حديث. كرر المحاولة فقاطعه ثانية والشرر يتطاير من عينيه مهددا بطبان بندقيته دون سبب يدعو إلى ذلك. تقدم أحدهم نحو عمر المتظاهر بالنوم وركله بقوة مذكرا إياه أنه في سجن وليس في مقهاية (منامة). جلس أحمد في مكانه لا يتكلم. يريد أن يراقب رد فعل سجانيه، وأن يدرس تصرفاتهم عله يهتدي إلى طريقة للتعامل معهم. تبارى العسكر الثلاثة في إظهار الغلظة والتلفظ بألفاظ بذيئة. صب كل منهم ما بحوزته من شتائم وإهانات دون أن يستفزهم أحد، ثم أغلقوا الباب وخرجوا. عاد عمر ثانية إلى النوم وكأن شيئا لم يكن. كان أحمد يغلي في داخله كالمرجل من شدة الغيظ. داهمته الوحشة من جديد. لا جن ولا ملائكة تكسر صمت هذا المكان. كل لحظة تخفي وراءها رعبا مشرعا، وحقدا مقيما. لا شيء يبشر بالأمل. يريد أن يعلل نفسه ولو بوهم بسيط. لا يتركون له حتى فرصة التعلل بالأوهام. حاصرته الوحدة من جديد. تمنى أن يعود شخير صاحبه من جديد. يريد أن يسمع شيئا، أو أن يفعل شيئا. أن يرى شيئا جديدا يخرجه من هذا الموات. لا تنباك، ولا سجائر، ولا قات، ولا كتاب، ولا حتى كتاب ا لله يقرأ منه. ومع أنه لا يدخن السجائر ولا يتعاطى القات، فإنه الآن مستعد لفعل أي شيء لكسر طوق هذه العزلة والفراغ القاتل. لكسر رتابة الجدران الخرساء، والهرب من وجه خراب النهار والليل. يريد أن يكلم ولو نفسه. أن يتشاجر مع أحد. أن يشتبك في عراك مع أي كان. لا يتحمل البقاء هكذا. قترب في خوف من الشاقوص. تردد قبل أن يفتحه. يخاف أن تهاجمه حية أو حنش. لم يستطع مقاومة رغبته في فتحه. فتحه وظل خائفا وجلا ينظر إلى حافته مستعدا لإغلاقه إذا أطل رأس أفعى. بدا له

ما وراء الشاقوص رؤوس أفاعي تتطاول حتى تلحق به في أية زاوية. مضطر للاختيار بين وحش الوحدة المقيم في الداخل ورعب أفاعي الخارج. سرح بصره نحو الجبل البعيد. تراءى له الجبل الذي تقبع قريته في رأسه هناك في البعيد، وتواطأت معه الذكريات الأليفة ورحلة الزلازل حتى هذه الهاوية التي تحاصره من كل الجهات. سرت في جسده غيمة هدوء وصفاء. تنفس ملء رئتيه. أغمض عينيه ليمسك بذلك الطيف الشفيف الذي سرى في أحشائه. رأى الحاج حيدر، أشر الحجاج واللئمهم كما يقول، يستعد لاستقبال خاطبين. يضمر في سره مفاجأة غير سارة لزهرة وله. يوشك أن يزفها لوكيل من وكلاء الحكومة المحليين الوجهاء، يعطيها له صفقة غير رابحة. أزاح القناع الذي يتخفى وراءه متخليا عن تسامحه الذي ذاع صيته معها بحيث أصبح موضوعا للمعارضة والتأييد والجدل دون داع كما يبدو. تغلبت عليه غلظته وقسوته المألوفة مع نفسه ومع الآخرين وغلب الطبع التطبع. لا يريد أن يؤخر زفافها ولو للحظة واحدة وكأن بقاءها في بيته نحس لا يريد له أن يستمر ولو لدقيقة واحدة. يدرك في قرارة نفسه أن أحمد سبب تمردها عليه فليس غيره سبب لكل التقليعات الغريبة على التقاليد المألوفة، وأنه لم يتزوج انتظارا للفوز بها إن عاجلا أم آجلا. يمني نفسه بالمستحيل. سيقطع عليه الطريق بضربة معلم. سيجدها في عصمة زوج، أي زوج وتسقط كل حيله وألاعيبه الماكرة. لا بد من الاستعجال ولكن دون الظهور بمظهر من يلهث وراء العروس. عروس يرغب في مصاهرته الكثيرون. عيبه الوحيد ـ إن جاز أن يسمى عيبا ـ أن سنه يزيد قليلا عن المطلوب. السن لا يهم، فقد يكون رأسمال وخبرة وتسامحا. سبق له أن تزوج وماتت زوجته في واحدة من ولاداتها التي تستعصي على العد، يرحمها الله. هذه تفاصيل لا تهم الحاج حيدر. يهمه أن تحظى زهرة بزوج مناسب لها وله. تعيش معه

عيشة راضية ويعيش هو في راحة بال. أليس من مسئولية الأب ترتيب انتقال بناته إلى أزواج مناسبين؟

لم يسألها رأيها هذه المرة. أدرك خطأه بسؤالها عن رأيها كلما تقدم لها خاطب جديد. ولماذا ترفض. لا يوجد ولو سبب واحد وجيه لرفضها. أدرك الآن الحكمة من أن لا تسأل المرأة في أمر زواجها. سيمنعها حياؤها من إبداء رأي صريح. لماذا لم يفكر بهذا الأمر من قبل؟ ومع ذلك سيلمح لها ولو تلميحا يجنبها الحرج. سيشير إشارة عابرة. زهرة ذكية. ستفهم مقصده دون إفصاح عما يريد. وإلا فهو وليها ومن حقه أن يزوجها ممن يراه مناسبا. والشرع يعطيه الحق، وليس بعد قول الشرع حجة. قال لها مبتسما إن ضيوفا مهمين سيأتون للمقيل معه. ضغط على كلمة ((مهمين)) لتفهم ما يريد قوله لها تلميحا. ردت قائلة ((أهلا وسهلا)). كرر في مرح ظاهر وقد أشفع ابتسامته بغمزة مازحة قائلا:

ـ قلت إنهم ضيوف مهمون.

ـ أهلا وسهلا.

ترى هل فهمت الإشارة؟ لا بد أنها فهمت. ليست غبية إلى هذه الدرجة. إن لم تفهم في المرة الأولى فقد فهمت في المرة الثانية. بسمتي كانت مشفوعة بغمزة خفية. الحليم تكفيه الإشارة. ردت مرتين قائلة: أهلا وسهلا. لو لم ترد التلميح هي الأخرى فما معنى قولها أهلا وسهلا؟ كل شيء على ما يرام.

بدأت اخبار خطبتها لحسين النشم تنتشر بسرعة النار في الهشيم. النساء إذاعات متنقلة. ينقلن الخبر في ظرف ساعات من أعلى الجبل إلى أسفله. كل الناس يعرفون هذا الحدث السعيد ما عدا زهرة وأحمد لأن أحدا لا يجرؤ على إخبارهما. قصة عشقهما العذري حديث يعطر الأيام المكفهرة يرويه الناس بلا انقطاع. تتغنى به الشابات وينظم الشعراء الشعبيون حوله القصائد. لا أسرار في هذه القرية البسيطة. الكل يعرف

كل شيء. والكل يتظاهر بعدم المعرفة. الذي يعجب والذي ينتقد. لكن لا أحد يواجه الآخر برأيه. يجاملون غاية المجاملة. ويصدرون أحكاما قاسية أو متساهلة. يتعاطفون أو يرفضون. لكن لا أحد يجهر بما عنده. يتناقلونه مزاحا أو همسا أو تهكما، وإذا ووجه أحدهم بالحقيقة ابتسم في بلاهة. المزاح يظل مزاحا. تضيع الحقيقة بين الجد والمزاح.

استقبل الحاج حيدر ضيوفه بترحات وبشاشة محاولا تبديد الملامح الصارمة التي تلازمه دائما. إنه الوحيد الذي ينتظر هذه المناسبة السعيدة بشوق مشوب بشيء من القلق الحبيس. الكل متوتر. الكل في حالة تأهب لما تسفر عنه هذه المقابلة من مفاجآت قد لا تكون كلها سارة، إلا هو. ينتظرها بفرح. موقن بأنها مناسبة سعيدة لن يدع أحدا يفسدها أيا كان الأمر. حاول الظهور بمظهر لائق. بالغ بالترحيب على نحو أفقده الكثير من التجهم الذي عادة ما يبدو عليه، والوقار الذي ينبغي أن يظهر به أب العروسة حتى لا يبدو متهافتها. قدم القهوة بنفسه. رش على الحضور ماء الورد من مرشات نحاسية. عطرهم بأكثر من عطر. بخرهم بعود الصندل المعطر. وزع عليهم من أفخر أغصان القات، من أعز ما يملك. ووضع أمام كل منهم صياني مليئة بالهيل والقرنفل وسكر النعناع وسكر معجون بالحوائج (جراوش). أعد للمناسبة تمباك سرات بحري. بالغ في المجاملات الكلامية ما بين آونة وأخرى. بذل ما لديه من كياسة وجهد ليسير المقيل على نحو بهيج. لا يعكره إلا نظرات الشباب المتغامزة من عودة الشيخ إلى صباه. بعضهم يهمس في غيرة وحسد. والبعض يسخر شامتا بعد أن كان تقدم لخطبة زهرة ورفضته. والعروس المنتظر يكابد أوجاع هواجس وأحلام غير بريئة تلازمه منذ فكر بخطبة زهرة وتصيبه بآلام ممضة لا يدري لها سببا. تستدرجه نحو ذهول عن نفسه وعن الناس من حوله حتى لا يسمع ما يقولون ولا يفهم ما يدور وإن كان يغطي ذهوله بابتسامة صفراء لا يدري من يشاهدها ما إذا كانت

علامة اشمئزاز أم صرخة ألم أم ابتسامة وقورة متحفظة. لم يكن يتصور أنه سيحظى بزهرة. لم يفكر فيها من قبل. صدفة مغرية. نصيب. قضاء وقدر. كلما عاد من ذهوله ليحدق في وجوه الحضور أحس نظراتهم غريبة ملونة بألوان الغثيان والسعال تكوي ظلوعه وتصيبه بالملل والضيق فيعود راضيا إلى ذهوله وهواجسه البريئة وغير البريئة. ولأن رغبته الحسية في زهرة لا تقاوم لا يتردد في جرجرتها معه إلى عالم الذهول والهواجس والإقدام على اغتصابها دون أن يردعه رادع. أشد ما يخيفه منها أنها تصيب أحشاءه بانتفاخ مزعج وألم ممض، لكنها صارت هوسا يستولي عليه دون أن يفارقه ويزيد هواجسه الماجنة وغير الماجنة إلحاحا ورعبا. حلما لذيذا مزعجا يقض مضجعه ويقلق عليه نومه وصحوه. استكان في مقيله كالمخدر وكأن ما يدور من حوله لا يعنيه من قريب ولا من بعيد مع أن الجمع كله لأجله، إليه تتجه الأنظار الحاسدة والمجاملة. يحلم بتجديد حياته مع زهرة لا أجمل منها ولا أروع. لكل حدث زمانه. وهذه اللحظة زمان يجمع بينه وبينها. ما كان له أن يتقدم، ولا ينبغي أن يتأخر. ما يزال لديه متسع لعمر جميل. يجلس بين الحضور وهو غائب غارق في ذلك العمر الجميل المفقود. قطع عليه استغراقه في حلمه اللذيذ الواله سماعه لهم يقروءون الفاتحة. انتهى الأمر إذا. الأصول تقضي أن يبادروا بالخروج. نهضوا خارجين. فاجأه الأمر. كان يود أن يبقى لبعض الوقت حتى ينحسر ذهوله على نحو تدريجي حتى يستطيع النهوض والمشي بقامة متزنة لا اعوجاج فيها ولا ترنح. تحامل على نفسه ونهض محاولا قدر مستطاعه أن يعود من استغراقه في احلامه وخيالاته واندفع بشيء من الخيلاء يلحق بأصحابه.

أحس والد زهرة أن الوقت قد حان لإبلاغها بالخبر اليقين. يبحث عن طريقة لا تجعله يتشاجر معها أوتضطره للقسوة معها. طريقة تضمن موافقتها أو حتى سكوتها. انتهى الأمر وأعلن ولم يعد هناك أي مجال

للتراجع. لا بد لها أن تقبل الأمر الواقع. وإذا لم تقبل ماذا عساها تفعل؟ ما زحها قائلا:

ـ أتدرين لماذا جاء حسين النشم؟

أجابت دون تفكير وهي منشغلة بتنظيف المكان من آثار الجلسة السعيدة:

ـ لا.

ـ جاء لخطبتك.

اضطربت قبل أن تجيب:

ـ ورفضت خطبته، طبعا؟

رد ببساطة وبابتسامة صفراء:

ـ بل وافقت. ولماذا أرفض؟

لا تكاد تصدق ما يقول. نظرت في عينيه، تريد أن تعرف منه الحقيقة:

ـ أنت تمزح؟

ـ أنا جاد أكثر من أي وقت مضى.

أجهشت فجأة بنوبة بكاء عميقة متواصلة كأنها كانت تستعد له منذ زمن. الدموع أول التحصينات الدفاعية عند النساء. صوتها يعلو بالبكاء وهو يومي لها بيده أن تهدأ. قالت بصوت معجون بالعويل:

ـ لم تسألني رأيي كما عودتني في المرات السابقة.

ـ لمحت لك في الصباح.

ـ لن أتزوج هذا العجوز...

رد بهدوء متصنعا ابتسامة لم تستطع إخفاء انزعاجه من رد فعلها:

ـ بل ستتزوجينه.

أسرعت تجري خارجة من المكان وهو تصرخ:

ـ لن أتزوجه ولو قطعوني إربا.

كان الأب قد اتخذ قراره. ستتزوج حسين النشم بالحسنى أو بالإكراه. لم تكن قد تصورت مقدار التغير في شخصية أبيها وفي معاملته لها، ولا مقدار تصميمه على إتمام هذا الزواج. ياطير كم أحسدك. حريتك في يدك. لا خيار متاح أم زهرة غير الرضوخ والقبول بالأمر الواقع. لا اختيار ولا رغبة. الكل مرغم. الكل ظالم أو مظلوم. الحاج حيدر لا يتردد. إذا قال فعل. يظفر بفريسته إذا استطاع. لا يقوى على أحد سوى على ابنته وزهرته الجميلة. الله غالب فوق الجميع. والأب غالب فوق ابنته. والهواجس السعيدة فوق حسين النشم. يهوى الجمال ويخافه. والأب أقوى من أي اختيار. ورائحة الزهر أكثر نفاذا. لا تعرف الحدود ولا القيود. إذا فاح شذاها الزكي ملأ السهل والجبل، وضمخ الأفق بعطره الفواح. لا يعرف سر زهرة البن إلا من نفذ إلى مكنون شذاها الفواح. ما تزال زهرة التي كانت يوما ما مدللة تعلق آمالا على حب أبيها، وتسامحه معها منذ طفولتها. واثقة أنه سيتراجع بعد أن يهدأ ويعود إلى طبيعته التي عرفتها منذ عرفت نفسها. لم تكن تعرف مدى تصميمه هذه المرة. إذا قال فعل. إذا استطاع ظفر. هي الظفر الوحيد في حياته. لا يقوى على أحد سواها. من العجز أن لا يظفر.

بدأ الشباب ممن استولت عليهم الغيرة لعدم فوزهم بأجمل الجميلات يتندرون من هذا الزواج المعوج. الفوز مدعاة للسرور. والحزن هو الخسارة. وأحمد، الخاسر الثاني بعد زهرة، زاده هذا الحدث اللئيم غضبا فوق غضبه. مصمم على فعل أي شي لمنع هذه المذبحة، لكن التردد والارتباك يستوليان على مشاعره. لا يجد مدخلا يسمح له بمنع زواج امرأة لا علاقة رسمية تربطه بها، لا نسب ولا قرابة ولا وصاية ولا ولاية. هو في نظر الجميع غريب أجنبي لا يحق له القبول أو الاعتراض. موتور ولكن لا شيء يسمح له بالانتقام ممن مارسوا حقهم في اختيار زوج ابنتهم. وإشاعات عشقه لها تقتضي معاقبته بحرمانه منها. لكنه يحاول إقناع نفسه بأنه المسؤول الأول

والأخير عن منع هذا الزواج غير المقبول وكل زواج معوج مثله. زواج زهرة بأي رجل غيره غير مقبول ولا بد له من منعه بأية وسيلة حتى ولو كانت الإقدام على ارتكاب جريمة. الحب إقدام. إقدم تسلم. والإقدام مغامرة واندفاع. لا حب بلا مغامرة. يسري عن نفسه بسماع تعليقات الناس الساخرة على الخطبة.

جمع قدرا كبيرا من التعليقات الساخرة والأشعار الشعبية التي تتناول الموضوع وأغرى الأطفال بترديدها ونشرها بين الأهالي، وظل يرددها مع نفسه تعويذة تهديء من غيظه. مال إلى العزلة والتزم الصمت على غير عادة واستولى عليه الضجر والكآبة. يضطره عجزه المهين إلى التخلي عما يزعم لنفسه من شجاعة وحب مغامرة وعناد. أحيانا يتنابه النفور من نفسه وخصوصا من زهرة لأنها سلبته حرية كان يعتز بها في وسط مستسلم. جعلته يحس بعجز يكابر ولا يريد الاعتراف به. يمشون منحني الظهور ويمشي باستقامة مبالغ فيها. أجسامهم نحيلة كأنما ينخرها السل في حين لا يمل المران على فتل عضلاته المتواضعة. يراهم شاحبي الوجوه وعلى وجهه ابتسامة حانية. خشوعهم موت. واستسلامهم مجبول بالحمى. يكدون في أرض السيول الجارفة والموت عطشا. أرضهم أرض خراب يلفها الخصب والمجاعة. تنبجس منها رائحة أزهار البن العطرة وأقدامهم غارقة في الوحل. يدبون مكدودين منهكين على جبال تغتسلها دموع الصخور ما بين آونة وأخرى، وتحلق عليها النسور الباحثة عن جثث السوائم الميتة، والجوالب المغردة. حزنه الدفين لا تخففه السنون، وغضبه غائر في الشرايين والخلايا. صمت العجز والهزيمة يحيط به من كل الجهات. ينتظر فرجا مشكوك في قدومه. كان يحتقر إذعانهم للظلم ويردد عليهم: أمامكم خيارين لا ثالث لهما: أن تسحقوا القلعة وتقذفوا بحجارتها إلى الهاوية وتطردوا منها عسكر أمير المؤمنين أو أن تسحقكم وتحيلكم غبارا وقطرانا. يستطيعون أن يردوا له الصاع صاعين. أن يقولوا

له: أمامك خيارين لا ثالث لهما: أن تقتل الحاج حيدر أو تطرد حسين النشم أو أن تنتحر. لماذا أصبحت جبانا إلى هذا الحد. هل كانت شجاعتك بمجرد كلام مقابل؟ ذهنه مشتت، أشبه بالمشلول. عاجز عن الوصول إلى حل محدد. إلى مغامرة ذات معنى أو حتى بلا معنى. ينتظر معجزة سهلة تغير سير الأحداث. أحيانا يتمنى أن يتراجع الحاج حيدر أو أن تبتلع الأرض حسين النشم وينتهي كل شيء. يغالط نفسه وهو يعرف أن شيئا من هذا لن يحدث. يغطي عجزه بأمل كاذب خرافي.

وزهرة نفسها لا تدري ماذا تفعل. مستسلمة لإيمانها الساذج بأن عهدها الوثني لا يكذب. إيمانها راسخ بأنها ستفوز بما تريد في النهاية طال الوقت أم قصر. مصممة على رفض هذا الزواج بلا مبالاة عجيبة. لا تفكر بما تخبيء لها الأيام. لأول مرة يتصرف أبوها معها مثل كل الآباء. يشتاقون دائما إلى زمن وأد البنات ويجددونه بالحيلة أو بالإكراه. لم تعد تجرؤ على مناقشته في الموضوع و لم يعد يذكر ذلك أبدا. الإعداد للعرس يسير على قدم وساق وهي تتصرف وكأن الأمر لا يعنيها. ترى اباها ينسق مع حسين النشم وهي منصرفة عن الأمر بالغرق في بحر الفراغ المريح. انطوت على نفسها دون مشاكسة أحد. تجنبت اللقاء بالنسوة حتى لا تسمع منهن أي خبر عن عرس حزين. أصبحت حديث الجميع. تحاك حولها الإشاعات والقصص والحكايات. وتؤلف النساء الأغاني والمهاجل. البعض يدفعهن فضول مرضي. والبعض تدفعهن الغيرة. ويدفع أخريات الإشفاق والرحمة. أما النساء اللواتي رفضت الزواج من ابن أو قريب لهن فدافعهن التشفي والشماتة. لا تستمتع بلحظات هانئة إلا في الداخل المحاصر، في حياة أحلام اليقظة المنطلقة من عقالها والهرب حتى آخر جدار للتصور. صورة أحمد تحتل مساحة أثيرة في مخيلتها، تؤنسها في وحشة الحصار والضياع. تخفف عنها مرارة الحسرة العقيمة. لكنه بعيد لا تعرف ماذا يفعل ولا ما يفكر به من مخارج

من هذه الورطة القاتلة التي جرها إلى وهادها. لا يساورها أدنى شك في أنه يفعل ما يستطيع لتمهيد سبيل اللقاء الحبيب وإن لم تعرف بالضبط ما يستطيع فعله. اكتسبت عادة الحديث معه لساعات في سرها. تكون جسدا مع أفراد أسرتها في حين تكون غائبة معه في رحلة ممتعة بعيدة لا قرار لها. تمازحه وتلهو معه وتتبادل الطرائف والنكت والهمسات والقبل. وأحيانا تتشاجر معه وتؤنبه على أشياء صغيرة حميمة. علا وجهها الشحوب بمرور الوقت. لاحظ أبوها ذبولها وإن لم يسألها عما بها. هكذا تتصرف النساء عند اقتراب عرسها. العرس الغادر يقترب وزهرة تبتعد. تقترب القصة من نهايتها لكن الحكاية تبدأ عندها من أولها. تتصرف وكأن التي ستتزوج امرأة أخرى لا تعرفها ولا تربطها بها صلة قرابة أو حتى تعارف. تمضي بلا اكتراث. مشاعرها تمانع حتى بمجرد التفكير في هذا العرس المأتم. لا أحلام ولا رغبات ولا مطالب. لا استعدادات ولا ثياب جديدة. أبوها يعد كل شيء، إن كان يعد شيئا، بنفسه دون أن يستشيرها. عرس غريب لرجل وامرأة غريبين. سألها قبل العرس بيوم واحد يمازحها من باب إعدادها لهذا الإنتقال المهم في حياتها وليس لمعرفة ما تريد:

ـ ماذا تريدين أن احضر لك لزواجك غدا؟

أجابت بلا مبالاة وشرود:

ـ لن أتزوج.

واصل الحديث وكأنه لم يسمع ردها:

ـ اطلبي يجاب طلبك. هذا وقت تستجاب فيه كل الطلبات والدعوات. تمني تصلي إلى أمنيتك. كم مرة يتزوج المرء في العمر؟

كررت إجابتها السابقة:

ـ قلت لن أتزوج.

- الناس استعدوا. أنت بنت عاقلة. لن تجلبي لنا الفضيحة بتمردك يوم زفافك.

العقل مصيدة. الجنون فنون. جنون يفك أسرك ولا عقل يزج بك في قعر جب لا ماء فيه ولا هواء ولا حياة. الفضيحة بيع الذبيحة بالجملة. فضيحة من؟ عقل من؟ بين البائع والمشتري ضحية. مدي عنقك للذبح برضى. القبول طريق السلامة.

- نبهتكم منذ البداية أنني لن أتزوج.

- عيب. ماذا يقول الناس عنا؟ لا نحترم كلمتنا؟ أن النساء تفرض رأيها على الرجال؟ عيب.

- يتزوجوه هم إن أرادوا.

- تعوذي من الشيطان.

- يتعوذ هو مني. لن أتزوج ولو حضروا كل الشياطين.

- ماذا دهاك؟ كنت بنتا عاقلة.

- كنت عاقلة.

- أأصبحت مجنونة؟

- كل الناس جنوا. هذا الهيكل المتداعي عند ما يريد الزواج بي غصبا عني أليس مجنونا؟

صرخ فيها:

- اسكتي...

وصفعها صفعة خضبت شفتيها الجميلتين بدم قان حار بحرارة انفعالها المكتوم. كان لتلك الصفعة وقع الصاعقة في كيانها كله. لأول مرة يصفعها. سرت في جسدها البض موجة عارمة من الإنفعالات المتداخلة تجاوزت كل مألوف. تخشب جسدها النضر وتحول إلى كتلة من صخر ورماد. أحست بحالة عجيبة من المشاعر الغريبة اللذيذة في عنفها. البادي أظلم. البادي أحق باللوم. ألغت كلمة الإستسلام من

قاموس حياتها. الفضيحة أن تستسلم. أن تمد عنقك للذبح مبتسما. أن تتقاعد من الحياة قبل دخول معمعتها. أن تطرد نبضات قلبك من صدرك. أن تغتال البسمة الهائمة على شفتيك الملتهبتين. لم تبك. لم تتذمر. لم تصرخ. لم تعترض. انسحبت بهدوء. اتخذت قرارها الأبدي. وطنت نفسها على مواجهة كل الصعاب بصدر رحب. بمشاعر ثابتة. ألطم بأقصى ما فيك من قوة. زهرة التي عرفتها ذبلت بذبول زهرات البن الفواحة بعطر الحب والاشتياق. تفتحت عن زهرة لم ترها في حياتك.

الكل يتوجهون لرد دين حضور العرس، وردّ الدين واجب. أحمد وحده لم يحضر. يفكر بافتعال مشاجرة أو ارتكاب جريمة أو عمل شيء مثير يمنع تمام الزواج أو يؤجله. راودته فكرة دحرجة صخور الجبل على بيت حسين النشم، أو إطلاق أبقار القرية وحميرها وقططها على مكان المقيل. مغامرة طائشة مناسبة لولا جبن دفين يلبسه لباس عقل يمنعه من مواجهة الجميع خشية أن يعطيهم فرصة للتكالب عليه وتقديمه قربانا للقلعة دون أي مردود عليه وعليهم. أصعب ما في هذه المغامرة الصغيرة أنها تجعله أضحوكة يتلهون بها في مقائلهم الفارغة. فكر في نهب زهرة والهرب بها إلى أقصى الأرض حتى ولو كان الاصطدام بجيرانه ومعارفه أصعب على نفسه إلا أن من السهل الهرب منفردا لأن شذى زهرة لا يختفي بسهولة. ستكون دليلهم لتتبعه بحاسة القطط المتوحشة. من أين له بجنون نافع والجنون لا يكون لمعنى. بمغامرة لا تكون من الإيغال بحيث تحرمه من الفوز بزهرة. أحيانا يكون العقل نقمة تشل الأعصاب والتفكير. كلما فكر بطريقة للتصرف عاد خائبا. انسدت أمامه المنافذ والحيل. حمل هراوته الغليظة وظل يقطع الطريق من رأس القرية إلى أسفلها ويعود في الإتجاه المعاكس. يبحث عن مبرر لعمل شيء ما لا يدري ما هو. يمشي بهمة عالية كأنه مكلف بعمل لا يقبل التأخير.

يتوقف فجأة كأنه تذكر شيئا مهما. يتسمر في مكانه دون أن يلتفت يمينا أو شمالا. يواصل السير حتى إذا وصل قرب بيت العروس أسرع في مشيه كأنه يتجنب الدخول في عراك مع عدو خطير يخشى على حياته منه التلف.

وأبو زهرة يتردد على غرفتها التي اعتكفت فيها رافضة ارتداء أية ثياب جديدة أو استقبال أية امرأة. همَّ أكثر من مرة بضربها حتى تستسلم، لكن أملا طفيفا ما يزال يراوده في أن ينجح في إقناعها بالإذعان للأمر الواقع. كل مرة يحاول الحديث معها يصل إلى ذروة الغضب من عنادها ولا مبالاتها. يتمالك نفسه بصعوبة، وهي تجلس في المكان نفسه دون حراك. لا تتكلم ولا تضحك ولا تبكي. متخشبة كأنها ميتة. داخله شك بأنها جنت. لم تحدث لها هذه الحالة في أي وقت من حياتها ولا يوجد في علاقته الحميمة معها ما يشير ولو من بعيد إلى أنها ستواجهه على هذا النحو. لعلها فقدت عقلها. لم يعد أمامه من مجال للتهرب وتغيير سير الأحداث التي تمضي الآن بقوة العادة نحو اقتيادها المؤكد إلى بيت زوجها، فقدت عقلها أم احتفظت به.

وحين وصل رسل النشم لاقتيادها إليه مصحوبة بأبيها وثلة من قرابتها أسرع لاستقبالهم. تقضي الأصول أن لا ينتظروا طويلا. صب لهم القهوة حتى يتمكن من بذل آخر محاولة معها. عاد إليها ذاهلا أمام الورطة غير المعقولة التي يجد نفسه يواجهها. خارت قواه. يكاد ينهار من الإحراج والارتباك. جلس أمامها وثبت نظره في عينيها حتى شرقت عيناه بالدموع. قال لها بصوت متهدج لم يكلمها بمثله في حياتها:

- ساعديني. أرجوك. مرري هذا الموقف وأنا مستعد أن أساعدك على الطلاق في أسرع وقت ممكن.

لم تجب. ظلت صامتة كالصنم. انتابه غضب كاسح. انتفض واقفا ثم عاد منتفضا ليصفعها صفعة فاجأتها ولوت عنقها. ركلها بقدمه

اليمنى في الظهر. زاد هياجه عندما رآها تكورت على نفسها مستسلمة للضرب لا تقاوم، ولا تطلب الرحمة، ولا تبكي، ولا تضحك. لا تتوسل ولا تحتج. لا تسخر ولا ترجو شيئا. يحس أن انتظارهم طال أكثر مما يجب. أسرع إليهم يكرر الترحيب بهم ويبالغ في مجاملتهم بافتعال ملحوظ. صب لهم القهوة بعد القهوة. لكن أحدا لم يذقها علامة على تبرمهم من مماطلته. يلحون على الخروج في شكل استئذان بالخروج يتكرر في ضيق وانفعال مكتوم. لا أحد يمنعهم ولا أحد يرجوهم أن يبقوا. تأخر الوقت عن المعتاد. كلهم يحرص على المعتاد. كلهم يحرص على أن لا يفعل شيئا من ذات نفسه. طلب إليهم فجأة في حركة مسرحية التحرك دون تفكير. نهضوا متجهين نحو الخارج حاملين في أياديهم أتاريك البترومكس.

وما أن وصلت بيت العروس حتى مضت مباشرة إلى الغرفة المخصصة لها وأغلقت الباب على نفسها مواصلة الاعتكاف الذي بدأته في بيت أبيها، فانقلب العرس إلى تهامس وإشاعات وسخرية من عرس لا تشترك فيه العروسة. أما أبوها فقد انزاحت جبال من الهم وبراكين من الإنفعالات عن كاهله ونفض يده من المشكلة بكل حذافيرها بعد أن انتهى أطول يوم في حياته كأنه يوم الحشر. ألقى بالمسؤولية كلها على زوجها الذي جاء دوره للمساهمة في حل هذه المشكلة. كل البنات يتمنعن في البداية. زهرة بالغت في التمنع أكثر من اللازم. ماذا عساها تفعل. ستعود على زوجها. طفل واحد يكفي لإخماد ثورات النساء كلها. والوقت كفيل بحل أصعب المشكلات. ولا يملك سوى أن يدع له تولي بقية الأمر.

خرج الناس من السمر بعد منتصف الليل بساعة أو ساعتين. يترنحون كالمخدرين من السهر والمكوث في المكان نفسه لساعات طويلة دون تغيير هواء المكان المشبع بالأنفاس وبدخان التنباك القوي. صعب

على كبار السن وضعاف النظر مواجهة الليل بعد ساعات من التحديق في ضوء الأتاريك الساطع. نسيم السحر البارد يلفح وجوههم حال خروجهم من جو داف بعد أن بللهم العرق لساعات وتجمد خلال المقيل والسمر لساعات طويلة على أبدانهم وتخلل ثيابهم. سرت برودة السحر في الأجسام المتخشبة فزادتها خورا، و تسرب صمت آخر الليل إلى المشاعر فزادها خشوعا، ولفهم الذهول في ظلمة الليل وجلال المشهد الطبيعي. تمتد الجبال شمالا وجنوبا في الأفق اللانهائي. وينحشر الجسد في ذاته حتى يكاد يغيب في الداخل. ساعة خليقة بالتهجد ومفارقة المادي والمحسوس.

عاد الجميع إلى مهاجعهم منهكين ما عدا حسين النشم. حلت ساعة العمل عنده. ساعة المواجهة المنتظرة ومواجهة الهواجس المزعجة وتخفيف آلامها الممضة التي لا يدري متى بدأت ولا يعرف لها سببا. قد يسمح له بدء صفحة جديدة في حياته مع هذه الفتاة الشابة الجميلة بعلاج هذا الاحتقان الذي يحول لحظات هدوئه إلى عذاب لا يطاق. انسل من بين زحمة القائمين على خدمة العرس متجها من فوره إلى غرفتها. هذه ساعة تعارف. يعرفها منذ زمن بعيد. منذ كانت طفلة صغيرة حتى كبرت وشبت. هذا تعارف من نوع خاص. تعرف الرجل على زوجه. الإنهاك يهد جسده. يحس بما هو أكثر من التعب. يحس بانهيار تام يشل جسده بعد مقيل وسمر مضغ خلالهما كمية كبيرة من أغصان القات، وابتلع الكثير من رحيقها، وامتلأت رئتاه بدخان كثيف من التنباك المحترق طوال تلك الفترة. يحس بدوار في الرأس، ودوي في الأذنين، وألم في المفاصل، وجفاف في الحلق، والتهاب في اللثة والأسنان، وانتفاخ في الأحشاء، وهواجس موغلة. ينتابه خوف حقيقي من أن لا يتم التعارف كما يجب. هيبته كزوج تعتمد على هذه اللحظة. وجد باب غرفتها موصدا. طرق الباب مرة، مرتين، ثلاثا. لا أحد يرد. انتظر قليلا. يرغب في العودة من

حيث أتى. هذا يناسب حالته المتعبة وجسده المتداعي. يتمنى ذلك من أعماق قلبه. لا يمنعه إلا الحياء من أن يطلب منها التريث إلى وقت مناسب. لا يستطيع اليوم الإقدام على أية مغامرة شبابية. ولا حتى أن يتكلم مع أحد. يرغب في البقاء بمفرده وإلقاء نفسه على السرير لينام يوما أو يومين أو ثلاثا حتى يستعيد قواه، ويتمالك أعصابه من جديد. لأول مرة ينتابه شعور بسخافة المغامرة التي حشر نفسه فيها دون مسوغ. أحس بأن زهرة حملته أول جميل بأن أراحته من وطأة الوقوع في أسر إحباط مهين. لا تدري أنها قد خدمته بتمنعها وإغلاق بابها. هذا غاية ما يتمناه هذه الليلة. خشي أن تكون ما تزال في مكان آخر من البيت. ستسخر منه وسيجلب لنفسه فضيحة بجلجلة إذا تسربت أخباره خارج البيت. تردد قبل أن يسأل. بحث عنها في أنحاء البيت من باب مراعاة الشكليات. تطوعت كبرى بناته فأخبرته أن العروسة أغلقت الباب على نفسها منذ لحظة وصولها و لم تقابل أحدا أو تكلم أحدا. لم يكن في وضع يسمح له باستغراب هذا التصرف الغريب. كان عاجزا عن فهم أي شيء، أو التساؤل عن أي شيء. كل ما يريده أن يلقي بجسده المتعب المهدود بالانهاك في مرقده وليكن بعدها ما يكون. عاد يجرجر نفسه بصعوبة إلى باب غرفتها. عاود الطرق الخفيف والدوار يكاد يطوح به على الدرج. أغلى أمانيه الآن أن لا تفتح. ظل الباب موصدا فحمد الله واتجه برضى إلى غرفته. ألقى بنفسه في إعياء وقد أصاب الإرهاق كل خلية من خلاياه. نام بسرعة غير متوقعة. لا تأثير القات ولا توتر الأعصاب منعه من النوم بسرعة.

استيقظ عند الظهر لا يطيق تحريك عضلات جسده إلا بصعوبة بالغة. اغتسل بماء بارد عله يبعث فيه شيئا من النشاط والحيوية. تناول فنجانين من قهوة القشر بالزنجبيل والقرفة، والتهم بصعوبة ملعقة كبيرة من العسل الذي يعلق عليه آمالا عريضة لمساعدته في مهمته المؤجلة،

وأسرع بالخروج لتأدية صلاة الظهر وتحريك عضلات جسده المتيبس من السهر والهم ومضغ كمية كبيرة من أغصان القات. تحلق حوله الأصدقاء والأقارب باسمين يتهامسون:

ـ أدام الله السرور.

اقترب منه صديق وهمس في أذنه اليمنى:

ـ أكل شيء على ما يرام؟

قال أخوه مازحا:

ـ يا جماعة الخير عيب عليكم. دعوا العروس لفرحته.

كان يستمع إلى دعاباتهم باسما في خور وهبوط في القوى هاجمه في غير أوانه، دون أن يرد عليهم. من حقهم أن يمازحوه في مثل هذه المناسبة، ومن واجبه أن يستمع بصدر رحب دون أن يخوض معهم في أي نقاش جدي. الإبتسامة توحي بالجواب. تخفي ما يعتمل في النفس من فرح أو حزن أو خوف. كل منهم يتخيل حفلة عرس لاهية ممتعة على نحو غير مألوف عاشها العروس وعروسته في تلك الليلة. كلهم تزوج ويعرف حقيقة ما يدور بين المرء وزوجه في الليلة الأولى. لكن الأوهام والخيال المريض تصاحب كل مناسبة مماثلة. تعبير عن متعة مكبوتة. عن رغبة حبيسة في اللهو أو في المجون.

واصلت زهرة الإعتكاف في غرفتها حتى جاءت قريباتها وصديقاتها. الإحتفال في اليوم الثاني من العرس مخصص للأقارب والنساء. ارتدت ثيابا متواضعة لا توحي بأنها سعيدة بهذا الزواج. بدأت تعليقات النسوة تتالى، وبخاصة سليطات اللسان ومن في قلبهن حسرة أو عدم رضى عن هذا الزواج الحزين:

حزينة ياعيني. لمن تتزين. لا يوجد ما يشجع على التزين.

من تتعرف عليها لأول مرة قالت إنها جميلة لكن لا تعرف كيف تتزين لكل مناسبة بما يناسبها. ارتدت للزفاف ما يجب أن ترتديه في

التقاء عادي بصديقات. قريبات أحمد تهتم بهذه الأخبار وتعيد صياغتها مضيفة عليها هالة من المبالغة والتوابل، وينشرنها مفاخرات بقريبهن، أفضل الشباب. لم تنس في كل مرة يسربن فيها خبرا مبالغا أن يقلن:

- الله يسامحنا. الله يجنبنا المعاصي.

وثورة أحمد ورغبته في المغامرة التي تجعله يفي بعهد زهرة أو في ارتكاب جريمة لإطلاقها من سجنها أسفرت عن لا شيء. يقبع كالوطواط في داره متواريا عن الأنظار. وبمرور الوقت يفقد اتقاد الغضب، ويغرق في هدوء التفكير العقيم. لا يطيق حتى مجرد تخيل أن زهرة في عصمة رجل آخر، ويحاول تجاهل وضعها قدر ما يستطيع لكن ذكراها تلح على مشاعره ولا تترك له أي مجال للهدوء أو التهرب. يصارع حضورها في داخله ويطرد إلحاحها عليه عله ينسى. يستغرق في تخيل مشاريع وهمية عنترية تنهد كقصور من رمل ساعة العاصفة. ويسري عن نفسه بسماع أخبار مقاومة زهرة ورفضها لحسين النشم وقد بدأت أخبارها تتسرب شيئا فشيئا، أعفته من مسئولية المبادرة بعمل سريع ينقذها من هذا المصير، وهدأت من روعه بعض الشيء وإن زادت أوار تعلقه بها، وقبرت كل محاولة لتجنبها، بعد أن كان الجميع يحظه على التخلي عن أوهامه ونسيانها، ويصده عن الإهتمام بها. يقولون له إنه ليس أول من يخطب امرأة ويفشل ولن يكون الأخير. لو فعل مثله كل خاطب لم يوفق في محاولته لما تزوج رجل ولا امرأة. كل محاولة معرضة للنجاح أو الفشل. تكرير المحاولة سبيل النجاح. لكنهم لا يقولون إن زهرة عاهدته عهدا غريبا ووفت بعهدها. ولا يدركون أسرار عهدها الوثني الغريب الرائع. الأمر مختلف إذا. علاقته بزهرة مختلفة وهم لا يدركون هذا الإختلاف. هم يرون أن زهرة حلت مشكلتها بالزواج. وهو موقن أن مشكلتها بدأت بهذا الزواج. الأمر مختلف إذا. هم لا يرون هذا الإختلاف. يرون أن زهرة مثل كل النساء. وهذا وهم لا

يستطيعون تبينه. يحتاجون إلى قلب كقلبه، وإلى عهد كعهده الدموي مع زهرة حتى يدركوا أنها ليست كبقية النساء.

تواصل الغمز واللمز دون أن يدرك أحد برغم الفضيحة المتوارية الذي يتخلق ببطء بعيدا عن الأنظار. البعض يهمس، والبعض الآخر يمازح بصوت عال:

- ليلة مباركة.

- ليلة محمدية.

- أدام الله السرور.

- ليت والله ومن هو عروس كل ليلة.

- .....

والعروس يستمع لكل ما يقال مبتسما في امتعاض أحيانا، متظاهرا بعدم السماع في قرف أحيانا أخرى. وما أن انصرف الحضور في وقت مبكر من الليل حتى بادر بالذهاب في سرعة إلى غرفتها. يريد أن ينتهي من عمله المؤجل منذ الليلة الماضية. حاله اليوم أحسن بكثير من حاله بالأمس. قد ينتشر الخبر. حينها ستبدأ السخرية به. ينتظرون منه أن يفتح سور الصين العظيم وأن يصنع لهم أمجادا مدوية لا حياة لهم بدونها. طرق باب غرفتها. فتحت على الفور. كانت تنتظر المبارزة، لا تريد تأجيل مواجهة لا داعي لتأجيلها. الآن لحظة صدق. لحظة إفصاح عن النوايا. لحظة يضع كل من العروسين نفسه مجردا من الحجب والأقنعة أمام عرسه. لا داعي للماطلة. حانت ساعة القرار. أمامك طريقين. طريق السلامة وطريق الندامة. طريق القبول والاستسلام وطريق المواجهة والاستعداد لمواجهة الصعاب. فرح واسترخت أعصابه المتوترة وتفاءل لفتح الباب دون تمنع ولو ظاهري. ألمر صبر الأمس. العجلة من الشيطان. هاهو الباب ينفتح بهدوء دون ضجة ولا إحراج. دارت بخاطره الفضيحة التي كانت ستحدث لو كان ركب رأسه بالأمس. لا

يعيش وحيدا في البيت. سلم برد راسما على وجهه المغطى بتلافيف الهم الدفين وبلحية شذبت خصيصا لهذه المناسبة السعيدة ابتسامة قط ينوي افتراس فار وديع. لم ترد على تحيته لا بأحسن منها ولا بأسوأ منها. تجاهلتها كأنها لم تسمعه. لم يعر سكوتها اهتماما. ظنها تعبيرا عن ارتباكها وخجلها. أمر معروف لمن له خبرة بالنساء في مثل هذا الموقف. هكذا النساء في أول لقاء. حاول أن يلطف جو اللقاء بالحديث معها. روى لها بعض النوادر المتوارثة التي تحفظها منذ طفولتها. ظلت معرضة عنه تتجاهل وجوده في ثبات، مازحها ببعض العبارات السمجة. كشف عن قلة حيلته وضعف موهبته في حكاية النكت وفي المزاح فزادها نفورا إلى نفورها. لاحظ أنها مغطاة بثياب فوق الثياب. لا يهم. حين تحل لحظة الوصل تنقشع كل الأغشية والحجب. كان واثقا من نفسه كل الثقة. ولماذا لا يكون واثقا من نفسه؟ ليس شابا عديم التجربة. مد يده لمداعبتها. صدته. هكذا النساء. يتمنعن وهن راغبات. بنت أصول. لا تسلم نفسها بسهولة. احترام الأصول واجب. عاد إلى مداعبتها بشيء من العصبية. ردته بعنف. ضحك ضحكة انفعال هستيرية وقد اعتراه الهياج. يريد أن ينتهي من مهمته بسرعة خوفا من أن تفقد الآلة قدرتها على مواصلة المزاح لوقت طويل. لن يستطيع عندها أن يفعل شيئا هذه الليلة. ستندم لأنها ضيعت فرصة مواتية وسيخجل هو من عجزه. قررت أن تضع حدا لهذه المناوشة التي تصيبها بالغثيان. قالت بلهجة صارمة:

- اسمع. لا أريد أن أضحك عليك. أنت رجل عاقل وفاهم. لن أكون لك زوجة أبدا.

- كل زواج يبدأ بعدم تفاهم. بمرور الوقت ينتهي كل شيء على خير.

- لن يمر زواجنا على خير.

- لماذا؟ لم أفعل بك شيئا تكرهينه. لم أقل شيئا يسوؤك. ما نزال في أول الطريق. وإنشاء الله...

- لا أريدك زوجا حتى لو قطعوني ورموني للكلاب.

لا يصدق ما يسمع. لا يعرف بعد سبب رفضها له. هل هي جادة أم تبالغ في تمنعها لتعطي لنفسها مكانة أكبر وقيمة أهم في نفسه. الأمر على كل حال لا يبشر بخير منذ البداية.

- اهدئي اليوم وغدا نتفاهم.

- غدا مثل اليوم مثل بعد غد. طلقني. لا أصلح لك زوجة.

كانت تجيب بسرعة وبثقة. لا يداخلها أي تردد. لا تبحث عن الإجابة. تبدو وكأن إجاباتها جاهزة مدروسة. ومع ذلك لم يفقد الأمل.

- تعوذي من الشيطان. غدا نتفاهم.

تركها وعاد مصدوما بما سمع. لا يعرف سببا لهذا الموقف الجنوني. يعرف أن البنات يتمنعن. لكن ما قالته أمر لا يصدق. أغرب من الخيال. أحس منذ البداية أنه لا يملك سوى الصبر والتصرف بحلم وحكمة حتى تستسلم للأمر الواقع. سيتحمل دلعها حتى تتمرن على الحياة الزوجية مثل غيرها من النساء. أحس عندها أنه أساء اختيار الزوجة التي يقضي معها بقية عمره. لا داعي للندم. الآن زهرة زوجه وسينتهي تمردها بالإذعان. ماذا عساها تفعل. لا شيء أهون من كبح ثورة امرأة. جنين في أحشاء امرأة كفيل بإخماد ثورات كل الطائشات أمثال زهرة. طفل شقي واحد كفيل باخماد كل ثورات الرجال.

كرر المحاولة في الليلة الثالثة. دخل غرفتها حائرا محبطا لا يدري كيف يتصرف معها. رسم استراتيجية ماكرة لا تصدر إلا عن داهية مجرب. قرر أن يزاوج بين اللين والقسوة حتى لا يبرحها إلا وقد خضعت لإرادته إلى الأبد. بدأ بمناوشتها في شيء من الرقة والرغبة لكنها صدته بعنف واشمئزاز. حاول أن يخلع ثيابها بالقوة. أذهله أنها كانت ترتدي تحت قميصها ثيابا أخرى وقد ربطت فوقها بالحبال بين فخذيها حتى العنق والخصر. قال لها ساخرا:

ـ ما يشدوا هكذا إلا الحمير.

لم تنطق بكلمة. كانت قد تحولت إلى هراوة مقاومة. تصارع بكل ما فيها من قوى ومن مشاعر. حاول أن يصل إلى الإمساك بطرف الحبل المشدودة به لينزعه وينفذ استراتيجيته المحكمة. الحبل ممدود حتى آخر مدى. قاومته بقوة منعته من أن يهتدي إلى طريق ترشده إلى بدايته. بدأت المصارعة الحرة. كل يدفع خلالها بآخر أسلحته الماكرة أو الفتاكة. الصبر والرفض سلاحها الحاسم. من صبر ظفر. استفزه تصرفها حتى النخاع. ضربها ضربا غير عنيف علة يبقي على هامش للمناورة والمساومة. يفضل أن تقبل بمصيرها بالتراضي. الاستسلام دون مقاومة هدفه الأول وأمنته الغالية. فكر بتوسيط أبيها. قدر أن الأمر ما يزال مبكرا قبل أن يطلب وساطة أبيها. ينبغي أن يبذل جهدا من جانبه لكسب ودها. أحجم عن البقاء معها في المكان نفسه. سيجد نفسه منساقا للإشتباك معها. أمضى ليلة قلقة. غادره النوم واستولى عليه الأرق. وفي الليلة التالية جاء وقد قرر أن ينهي تمنعها باللين أو بالقوة. لم يعد يطيق هذه المناوشة السخيفة. لن يلجأ إلى القوة إلا عند الضرورة، لكن قناعته باستخدام القوة لإخضاعها تزداد. بدأ يقتنع أن لا حل غير ذلك. باب غرفتها مغلق. طرق الباب بهدوء. لم تفتح. واصل الطرق الخفيف. لا يريد أن يعرف أولاده ما يحدث بينهما من عراك صامت. وضعه لا يسر. يتلاحق في كهولته مع طفلة لاهية تتسلى بإهانته أمام أولاده وبناته. لا أحد يجرؤ على إهانته والإستخفاف به إلا هي. تستمتع بإظهاره بمظهر العاجز الذليل وتعبث به عبث المجانين. إذا انتشر الخبر أصبح أضحوكة وفقد هيبته أمام الناس. استولى عليه غضب عارم. نوبة من الإنفعالات العاصفة تجتاح أعصابه. لا يقبل أن يجد نفسه في هذا السن بتصرف كالمراهقين. طرق الباب طرقة حنق وعاد إلى غرفته منزعجا أشد الإنزعاج من هذه المهزلة التى ألقى بنفسه فيها دون أن

يشعر. ضاعف السهر وعدم النـوم لليـال متواليـات مـن توتـره وانفعالـه. تردد مرات على باب غرفتها علها تفتح. يصعد إلى سقف المنزل ثم يعود لطرق الباب طرقا خفيفا والباب صخـرة موصـدة لا تلـين ولا تتزحزح. ظل يتردد بين ديوان الجلوس والسقف وغرفتها حتى انبلج صباح مكفهر ملبد بالدماء. وما أن سمع الباب ينفتح في أول شعاع للفجر حتـى اندفـع هائجا إلى الداخل وأغلق الباب من ورائه بالمفتاح. حـاول الإمسـاك بهـا لكنها صدته ودفعته بقوة حتى طوحت به على الأرض. هجم عليها وهو في حال من الهستيريا. واصل اللكم والصفع والركل وهي متكـورة علـى نفسها لا تقاوم. تحملت الضرب حتى لم تعد قـادرة علـى تحمـل المزيـد. وعندها أطلقت لصوتها العنان وصرخت بأقصى طاقـة لصوتهـا. جلجـل صوتها في هدوء الصباح حتى أيقظت الناس من نومهم. واصلت الصراخ دون توقف. أقبل أولاده وبناته يسرعون لمعرفة ما يحدث. وحين وجـدوا الباب مغلقا عادوا أدراجهـم. ظلـوا يستمعون لصوتهـا يجلجـل ويشـكو ويستغيث ويطلب النجدة. ضربها حتى كلّ من الضرب. سـالت الدمـاء مـن أنفهـا وفمهـا ورأسـها. خـرج هائجـا منهكـا وأغلـق البـاب عليهـا بالمفتاح. ولما حل مساء مكشر كناب الأفعـى وجـوف التنـين عـاد إليهـا وهو مستعد لعمل أي شيء لمصالحتها وبدء صفحة جديدة معها ونسـيان كل ما حدث. سيستجيب لكل مطالبها لكنهـا لا تطلـب شيئا. سيقبل كل شروطها لكنها لا تفرض أي شرط. مسـتعد لتقديـم كـل التنـازلات ليصل معها إلى أي حل. سيحاول البحث معها عن حل وسط تقبـل بـه. ومع ذلك يحس في أعماقه بالمهانة لمعاملتها لـه علـى هـذا النحـو وبخاصـة أمام أولاده وبناته. كيف يواجههم بعد هذا؟ لن يرضخ لدلعها. لن تجلب على نفسها سوى المضار. هي التي ستتعرض لـلأذى. سـيدعها مسـجونة هكذا حتى تقبل بمصيرها المحتوم. شيء ما يشده إلى المصالحـة معهـا رغـم كل شيء. لم ينل منها بعد ما يطمح ويرغب.

كانت قد احتاطت لنفسها تلك الليلة وقررت أن لا تستفزه ولا تثير غضبه. جسدها كله يصرخ بالألم من شدة الضرب. ترغب في صده بالحسنى إن أمكن. لكنها قررت قتله إذا واصل ضربها. وحين جاء يمشي متهاديا مختارا ظلت صامتة. صمتها يزيده غضبا وهياجا. لم يعد يجد الكلمات لملاطفتها أو حتى للحديث معها وخانه هدؤه وحلمه. غير قادر على تصور أن يجروء أحد على أن يسخر منه وأن يستهزيء به على هذا النحو. اندفع فجأة يباشر نزع ثيابها من فوقها. مزق قميصها بعنف. حاول البحث عن طرف الحبل لنزعه. قاومته. صفعها. ردت على الصفعة بصفعة قوية في الوجه. طار صوابه. هجم عليها في موجة جنونية من الضرب. لم تصرخ هذه المرة. ردت بكل ما تبقى فيها من قوة. بيديها ورجليها. استعانت بأظافرها وأسنانها. حولت اتجاه المعركة. كان يقاتلها مركزا كل ثقله على احتلال مركز الثقل الواقع في مكان ما بين الفخذين المحمي بوسائل شتى. استخدمت التكتيك نفسه وركزت على مركز قدرت أنه يتحكم في قواه الهجومية ويقع في المكان نفسه بين فخذيه، مع فارق يسمح بالإطباق عليه بقبضتين شديدتين مما يؤدي إلى تحطيم كل القوى الهجومية التي يوجهها نحو مركز ثقلها. ولم يكن حسين النشم ممن يؤخذون على حين غرة. انتبه منذ المناوشات الأولى أنها تركز نظرها على مكان يبدي هو استعداده لأن يجعله يستسلم لها عن طيب خاطر ولكن في الظلام حتى لا تراه أبدا حتى تموت. استغرب لهذا الاهتمام المفاجيء بمركز ثقله. هل هو الفضول أم الرغبة أم الندم على فقدان شيء ما كان ينبغي فقده بهذا العناد الأخرق. لم يهتد إلى سر هذا اللغز إلا حينما تلوى بألم ممض يبدأ من خصيتيه ويمتد حتى آخر عرق من عروقه. كاد يفقد وعيه وهو يركض برجليه ويصفع بيديه ويهز جذعه منقلبا فوقها في زفرة أقرب إلى زفرة الموت. وبعد عراك بذل فيه الطرفان المتحاربان كل ما تبقى في عينيه من رمق الحياة تجنب إطباقها

على مركز ثقله وقد أصابه إعياء شديد. أطبق على عنقها بكلتا يديه حتى كاد يخنقها لكن الطرفين سرعان ما توقفا وقد أصابتهما حالة شديدة من التعب والإنهاك. كانت ملقاة على أرض الغرفة وهو ملقى بجانبها وقد خارت قواه وأصابه الدوار. نهض متثاقلا يجرجر قدميه بعناء شديد. أحس لأول مرة أنه ليس في نزهة يتمرن فيها على تقوية عضلاته المترهلة، بل في معركة مع عدو خطير لن يتردد عن قتله بأية وسيلة متاحة عند أول فرصة تسنح له. تكونت لديه بعد كل هذه الإشتباكات فكرة واضحة عن موقفها منه. عرف لأول مرة أنها ترفضه رفضا لا رجعة عنه. لا تصالح ولا توفيق. الأمر أخطر من تمنع عروسة صغيرة. مطب كبير وقع فيه. ورطة قاسية. وطن نفسه على إذلالها وقهرها. لن تفرض عليه ما تريد. هو الرجل. الرجل سيد لا مسود. سيفرض عليها إرادته شاءت أم أبت. أصلح من وضع ثيابه حتى لا يراه أبناؤه وهو على هذا الحال. مسح دما كان على وجهه ويديه لا يدري أهو من دمه أم من دمها. أنفاسه تعلو وتهبط بسرعة وقوة. التفت إليها قبل أن يخرج. قال لها بازدراء:

- عودي من حيث أتيت يابنت...

أبقت على دمها وعلى ثيابها الممزقة دون تغيير حتى يراها أبوها ويتأكد أنها إنما تركت بيت زوجها مرغمة خوفا من القتل. خرجت مع أول ضوء للفجر تاركة البيت المذبحة إلى بيت والدها موقنة أنها لن تعود ثانية أبدا إلى هذا الزوج. بين الحياة والموت شعرة رفيعة إذا لم تتمسك بها قطعها إربا. رأى والدها ما حل بها من ضرب وإهانة ورأى دمها المسفوح الذي سال غزيرا فأيقن الآن بما لا يحتاج إلى أي دليل آخر أن هذا زواج ما كان له أن يتم. لكن سبق السيف العذل. الأمر ليس بالسهولة التي تتصورها زهرة. المعركة مع حسين النشم بدأت. كان يؤمل أن يبذل جهده لإنهاء هذه المشكلة التي أرغم ابنته على دخولها بالتوفيق بينهما من

جديد، لكن حسين النشم حولها إلى مذبحة لا سبيل إلى انهائها إلا بالتفريق بينهما. انتشر خبر عودتها من بيت عروسها قبل مضي اسبوع على زفافها، وتطوع الناس بنشر الخبر وتفسيره كما يحلو لهم فأعطوا له أسبابا مختلفة. لكن أغلبهم اتفقوا على تفسير واحد يذهب مباشرة إلى مركز ثقل حسين النشم الواقع في أعلى نصفه الأسفل. سخر البعض من إقدامه على الزواج قبل أن يتأكد من سلامة الآلة، ومن أنها لن تتآمر مع الأعداء، ولن تخون ولن تتردد في اللحظات التاريخية الحاسمة. والبعض عد ذلك عقابا سماويا لمن يتجاهل حكم الدهر وخبرة السنين، وتأثير عوامل التعرية التي لا تفرق بين الناس ولا تجامل ولا تباع ولا تشترى. للتصابي صولات وجولات لا تتعدى الخطوط الحمراء، وللشباب صبوات لا تعرف الحدود، وتتجاوز كل الخطوط وكل الألوان. أما النساء كبيرات السن فقد سخرن من وقاحة آخر الزمان الذي تخرج فيه المرأة من بيت زوجها قبل مرور أسبوع على زفافها بسبب لا يليق بالنساء أن يتحدثن عنه. لم يسأل أحد نفسه لماذا ضربت. التأريخ عندهم إما من فوق وإما من تحت، والحوادث كذلك. كل شيء مذكر ومؤنث، وإذا اختل توازن النظام الفوقي التحتي لزم إعادة تركيب جانب منه فوق الآخر لتسير الأمور بسهولة ويسر، وتستريح العقول النائمة من البحث عن أسباب أخرى.

أما حسين النشم فقد ألقى القبض على خيوط مؤامرة دنيئة حاكها العملاء الحاقدون لغشه، ولا يزال يبحث عن بقية المتآمرين الذين لا يدري ماذا يريدون منه، مع أن أحمد بن الحاج عبدالله يتهمه بالطمع في شباب زهرة والتآمر عليها. هكذا اكتشف أنها لا تصلح زوجا له، وأنه ليس مراهقا حتى يشتبك مع امرأة طائشة مستهترة. يحتاج إلى زوجة تطيع إذا أمر، وتستجيب إذا طلب. أية ورطة انجر إليها بمؤامرة خطيرة ربما حاكها مركز ثقله الواقع في أعلى نصفه الأسفل الذي بدأ يخلف وعوده في حقد ولؤم ودون حياء أو خجل. تحول حسين النشم إلى كتلة الحقد على هذه

المرأة التي ظنها واهما هبة السماء لأخريات حياته. أقسم إيمانا مغلظة أنه لن يقبل بها زوجا له حتى لو قبلت هي ورضخت لإرادته. لا يبقى أمامه سوى إذلالها والإنتقام من غطرستها وجرأتها ووقاحتها. تركها تمكث في بيت أبيها دون أية محاولة ولو شكلية لإعادتها. وإذا قابل أباها في الطريق أو في المسجد تجاهل الأمر وكأنه لم يكن. أيقن أنه إذا حاول استعادتها فإنها ستعود إلى عنادها ومشاغبتها. فلتبقى كما هي. وإذا كانت تظن أنها ستطلق لتتزوج من زوج آخر فهي مخطئة. حسين النشم لا يطلق. تموت زوجته لكنه لا يطلق. ستبقى هكذا حطب ولي، لا يقطع ولا يحرق. لن تنال منه ما تريد أيا كانت الظروف. ستبقى هكذا لا مزوجة ولا مطلقة حتى تموت، وسيتزوج هو بأسرع وقت ممكن. سيجتهد في البحث عن زوجة صغيرة جميلة تحرق قلبها وتجعلها تندم على طيشها ورعونتها. ستدفعها الغيرة النسوية المعتادة إلى طلب أن تعود إلى طاعته ذليلة صاغرة. سيرفض عندها أن تعود إليه. الكلمة الآن له.

تبين أحمد قدر وفاء زهرة لعهدها الذي سخر منه واستهان به. زهرة أشجع من أي رجل ومن أية امرأة. الفرق بينه وبينها أنه شجاع في الهرب في حين أنها شجاعة في المواجهة. هو يحسب النتائج قبل أن يقدم على العمل. وهي تفعل بلا حساب سابق. تواجه وتتحمل النتائج كيفما كانت. جعلته في عجلة من أمره. أعادته إلى عمق المعركة بعد أن كان قد انسحب منهزما. لكن الطريق أمامه مسدود. يمضي الليل والنهار في البحث عن وسيلة مناسبة فلا يهتدي إلى شيء. حين تكون المشكلة فردية يحلها بالهرب. الأمر يخص شخصين. فرديته قاتلة. لا يستطيع سوى مواجهة معضلة مفردة. دماغه مفرد لا يقوى على التفكير بحل يشمل شخصين، زهرة وهو. يمضي كعادته يقترح الحلول ويفرزها الواحد بعد الآخر فلا يصل إلى نتيجة. مشلول التفكير كعادته منذ رفض أبوها زواجه منها.

أصبح لقاءه بها بعد كل ما جرى صعبا للغاية. استعاض عن اللقاء بالنظر من نافذة بيته صوب بيتها. ينظر في ذلك الإتجاه على نحو متواصل لا شعوريا وكأنه ينتظر شيئا محددا سيصله فورا من ذلك الإتجاه. بدأ الحديث يتردد عن مصالحة بين أبيها وزوجها. لا يستطيع أن يفهم ميل أبيها إلى المصالحة مع هذا الزوج المتوحش. يستفزه من أعماقه أن يذكر حسين النشم باعتباره زوجا لها. لماذا يتراخى أبوها إلى هذا الحد في حق إبنته؟ ماذا ينتظر أكثر مما حدث؟ أن يقتلها؟ أي أب هذا الذي يقبل بهذه المجزرة. لا يفهم كيف يمكن أن تعود إلى زوج يوشك أن يقتلها. سيضربها من جديد. هذا ليس سرا ولا اكتشافا توصل إليه بمفرده. لماذا لا يحاسبون هذا الزوج الجلف على ضربه لها. أية عدالة هذه التي تعيد الضحية إلى الجلاد؟ الحمل إلى الذئب؟ ماذا تبقى من زواج مزعوم بعد تلك المذبحة؟ كان يظن أن أباها يحاول إبعاد مسئولية نشوزها عنه وإلقائها على الزوج. الأمر أخطر مما يظن. نجح الوسطاء في التوفيق بين الحاج حيدر وحسين النشم واتفق الطرفان على عودتها إلى زوجها دون قيد أو شرط. شرح الأب لزهرة أنه أرغم على إعادتها ولو مقيدة بالقيود الحديدية. حاولت إقناعه بأن لا يقبل. لم يكن مستعدا لسماع ما تقول. كان قد اتفق مع الآخرين وأعطى كلمة لا يريد أن يخلفها. لا تعرف دوافعه ولا تقبلها ولكنها أدركت أنه لا يخبرها وإنما ينذرها بالخضوع والإستسلام دون نقاش أو اعتراض. سرت الحمى في أنحاء جسدها. لا تريد أن تشتبك مع أبيها. لا تريد أن تكون أضحوكة الجميع. الأب وجد ليطاع. وافقت على العودة. قررت أن تواجه الزوج المزعوم بدلا من الإشتباك بأبيها. طلب الزوج من الأب ضمانة بأنها لن تتمرد عليه ثانية. أجاب الأب:

- من واجبي إيصالها إلى بيت زوجها. أما الباقي فعليه.

ارتسمت على وجه الوسيط ابتسامة ماكرة عرف الزوج ما تلمح إليه فأحس بطعنة تنغرز في صميم كبريائه كرجل. حينها فقط عرف أن

الإشاعات قد بدأت تشكك في قدرة مركز ثقله الواقع في مكان ما في أعلى نصفه الأسفل مع أنه أب لثلاثة عشر مولودا، بعضهم الآن في الجنة وبعضهم ينتظرون أن يردوها. قال منفعلا وهو يشتم آباءهم وأمهاتهم في سره:

- اتفقنا. فلتعد الآن.

أراد الأب أن يعطي لنفسه متسعا من الوقت لإقناع زهرة. قال:

- بل غدا.

أصر حسين النشم بعناد على أن تعود في تلك اللحظة وقد بدا عليه الغضب. سيقت زهرة إليه مرغمة وفي أعماقها إحساس بأنها تمضي إلى حتفها. تطرق أمامها دون أن تلتفت شمالا أو يمينا. لا تكلم حتى أباها. مضربة عن الكلام والطعام والتفكير. تحس أن الموت أقرب إليها من حبل الوريد. تمضي ساهمة شاردة الذهن، موجودة وغائبة، جسدها يقشعر ويرتعش توجسا من سفك دمها عما قريب. بدأت تنتاب الزوج منذ لحظة اشتباكه بها أحاسيس لا تكذب أبدا بأنها لن تقبل به زوجا، واستولت عليه حالة نفور وكراهية نحوها. يفكر بالزواج من شابة صغيرة عذراء يخرس بها الألسن التي تسخر من مركز ثقله. سيتزوج بصرف النظر عن نتيجة التحدي بينه وبين زهرة. لم يخف الخبر عنها. يريد أن يحطم غرورها. سيتزوج في أسرع وقت ممكن. ستكتشف خطأها وستندم. الطلاق واقع عمليا بينهما منذ الآن. ما تبقى تفاصيل. تحدي كل منهما للآخر. رفض بعضهما بعضا إلى أقصى درجة للنفور والكراهية. عملية تعذيب لا تنقطع.

ما أن دخلت بيت الزوج حتى أغلقت الباب على نفسها من جديد لكنها فوجئت بأن الباب لا ينقفل من الداخل. أدركت أن الفخ قد رتب بطريقة تفقدها أية قدرة على التحصن بغرفتها وتضعف قدرتها على الدفاع وتجعلها تنتقل إلى الهجوم مباشرة. موقعها مكشوف مجرد من وسائل الدفاع. فتشت بين ثيابها لتستنجد بسيفها القديم، الحبل الذي ربطت نفسها به فيما

سبق. أسرعت تربط ما بين فخذيها وعنقها لتزيد صعوبة غزوها الوشيك. لكنها قبل أن تنتهي من وضع اللمسات الأخيرة على الخندق المحيط بتلافيف جسدها المسيج بكرهها ونفورها وأعصابها فوجئت بالغازي حسين النشم يقفل الباب بالمفتاح من الخارج وينصرف دون أن يكلمها أو حتى يلقي عليها نظرة واحدة. أدركت أنها أمام غاز غير الذي عرفته. غاز يغيرّ خططه وتكتيكاته بسرعة يعجز ذهنها المشلول بالخوف عن توقعها وعن رسم الخطط الماكرة لمواجهتها. تداعى جسدها المستفز على ذاته، وخارت قواها في لحظة تحتاج إلى أن تكون في غاية اليقظة إذا أرادت الخروج من المعركة بأقل الخسائر. عجزت عن التفكير بأي شيء، واستسلمت لقدرية تامة تنتظر ما يسفر عنه الهجوم الأخير الحاسم. داخلها إحساس بلا جدوى المقاومة، لا الموت يأتي بسهولة، ولا تنتاب الغازي حسين النشم نوبة كرامة مفاجئة تجعله يطلقها، ولا نوبة بطولة تجعله يصدر قرارا بإعدامها. كل ما يفعله أن يطيل تعذيبها وتعذيب نفسه. التعذيب هو الرابط الوحيد الذي يربطها به. وفجأة وجدته أمامها في هيئة من أعد نفسه لملحمة حاسمة لا يقبل فيها بأقل من النصر أو الموت. شن هجومه العنيف مباشرة دون سابق إنذار ودون أي تحضير من أسلحة مساعدة، بعد أن رسم خطته المحكمة لاقتحام ما وراء البحر الأسود والبحر الأحمر وقلعة الموت لصاحبها أحمد بن الحسن بن الصباح، زعيم الحشاشين القرامطة الذين دوخوا الصليبيين الفرنجة في فلسطين، وسهلوا الانتصار عليهم. نظم قواته إلى مقدمة وميمنة وميسرة ومؤخرة. جعل مركز ثقل هجومه في المقدمة وأطلقها في عنف مدمر لدك مركز ثقل دفاعات العدو في الوسط لسحق مقاومته، وأطلق قوات الجناحين للالتفاف عليه من جميع الجوانب وفرض الاستسلام التام والنهائي على العدو دون قيد أو شرط. لكنه سرعان ما اكتشف أن أسلحته قديمة وذخيرته فاسدة. فبعد قليل من المناوشة تراجعت قوات المقدمة بغير انتظام تجرجر أذيال الهزيمة والعار، بعد أن تحطم هجومها الكاسح بسرعة غير متوقعة.

وشلت قوات الجناحين والمؤخرة وفقد هجومها أي جدوى. واكتشف الغازي حسين النشم، ودائما يكتشف بعد فوات الأوان، أن هذه المعارك لعبة أزلية من قواعدها أنها تحتاج إلى لاعبين اثنين، وأن عدم مشاركة أحدهما أو عدم تواطئه يلغي شروط اللعبة. تراجع دون قتال، لا يرغب حتى في أن يلاعب نفسه. فقد الرغبة في أي شيء لكن غيظه الكظيم يشتاق إلى سفك الدم. و لم يكتف بالامتثال لأمر الله فيهجر مضجعها، بل أطلق ليديه ورجليه العنان وواصل ضربها لا يدري كم من الوقت مضى قبل أن يتوقف وقد رأى دمها يسيل على أرض المكان يرسم صورة لعرس مستحيل، ومذبحة مستحيلة متواصلة منذ أيام على مرأى ومسمع من الجميع. الكل يتسلى بأخبارها. الجميع متواطيء. الكل يتفرج. الكل يتلهى بسفك دم امرأة لا تقبل أن تغتصب. امرأة صامتة تتحدى بصمتها شواربهم غير المشذبة وعضلاتهم المسترخية.

لم يعد حسين النشم مهتما لا ببقائها معه ولا بمعاشرتها. كل ما يهمه أن يذلها. أن يعاقبها على رفضه. أن يشفي غليله منها. قرر في أعماقه أن يقتلها ولكن بطريقة لا تجعله مسئولا عن قتلها. ولوَلَت وخرجت تجري تصرخ في ذعر والدماء تنزف من رأسها وفمها. أيقنت أن بينها وبين الموت شعرة. إذا ظلت معه تحت سقف واحد لن تبقى على قيد الحياة إلى الغد. أسمعت القاصي والداني صراخها وعويلها. كلهم يسمعون ساكتين، وينظرون من نوافذهم أو من سطوح بيوتهم دون اعتراض أو محاولة إنقاذ. يتفرجون على المذبحة وكأنها تجري في عالم آخر غير عالمهم. عادت إلى بيت أبيها مصممة على أنها إذا تجاوزت هذه المذبحة فستجنبه بأية طريقة. بالهرب أو بالإنتحار. صارحت أباها بإحساسها. كان ينظر إليها وهو يرتعش من هول المنظر. لم يتوقع في أي يوم أن يقدم رجل على ضرب امرأة بهذه القسوة. المرأة حرمة. لا تضرب.





تمر مقاطع من شريط حياة أحمد بخاطره كأنها طيف شفيف. تنقله من جحيم السجن ووحشته إلى واقع حميم عذب. إلى حنين ملتاع لماض ليس ببعيد، يقبع في جوانحه، يبدو له في هذا القبر الكظيم وكأن هذه المشاهد تنتمي لعالم لا علاقة له بالحاضر الذي يعيش فيه. تلح الصور والمشاهد على مخيلته في نومه وصحوه. تلح عليه الواحد تلو الآخر. بعضها بعذوبة آسرة وبعضها بمرارة وحسرة والتياع. ليل مضى وأقبل صبح كالح كالفراغ. صبح تلفه الوحدة والوحشة والجوع. يحلم بيوم يرى فيه ما وراء هذا الباب الأخرس. يواصل النظر إلى مكان ساعة يده المنهوبة لا يدري لماذا مع أن الزمن فقد أي معنى في خاطره. القمل يواظب على أداء مهمته. يخيل إليه أحيانا أنه سيموت بانتهاء القمل من التهام دمه. تخيل في حياته أنه سيموت بأسباب وحوادث كثيرة. لم يمر بخاطره أنه سيموت بقرص هذه الحشرات القذرة. أظافره تواظب على الحك. أصبحت تحك بحكم العادة. جسده جحيم دائم. لم يعد قادرا على مزيد من الحك. يتهاوى الجسد أمام احقر حشرة. نهض واقفا. الوقوف يجنبه الإشتباك بها. مشى في حركة دائرية لتمضية الوقت. لا يطيق البقاء واقفا في مكان واحد. الحركة في المكان تخفف عنه شيئا من جحيم الجسد. العدو هو الجسد. حاجاته وآلامه. لماذا لا ينام واقفا؟ البقاء واقفا أيسر طريقة لتحمل عذاب هذا القبر الموحش. لا

بد من تعود المستحيلات إن أراد البقاء على قيد الحياة والخروج يوما ما. لا يبدو تفكيره بالخروج واقعيا. يسير نحو الهاوية وهو يفكر بالخروج. كل أسير يحلم بفك أسره ما عدا عمر. كل سجين يفكر بالخروج من سجنه إلا عمر. لا يبدو مهموما بشيء. حتى ولا بالحياة. يسحقها بانتظام تحت وطأة قدرة عجيبة على النوم. لم يفكر أحمد في يوم من الأيام أن أحدا يستطيع أن ينام هذا القدر من النوم. ولم يسمع أن أحدا نام على نحو متواصل. حتى أصحاب الكهف ناموا بضع مئات من السنين دون أن يستيقظوا، لكنهم حينما استيقظوا خرجوا إلى الملأ. يبدو وكأن عمر يخترع نوما خاصا به لمواجهة هذا القبر وتحمل الحياة فيه. تمنى أحمد أن يهتدي إلى سر ابتداع هذا النوم لمساعدته على تحمل عذاب السجن. مشى حتى تعب. جلس مرات وعاود المشي. يمشي قليلا ويجلس قليلا. عذابه يتجاوز قدرته على التحمل. يحاول التلهي بأي شيء. يحاول استجماع شتات أفكاره. أن يستعيد مشاهد أحلام يقظته ونومه عله يستعين بها على الغياب من هذه المحرقة. خيالاته تستعصي على الحضور. هذا إذا ليس أوان الغرق في نعيم أحلام اليقظة ودفئها الحاني. ولا أوان التحسر والندم. ولا حتى وقتا لليأس. اضعف تتحلل أعضاءك واحدة واحدة. تتفسخ وتعود ترابا تعشعش فيه الحشرات وينتشر في الهاوية. يحاول بجهد كبير تمالك أعصابه. يحاول أن يهدأ. فتح الشاقوص وأخذ نفسا عميقا صافيا. بدأ التفكير بما عساه يفعل لمحاولة الخروج ولو إلى خارج هذا الباب اللعين. يفكر بحيلة تساعده في الخروج من قعر هذا القبر. لكسر هذا الطوق الجهنمي الذي يضغط على عنقه ويكاد يخنقه. أمام الأبواب الموصدة داهمته رغبة في البكاء. لا يوجد من يلين حتى لبكائه. البكاء مضيعة للوقت. الأمر يحتاج إلى معجزة. وزمن المعجزات قد ولى. وبينما هو ما بين اليقظة والمنام سمع حركة المفتاح الخشبي الغليظ تفتح قفل الباب. ظل قابعا في مكانه لا يتحرك. اتجه بصره نحو الباب. دخل ثلاثة من العسكر.

ليس متأكدا إن كانو هم من جاء بالأمس أم هم غيرهم. يحملون على أكتافهم بنادق لا تختلف عن تلك التي شاهدها معهم من قبل. وقع نظره بالأخص على الجنابي المتصلة في وضع عمودي على الحزام. بدوا هذه المرة أكثر قذارة من سابقيهم. أو لعلهم هم وقد زادت ثيابهم قذارة. أحضروا كعادتهم كسرتي خبز و لم يأتوا بماء. يتحدثون بنزق يوحي أنهم هم من أتوا بالأمس. جلس أحمد في مكانه دون أن يتكلم. لا يريد أن يدخل معهم في أي حديث. يبدو من طريقتهم في الحديث أنهم متوحشون لا يقبلون الأخذ والرد. اقتنع أخيرا مرغما، ولو مؤقتاً، بأسلوب عمر الذي يضع سدا بينه وبينهم ويغلق الباب لأي أخذ ورد معهم. يريح نفسه من عناء الإنتظار والترقب. لكن أحمد لا يريد لهذه الحالة أن تستمر إذا أراد البحث عن مخرج من ورطته. لا يريد أن ينتظر ما يفعلون به. يريد أن يختط طريقا لفك أسره أيا كانت. يريد أولا أن يتعرف على سجانيه. أن يدرس طريقة مناسبة للتعامل معهم. لكن كيف وهم يواجهون أية بادرة للتعامل معهم بقسوة وغلظة. مشاعره تغلي كالمرجل. وقرصات القمل تحول الحياة جحيما. ود أن يخرجوا. لكنه يخشى أن يحس بعد خروجهم بالوحشة والوحدة. وعمر اعتاد على النوم كلما خرجوا. يأكل القليل المتوفر من الزاد ويعود للنوم. ينام الليل والنهار. لا يريد أن يستيقظ. يحاول أحمد إقناعه بالتعامل مع الواقع الجديد دون أن ينجح في إقناعه. كلما حاول إيقاظه تشاجر معه حتى يكادا يشتبكان في عراك. سلبيته تشعر أحمد أنه يعيش وحيدا. أحس بلفح البرد يلسع أحشاءه. لا يوجد ما يساعد على اتقائه. ليس في السجن ما يقي من برد أو حر. مجرد كهف بدائي كالح. منظر الشمس يوحي بالدفء. وحين تغيب يكشر البرد عن أنيابه.

لا يدري لماذا تلح عليه بعد غياب أشعة الشمس وراء الجبل الحاجة إلى من يؤنس وحدته. هل هو الخوف من الغروب الذي ارتبط منذ طفولته بالشؤم والنحس وخطر الشياطين وعدم قبول التوبة، وحتى

الصلاة مكروهة في هذا الوقت إلى أن يحل وقت صلاة المغرب. وجود تلك الأشعة حبيب إلى قلبه كأنها صاحب أو قريب. بدت النجوم خافتة أكثر من عادتها فعجزت عن أخذ مكان أشعة الشمس في مخيلته. نظر إلى الخارج عبر الشاقوص. النظر عبره مرتبط دائما بالرعب خشية تسلل حية أو حنش إلى الداخل. كل شيء هامد ساكن. لا يقطع سكون الليل سوى أصوات الصراصير والهوام في الخارج. نجم يتلألأ في الأفق البعيد. ملأه بالشجى والأمل. ملأه نوره الشفيف برغبة عارمة مفاجئة في الحياة الآمنة السعيدة. استراح في أعماقه إلى أن صلة ما تربطه بالعالم من حوله عبر ذلك الرسول البعيد. صحبة جديدة بدأت تأتيه عن بعد. وعندها بدأت فكرة الهرب تطل بقرونها في مخيلته. الطوق محكم هذه المرة من حوله. لا مجال يلوح للهرب، ولا مجال لأية مغامرة أيسر بكثير من الهرب. لا يعرف ما حوله، ولا يعرف أحدا يعينه وينصحه، ولا يعرف المنطقة التي يقع فيها هذا القبر الذي يقبع في قعره. ولا يعرف الطرقات ولا إلى أين تؤدي. وأكثر من هذا أنه لا يعرف ماذا يريد العسكر منه، ولا ماذا سيفعلون به وبصاحبه. يتمنى أن يعلنوا عن نياتهم. لا يعقل أن يدعوهما هكذا يهلكان داخل هذه الحفرة الموحشة. إذا كانوا يريدون قتلهما لماذا يتركونهما على قيد الحياة خلال الأيام الماضية؟ ماذا ينتظرون؟ يستطيعون قتلهما ببساطة دون أن يخشوا لوما. ربما كانوا ينتظرون أن يبادلوهما بأسرى ملكيين. ارتاح لهذه الفكرة. أول فكرة تعطيه الأمل لم يهتد إلى أجمل منها منذ أسره. بدت له معقولة. تمسك بها وقاوم أية خاطرة تشكيك فيها. لا يريد أن يفكر بأي شيء آخر. يكفيه هذه النتيجة المريحة. يريد أن يصدقها ويدع ما غيرها حتى ولو كانت غير صحيحة. فجأة سمع صوت عمر كأنه يأتي من مكان بعيد:

- إنني جائع.

ونهض للتفتيش عن شيء يأكله. لا يوجد سوى إناء الماء القذر. عب منه ما استطاع واتجه إلى الشاقوص وبال عبره غير مبال باحتجاج أحمد وانزعاجه.

الريح يعيد رذاذ البول إلى الداخل. لا يستطيعان قضاء الحاجة إلا تحت رقابة العسكر، وفي غيابهم لا مجال سوى الصبر أو تدبير الأمر كيفما اتفق. ما لبث أحمد أن أحس برغبة في تقليد عمر بعد ممانعة مكابرة في البداية. وحين ألحت عليه الحاجة وأرغمته على الرضوخ ضحك عمر في مرح ظاهر. لأول مرة يضحك منذ فترة لم يعد يذكرها. أخرجهما البول هكذا من كآبة ضاغطة على الصدور منذ أسرهما. لم يعكرها إلا بداية حديث عمر عن الدفاع عن الجمهورية والبطولات العنترية التي تنتظره. قال له أحمد

- يا أخي أنت تدهشني بقدرتك على الهرب إلى الأمام. نحن في ورطة قاتلة لا مخرج منها وأنت تتحدث عن انتصاراتك القادمة. كن واقعيا ولو لمرة واحدة في حياتك. أرجوك.

- وماذا تريدني أن أفعل الآن؟ حتى لو أطلقت من الأسر الآن، لن أقوى على السير. سأطلب منهم أن يؤجلوا فك أسري حتى أبرأ تماما وأستطيع السير.

- لكنني أفكر بالهرب.

- من غير الواقعي، أنا أم أنت؟ تفكر في الهرب وأنت في قبر مغلق بإحكام. كيف؟

- لا أدري. لا بد من مخرج. كان أبي رحمه الله يردد ((اشتدي أزمة تنفرجي)).

- البركة فيك يافقيه المعجزات. فكر على مهلك حتى استعيد قدرتي على السير والعدو كحصان جامح.

قال عمر ذلك ساخرا. يضحك ويمرح والتشاؤم يملأ نفسه من إمكان الهرب. استدرك قائلا:

- لكن الطوق محكم. لا أرى أية إمكانية للهرب.

- لا بد أن نجترح معجزة مستحيلة.

- أنت تخرف.

- لا بد من معجزة.

- على الله وعليك يا أبو المستحيلات (ضاحكا).

صوت المفتاح الخشبي ينزلق في القفل. قعقعة الباب المعتادة عند قدوم العسكر. ماذا يريدون؟ يبدو الباب صلبا لا يمكن زحزحته أو كسره عند الهرب. ثلاثة عسكر يدخلون بوجوه مكفهرة كالحة. فتشوا غرفة السجن بعناية كأنهم يبحثون عن مهربات لا يدري إلا الله من أين ستأتي إلى هذا المكان المنعزل الضائع. وضعا كسرتي خبز جافتين وهما بالخروج. فكر أحمد أن يبدأ الحديث معهما. أن يطالب بحرية الخروج لشم الهواء النقي في الخارج. تفاجأ أنهم وافقوا ببساطة ودون ممانعة. فرح فرحا بالغا. أول مرة يحس بالفرح داخل هذا القبر. وعدوا أن يأتوا غدا لمرافقتهما لمدة ساعتين يقضيانهما في الخارج. هنا أول الفرج. فكر أحمد بإمكانية اكتشاف الخارج ومعرفة المداخل والمخارج. لا بد أن يفكر بسرعة قبل أن يستجد جديد يحرمه من هذه الفرصة الذهبية. يحس فيها بيارقة أمل حقيقية منذ أسره. لا بد من حل. لا بد من حل. اشتدي أزمة تنفرجي...

انحبست الأمطار. قل الزرع وجف الضرع. بدت فروع الأشجار الجافة وقد سقطت أوراقها أصابع تتجه نحو السماء تتضرع إلى الله أن يمن عليها بالمطر. أشجار جفت وبدأ المزارعون بقلعها. وأخرى ما تزال تقاوم، لكن إلى متى؟ انعدمت الحشائش التي تغذى الماشية. المدرجات التي كانت خضراء تحولت إلى خطوط غبراء تخطط جسد الجبل العاري. منظر الجبل وقد تعرى من حلته الخضراء القشيبة يوحي بالكآبة والحزن. غطت السماء والأرض غبرة كثيفة توشك أن تحجب نور الشمس عن الجبال والوديان. بدى ما يصل من أشعة الشمس الحارة باهتا مصفرا مكفهرا. خرجت الهوام من جحورها بحثا عن ماء عز وجوده. هجرت السماء والأشجار عصافير اعتادت أت تسحر الجبال والأغصان المتمايلة بألحانها العذبة

وغناها المألوف في أفق معطر برائحة أزهار البن الفواحة في الأرجاء. بدت الحيوانات الأليفة من أبقار وحمير وقطط هياكل عظمية متحركة. غادرت القردة أرض المجاعة في انتظار أن تعود إليها في موسم رغيد قادم. الهياكل البشرية وحدها مستسلمة بتواكل غريب في انتظار المجهول. الإنسان وحده يقف شاخصا بنظره نحو سماء تبحث عن شمسها، عن عصافيرها، عن موسيقاها وألحانها المفقودة. تنتظر غيمة تغسل عنها هذه الغبرة الكالحة. الجبال موحشة. والوديان موحشة. المنظر كله موحش. رهبة الموت تلاحق كل شيء. تلاحق الإنسان والحيوان والحشرات والهوام. الموت يبسط جناحيه على الأفق المسدود من كل الجهات. الكآبة واليأس تملأ القلوب. الجوع قاتل. منافذ العيش تنسد واحدة واحدة. طريق القبر وحده مفتوح على مصراعيه. توقف كل شيء. لا حياة بلا مطر. جفت عيون الماء إلا القليل. شرايين الجبل العذبة تنضب. زمن لئيم لا يجود بشيء. تصطف النساء في طوابير طويلة تنتظر لساعات ملء جرة ماء. يأتين من مسافات بعيدة ويعدن بقليل من الماء. الزراعة مصدر الطعام. وحليب الأبقار الإدام الدائم. من أين يأتي الطعام والحليب إذا لم تصلح الزراعة وإذا جف العشب. غول الجوع يكشر عن أنياب كاسرة. وغول أمير المؤمنين وعسكره يسرق اللقمة الباقية من أفواه الجوعى. جوعى يسطون على من هم أشد جوعا منهم. والحياة في مملكتهم غابة يبتلع فيها القوي الضعيف.

وهذه القلعة المزروعة رأس الجبل تقف كالخنجر المغمد في جسم الجبل، وتنتصب كالجوع يفتح أشداقه لابتلاع القرى. يصبح الناس ويمسون وأبصارهم شاخصة نحوها خوفا ورهبا. لا تجلب لهم ولو منفعة واحدة. لماذا يحتاج الناس إلى أمير مؤمنين وإلى عسكر وإلى قلاع؟ لم يستشرهم أحد في أمر بناء هذه القلعة. كل ما يذكرونه أن جماعات من أحفاد القرود احتلوا القرى يقتلون وينهبون، وأرغموا الناس على العمل المجاني في بنائها، وأرغموهم على أن يأتوا بزادهم وزاد العسكر المكلفين

بإرغامهم على العمل، وأجورهم. بنوا سجونهم بأنفسهم. أحكموا بناءها حتى لا تترك لهم منفذا يتسرب منه الهواء، وحتى لا يستطيع أحد منهم الهرب إن سولت له نفسه الأمارة بالسوء أن يفلت من قبضة القلعة. بنوا محاكم لتبيع لهم أحكام الشريعة بأسعار باهظة. ادفع تكسب حقك وحق غيرك. من يدفع يربح. العدالة ما تشتريه بنقودك. دون نقود ليس لأحد أن يزعم أن له حقا.

المزارع عبد للمطر. سمك بري في صورة آدمية. بدأت تلوح في الأفق مجاعة ماحقة. لم يخفف من وقعها إلى حين سوى مبادرة خيرة بفتح الوجيه محمد الفار مدافن الحبوب التي يملكها، يقرض المحتاجين إلى وقت الحصاد. يجدد الأغنياء ما في مدافنهم من الحبوب بهذه الطريقة. ينقذون الناس من الموت جوعا ويجددون شباب مدافنهم قبل أن يتلف ما فيها من حبوب بمرور الزمن. يكيلونها للناس رطبة من فم المدفن ويستعيدونها بعد الحصاد فور تجفيفها تحت حرارة الشمس. الكيلة الجافة تتحول كيلتين بعد أن تتشبع بالرطوبة لسنوات في جوف المدفن المحفور في باطن الأرض. عند الدين يكيل الكيال دون تسامح ويطلق العنان ليديه عند القضاء فيزيد فوق الكيلة مثلها. البعض يسمونه تطفيف الكيل. يذكرون الآية: ﴿ويل للمطففين﴾. ما يهم الناس أن هذا العمل الخيري ينقذهم في أقسى لحظات العمر. يعتق أطفالهم ونساءهم وينقذهم من موت محقق. لا يهتمون بتصرف الكيال ولا بانتقادات المنتقدين. محمد الفار فاعل خير كبير. الكل يلهج بالدعاء له والشكر لصنيعه، ولقلبه الرحيم. والمدفن الواحدة تزيد عند قضاء الدين وتتناسل.

انضم أحمد إلى قوافل المستدينين من مدافن محمد الفار في صباح مكفهر لعين. خرج في وقت مبكر والضيق يحاصره من كل الجوانب، واتجه نحو البيت الذي فيه المدفن. حمل كيسا فارغا أملا في ملئها بالحبوب. سيستدين مثل الآخرين في انتظار أي فرج من السماء أو من

الأرض. الجميع ينتظرون فرجا ما بتواكل عجيب. هطول الأمطار هو الفرج. سينتظرون طويلا بعد هطولها. بعد المطر يأتي العمل والإنتظار، لكن الخير سيصل في النهاية بعد شهور. إذا لم ينزل المطر حلت المجاعة واستهلكوا البذار. وبعدها حتى المطر لا فائدة منه. الحفاظ على البذور حد فارق بين الأمل واليأس. ظل أحمد صامتا بين جموع القادمين يلعن في سره هذا الظرف الذي دفعه للوقوف هذا الموقف الصعب. ويلعن أكثر الحاج حيدر الذي اضطره للبقاء ورفض الهرب ليبقى قريبا من زهرة. لعن العسكر وحمود النشم والقلعة. بصق باشمئزاز على أرض السفل الذي فيه المدفن. كثيرون سبقوه للحضور. يتوافدون من قرى متناثرة في سفوح جبال عضها الجوع بقسوة. هياكل بشرية متحركة. يمشون كالمهرولين دون أن يتحركوا من أماكنهم. رؤوسهم تسبق أقدامهم. يهتزون ويقفزون دون حراك ولا انتقال. أيديهم تتأرجح بين الأمام والخلف كأنهم يسيرون وأقدامهم مسمرة إلى أرض محروقة. تنفسهم أنين وضحكاتهم سعال مبحوح. ابتساماتهم مغسولة بدموع جافة لا مذاق لها. عروقهم متخشبة وشرايينهم من طين وغبار. نظراتهم زائغة تنظر إلى لا مكان. زمانهم خارج الزمان ومكانهم لا مكان له ولا محل له من الإعراب. تصلبت جلودهم من سياط العسكر حتى لم يعودوا يحسون بلسعها، وتخشبت مشاعرهم، وتبخرت في الفراغ كلماتهم. كم مهمل لا يهتم به أحد سوى العسكر. عبيد خلقوا للشقاء من أجل هؤلاء العسكر. لا عمل لهم سوى السهر على تغذية القلعة بدموعهم وأكباد أطفالهم. تعلو وجوههم قترة الجوع وغبرة الموت. الأجسام نحيلة. والأبصار زائغة. البطون تقرقر. تتضور جوعا في هذا الصباح المشبع ببول البقر وروثها في هذا السفل المظلم. إذا ابتسموا عجن الحزن الدفين ابتساماتهم. أحاديثهم واهنة كالنائمين. أنفاسهم ذات رائحة كريهة كأنما صاموا منذ زمن دون رجاء إفطار. يشتعل الجوع في أحشائهم

فيزيدهم ذهولا إلى ذهولهم. يتحدث بعضهم إلى بعض عن الجوع وانحباس المطر بلا اكتراث. من باب تضييع الوقت بأي كلام في انتظار النهاية. نهاية القحط أو نهاية الحياة. من لا يملكون أرضا ولا مواشي تقيدهم، وهم قليل، بدأوا بالهرب إلى أي مكان. المزارع لا يترك أرضه حتى يموت. الهرب عار. تموت الأرض والمواشي إذا هرب. ((أولاد الناس)) لا يتركون أرضهم ويهربون. هذا فعل ((من لا أصل له)). المعدمون واليتامى والقردة والعصافير غادروا أرض المجاعة قبل غيرهم. أولاد الكلب خاضعون دون مقاومة أو هرب. اختفت عادة التكافل والتعاون في هذه الأيام اللعينة. الأبواب المفتوحة دائما بدأت تغلق وبخاصة ساعة تناول طعام لا يسد الرمق ولا يشبع من جوع. لا يأمن البيت من أن يسقط عليه جائع أو طفيلي. الجوع ينزع الحياء المبالغ فيه. الزاد لا يسد رمق الأطفال، والتكرم على جائع من خارج الدار يعني جوع أحد أهله. الكرم أول الهاربين من الجوع. اختفت عادة تقديم الطعام لمن حضر والإلحاح عليه لمشاركة أهل الدار طعامهم. كل يريد الإفلات من بطش الجوع بأطفاله.

الحضور يفتحون أفواههم كأنهم يتحدثون إلى بعضهم بعضا دون أن يسمع لحديثهم صوت ولا صدى. وأحمد زاهد عن المشاركة فيما بدا له مأتم متواصل. فجأة وجد نفسه يقول دون تفكير:

ـ وصل الأمر إلى حد لا يستطيع أحد تحمله. لا بد أن تتدخل القلعة للمساعدة.

ـ (رجل ١): وما علاقة القلعة بالقحط وانحباس المطر؟

ـ (رجل ٢): أعوذ با لله من القلعة. دعونا من ذكرها. نسأل ا لله السلامة. لا نستطيع أن ندفع لها شيئا ونحن في هذا الحال.

ـ (أحمد): أنا أتحدث عن مساعدة القلعة لكم وليس عن مساعدتكم لها.

- (رجل ٣): القلعة موجودة للنهب وليس للمساعدة.

- (أحمد): سمعت بالراديو أن الدول الأجنبية تقدم مساعدات لأي بلاد تتعرض للمجاعة. تستطيع القلعة طلب المساعدة لتوزعها على الجائعين.

- هذا في البلاد " الداخلية " وليس عندنا.

- حتى لو وصلت سيأكلوها في صنعاء قبل أن تصل إلينا.

- (أحمد): اقترح أن نحرر طلبا ونذهب إلى القلعة لطلب المساعدة.

- (رجل معمم): الجوع محنة من ا لله. لو خلصت النيات وحسنت التوبة لنبت الزرع ودر الضرع.

- (أحمد): نجرب. لن نخسر شيئا.

- جرب لوحدك.

- القلعة بلاء وليست رحمة. لا تنتظروا منها أية مساعدة.

- لماذا لا نجرب؟

- (أحمد): على الأقل يفتحوا مدافن القلعة ويعطوا الجائعين الحبوب التي تكاد تهلك فيها، قرضا إلى موسم الحصاد. كما يفعل محمد الفار قدس ا لله سره. من أحق بمساعدة الناس، الفار أم القلعة، وكل راع مسئول عن رعيته؟

- رد عليه يافقيه.

- لا داعي لأن يرد علي. سأسكت من نفسي. اللعنة عليكم وعلى القلعة. اقسم با لله أنكم تستحقون أن يحكمكم هؤلاء السفاحين النهابين. قلعة واحدة لا تكفي. تحتاجون إلى أكثر من قلعة تجثم فوق صدوركم وتقتلعكم من سباتكم وتشردكم في الجهات الأربع شذر مذر. يا أولاد الكلب...

- الرعوي مزيل الدول. ستنقلع القلعة بحول ا لله وقوته.

فتحت المدفن. أخذ الحضور يتناوبون تحريك كيس بقوة فوق بابها الواقع في وسط المكان، لدفع الهواء إلى قاعها وطرد الغاز القاتل. الكل ينظر في قلق إلى تلك الحفرة المتعفنة في الوسط. بعضهم لم يأكلوا شيئا منذ البارحة. أطفالهم وزوجاتهم ينتظرون اندلاع تلك الحفرة وقذف ما بها من حمم تطفيء اشتعال بطونهم بالجوع. بدأت الحبوب الخارجة لتوها من باطن المدفن تلقى في غرفة أعدت خصيصا لها وفتحت نوافذها لنفاذ النور والهواء. الأنظار تتجه نحوها تكاد تلتهمها. كتل رطبة من تراب متفن كأنما استهلكتها الحيوانات وأخرجتها لتوها. رائحتها كريهة تزكم الأنوف. وشكلها غريب لا يشبه الطعام في شيء. ملأت تلك الرائحة أنف أحمد حتى كادت تخنقه. فكر في الهرب من تلك الرائحة في أي اتجاه. إلى أي مكان آخر لكن لا بديل عنها. الحاجة بنت العبودية. انتظر بلا حماسة أن تخف تلك الرائحة التي تقطع عليه أنفاسه. ترك الناس يتزاحمون في انتظار أن يتبخر أكثر ما يؤرقه من عفونة. اقترب منه أحد من شاركوه النقاش قبل قليل قائلا:

ـ أعجبني اقتراحك أن نوقع على عريضة نحملها إلى القلعة طلبا للمساعدة. قد لا نحصل على شيء لكن، كما قلت، لماذا لا نجرب.

ـ أتظن أن أحدا سيوقع معنا؟

ـ نجرب.

ـ نعرض الفكرة يوم الجمعة ونطلب التوقيع عليها.

ـ تعدها أنت؟

ـ أعدها.

أوشك ما أخرج من حبوب متعفنة أن يستنفد. خشي أن يعود خائبا. اندفع للمزاحمة متغلبا على تلك الرائحة المزعجة. الكمية المستخرجة لا تكفي لإعطاء كل حاضر ما يطلب. بدأوا يعطون لكل واحد نصف ما يطلب. البقية يتزاحمون بالمناكب والأقدام للفوز بما تبقى

كأنهم في حلبة مصارعـة. كلمـا اقـتربت الكميـة المتبقيـة مـن النفـاد زاد تزاحمهم. نسى كل منهم ما جاء من أجله في حمى المزاحمة. الكل منهمك في المزاحمة والمصارعة. يتصايحون ويتضاحكون في تزاحمهم. صف من هنا وصف من هناك. كل صف يدفع الآخر. أحس أحمـد بـالضيق والإنهـاك وهو في معمعان العراك الطويـل. أحـس بالمهانـة تكـوي ضلوعـه. طـوح بالكيس الفارغ بعيدا وقذف به حتى أقصـى مـدى يستطيع بعيـدا عنـه. هرب في اشمئزاز ورائحة الحبوب المتعفنة تطـارده حيثمـا حـل. إحساسـه بالمرارة والحزن لا مزيد عليه.

قضى المساء في تدبيج شكوى باسم المتضررين من المجاعـة والقحـط. أحسن صياغتها بأبلغ عبارات البلاغة. كلما كتب جملة أعاد قراءتها مرات ورددها لاختبار نغمة انسجام مفرداتها في أذنـه. اختـار كـل كلمـة بعنايـة خاصـة. مهمـوم دائمـا بتجنـب الأخطـاء النحويـة، ومـأخوذ فيمـا يكتـب بأسلـوب المقامـات وقـد تطعـم بتحديـد المنفلوطـي. لا يقبـل مــا يكتـب بسهولة. يقضـي وقتـا طويـلا في تشـذيبه وإعـادة صياغتـه مـرات عديـدة. موسوس شكاك. لا يقبل كل شيء علـى علاتـه. ظلـت تـتردد في أحلامـه بعـد أن استغرق في النـوم. يراجـع صياغتهـا كلمـة كلمـة، وجملـة جملـة. استيقظ في الصباح ليكتب التصحيحات التي رآها في منامه ثم توقـف عـن الإطلاع عليها من جديد. لو قرأهـا لواصـل تغييرهـا بـلا نهايـة. ينبغـي ان يتوقف في لحظة ما عن مراجعتهـا وتغييرهـا. اغتسـل وصلـى الفجـر وهـي تتردد في خاطره. قاوم كل إغراء بتغييرها. انتهى الأمر. لن يعود إليها ثانية. يستعد بتهيب ووجل لعرضها على المصلين بعد الفراغ مـن صـلاة الجمعـة. خشيته كبيرة أن يجد نفسه وحيدا. أن يتركه المصلـون وحيـدا وينصرفـون. فليفعلوا. سيقدمها وحيـدا. الحـق ليـس دائمـا مـع الجماعـة. مـا أن وصـل المسجد الجامع حتى وجد الناس يبتسمون له بمناسبة وغـير مناسـبة. تفـاءل خيرا بهذا التشجيع، كأنما يحظونه على المضي فيما ينوي. فكـر في عـرض

فكرة أن يلقي خطبة الجمعة على الخطيب ليحاصرهم ويفاجئهم فلا يترك أمامهم سبيلا للهرب. كانوا سيجدون أنفسهم أمام خطبة لا يحبون سماعها لولا حماقة الخطيب الذي رفض رفضاً باتا أن تكرس خطبة الجمعة لأمور الدنيا. خطبة الجمعة تتوجه إلى الله وإلى المؤمنين ولا تتوجه إلى القلعة. خطبة الجمعة تهذب النفوس والأخلاق وتدعو إلى صراط مستقيم لكنها لا تطالب بشيء. لا شيء يقنع فقيه إذا ركب رأسه. يرى الحق كل الحق على طرف لسانه والباطل والمنكر فيما يراه غيره. لم يجد أحمد بدا من أن يتمسك بخطته. قفز فور الإنتهاء من صلاة الجمعة إلى المحراب بسرعة في حركة خاطفة قبيل أن يسلموا منهين صلاتهم، حتى خيل لبعضهم أنه لم يصل معهم وإنما كان يكمن في المحراب لأخذهم على حين غرة. جلجل بصوته مستوليا على المحراب قبل أن يتمكنوا من الهرب. تدافع عدد كبير منهم نحو الباب بسرعة كأنما شب حريق هائل في المسجد. كان الباب قد سد بجموعهم يتزاحمون ويمنعون بعضهم بعضا من الخروج. حاول البعض القفز من النوافذ. وجدوا عند كل نافذة من سبقوهم يتدافعون حتى سدوا طريق الخروج أمامهم. لم يبق أمامهم سوى البقاء للاستماع إلى كلمته وعيونهم على الباب والنوافذ في انتظار أول فرصة للخروج. واصل إلقاء الشكية من المنبر ومن في الجامع في هرج ومرج. البعض يتجه يمينا والبعض يتجه شمالا بحثا عن منفذ. وبعضهم اتجه نحو المحراب. كان يقرأ من الورقة ومن الذاكرة ويستعد لرد أي هجوم يقع عليه. الكل يستمع والكل يصرخ متوسلا فتح الباب أو النافذة. هرج ومرج يملأ المكان وهو يجلجل بصوته حتى يكاد يفجر طبلات آذانهم. تدافع من في الصرح نحو الداخل لسماع ما يقول فاصطدموا بمحاولات الخارجين للهرب. الكل يصدم الكل. أبصار شاخصة نحوه لا يدري أمن الإعياء أم الإعجاب. ما أن انتهى حتى اتجه إلى الباب ومنع الخروج قبل التوقيع أو البصم على الشكية. تدافعوا في هلع يوقعون ويبصمون حتى يخرجوا بأسرع وقت ممكن. زاد التزاحم حتى

لم يعد قادرا على الحصول على أي توقيع أو بصمة. أفسح أمامهم الطريق معلقا بعبارته الفقهية (فعل الخير فرض كفاية متى قام به البعض سقط الوجوب عن الباقين). لم يتحمس أحد للذهاب معه لعرض الشكية على أمير قلعة أبوابها نار موقدة لا يسلم من شررها من يقترب منها. ثلاثة شبان ذهبوا معه لرؤية حمامة، اميرة القلعة الجميلة. يعرفون أنه سيمر بها في طريقه، وربما اتهموه أنه إنما لفق قصة الشكية ليجد مسوغا للتحرش بها وإعادة المياه إلى مجاري حبه القديم. وكان نجاحهم أكثر بكثير من نجاحه في مسعاه الخيري. فقد سعدوا بالتطلع إلى وجهها الجميل، وصدرها الناهد، وردفها المترجرج، حين قابلته خارج الباب الجنوبي تنتظر قدومه على باب مقهايتها التي ألف حجارتها كما ألف منزله. قالت:

- أهلا بالقمر. ما سرنا؟

رد في جدية وصرامة لم تألفهما منه من قبل:

- جئت في عمل.

- ظننتك جئت لرؤية من يحبوك؟

حاول تغيير مجرى الحديث قائلا:

- كيف الحال؟

- مشتاقة لمن نسوا المعروف.

أحرجه حديثها أمام مرافقيه. تلفت حوله. رآهم يتبسمون بخبث. أضافت:

- لا تهتم بهؤلاء الأوغاد. أقسم با لله أن الواحد منهم يتمنى أن انظر في وجهه بمجرد نظرة. تجدهم قد بالوا على أنفسهم لمجرد سماع حديثي معك.

أسرع مبتعدا يتبعه مرافقوه، يمضون وراءه وهم يواصلون النظر إليها مندهشين من جرأتها وجمالها، ويتمنون أن يسمح لهم بانتظاره عندها، لكنهم لم يجرؤوا على البوح برغبتهم خوفا من ردة فعله، فتظاهروا بلعنها وأحلامهم معها في عناق ملتهب بالرغبة.

- متى تعود؟

- ...

نظرت إليه في حنق وغيض. ابتعد مسرعا وشيء في داخله يشده في حنين نحو أحاديثها ورائحة شعرها المخضب بعطر مثير. غرق في ذكرياته مع القلعة. يعرفها حجرا حجرا منذ أن كان سجينا أثيرا فيها. تعلم فيها أولى خطوات حياة انتزعته بعنف من أحضان حنان الأمومة وهدوء البيت، ومن طفولة بلا لون ولا رائحة. صعد الدرج الحجري للمبنى الذي يقيم فيه أمير القلعة. درج شبه مظلم. رائحة الرطوبة وبول الفئران تملأ المكان. اتجه نحو الطابق الأول. دخل قاعة مستطيلة مرصوفة بالحجارة المسطحة، مكتظة بشاكين لا يعرفون خصومهم. يتخطفهم عسكر لا ينظرون سوى إلى جيوبهم. الإنسان عندهم حيوان له جيب أو صرة كبيرة مملوءة بنقود يصرفها العسكر. لا يهمهم أن يكون هذا الحيوان جائعا أم شابعا، مسجونا في قفص أو طليقا يعقر الزروع والثمار. النقود أميرة القلعة وإلهها. لكن شاوش الحبس يختلف مع هذا التعريف للإنسان. فيرى أن الإنسان حيوان قابل لدخول السجن والخروج منه بسرعة وانتظام دون توقف، وله ساقان لا يقويان على تحمل القيود حتى يدفع بسرعة ما يرجو به التخفيف من قيوده أو فكها، ويدفع أجور سوقه إلى السجن، ومقابل خروجه منه، وأجور العودة إليه. وأحيانا يعرف الإنسان بأنه مشروع سجين، لا بد أن يتحقق في وقت قريب أيا كانت الظروف. ولذلك ما أن يقابل أي انسان حتى ينظر إلى أسفل ساقيه وكم من القيود يمكن أن تتحملا، وإلى جبينه لتخمين الوقت الذي ينتظر أن يسجن فيه، والإحتمال الذي سيخرج فيه من السجن ليعود إليه من جديد في انتظام بديع لا يقبل التراخي. لا يمل عن تحذير من ترميه المقادير في طريقه من مغبة الإسراف في الخيال وتصور إمكان تجنب الوقوع في يده. لأن افتقار الأرض إلى مساجين يعني إغلاق القلعة. والقلعة لا تغلق. القلعة تقتلع من مكانها أو تسحق السيقان النحيلة والرؤوس المطأطئة.

ضجة الشاكين تعلو وتتصاعد حتى تصل عنان السماء. أشبه بسوق شعبي يعلن كل من فيه عن بضاعته أو حاجته بطريقته الخاصة وبأقصى ما لديه من صوت دون أن يستمع أحد لأحد. وأمير القلعة قابع في جانب من المكان يتصنع جلسة غريبة متبخترة تختلف عما اعتاده المقيلون من عباد الله. كتلة من اللحم المكوم المحشو داخل ثوب فضفاض، يمكن أن تكون أي حيوان آخر لولا أن لها لحية كثة وخطها الشيب، وشارب غير طويل تتداخل فيه الشعرات السوداء والبيضاء باشتباك يصعب فضه، وحواجب كثة، ورأس عار حليق. يتعمد أن تبدو في جلسته غطرسة لا يصعب على العين إدراكها من النظرة الأولى. على يمينه بالقرب من الباب كاتبه الذي يحرر الردود على الشكيات. شاب في الثلاثين من العمر، متحذلق، يبدو عليه الذكاء والألمعية. موظف غير رسمي يعتمد في معيشته على ذكاء أخاذ يوظفه في خدمة الأمير ليحصل على نصيب متواضع من النهب الرسمي المنظم باتقان وإلحاح. يدين الفساد في السر ويبرره بلباقة ودهاء في العلن، ويشارك فيه بقدر ما يستطيع. ويجلس أسفل الدكة التي ترتفع قدر نصف متر عن الأرض جماعات من الشاكين يشخصون بأنظارهم نحو دكة الأمير في خشوع وهلع، يرفعون أصواتهم كلهم في الوقت نفسه في جوقة أصوات يصعب تبين ما إذا كانت تشبه نباح الكلاب أم نهيق الحمير أم صهيل الخيول. بعضهم يصفر وبعضهم يسعل وبعضهم يصرخ وبعضهم يبكي أو يضحك. يصرخون في بعضهم بعضا ويشخطون فيمن حولهم، والأمير لاه عنهم بمداعبة أغصان القات والحديث مع كاتبه. والعسكر يركزون أنظارهم على جيوبهم، والشاوش منهمك في تفحص أسفل سيقانهم. وما إن سمع كلمة (حبس) حتى قفز كالليث الغضنفر يمسك بتلابيب الجميع بما فيهم أحمد ومرافقوه يسحبهم سحبا على وجوههم نحو السجن. تعارك أحمد معهم وصرخ في وجوههم:

- قضيتنا مختلفة. لسنا منهم.

والشاوش لا يسمع ولا يرى. لا يسمع سوى كلمة حبس، ولا يفهم سوى مهارات دق القيود حول السيقان. وانهمك العسكر في سحب المتخاصمين نحو السجن بيد، ونهب ما في الجيوب باليد الأخرى، وأذهانهم مستغرقة في حساب ما سيكسبون من هذه الوجبة الدسمة من المساجين. أمسك أحمد بيده اليسرى على جنبية الشاوش الحادة خوفا من أن يسلها ويبادره بطعنة مميتة، وأمسك باليد اليمنى عنقه يصده عن سحبه إلى السجن بدون سبب، واسند قدميه إلى الجدار يمنعه من الخروج بمرافقيه. الشاوش يصرخ وأحمد يصرخ مشتبكين في عراك الحياة والموت. استغل الشاكون اشتباكهما ليتملصوا من قبضة العسكر المشغولين بالبحث عن جيوب غير موجودة أو خالية، وعادوا يتصارخون أمام الأمير وكأن شيئا لم يكن. وأحمد يصرخ بهم أن يعينوه على الخلاص من حالة الإشتباك بالشاوش دون جدوى. حتى أصحابه الذين رافقوه كانوا يتفرجون عليه وكأنه في مزاح مع صديق وليس في معركة قد يفقد فيها حياته إذا نزع يده عن جنبية الشاوش. تركوهما يتعاركان بطول المكان وعرضه والكل لاهون عنهما بصراخهم أو يتفرجون منتظرين ما تسفر عنه المباراة. لم ينقذه إلا تدخل الكاتب وقد استغرق في نوبة من الضحك:

ـ دعه ياشاوش. ليس منهم.

أصلح وضع ثيابه التي كادت تتمزق وتتخلع من فوق جسده من أثر عراك داهمه على حين غرة. ظلت نظرات الشاوش تلاحقه في حقد وضغينة كأنما يتوعده بالوقوع في يده إن عاجلا أم آجلا. تشاغل عنه بمحاولة مد يده على امتدادها بالشكية نحو الأمير الذي يتجاهله كلما اقتربت الورقة من وجهه. يتطاول فوق أعناق موجة جديدة من الشاكين حلت محل المجموعة الأولى التي سيقت إلى السجن، علـه يصل إلى أقرب مسافة من يد الأمير. تقترب الشكية من يد الأمير وعينيه فيزداد تجاهله لها. تزاحم الشاكين وصراخهم ومشاجراتهم تبتعد بأحمد شيئا فشيئا عن مكانه حتى يجد نفسه في آخر المكان. يعاود الكرة. كلما اقترب قليلا رد

من جديد خارج حلقة المتخاصمين. رفع صوته مثلهم عله يجد طريقا إلى تسليم شكيته. واصل الصراخ والصفير حتى الهذيان. لا أحد يستمع لأحد. أمسك بشكيته واعتلى على أكتاف أحد الحاضرين دون إذن منه وقرأها خطيبا بأعلى صوته. تلح عليه رغبة في التبول. لا يوجد مكان لقضاء الحاجة. تلح عليه الرغبة في أن يتبول على الدكة. عندما انتهى من قراءتها حاول النزول في حين كانوا كلهم في موجة صراخ عاصف طوحت به فوق الدكة أمام الأمير. رمى الورقة في صدره وقفز فوق روءوسهم عائدا في الإتجاه المعاكس لتجنب الإصطدام به وبكاتبه. كافأه على تجنب الإصطدام به وإقلاق مقيله بأخذ الورقة وإلقاء نظرة خاطفة عليها. ثم تناول قلما سميكا ذا لون أسود من فوق صندوق خشبي موضوع أمامه، مغطى بقطعة قماش متسخة. خط في أعلاها بعناية في سطور مائلة ووقع في الأعلى وناولها إلى الكاتب الذي سلمها لأحمد دون اكتراث. قرأ أحمد ردا تافها لا معنى له. كل ما فهم منه أنه يلزم الذهاب إلى (مقام أمير المؤمنين). لا يوجد مقام لأمير المؤمنين في هذه الجبال الضائعة. صرخ محتجا. لم يستمع لصراخه أحد. رفع صوته بالأذان حتى يلفت الأنظار إلى احتجاجه. الله أكبر الله أكبر... قاموا جميعا يصطفون لأداء صلاة العصر إلا الأمير والكاتب. مد يده بالورقة إلى الأمير مجددا، محتجا بانفعال وحدة. سمع كلمة (حبس) تخرج من فم مليء بعجينة خضراء تتناثر رذاذها فوق الدكة وفوق رءوس الشاكين أسفل الدكة. تراجع نحو الخلف لتجنب ذلك الرذاذ الأخضر فاصطدم بالشاوش الذي اندفع نحوه كالسهم على رنين تلك الكلمة اللعينة. جرى خارجا بأسرع ما يستطيع والشاوش يجري وراءه. ظل يعدو ويعدو كحصان جامح أو كقط هاجمه ثعلب ماكر، هربا من الشاوش ومن أن تراه حمامة وهو في هذا الوضع الذي لا يدعو للتفاخر أمام امرأة جميلة. واصل العدو دون أن يلتفت وراءه حتى هده التعب وتهالك جسده المغسول بعرق غزير سال من أنحاء جسده.



-٥-

لأول مرة منذ جاءوا به وبصاحبه من الأسر إلى هـذا الجحـر الكـالح الكئيـب يسـمح لهمـا بـالتجول حـول السـجن لبضـع سـاعات للحركـة والراحـة والتمتـع بأشـعة الشـمس، ومشـاهدة السـماء الزرقـاء الصافيـة، ومراقبة الأفق المسدود بالجبل المقابل. لم يكن يعرف أن الشمس ضرورية للإنسـان إلى هذا الحد. منذ أن اقتادوه وصاحبه خارج غرفة السجن لأول مرة وهو مهموم بدراسة تفاصيل المكان ومساربه لمعرفة إمكانيـة الهـرب. الهرب عنده طبيعة ثانية وثالثة ورابعة. لا يتصور أي حـل سـوى الهـرب. حتى حين تكون المواجهة أيسر، يبدو له الهـرب أقصـر الطـرق. مصـاب بمرض الهروب إلى الأمام أو إلى الخلف أو إلى أي اتجاه. ترعبه المراوحة في المكان نفسه. إذا عز الهرب في المكان هرب في الزمـان. وإذا اسـتحال في الواقع هرب في الخيال. لا يطيق البقاء في الحاضر. الحاضر سجن مرعـب وعسكر وشاوش. تطلع فيما حوله. السجن لا يغير موقعه. ما يزال كمـا كان في اللحظة الأولى لدخوله حصنا يقع على رأس جبـل صخـري مثـل الدبوس، مطلا على هاوية سحيقة من ثلاث جهات. داخله الخوف لمجرد النظر إلى الأسفل. لا توجد إليه سـوى طريـق واحـد أو ممـر منحـدر يمـر بباب غرفة العسكر. ويحيط بالحصن مسـاحة ضيقـة ينبـت فيهـا العشـب وتحيط ثلاثة أشـجار عاليـة لا تجـرؤ حتـى القـرود علـى تسـلقها، يقطـع

العسكر الحطب منها مما جردها من أكثر فروعها ويوشك أن يعدها بيوم تختفي فيه من الوجود. طلب من السجانين أن يسمحوا لهما بالخروج إلى باب السجن للإستزواح وقضاء الحاجة كل يوم دون حاجة لإغلاق الباب. السجن مغلق بصورة طبيعية ولا مخرج منه إلا من باب غرفة الحرس. فلماذا الإغلاق. أصر السجانون على عودتهما وإغلاق الباب عليهما دون داع أو سبب. من باب التعذيب، لا أكثر ولا أقل. حاول أن يناقش، أن يقنع، أن يحتج، أن يعارض. استخدم العسكر لغة لا يستطيع معها إلا الإقتناع. هددوه بالضرب فرضخ مرغما. كان عمر يقبل ما يطلب منه في صمت ولا مبالاة حتى إذا غادر العسكر انفجر ضاحكا يسخر من محالاوت أحمد فتح قناة تفاهم معهم.

- لا فائدة يا فقيه. أنت تحرث في البحر.

- فليكن. نحاول مجدا أو نموت فنعذرا

فكرة دراسة المكان تستولي على كل مشاعره. موقن دون أدنى شك بأنه سيهتدي في النهاية إلى العثور على منفذ. تصنت عند الباب قبل أن يسأل عمر:

- هل تطلعت حولك لمعرفة إمكانية الهرب؟

- كل ما أحلم به الآن هو أن آكل حتى أشبع وأن أشرب حتى ارتوي.

كان انفتاح الباب لبضع ساعات في اليوم فتحا كبيرا في حياة السجن. لكن الجسد يتمرد على النظام. النظام شيء اعتباطي يقرره شخص ما دون مراعاة لحاجات الجسد. الجسد مادة هلامية تتشكل في كتل مختلفة لكل منها حاجات تختلف عن الأخرى. ما كان نصرا في حياة السجن أصبح مدعاة للكآبة. لم يعد أحمد قادرا على إقناع جسده بالقبول بالخروج لبضع ساعات. أصبح يطالب بالمزيد. ما يكاد ينغلق الباب حتى تعاوده الوحشة والشعور بالضياع. لا شيء يوحي له بإمكان

النفاذ من هذا الطوق الجهنمي. طوق السجن المعزول وطوق الجسد المنطلق من عقاله بلا كوابح. من مشنقة إلى مشنقة فرج. سيظل يطالب ويطالب، يتحدث ويناقش، يحتج ويعترض متجاهلا غلظتهم ورعونتهم. هؤلاء عسكر بلا مشاعر، قدت قلوبهم من صخر وطين. يواصل محاولاته دون جدوى:

- جمعة مباركة ياشاوش.

قالها لأحد العسكر وقد اعتاد أن يجامل السجانين بهذه الرتبة. لم يعره اهتماما. عمر يتابع بانتباه شديد وبصمت نتيجة المحاولة ليحولها إلى موضوع للضحك وقضاء الوقت وانتزاع لحظات مرح من أنياب الحياة القاسية، فيما بعد. كرر أحمد المحاولة:

- لماذا لا تسمحون لنا بالصلاة؟

أجاب العسكري بامتعاض:

- أنتم جمهوريون لا صلاة عليكم.

وجدها فرصة لمواصلة الحديث معه أيا كانت النتيجة. قد يؤدي تكرار الحديث إلى صلة تساعده فيما ينوي الإقدام عليه.

- من الذي أعفانا من الصلاة؟

- أنتم شيوعيون كفرة.

- نحن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.

- أنتم جمهوريون بزنانير.

- النبي (ص) قال...

لم يدعه العسكري يكمل الحديث:

- اسكت قبل أن أكسر رأسك بهذا الصميل.

ملوحا بعصى قصيرة غليظة ذات رأس مكور. تجنب أحمد وقوع الضربة فوق رأسه وقفز إلى داخل غرفة السجن. كان عمر قد سبقه إلى القفز متناسيا ألم قدميه. ما أن أغلق العسكري الباب بعصبية ونزق حتى

استغرق عمر في الضحك من هذه المحاولة التي كادت تنتهي بسفك دم أحمد. قال له:

- المثل يقول: ابحث لمسجدك عن فقيه. وأنت ابحث لأحاديثك عن مسلمين يستمعون إليها ويخشعون. هؤلاء قطاع طرق.

- يكفي أنني أضحكتك هذه الضحكة العميقة. لم أرك تضحك هكذا منذ زمن.

- شر البلية ما يضحك.

- نحن في بلية لا أسوأ منها، لكن لا بد من مخرج. اشتدي أزمة تنفرجي.

بدأت النقاشات بين أحمد وصاحبه تفتح بابا جديدا لاحتمال الحياة في السجن. يختلفان حول أشياء كثيرة لكن بود. لم يكن عمر يعطي اهتماما لمحاولات أحمد اجتراح معجزة تخرجهما من السجن أو على الأقل تخفف من معاناتهما. أدهشه أنه نجح حتى الآن في إقناع العسكر بالسماح لهما بالخروج لبضع ساعات في اليوم. كان هذا في البداية في حكم المستحيل. أصبحا في عزلة السجن ووحشته أقرب من الأخ لأخيه. توطدت علاقتهما خلال الشدائد. ولم يكن عمر يقبل في البداية أي شيء يقترحه أحمد. أصبح الآن ميالا إلى قبول آرائه بصورة مرحة. لم يعد يسخر من محاولاته الأخذ والرد مع العسكر، ولم يعد يعترض على مجرد الأخذ والرد معهم. أصبح يحولها إلى مادة للتلهي والمرح ولكن دون اعتراض. أكثر ما أدهشه مؤخراً أن أحمد نجح في محاولاته جعل العسكر يفتحون الباب ويذهبون دون أن يبقوا فوق رأسيهما شاهرين السلاح وكأنهما سيقفزان إلى الهاوية. اقتنعوا أن سلاحهم لا يمنع القفز إلى الهاوية. أصبح عمر يطالب أحمد بالتوقف عن المطالبة بالمزيد حتى لا يخسرا ما يتمتعان به من حرية طوال النهار. جرت الأمور بسرعة لم يكن يتوقعها. سخر من قناعته قائلا:

ـ لن أتوقف عن المشاكسة حتى نتحرر منهم أو ينتهوا منا ولو بالقتل.

اقنع أحد الحراس بعد نقاش وصل حد الإشتباك بأخذه إلى الشاوش المسؤول عن الحصن. منذ وصل لا يعرف في قبضة أي نوع من العسكر. مشاكسة العسكر العاديين أقل فائدة من مشاكسة المسؤول عنهم، وأقل ضررا. يحس أنه بإزاء شاوش متغطرس. لم يفكر ولو بالتعرف على سجينيه منذ وصلا. لم يسألهما عما فعلاه. عن سبب اقتيادهما إليه. أخذ الحارس أحمد إلى باب غرفة الحرس. لأول مرة يراها. كان عند وصوله إلى هنا منهكا متعبا لا يرى شيئا. وجدها غرفتين إحداهما داخل الأخرى، تقعان على الطريق المنحدرة من رأس الحصن إلى أسفل الجبل. أمره العسكري بالجلوس خارج الباب ودخل غرفة العسكر. أجلسه على أرض رطبة متسخة ببقايا التنباك المحروق والرماد. تلفت أحمد في كل الإتجاهات ليرسم في مخيلته خارطة للمكان قد يحتاجها عند الضرورة. العسكر يدخلون ويخرجون بلا هدف. يلقون عليه نظرة ازدراء، وأحيانا يمرون به بلا مبالاة. بعد حوالى عشر دقائق من الإنتظار الممل أقبل الشاوش. في العقد السادس من العمر. يميل إلى الطول. نحيل الجسم، قمحي اللون. عيونه ذابلة. وأنفه معقوف قليلا. مصفر الوجه. له لحية خفيفة الكثافة، متناثرة. شاربه طويل ودون كثيف. يحاول برمه إلى الأعلى دون جدوى. محاولات ثني شاربه نحو الأعلى تعطيه شكلا مضحكا. ما كاد أحمد يتفحص سحنته حتى أدرك أنه سبق أن عرفه لا يدري أين ومتى. يشبه شاوش القلعة التي سجن فيها في قريته. الوجه نفسه، والدقن نفسه، والعيون الذابلة نفسها. الجديد محاولات ثني الشارب. تمنى أن لا يتعرف عليه حتى لا يستخدم موضوع سجنه القديم لإيذائه. بادره قائلا:

ـ السلام عليكم يا شاوش.

ـ...

بادر العسكري الذي أحضره قائلا:

ـ عاصي والديه يريد مقابلتك.

رد باشمئزاز:

ـ ماذا يريد؟

ود أحمد أن يبدأ بشيء من المجاملة لتليين جو المقابلة مع أنه يخاف من أن يكون قصد الشاوش تقليل قدرته على المناورة باستخدام أسلوب جلف. استفزه الإستقبال المتغطرس مع أنه لا يتوقع الكثير. انفعل واندفع قائلا:

ـ مضى على وصولنا أكثر من شهر في الأسر ونحن نجوع ونبرد. لا الزاد يكفي ولا ملابس تقي البرد، ولا غطاء، ولا يسمح لنا بالإغتسال، ولا حتى بأداء الصلاة.

ـ أحمد الله أنك لم تقتل مثل الكلب. أنت أسير ولست في مقهاية.

ـ للأسير حقوق...

احتد الشاوش موجها كلامه إلى العسكري:

ـ أعده إلى السجن قبل أن أمزق جسده بهذي (وأمسك بمقبض جنبيته).

أحس في أعماقه بالخوف وصمت كالأخرس والعسكري يدفعه بغلظة في الطريق نحو باب السجن. أسرع في سيره حتى لا يعرض نفسه لمزيد من الأذى والإهانة. عاد مهموما مغموما مستنكرا على نفسه طلب مقابلة هذا الوغد المتوحش.

كم كان واهما حين ظن انه في ورطة عندما وقع في أسر عيشة. بحث عن عمل يقيه غائلة التشرد والجوع في عدن. هارب يذرع الشوارع بحثا عن عمل. أمثاله كثيرون. الشوارع مليئة بالهاربين اتقاءا لشرور العسكر والجوع. يبحثون عن عمل. قاده حظه النحس بعد فترة ضياع وتشرد في شوارع عدن للحصول على عمل في حارة في الشيخ عثمان. بائع (آيس كريم).

حين عرض عليه صبي في مقتبل العمر يعمل بائعا للآيس كريم، التقاه صدفة في مقهاية، هذا العمل الذي يتمنى الحصول على مثله آلاف المشردين، أجاب بتهيب وخوف من المجهول:

ـ ليس لدي خبرة في هذا العمل.

ـ عن أية خبرة تتحدث؟ احمل الثلاجة الصغيرة واصرخ (آيس كريم) يأتيك المشترون. هذا هو العمل.

ـ الأمر سهل إذا. على بركة الله.

ذهب إلى العنوان الذي دله عليه في حافة ترابية. طرق باب البيت. فتحت له امرأة تتنقب برداء شفاف. رحبت به وأدخلته إلى الطابق الأول من مبنى يبدو من لونه القاتم انه بني قبل التاريخ بقليل. هذه أول مرة يدخل فيها بيتا منذ أن وصل إلى عدن. يقيم منذ وصوله في العراء. يرحل مشيا على الأقدام آخر كل نهار إلى مسجد مهجور بعيد عن أضواء المدينة، يقع خارج دار سعد على طريق لحج، لينام غريبا بين غرباء لا يلتفت إليهم المكان الذي يدبون عليه موتى بلا أكفان، ولا يعرفهم أحد سوى عواء ذئب الجوع ونباح الكلاب الضالة، ويعود في مطلع كل نهار ماشيا يذرع شوارع دار سعد والشيخ عثمان المتربة بحثا عن أي عمل، مثل آلاف قدموا من مملكة أمير المؤمنين والعسكر والجراد. يطلبون العمل ولا عمل سوى الاكتواء بحرارة شمس وحشية. يتنقل في أوقات الفراغ من قهوة إلى أخرى، ومن مطعم إلى مخبازة، ومن مكان ظليل إلى آخر أو يبقى في المسجد للصلاة والاسترواح تحت مراوحه. لم تمض سوى أيام قليلة منذ وصوله حتى كان قد فقد الإحساس بالأمل واليأس. مشغول بصراع البقاء الغريزي. الغريزة تجمع الإنسان والحيوان. الصراع من أجل البقاء يوحدهما معا. الحيوان لا يفكر. لا يحس بالأمل. ولا يصاب بالخيبة.

الباب الخارجي لهذا البيت يؤدي من الشارع إلى درج غير متعرج يشبه السلم يوصل إلى الطابق الأول. اما الطابق الأرضي فقد ترك

للدكاكين. عرفته المرأة التي استقبلته بنفسها. اسمها عيشة. تعيش مع أمها العجوز الحاجة وردة. قادته مباشرة إلى المطبخ، حيث الثلاجة التي تحضر فيها الآيس كريم. فتحت الثلاجة وأرته قوالب الآيس كريم وعلمته كيف يخرجها من القوالب المثلجة فيها ويعبئها في الثلاجة الصغيرة ويخرج لبيعها. لم ينظر إلى وجهها خجلا. كانت منقبة برداء شفيف لا يخفي إلا القليل مما تحته. صوتها منخفض. لم يلمس فيه لهجة آمرة أو أثر غطرسة. عيشة تعيش مع أمها. كل منهما تعيش في غرفة منفصلة. وإلى جانب غرفتيهما يوجد بالطابق الذي تعيشان فيه مطبخ وحمام وصالة كبيرة تنفتح إليها الغرف. الطابق كله مفروش بمشمع قديم. ومن الصالة يمتد درج مستقيم إلى السقف. ليس في الطابق سوى مروحة واحدة معلقة في سقف الصالة تأتيان للتمتع ببرودها في النهار وتنامان في شدة الحر تحتها. عيشة وأمها تجلسان تحت نسيمها طوال اليوم تتبادلان قصبة المداعه التي لا تفارق الشفاه. عرضت عيشه على أحمد العمل الذي ينتظره كل يوم. أن يأتي كل صباح، يفرغ قوالب الآيس كريم من الثلاجة، ويعبئها في الثلاجة الصغيرة المحمولة باليد ويذهب للبيع، ثم يعود عند نفادها لملئها من جديد وبيعها. سأل عن الأجر. قالت:

ـ ثلاثون شلنا في الشهر. تزيد إذا زاد المبيع. الزيادة تعتمد عليك. سنوفر لك الغذاء أيضا.

لم يكن في وضع يسمح له بالإختيار. يريد الحصول على أي عمل في هذا الوضع الصعب الذي وجد نفسه فيه. حتى لو كان مقابل الغذاء والمأوى. حياة العراء آخر ما كان يتوقعه من عدن. سيقبل بهذا العمل مؤقتاً إلى أن يتوفق في الحصول على عمل أفضل. كل شيء مؤقت. حتى هجرته إلى عدن. ليست نهائية. اضطر إليها في انتظار أن يعود إلى بيته وأرضه. سأل:

ـ منذ متى استطيع العمل؟

ـ منذ صباح الغد

ابتسم لهذه الفرصة السارة

ـ اتفقنا

ـ الإفطار هنا

ـ شكرا لك.

سر سرورا كبيرا بهذا العمل. (المشاهره) قليلة. صمم على مضاعفة الجهد لزيادتها قليلا. على الأقل أصبح لديه مكان يجد فيه الغذاء. لن يجوع بعد اليوم. هذا أول الغيث في ظروفه. أول الفرج. فرصه كبيرة يتمناها آلاف الناس الضائعين في الشوارع يبحثون عن عمل يقيهم غائلة الجوع. الجوع مقيم في شوارع المدينة. لا أحد يلتفت لهؤلاء الذين يتضورون جوعا على الأرصفة الملتهبة بحرارة شمس لا ترحم. أغلبهم مرضى، وبعضهم مشوهون. لن يكون بعد اليوم واحدا من الجائعين. خرج من البيت يهيم في الشوارع باحثا عن بائعي الآيسكريم، يتعلم منهم نداءاتهم وطريقة بيعهم. لم يلتفت إليهم من قبل مع أنهم في كل شارع. لم يكن عملهم يعنيه في شيء فلم يلفت انتباهه أبدا.

وصل في الصباح في موعده. لا يريد أن يعطي انطباعا بأنه متهاون منذ البداية. استقبلته عيشة. فتحت الباب وأسرعت بتقديم طعام الإفطار. روتي وشاي بالحليب. تناوله بسرعة. غمس قرص الروتي في الشاي فذاب بسرعة وتحول سائل يصعب التقاطه. شربه كما يشرق المرق. عبأت عيشه الثلاجة الصغيرة أثناء تناوله الإفطار. وما أن انتهى حتى تناولها وأسرع خارجا. نادى منذ الباب: (آيس كريم) مقلدا أصوات الصبيان القادمين من الريف الذين سمعهم منذ الأمس فقط يبيعونه. جال ثم جال. لم يجد من يشتري. صدمته لا مبالاة المارة بنداءاته مع أنه رفع صوته حتى بح. شعر بخيبة أمل شديدة. الباب الذي ظن أنه سيقيه غائلة التشرد والجوع ينسد بسرعة غير معقولة. لماذا لا يشتري الناس الآيس كريم؟ لمن يبيع هؤلاء

الصبية المنتشرون في كل مكان من المدينة؟ لماذا يشتري الأطفال من الآخرين ولا يشترون منه؟ مشكلة حقيقية. أول رد فعل انتابه هو التفكير بالهرب. لن يعود. لكن واجهتهُ مشكلة أخرى. كيف يوصل الثلاجة لصاحبتها؟ الآيس كريم الذي فيها يكاد يذوب. لن يبقى فيها قالب واحد. ستظن عيشه انه خانها. لن تصدق ان القوالب ذابت. ماالذي أدخله في هذه الورطة؟ الحياة كلها ورطة. كيف يكسر هذه الحلقة الجهنمية التي تنغلق حول عنقه وتضغط على صدره حتى تكاد تخنقه؟ هل تضيع فرصة ظنها مخرجا بهذه السهولة؟ يا لغدر الزمان وغدر هؤلاء الأطفال الذين يشترون من غيره غير مبالين بصراخه الذي يشبه التوسل والرجاء. تسكع من حارة إلى أخرى. صرخ (آيس كريم) تارة بصوت عال، وتارة بنزق وضيق، وتارة بلا حماسة. بيأس قاتل. قادته الصدفة إلى مجموعة من العشش تقع بين الشيخ عثمان والسيسبان. انفتح فاهه مرددا كلمة واحدة في حشرجة يائسة تقترب من حشرجة الموت (آيس كريم، آيس كريم، آيس كريم...). داهمته مجموعة كبيرة من نساء عمال النظافة ببشرتهن السوداء. تناولت كل واحدة منهن قالبا. وبعضهن اشترت لها ولأولادها. وبدأ الجميع معزوفة مدهشة لم يسمع في حياته أعذب منها ولا أجمل، من اللحس والمص والالتهام بشراهة لا أبدع منها ولا أروع. وسرعان ما فرغت الثلاجة بصورة أذهلته. فرح بهذا الإكتشاف الخطير الذي حل أزمته مع بيع الآيس كريم، ومع عدن، ومع الجوع والتشرد بضربة واحدة. أول درس من دروس عدن أن الناس كلهم ليسوا من زبائن الآيس كريم. وثاني درس أنه لا بد أن يعمل بسرعة لاكتشاف المجال الحيوي الخاص به كما يحدد أي حيوان مجال حركته ويدافع عنه أمام تعدي الآخرين عليه. وسرعان ما تعرف على أرض بكر لم تطأها قدم بائع ايس كريم قبله. رسم بسبابته على تراب الشارع حدود مملكته، في أطراف المدينة. في عشش السيسبان. في دار سعد. وراء كلية عدن. حول النقطة

رقم ستة (نمبر سكس). في المنصورة. في المدارة. يقطع مسافات طويلة مشيا على الأقدام قبل أن ينادي على زبائنه. أقلع عن منافسة البائعين الذين يتجمعون بجانب المدارس وفي ساحات لعب الأطفال. الأطفال ليسوا دائما أحسن من يشتري. نقودهم قليلة، والمنافسة عليها كبيرة بين بائعي المأكولات المختلفة والعصائر والألعاب، ويتميزون ببخل لا يعرف الكرم أو السخاء إليه طريقا. وأحمد يفضل البيع للكبار وبخاصة النساء. نقودهن هاربة من أيديهن، وسخائهن في ملء أفواههم أكبر، وأسنانهن أطول وأحد، وشفاههن وألسنتهن أفتك، وخبرتهن في اللحس والقضم والمص أوسع. أصبح خلال أيام قليلة بهذه الطريقة أمهر بائع آيس كريم في عدن والمحميات الشرقية والغربية. يحتفظ بسر أسرار المهنة المهيبة لنفسه. لا يكلم أحدا عن اكتشافاته الباهرة حتى لا يخطف منه آخر ملجأ اهتدى إليه بعد رحلة طويلة من البحث والتشرد. وسرعان ما اكتشفت فيه عيشة مهاراته التي لا تضاهى ولا تنافس، وتفوقه السريع وأمانته غير المتوفرة في أمثاله من البائعين الريفيين الصغار، فبادرت من نفسها ودون أن تكلفه مشقة المطالبة، بزيادة أجره الشهري بعض شلنات ثمينة. ورد على مبادرتها بالمزيد من اختراع أساليب جديدة مبتكرة في بيع الآيس كريم. وامتنع عما كان ألفه من إرواء ظمائه بلحس بعض قوالب الآيس كريم لزيادة دخلها. لا يريد أن تسوء علاقته بها حتى يحافظ عمل يوفر له العيش الكريم بشرف. صحيح، العمل مرهق، ويحتاج إلى المشي عدة كيلومترات تحت حرارة شمس تشوي الجلود والعظام، لكنه لا يطلب شيئا بلا مقابل. مستعد للعمل بلا كلل ليكسب لقمة العيش. المبيت يؤرقه. بدأ العاطلون عن العمل يكتشفون المسجد المهجور الذي لا يغلق مساءا كباقي المساجد التي يقوم عليها قيمون همهم اغلاقها في وجه من لا مأوى لهم. القيمون نوع من البشر لا تهتز لهم قناة أمام التشرد والبؤس. يشبهون حراس المعسكرات. من اختصاصهم إغلاق المساجد أمام الباحثين عن مأوى. تمنى لو ينتقل

المسجد المجاور لبيته إلى هذه الديار. سيفتح بابه للمشردين. سيتسع للعشرات منهم. قرر المبيت في مقهى قريب من عمله. على سرير من الخشب والحبال يوضع مساء في الشارع الترابي. يضع ملابسه في صرة عند عيشه في الصباح، وفي المساء يأخذها معه ليبيت في هذا الفندق المنشور في الهواء الطلق. مرت أيام على هذا الحال وهو مطمئن إلى مبيته في هذا المكان. أحب ما فيه أن أحمد بعد يوم عمل مرهق يتجه إليه. غادره الشعور بالضياع والتشرد. يحس كما لو كان عائدا إلى بيته. ولكن حدث تطور مفاجيء غير متوقع أبدا. عرضت عليه عيشه دون مقدمات أن يبيت على سقف بيتها. قالت: (مادمت تنام في العراء سقف بيتنا أنظف وآمن وأهدأ). فكر هو مباشرة بما سيوفر من نقود يدفعها مقابل المبيت وإن ذهل لهذا الإقتراح. الناس للناس يا أحمد. يمكن أن تجد في هذا العالم من لا يزال في قلبه شيء من العطف والرحمة. شيء من الإنسانية. ليس الناس جميعا وحوشا يأكل بعضهم بعضا. ليسوا قلاعا مصغرة من قلعة أمير المؤمنين وعسكره. ارتاح كثيرا للفكرة. شكر لها صنيعها وهو في حالة شديدة من الارتباك والإنفعال والخجل. زاد تصبب العرق منه كعادته في كل موقف محرج. قالت له في ود ظاهر إنها لم تعرض عليه المبيت معها وامها في بيت واحد إلا بعد أن عرفته واطمأنت إليه وصارت تعده واحدا من أهل البيت. نعم صوتها وارتعشت أصابعها وهي تقول هذه الكلمات بمشاعر مودة حقيقية زادت من ارتباكه وخجله. اطرق نحو الأرض يداري خجله. أسرعت تعد سريره على السقف بخفة. رفع بصره من الأرض ليقع على نظرات أمها تقف أمامه بتحد. نظر في عينيها فواجهته نظرات كالرصاص. أدرك أنها تعارض مبيته داخل الدار. غالط نفسه بالتهرب من مواجهتها أو الاصطدام بها. صعد نحو السقف. وجد السرير الذي لا يختلف كثيرا عن ذلك الذي ينام عليه في المقهى إلا بما عليه من وسائد وملايات نظيفة قد رتب بعناية. أسرعت عيشه نازلة نحو أمها عندما وصل. جلس على السرير

كالمذهول. لا يصدق ان أموره تتحسن بهذه السرعة. امتلأت رئتاه بعطر رشت عيشه الملاية به. استنشق نفسا طويلا وأغمض عينيه كالمخدر بسحر لذيذ. لأول مرة يحن إلى حياة البيت والزوجة والإستقرار. أين منك هذا الحلم يا أحمد. يحس كما لو كان في حلم لا يستطيع تصديقه. أخرجه من حلمه اللذيذ صوت عيشة تتشاجر مع أمها بسببه. كانت الأم ترفع صوتها بمعارضة مبيته في البيت وعيشه تترجاها أن لا ترفع صوتها. الأم تريد أن يسمع حتى يغادر من نفسه وعيشه تريد أن لا يسمع حتى لا تجرح مشاعره. انقلبت مشاعر السرور والإرتياح فجأة إلى قلق وحيرة. ما الذي يقلق هذه العجوز منه؟ تخاف على ابنتها؟ سيحلف لها كل الأيمان أن لا يمس ابنتها بسوء. عيشة كبيرة السن ولا حظ لها من الجمال، والجنس ترف لا يخطر على باله في هذه الظروف الصعبة التي يجتازها. كل ما يفكر فيه الهرب بجلده من الجوع والضياع. لا يفكر بالاقتراب لا من عيشة ولا من غيرها في هذه الظروف. يقدر لها جميل مساعدته في الخروج من تشرده، لكن ذهبت هذه العجوز بعيدا في خيالاتها وأوهامها. لم يجد أمامه من مفر سوى الخروج حرصا على عمله. يريد أن تكون الأمور واضحة. يريد أن يعمل بشرف لكسب لقمة عيشه. أخذ صرة ملابسه ونزل السلم بهدوء. رأته الأم ينزل دون أن تتوقف عن الكلام متجاهلة وجوده متعمدة إسماعه معارضتها. سكتت عيشه وهي تنظر إليه مضطربة. ثم توجهت نحوه بحركة عصبية وسألته بانزعاج:

- إلى أين؟

- لا أريد أن أكون سببا للخلاف بينك وبين أمك. أشكرك على كرمك. حاولت مساعدتي في الحصول على مأوى. لا أريد لهذه البادرة الكريمة أن تسبب لك المتاعب ولا لوالدتك. أنا انسان ابحث عن عمل شريف.

توجهت عيشه إلى أمها بحزم وغضب وقالت بكلمات هادئة حازمة وصارمة:

- إذا خرج من هنا لن أبقى في هذا البيت. اختاري انت.

الأم تعرف جنون ابنتها وطيشها عند ما تصمم على شيء. سكتت فجأة. تسمر أحمد في مكانه من الخوف من أن يخسر عملا ظنه الفرج الذي انتظره طويلا. لا شيء مضمون في هذه الحياة المملة القاسية. كل يوم معركة مريرة مع ظروف أكثر مرارة.

لا يدري ماذا يفعل. أصبح من حيث لا يدري محور خلاف يكاد يفجر أسرة بائسة مكونة من أرملتين يهد في عزيمتهما اليتم الأليم، تتشبثان في استماتة عابثة بصحراء الحياة القاحلة وبأوهام عفة أكثر عبثا. لا يملك من أمره شيئا. فكر في الخروج بصمت وتركهما تسويان خلافهما بسببه بعد خروجه من هذا العمل المضني. شيء من شهامه منعه من أن يسبب لعيشه بعملها الكريم معه ما يزيدها عذابا إلى محنة اليتم والترمل. ضل صامتا في مكانه. لا ينظر إلى شيء. لا يفكر في شيء. أحس بالأم تقترب منه. نفر لاشعوريا خطوة إلى الخلف.

- سامحني يا ابني. ارجوك سامحني.

لم يصدق ما يسمع. هكذا فجأة. تتحول من معارض شرس لبقائه إلى طلب الصفح منه. ما هذا الذي يسمع؟ رفع بصره نحوها. رأى دمعة تترقرق على خدها الذي خدده الزمن. تراجعت بهدوء ذاهبة إلى غرفتها بصمت. حزن لهذا الموقف الذي يقف فيه. نظر إلى عيشه. وجدها واقفة أمامه والشرر يتطاير من عينيها الصغيرتين. حاول الحديث معها لإقناعها بالسماح له بالمبيت خارج البيت كما كان يفعل. لم تتركه يكمل كلامه. صرخت فيه صرخة أشعرته ان الأمر خطير وأن ما عليه إلا ان يسكت. أشارت له بيدها أن يصعد للنوم في السقف ويتركها. أذعن كالمذهول لهذا التطور في أمر كان يظنه بسيطا وكريما. صعد دون أن ينطق بكلمة. استلقى على السرير يفكر في وضعه الذي لن يدوم بلاشك. اما أن تطرده العجوز أو عيشه نفسها حرصا على علاقتها

بأمها، واما أن يترك العمل هو نفسه. تمنى أن يجد عملا آخر يمكنه من الخروج بسرعة. لم ينم كما ينبغي. وضعه غير مريح. بكر كعادته. افطاره جاهز. الآيس كريم جاهز في الثلاجة. هذه العجوز لا تريد أن تعرف ان أحدا لا يشتري الآيس كريم منذ الصباح الباكر. تريده أن يخرج للبيع في حين لا يجد أحدا يشتري منه في هذه الساعة المبكرة. أخذت عيشه ملابسه لغسلها بدلا من غسلها عند (الدوبي) وأشارت إليه أن يستخدم حمام البيت للإغتسال. حياته تتغير بسرعة منذ سمحت له بالمبيت في السقف. كان يفكر بما سيوفره من مصاريف. فالأجر ضئيل وهو يريد أن يوفر مبلغا يجعله يعود إلى قريته قادرا على دفع ما بقيه السجن من جديد.

أصبح البيت واحته الظليلة. لم يعد يخرج منه إلا لبيع الآيس كريم. اليوم الجمعة. لا يدري أين يقضي نهاره. لا يريد عطلة أسبوعية. ود أن يقول لعيشه أنه لا يريد الخروج. سيعود إلى التشرد من جديد. فكرة التسكع في الشوارع تصيبه برعب حقيقي. لا يستطيع أن يثقل على ربة عمله بوجوده حتى خلال العطلة الأسبوعية. يحتاج إلى الراحة، لكنه لا يحتاج إلى الضياع في شوارع لفحها من جهنم. أغتسل وأطال البقاء في الحمام، وارتدى ثيابه بتثاقل. ارتدى فوطة عدنية بدلا عن البنطلون القصير (الشورت) الذي يرتديه حين يخرج لبيع الآيس كريم. ذهب إلى المطبخ مرات متظاهرا بشرب الماء. تأخر في الخروج حتى يحين وقت صلاة الجمعة. ذهب للصلاة في مسجد النور يتهادى بخطوات متثاقلة. ود لو تستمر الخطبتان والصلاة حتى المساء ليعود بعدها مباشرة إلى البيت. انتهت الصلاة بسرعة بدت له مبالغ فيها. وجد نفسه منساقا للخروج للتسكع في الحر الشديد من شارع إلى آخر ومن مقهى إلى آخر. التقى صدفة في الشارع الصبي الذي دله على العمل عند عيشه. لأول مرة يراه منذ دله على العمل. تقدم منه يشكره. يستحق كل شكر

لأنه انقذه من ورطة حقيقية. رب أخ لك لم تلده أمك. فرح الصبي لأن أحمد توفق في الحصول على هذه الفرصة. لم يكن يتوقع أن تبقى متوفرة بسبب كثرة الباحثين عن عمل، أي عمل. عرض عليه أن ينضم إليه في حضور عرس في الحافة التي يعمل فيها. رد أحمد:

- كيف اذهب إلى عرس رجل لا أعرفه؟
- تعال معي. أنت ضيفي.
- هل العروس صديقك؟
- لا. أنا لا أعرفه.
- من دعاك إذا؟
- لا أحد. دعوت نفسي بنفسي.

راقت الفكرة لأحمد. دفعه الفضول والفراغ للتطفل مثل كثيرين غيره. دخل مع الناس من الشارع إلى غرفتين نشرت فيهما صحون كبيرة ملئت بالرز الزربيان واللحم الدسم. انهالوا على الصحون يلتهمون ماعليها التهاما سريعا كأنهم في مسابقة للأكل. انتهوا بسرعة وخرجوا بسرعة. انتظر بعضهم أن يشرب الشاي. والبعض اكتفي بهذه الوجبة الدسمة. لم يطلب أحد رؤية العروس. ود أحمد لو يستطيع رؤيته. في قريته أول ما يفعله القادمون إلى عرس أن يسلموا على العروس الجالس في مكان قريب من الباب يسمح لكل واصل بمصافحته والسلام عليه وتسليمه ما تجود به القريحة من نقود. تفرق الناس بسرعة كأنهم يتجهون إلى مكان آخر يعرفونه جميعا في حين لا يعرفه هو. حتى الصبي الذي جاء بصحبته اختفى بسرعة دون أن يودعه. تمنى لو كانوا فعلوا كما يفعل الناس في قريته. أن يجلسون للمقيل. يوفر لهم العروس القات طوال النهار والليل. كان سيمضي بينهم عطلة مفروضة لا يريدها. عطلة للتشرد في شوارع تحرقها الشمس بحممها. تسكع قدر ما استطاع. عرق حتى تبللت ثيابه. تضايق حتى كاد يبكي. لعن الغربة وعدن والإمام

والعسكر. اضطر للعودة في وقت مبكر لأنه لم يعد قادرا على البقاء في الشوارع. أحس انه ألف حياة البيت بسرعة. يخشى أن يضايق عيشه وأمها، ويحرص على ان لا يصطدم بهما. قالت له الأم منذ البداية: (من يسكن في بيت يخضع لقانونه). القانون في هذا البيت قانون أم عيشه. بل قانون عيشه. اما أن يلتزم به واما أن يذهب. لا يستطيع أن يذهب. السقف هنا أهدأ من الشارع. الشارع موحش. الضياع فيه مدعاة للإحساس بالمجاعة والموت. السكون في بيت في عدن تجربة جديدة تختلف عن المبيت في مسجد مهجور. انه غريب في هذا البيت. يتذكر هذا دائما حتى لا يتجاوز حدود الضيافة.

عيشه تعامله بلطف وتتقرب منه بمودة وكرم. (تريد أن لا تشعرني بالحرج). قال لنفسه. تهتم بغذائه وملبسه. أصبحت تغسل ملابسه بانتظام. لا ينتهي من الإغتسال في الصباح حتى يكون إفطاره جاهزا. لم يعد إفطاره كما كان عندما بدأ العمل معها. لم يعد روتي وشاي بالحليب دائما. ادخلت عليه البيض تارة والجبنة تارة أخرى. وأحيانا المقرمش واحيانا الفول أو الفاصوليا. أحمد ممتن لهذا الكرم. كلما حاول أن يشكرها منعته بأسلوبها الحازم وهي تبتسم في خجل. وبمرور الأيام أصبحت المسافة بينهما أقصر فأقصر. لاحظ أنها تتقرب منه في كل مرة تكلمه. طرد عن ذهنه أي تفسير بعيد. مجرد لطف وكرم. ثقة تزداد كل يوم. طبيعي أن تزداد الثقة مع الزمن. يؤدي عمله بهمة ونجاح، ويبيع كل يوم أكثر من سابقه. تفانيه في بيع الآيس كريم يعود بربح معقول عليها، وأمانته فوق أية شبهة. استقامته في معاملتها مضرب مثل. هذا سبب الثقة التي تزداد كل يوم، قال لنفسه. تحسن إليه ويقابل الإحسان بالوفاء. هل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ لكن حدث ما لم يكن بحسبان. أحست ذات ليلة بتعب في المفاصل. ربما من كثرة الشحوم التي تكدسها في جسمها المترهل. طلبت منه أن (يغمزها). فوجيء بهذا الطلب

الغريب. فهي ربة عمله لا أكثر. وهو بالنسبة لها غريب. صحيح ان المعرفة بينه وبينها تتوطد كل يوم. لكنها علاقة عمل واحترام. يحرص على سمعته وعلى عمله. هذا يكسبه ثقتها وثقة أمها. ماذا يفعل؟ هل يرفض؟ ارتبك. ضاعت الكلمات منه. تحرك نحوها وهو مضطرب. أشارت إلى ظهرها. مد يده بحياء. ارتعشت يداه. وضع باطن كفيه على جسمها برفق. أمرته أن يضغط أكثر فأكثر. بدأ من أعلى نحو الأسفل متجنبا لمس الجوانب. كانت توجه حركة يديه بكلماتها (نحو الأعلى. نحو الأسفل. إلى اليمين...). تجنب الإقتراب من بعض المواضع المشكوك في براءتها ليحافظ على علاقة الاحترام بينهما. لكن لمس جسدها بيده أشعره بالإضطراب. ارتبكت الحدود في ذهنه بين ماهو بريء وما ليس بريئا. يخشى أن يساء فهم أية لمسة عفوية تصدر منه وهو يمسك جسمها السمين المترهل بين يديه. لا يحتاج لأي سوء فهم ينشأ بطريقة عفوية. ماذا يفعل؟ لا يستطيع أن يرد لها طلبا، ولا يريد أن يفقد عملا بحث عنه طويلا. ولا أن يفقد مسكنا آمنا. ماذا ستقول أمها التي قابلته بالشك منذ البداية؟ لا يخطر في باله أن عيشه ترغب فيه. ما الذي يجعلها ترغب فيه؟ انه بجرد عامل متشرد بسيط يعيش في الشارع؟ سحب يديه من جسمها وانسحب بخجل. صعد السلم. حاول أن يخفف من وقع قدميه على السلم حتى لا يسمعه أحد. كأنه سارق يتسلل خلسة. يسمع كل خطوة تصم أذنيه. لم يسمع من قبل وقع قدميه على هذا السلم. يحس الآن أن كل خطوة توقظ سكان المدينة كلها. حتى وقع خطواته على السقف الإسمنتي أصبح لها صوت يسمع إلى بعيد. ارتمى على سريره منهكا مضطربا. كلما حاول طرد الأفكار السوداء عن ذهنه عادت إليه بقوة. قرر أن يتجنب لمس جسمها. أن يعتذر بأي سبب اذا طلبت منه ماطلبت اليوم. سيصارحها بأن هذا يضايقه. سيبذل كل مالديه من كياسة وحسن تعبير لإخراج كلماته بصورة تجعلها لا تغضب منه. لم ينم حتى وقت

متأخر من الليل. تزاحمت الأفكار في رأسه واصطرعت. لم ينقذه من وطأتها سوى النوم الذي هبط متأخرا على غير عادة.

دعته في اليوم التالي إلى المطبخ لتحضير الخليط الذي يصنع منه الآيس كريم. تريد أن تطبق وصفة جديدة وأن تغير المقادير والأصباغ. ذهب معها بهدوء كعادته. وقفت بجانب الثلاجة ودعته للوقوف بجانبها. نظرت في عينيه نظرة اخترقته كالسهم. تجنبها بالنظر إلى داخل الثلاجة. بدأت تحدثه وتنظر في عينيه. زاغ ببصره شمالا ويمينا وهو يستمع إليها. كلما عاود النظر إلى وجهها وجهت سهام عينيها كالنصال تنغرز في عينيه. حشرته بينها وبين الثلاجة وبدأت الإلتصاق به برفق. قال في نفسه: جسمها منتشر في الجهات الأربع يلمس ما يجاوره. حاول الإبتعاد عنها فلم تترك له فسحة حتى يهرب منها. خاف أن يكون قد أعطى لحركتها معنى يتجاوز معناها. لا يريد أن يحمل الأشياء فوق ما تحتمل. تتحدث كأنها لا تلاحظ ارتباكه. كلما نظر في وجهها نظرت في عينيه مباشرة. يتهرب من نظرتها بالنظر في أي اتجاه. تصبب العرق منه غزيرا. أحس انه في ورطة. لا يدري ماذا يفعل. لاحظت خجله وارتباكه. قالت بابتسامة كشفت عن ستين ذهبيتين لامعتين، وهي تربت على رأسه وتفسح له طريق الإبتعاد عنها: (أحب خجلك وأحبك). دوت الكلمة في رأسه كالصاعقة. الأمر جد. ما من مزاح. (تحبني؟ غير معقول...). هذا آخر ما كان يتوقعه منها. لم يكن يتوقع أن يحبه أحد في هذه المدينة التي تشوي لحوم الناس بحرارتها الكاوية. لعلها تمزح. تجامل. تعبر عن الإعجاب باستقامته وجديته في عمله. إنها أكبر منه بخمسة عشر سنة على الأقل. حظها من الجمال قليل إذا لم تكن قبيحة. سمينة إلى درجة مبالغ فيها. مترهلة. مطلقة منذ سنين. ماذا ستقول أمها؟ كانت على حق في رفضها أن ينام في سقف بيتها. والناس؟ قد يكون الأمر مجرد مزاح. سيتجاهل الأمر ويؤدي عمله كالعادة. سيكون حذرا. ماذا ستفعل به.

هذه الأمور لا تؤخذ غصبا. أراح نفسه بهذا الإستنتاج. أحيانا يحس أنه يغالط نفسه. لكنه لا يجد أمامه غير هذا. لا يريد التشرد من جديد لمجرد الأوهام. لا يريد العودة إلى الشارع. قد يكون لا وجود لشيء سوى في رأسه. يعتقد انه موضوع مطاردة امرأة يعمل عندها. الرجال كثير. ما الذي يجعلها لا تجد سواه. تبدو عليها الإستقامة. أمها حاجة فاضلة. يجب ان يتواضع ويعرف انه ليس قاهر النساء. انه مجرد متشرد يبحث عن عمل. ليس فيه ما يغري امرأة بالمغامرة اذا أرادت. يجب أن لا يسيء تفسير إحسانها اليه. أن لا يعطي لكل حركة معنى يتوجه إلى أعلى نصفه الأسفل مباشر. الحياة ليست فقط تحت وفوق من مبتداها حتى نهايتها. توجد في الدنيا وفي القواميس معاني أخرى. لعله يعكس على سلوكها جوعه الجنسي وحرمانه من تعلق امرأة به منذ حمامة.

لم يبدر منها خلال الأيام القليلة التي تلت تلك الحركة ما يثير استغرابه. فقط زادت ثقتها به بمرور الأيام. لم تعد تلح عليه بأداء عمله. أصبح يخرج متى شاء ويعود متى شاء. تقبل منه ما يقدم لها من حاصل بيع الأيس كريم دون تعليق. تمازحه أحيانا. يرد على مزاحها بأدب جم. يحرص دائما على التعامل بحذر. الحذر واجب. لاحظ انها كلما وصل للتزود بالآيس كريم والخروج لبيعه طلبت منه أن يرتاح قليلا. لم تكن تفعل ذلك من قبل. تعطيه كاسا من عصير الليمون البارد الذي ينزل على قلبه بردا وسلاما في حر عدن الجهنمي، أو فنجانا ساخنا من الشاي بالحليب يزيد اعتصار ما يشرب من ماء ويخرجه عرقا يتصبب من كل مسامات جسمه. يزداد كرمها معه كل يوم. هذا يبهجه. يشعر بالإمتنان لهذا الجميل. لاحظت أمها أن فترات راحته طالت. دمدمت متذمرة دون أن تواجهه مباشرة. لا تريد أن تغضب عيشه. تعيش مع ابنتها الوحيدة التي تطلقت بسببها منذ فترة. عاشت معها ترعى كل منهما الأخرى. تحتاج إلى رعاية عيشه في آخر حياتها. لم ترتح منذ البداية لاقتحام هذا

الشاب وحدتهما. كانت تود لو وجدت بائع آيس كريم أصغر منه سنا. بائعو الآيس كريم من الأطفال عادة. الصدفة ألقته في بيتها. ليست صاحبة القرار في هذا البيت. اعتادت عيشه على اتخاذ القرارات دون العودة إليها. يساورها الشك من هذا الشاب الذي يصغر ابنتها سنا. تخاف أن يعصف بحياة ابنتها بعد أن حرمت من دفء الحياة الزوجية ومشاعر الأمومة. لا تعرف عن هذا الغريب شيئا سوى انه متشرد يبحث عن عمل. هذا مدعاة لخوفها منه. أخشى ما تخشاه أن يبعث في نفس ابنتها مشاعر الإحباط والخيبة التي عانتها عند فشلها العاطفي والزوجي قبل سنين.

حاول أن يحافظ على عمله دون إغضاب أي منهما. كلما دعته عيشه إلى الراحة يمكث قليلا ثم ينهض للخروج قبل أن تنفجر أمها بالغضب. مرور الأيام يشعره ان إرضاءهما معا في غاية الصعوبة. يحاول جاهدا أن لا يقطع شعرة معاوية مع كل منهما. عاد اليوم كالعادة. توجه نحو الثلاجة للتزود بالآيس كريم. الضمأ يكاد يقتله. وبينما كان يتناول قارورة الماء البارد، أقبلت عيشه ضاحكة مستبشرة تدعوه للجلوس معهما في الصالة. عجب لهذه الدعوة في هذا الوقت بالذات. ليس وقت غداء ولا وقت عشاء ولا وقت راحة. قالت وقصبة المداعة لا تفارق شفتيها:

- اجلس يا أحمد

جلس صامتا مندهشا في حين واصلت حديثها دون أن تنتظر منه جوابا:

- أحب أن أعرف عنك الكثير

- لماذا؟

- ها أنت تعمل معنا منذ شهرين وأنا لا أعرف عنك سوى أن اسمك أحمد.

قال ضاحكا:

ـ أحمد أبو الآيس كريم.
ـ من أين أنت؟
ـ أنا من بلاد تزرع وتشقى ليعيش أمير المؤمنين وعسكره.
ـ هل لك أسرة في قريتك؟
ـ لي أم تنتظر عودتي بالدموع.
قالت الأم:
ـ وأبوك؟
ـ غادر هذه الدنيا غير راض عنها.
ـ لماذا لم يكن راضيا عنها؟
ـ الكثير مما فيها لا يرضي الحيوان فكيف بالعاقل.
قالت عيشه:
ـ هل أنت متزوج؟
أجاب ضاحكا في مرح:
ـ كنت على وشك أن افقد عقلي وأتزوج. لكن سلم ا لله.
ـ بماذا تفكر؟
ـ ببيع الآيس كريم.
ـ لا. لا. اقصد ماهو طموحك في الحياة؟
ـ أن اشتري راديو اسمع منه أخبار الدنيا.
ـ هذا سهل. أنا اقصد طموحك في المستقبل.
ـ طموح؟ مستقبل؟ هذا ما لا يقوى على التفكير فيه شخص في ظروفي. أعيش اللحظة. يجتاحني شوق كبير لشيء غامض لا أعرفه.
تدخلت الأم في النقاش قائلة:
ـ ربما لأمك؟
ـ لا. أمي أعرفها.
قالت عيشه:

- للعيش مع زوجة تسعد بها وتسعد بك؟

تساءل متهربا من الإجابة:

- أتظنين ذلك؟

قالت بضحكة مرحة وكأنها عرفت سره:

- تستطيع أن تستخدم الراديو الاحتياطي الموضوع هنا في الصاله. نادرا ما نستخدمه. خذه الآن إذا أردت.

شكرها مسرورا ونهض آخذا معه إناء الآيس كريم والأم تشيعه بنظرات عدائية حتى خرج.

كل يوم يزيد العلاقة بينه وبين عيشه لينا وقربا من جانبها وحذرا من جانبه. لا يدري لماذا يحس ان حبلا يلتف حول عنقه دون أن يستطيع فكه. مشاكسات الأم معه تزداد بمناسبة وبدون مناسبة. تذمرها منه ومن كل ما يفعله يلاحقه في اليقظة والمنام. يفكر في الهرب لكنه لن يجد عملا آخر. الجوعى يتكدسون في شوارع عدن قادمين من قرى نكبت بالقحط والمجاعة والجراد وأمير المؤمنين وعسكره. أكداس المشردين في الشوارع تعده محظوظا. وفر لنفسه المأكل والمشرب والمأوى. هم لا يملكون قيمة شربة الماء في مدينة تستنزف الماء من أجسادهم عرقا لتبيعه لهم بنقود لا يملكونها. لن يغامر. لن ينضم إلى آلآف المشردين في الشوارع. سيبحث عن عمل. عندما يجد العمل سيترك هذا البيت الذي يوفر له العيش ليخنق أنفاسه. كان يظن أنه وجد العمل الذي يقيه غائلة التشرد والجوع. مشاكسة الأم حولت حياته جحيما لا يطاق.

حين صعد الدرج نحو السقف في المساء ليرتاح وينام وجد أن عيشة قد وضعت جهاز الراديو فوق طاولة صغيرة بجانب سريره. هم أن يعيده ويشكر لها صنيعها. وجد نفسه منساقا بصورة تلقائية إلى فتحه وتحريك شوكته بحثا عن شيء يخرجه من شعور خانق بالعزلة في هذا البيت.

فتح الراديو في حياته أفقا جديدا. يخرجه من جحيم الحياة المباشرة إلى الحياة مع العالم الفسيح. أدمن شيئا فشيئا الإستماع الى إذاعة لندن وإذاعة صوت العرب. إذا جاء وقت نشرة الأخبار وهو في خارج البيت انتابه القلق. كأنه سيسمع خبر تعيينه في وظيفة وزير أو أمير. إذا صادف ومرت شوكة الراديو على صنعاء أسرع بتحريكها حتى لا يسمع ما فيها من تمجيد لأمير مؤمنين يشرد مواطنيه ومصدر دخله الوحيد. سماع صنعاء يبعث فيه الغثيان. هذه إذاعة بلاده. صحيح. لكنها بالنسبه للمشردين أمثاله إذاعة أمير المؤمنين وعسكره. بدأت علاقة أحمد تتوطد عبر الراديو بجمال عبدالناصر. كل يوم يشعره انه الزعيم الذي سيحرر اليمن من أمير المؤمنين. حلم ذات يوم ان اليمن اتحدت بمصر.

وعبر الراديو تعرف على الزبيري ونعمان. ومن يومها وهو لا يؤمن بأي بطل يسحق القلعة وكل القلاع المشابهة سوى الزبيري ونعمان. كان يرسم لهما في خياله صورا زاهية متلألئة. يتخيلهما يمسكان بيد عبدالناصر يزورون قرى بلاده يطردون منها عسكر أمير المؤمنين وينصفون الناس من ظلم القرون. أصبح الراديو أستاذه في السياسة وجليسه في وحدته. قطع كل علاقة له بالناس. انقطع للعمل وسماع الراديو. سمح له الراديو بالهرب من مشاكسات الأم ووطد في حياته عادة الإنطواء على نفسه. ارتاحت عيشه في البداية لبقائه في البيت وقتا أطول. سيسمح لها هذا بانتهاز أية فرصة للحديث معه. أدخله الراديو إلى عالم غير ذلك الذي تعرف عليه في مجلس استاذه. كان مجلس استاذه بابا ينفتح على ثقافة اسلامية تقليدية وأدب وشعر. عالم ينطوي في أحضان التاريخ. عالم يعيش في الماضي. الراديو يقفز بأحمد إلى عالم آخر. عالم يعيش الحاضر ويحلم بالمستقبل. يتصادم العالمان في داخله كل يوم. عيشه تبتعد به عن الإثنين معا. تحاول جره إلى اللحظه الممتعة التي تموت من فورها ولا تخلف هما ولا حلما. لحظة مبتورة عن ماضيها وعن

مستقبلها. أحمد بثقافته القديمه ميال إلى ما يبتعد به عن اللحظة. عن الحاضر. الحاضر بالنسبة له عمل يوفر العيش للبقاء على قيد الحياة. الحاضر ليس الهدف النهائي. يعمل لبلوغ شيء ما لا يدري ماهو. يهرب من ورطة إلى أخرى لتجاوز الحاضر. يخاف اللحظة ويهرب منها. لا يعيش متصالحا مع نفسه أبدا. يعيش بجسده في اللحظة وذهنه شارد في مكان ما لا يعرف موقعه. يبيع الآيس كريم وينادي بنداءآت بائعيه، لكن إذا ناقش استشهد بالمتنبي وابي فراس وعمر بن أبي ربيعه وعنترة أو بالأحاديث النبوية الشريفة والآيات القرآنية. استحق لذلك تسمية الفقيه عند من يعرفونه. يقولونها هازلين وجادين في الوقت نفسه. حتى عيشه. شرح لها ولأمها مرات أمورا دينية ومسائل تتعلق بالمواريث فقالت له مرة وقد استشهد بحديث نبوي ((أحسن الله إليك يافقيه)). قالتها مازحة. بدأ يكتسب من الراديو مادة تساعده على فهم النقاشات التي كان يسمعها أحيانا تدور في المقهى. سمع مرة أحد الجالسين إلى الطاولات المنشورة في الشارع الترابي لشرب الشاي في المساء يقول:

- سيخرج الإستعمار من عدن والجنوب وتتحد اليمن.

قال آخر مستغربا:

- تتحد مع من؟

- مع اليمن.

- وأمير المؤمنين وعسكره؟

- معهم.

- لا. يخرج الإستعمار لكن لا وحدة مع أمير المؤمنين وعسكره. الإستعمار مصيبة واحدة وهم مصائب لا قبل لنا بها.

- سيزولون. ألم تسمع بالأحرار والمعارضة؟

- عندما يغيروهم نتوحد. نريد أن نبقي على عدن خارج قلاعهم لنجد مكانا نهرب إليه.

ـ ولماذا تهربون؟

ـ وأنت لماذا أنت هنا؟ ألست هاربا مثل الآخرين؟

لم تكن أمور السياسة واضحة في ذهنه. يسمع الراديـو ويجتهـد في تفسير الأمور بقدر ما يستطيع. لا يعرف شيئا غير ما يسمع من الراديـو. يرى عيشه وأمها كل يوم ويتحدث معهما في أمور لا علاقة لها بمناقشات المقـاهي الـتي لا يرتادها سوى يوم العطلة الأسـبوعي. عيشـه تتحـدث في كـل شـيء مـا عـدا السياسة. إذا تحدثت في السياسة وهو نادر قالت كلاما مضحكـا في سـذاجته. وإذا تحدثت استرسلت إلى درجة تشعره بالملل. لا تتوقـف عـن الثرثرة. تخـرج من موضوع إلى آخر دون أن يدري بانتقالها. يبدو له حديثهـا هذيانـا لا رابـط بين أجزائه إلا أنه يصدر عن صدر يتوق إلى التنفيس عن كربـه المتواصـل بـأي شيء. يسرح ذهنه عنها في أية متاهة حتى يغيب عنها وهو يحلـق في وجههـا فيبدو لها منصتا إليها بانشداه ووله. لا تحب أن يقاطعها أحـد لا باستفسـار ولا باعتراض ولا حتى بموافقة أو بإعجاب بما تقول. إذا أحست انه لا ينصت إليها ولو للحظة توقفت غاضبة تزجره في عنف (مـا الـذي يشـغلك عـني؟). تعطـي لنفسها الحق في أن تقطع عليه استغراقه في الإستماع إلى الراديو أو في العمل أو حتى في الحمام لتدعوه للحديث معها. يبدأ الحديث فتقاطعه في بشر وتسترسل في حديث لا معنى له. تستطرد منتظرة منه أن يستمع بانصـات وانشـداه بكـل الهذيان الذي ينصب على مسامعه التي تكيفت مع هذه الحالة المفروضة بتجاهل ما تقول حتى لا يدرك أي شيء مما تقول حتى ولو كان في غاية الوضوح. إذا التفت أحيانا نحو الأم وقع نظره في حلقة عينها المتطلعة نحوه في ضيق وازدراء. يتصنع التثاؤب ليهرب من نظراتهـا المشـتبكة معه في معركـة شرسـة. يتظـاهر بالسـذاجة وعدم الفهم ليعود إلى غيابه الأليف.

انهمك في الإستماع إلى الراديو كعادته قبل النـوم خافضـا الصـوت حتى لا يزعج الجيران. لاحظ صعود عيشـه نحـو السـطح حيـث ينـام في عنفوان كأنما تنطلق في غزوة خطيرة تحتـاج إلى شـجاعة وربـاطـة جـأش.

أغمض عينيه متظاهرا بالنوم حتى لا تضطره لمواصلة الاستماع لهذيانها الذي لا يدري كيف يهرب منه. امتلأت جوانحه بالبخور العدني وبعطر محلي لا يستطيع الهرب من غزواته إلا من كان في قبر يقيه من شر الإغواء الساحر. حلم بحمامة، أميرة القلعة الجميلة، تأخذه في عنف وقلة خبرة ليطير معها على بساط الريح محلقا في السماء ينظر من أعلى إلى أرض مدرجة تعبق بازاهير البن بعطرها الفواح، يدب عليها أشباح باحثة عن قبور لم تهتد بعد إليها. دارت الأرض برأسه دورتان. ودارت السماء من حوله دورات ثلاث. ودارت عيشه حوله دورات لم يعد قادرا على عدها. أحس في فمه طعم فاكهة الجنة قبل نزول سيدنا آدم على الأرض. نام نوما عميقا لم يقطعه أي حلم جميل أو مزعج. نهض في الصباح مشمئزا. غشى عينيه كل الزمهرير الذي يحاصر رائحة زهر البن العطرة. غشته حالة غثيان مقيتة. وجد عيشه قد أعدت له إفطارا مكونا من الكبدة المطبوخة بالبصل والصلصة والطماطم والبهارات، بالإضافة إلى جبنة الكرافت والزبدة واللبن الرائب بالبسباس والثوم، وعصير الليم البارد. جلس يتظاهر في اشمئزاز وضيق لا حدود لسطوتهما على صدره بتناول الإفطار مع عيشه والأم جالسة بمفردها تأكل خبزا تغمسه في الشاي بالحليب وهي تصليه بنظراتها الملتهبة. قال بصوت مرتفع كأنه ممثل يريد إسماع جمهور بعيد عن خشبة المسرح قائلا:

- بسم الله ياعمه. تفضلي.

نظرت إليه نظرة يتطاير منها الشرر دون أن تجيب. أشعرته نظرتها بخطورة الورطة التي يجد نفسه فيها. كل يوم يمر يجد نفسه يتدحرج نحو هاوية لا قرار لها. لأول مرة يحس انه في ورطة حقيقية لا فكاك منها. احتبست اللقمة في فمه. أخذ رشفة من فنجان الشاي بالحليب ونهض. اتجه نحو المطبخ لملء إناء الآيس كريم والخروج للبيع فلحقت به عيشه

بخطوات واثقة بطيئة. سمع خطواتها تتبعه. فلما التفت نحوها رآها تتهادى في دلال. ابتسمت له قائلة:

ـ لا داعي للإستعجال. خد قسطا من الراحة.

لم يجبها. واصل العمل كأنه لم يسمعها وخرج صامتا دون أن يودعها. نظرات الأم الغاضبة تلاحقه كأنها طلقات نارية تخترق جمجمته لتمنعه من العودة. بدأ يفكر جديا بالهرب. الأمر ليس سهلا. يحتاج إلى وقت وإلى تكتم يسمح له بأخذ ما له لدى عيشة من نقود لقاء أجره للشهر الثاني. أحس من فوره أن الشارع مأواه الوحيد والقلب الحنون الذي يحتضن المشردين أمثاله. (وداعا أيها المأوى الهادىء. وداعا للبيت والإطمئنان. مرحبا أيها التشرد. ها أنذا عائد إلى كنفك. إلى حبلك الممدود حول أعناق المشردين).

كلما عاد إلى البيت لملء إناء الآيس كريم استقبلته عيشه باستبشار وفرح. تمضي تحدثه منذ دخوله البيت حتى يخرج ثانية. ما أن يصل حتى تواصل الحديث الذي انقطع بخروجه السابق وهو مشغول عنها بنظرات الأم العدائية، والتفكير بطريق يحصل بواسطتها على أجره. لا يريد أن تشك بمجرد الشك في أنه سيترك العمل معها. سايرها. ابتسم لها بمناسبة وبدون مناسبة. تواصل الحديث معه وهو يهز راسه أو يبتسم دون أن يعي ما تقول. واصلت لعبة الطيران معه على بساط الريح مستعينة بالنوم الذي تكفل بمساعدتها في سحق مقاومته في اللحظات الأولى حتى يصحو ويتظاهر بالنوم. لا تهتم بما إذا كان نائما أم يقظا. تحاول الطيران والتحليق في أقاصي الأعالي بكل الطرق. تفشل أحيانا وتنجح في أغلب الأحيان في مواصلة رحلتها الأثيرية. تتدبر أمرها بكثير من الرعونة وقلة الحيلة. لا يهمها وافق أم مانع. كل يوم يمر يزيد نفوره منها. وكل يوم يزداد شعورها بالإقتراب منه. حديثها معه لا ينقطع إلا ليتواصل. حدثته عن كل شيء مرت به في حياتها. شكت سوء

حظها بزواجها من رجل لا يستحقها. رجل خسر بخسرانها كل سعادة الدنيا ونعيمها المقيم والهارب.

فرضت عليه الإقامة الجبرية بأن أصبحت تأمره في حزم بعدم الخروج لبيع الآيس كريم للبقاء معها تحدثه عن همومها وأحلامها. أحس انها فرصة ليطلب منها نقوده. فوجىء ذات مرة انها في حديثها الذي بدا له هذيانا متواصلا تقضي فيه وقتها الفارغ أنها تحدثه عن زواجه بها وكأنه أمر متفق عليه بينهما. لم يسمعها تحدثه عن الموضوع من قبل. هل حدثته وحصلت على موافقته حين كانت تهذي دون أن يستمع إلى ما تقول؟ أيعقل أن يتحدثا عن موضوع خطير مثل الزواج بهذه البساطة؟ ربما تعاملت مع الموضوع كما تتعامل مع غيره من الموضوعات. تتحدث دون أن تنتظر منه ردا بالموافقة أو الرفض. هم أن يقول لها إنها لم تطلب رأيه في زواجهما. لم تعطه أية فرصة للحديث. حاول مقاطعتها دون جدوى. كانت تتحدث بانفعال وفرح وارتباك. حاول الخروج من الموضوع بإعادة الحديث إلى موضوع الآيس كريم. نهرته في حزم قائلة:

ـ لا داعي لذلك. أنت من الآن وصاعدا رجل البيت. سنأتي بأجير آخر يحل محلك في هذا العمل. دعنا نتحدث عن عشنا الزوجي. عن حياتنا. عن سعادتنا. عن أطفالنا. لماذا لا نبدأ بالإعداد للزواج منذ الآن. خير البر عاجله. لماذا التأخير؟

(هذه نهاية ورطتك يا أحمد. لم يعد أمامك أي مجال للمناورة. اما القبول واما الهرب. الآن حصحص الحق. اهرب تسلم).

تمالك أعصابه. أجاب وهو يضغط على أسنانه حتى لا تخرج صرخة تريد أن تنفجر من فمه:

ـ لا أزال إلى الآن بائع آيس كريم.

تجاهلت رده كعادتها معه.

ـ لا أدري كيف أفاتح أمي بالموضوع؟

ـ وأفاتح أقاربي؟

ـ لا تتعجلي. هذه الأمور تحتاج إلى روية وعدم استعجال. تحتاج إلى وقت كاف لتفهم الأمر.

واصلت حديثها وكأنها لم تسمع ما يقول. نهض وهو يكاد ينفجر من الغيض والضيق. يفكر بمخرج من الورطة. لا يبدو أنها ستترك له فرصة للخروج بهدوء. غادرها بسرعة للتسكع في الشوارع الترابية على غير هدى كعادته عندما تضيق به الدنيا وتنسد أمامه المنافذ. يفكر في مخرج. سيقول لها إنه لا يريد الزواج بها. الزواج لا يتم بالإكراه. سيطلب أجره ويرحل. صمم على أن لا يسايرها بعد الآن. عاد مستعدا للإشتباك. سيدخل المعركة أيا كانت النتائج. لا يستطيع مواصلة هذه المهزلة. يشفق عليها. تحتاج إلى رجل تعيش معه بقية حياتها. يساعدها وأمها على تحمل أعباء حياة الوحدة والعزلة واليتم. لا يستطيع أن يكون هذا الرجل. سيرزقها الله من عنده برجل يرضاها وترضاه.

فتحت له الباب باسمة مستبشرة. أسرعت لمواصلة حديث كانت منهمكة فيه مع أمها. واصلت الأم حديثها كأنها تريد أن يسمع متظاهرة بأنها لا تعرف انه يستمع لحديثها. قالت الأم

ـ... يجب أن يتزوجك. يتصرف في البيت وكأنه رجل البيت متناسيا انه مجرد أجير. وأنت متهالكة عليه. هذا يشجعه على أن يحصل منك على كل ما يريده رجل من امرأة دون التزام بأي شيء. يجب أن يتزوجك وإلا حدثت الفضيحة.

ـ عليك بالصبر يا أمي. لا تقسي عليه وعلي.

ـ إلى متى؟

ـ قريبا انشاء الله ستكون الخطبة والعقد. وبعدها بوقت قصير سيكون الزواج.

ـ لن يطمئن قلبي حتى يتزوجك. أخشى ما أخشاه أن يكون مثل الكلب الذي تزوجك ورماك في أول فرصة.

ـ لا يا أمي. هذا رجل من نوع آخر.

ـ سنرى أي نوع من الرجال هو عما قريب.

أثار هذا الحديث أعصابه. لا يطيق الصبر اكثر مما صبر. لا داعي للمجاملة. مرت عيشه أمامه. نظرت إليه باسمة في فرح. أشار إليها أن تأتي إليه دون أن تسمع أمها. أقبلت نحوه وهي تنظر خلفها نحو أمها. نظرات الأم تلاحقها باستنكار. قالت عيشة وهي تطوقه بذراعيها:

ـ لا داعي الآن لأن نفعل أي شيء. أمي تلاحظنا. سنفعل ما تريد في وقت آخر. ليس الآن.

قال وهو يمنع نفسه بصعوبة من صفعها:

ـ أريد النقود التي لديك لكي ارسل مصاريف لأمي.

ـ اكتب لها تخبرها بزواجنا.

ـ أريد النقود.

ـ بعد العقد سيكون ما أملك ملكك.

ـ يحتاجون الآن مصاريف.

ـ سنسافر بعد الزواج مباشرة لنزورهم ونعطيهم ما يحتاجون انشاء الله. هذا واجب.

ـ لن تتحملي مشقات السفر.

ظنته يشير إلى سنها. أجابت في نزق:

ـ لست عجوزا كما تظن.

ـ اقصد ان الطريق وعرة. يصعب علي الذهاب أنا مع اني معتاد عليها، كيف بك.

ـ لا تهتم بي. سأفعل مثلك. لا أخاف المشاق.

الكتلة من اللحم البشري. كتلة بلا تشكيل. لا جمال ولا أنوثة. تكبره في السن والحجم والوزن. سيكون وصولها فضيحة لن ينساها له أحد حتى يموت وسيرثها أحفاده من بعده. ضحك حتى كاد يقع على أرض المكان. لم يعد لديه عمل ينتظره. المهنة زوج رغم أنفه.

خرج يتسكع في الشوارع على غير هدى. كعادته عندما تضيق به السبل. يفكر بالبحث عن عمل. فرص العمل غير متوفرة. حتى لو وجد عملا. لن تعطيه نقوده مقابل عمله عندها. ستتابعه. ستشهر به. قد تشتبك معه. ستحرمه من أية فرصة للعمل. ستستثيره. ستستفزه. سيشتبك معها. قد تدفعه للإمساك بخناقها. قد يرتكب جريمة تودي به إلى السجن من جديد. لا. لن يعود إلى السجن. لن يهرب من سجن إلى سجن. لا سبيل سوى الهرب. لكن كيف؟ إلى أين هذه المرة؟ تنهد نهدة عميقة قائلا (لا حول ولا قوة إلا بالله). الشمس تشوي جسده. العرق يتصبب من كل جسمه. وجد نفسه يعود نحو البيت. يريد على الأقل أخذ ما يستطيع من أغراضه البسيطة. قرار الهرب نهائي. شيء ما في أعماقه يحثه على التريث. على عدم ترك العمل والمسكن. العمل؟ أي عمل؟ لم يعد لديه عمل. وضعه غريب. مشاعره مرتبكه. دخل إلى البيت. استقبلته عيشه بأ سلوب جديد لم يعتده منها من قبل. بدأت تسأله أين ذهب. وماذا فعل. ومن التقى... بدأت تحاسبه. تشعره بالغيرة عليه. تسأله خصوصا ان كان قد نظر إلى امرأة في الشارع.

قالت له وهي تبتسم برضى انها حدثت أمها عن موضوع زواجهما والأم تنظر في وجهه باسمة لأول مرة. علقت الأم قائلة:

ـ خير البر عاجله.

قالت عيشه:

- رتبت كل شيء. غدا سيأتي ابن عمي ومعه الفقيه للعقد. لا داعي للتأخير مادام الجميع موافق.

الجميع مستعجل إلا هو. أراد أن يقول لها إنها لم تسأله رأيه. أمسكت عيشه بيده بدلال لأول مره أمام أمها وجذبته نحو غرفة نومها. قالت في همس مشحون بالإنفعال والتأثر:

- رتبت مكانا لنومنا. لن تنام في السقف ابتداء من اليوم.

قال كالملسوع:

- لا. لن أنام هنا.

- لماذا؟ سأنام أنا مع أمي هذه الليلة وغدا سأصبح بعد العقد زوجتك.

- لا. ستنامين في غرفتك.

- وأنت معي إذا.

- لا....

لم تترك له فرصة للحديث. قالت بأسلوب ربة عمل تحدث عاملا يعمل لديها ببيع الآيسكريم:

- لا داعي للجدال. افعل ما أقول لك دون نقاش.

- لا أستطيع.

- تستطيع. لا أريد أن أسمع منك أي رد.

- و أمك؟

- الفرح يملأ قلبها بزواجنا. دع أمرها لي.

- لكننا لم نتزوج بعد.

- غدا سنعقد.

سكت. حاصرته بالحديث دون أن يسمع ما تقول. يفكر في ورطته. عيشه لا تتردد عن فعل أي شيء كي تتزوج. لو استدعى الأمر أن ترتكب جريمة ستفعل. لا تفكر في أي شيء سوى زواجها. عندما

تقرر شيئا تفعله دون أن تخشى العواقب. لن تتركه ينفذ من هذه الورطة بسهولة. تعرف انه متشرد بلا عمل. لا ترغب امرأة في الزواج بمثله. عيشه تريد على الأقل أداء تمثيلية اسمها زواج بعد أن حرمت من أن تعيش تجربة حياة زوجية في الواقع. تريد أن تكون بطلة هذه التمثيلية وأن يؤدي هو دور الزوج. قبلت الأم أن تلعب دورا ثانويا ما دام هذا يرضي ابنتها الوحيدة. صدف الحياة ومفارقاتها ألقت بكل منهم أمام الآخر رغما عنه. لم يبق إلا قبول الدور في مسرحية الحياة بأقل قدر من التناقض مع النفس ومن المعاناة. أحمد لا يقبل الدور. يريد دورا آخر. زوج بلا زواج مثلا. بلا مسئولية زوجية. الفرق ورقة صغيرة. مشهد قصير يحضره ممثلون ثانويون آخرون. مخرج ومنتج. النتيجة واحدة. أحمد يريد دورا في نص ينتجه ويخرجه هو. دور يقتنع انه يناسبه. هذا هو الفارق. لم يكن يعرف أن لكل شيء ثمنا. عليه أن يختار المأوى والعيش مقابل... سذاجته الريفية جعلته لا يحتاط للأمر منذ البداية. لم يختر ما اختار عن رضى. وجد نفسه يسير بسهولة في هذا الطريق. الآن يعرف أن المدينة تجارة. كل شيء بثمن. لا شيء مجانا. لا شيء بلا مقابل. والثمن أحيانا باهظ لا يقوى على دفعه. كان يدفعه بالتقسيط. مطلوب الآن أن يدفعه بالجملة. سجن جديد. من سجن إلى سجن فرج؟ من هرب إلى هرب فرج. أين أنت ياحمامة؟ تعطين بلا مقابل. تعطفين بلا حدود.

هرب من سجن أمير المؤمنين بعسكره. يستطيع أن يهرب من سجن عيشه بيسر. لكن إلى أين؟ هذا هو ما يحيره ويجعله يتردد. لا وقت للتردد. سمح لنفسه بأن يحظى هذ اليوم بمعاملة غاية في الرعاية. كان قد عزم أمره. لن يصطدم بها. لن يصطدم بأحد. تحسر على عيشه. طيبة قلب. ودودة. مثقله بأحزان الدنيا. نكبتها الحياة باليتم، وبالحرمان من الجمال والأنوثة، وبالوحدة. ما كان يود أن تنتهي معرفته بها بهذه الطريقة. كان يود أن يظل يساعدها اذا احتاجت اليه حتى لو ترك العمل

عندها. لم تترك له أية فرصة. تتصرف بجنون لتنفيذ رغبتها دون أن تطلب موافقته. سيظل يحترمها. سيحمل لها في قلبه ذكرى جميلة. انقذته من التشرد. أعطته العمل ووفرت له مأوى يحتاج إليه، أيا كانت نواياها. انقذته من التشرد. كان يود لو استطاع الحصول على أجره للشهر الأخير. فليكن هدية الإفتراق. ألحت على أن ينام في غرفتها. مانع في حزم لا يقبل المناقشة. قالت إنه سينام بمفرده، لكنه رفض. تركته ينام في السطح. ما كاد النوم يستولي عليه حتى أيقظته في محاولتها أن تنغرس في فراشه. رائحة البخور والعطر البلديين تملآن أنفه. هم أن يدفعها بعيدا عنه، إلا أنه فضل أن يتجنب الفضيحة. تحول عنها إلى جهة أخرى فوق السرير. لا مجال للهرب. أخذت تضربه بيديها ورجليها في البداية برفق ثم بقوة. تحمل اللكم والركضِ صامتا مصرا على الإبتعاد عنها. نهضت واقفة في غضب وهي تقول:

ـ لماذا الإستعجال. لم يبق سوى يوم واحد.

لم تكن تعرف انها تودعه. لم يرها سعيدة كما هي في ذلك اليوم. لم يكن يود أن ينغص عليها سعادة هذا اليوم. الأيام الجميلة نادرة في حياتها. لم تترك له أي خيار. أحس في داخله بحزن ولوعة. ظل مستلقيا على السرير دون أن يستطيع النوم حتى حل الصباح. وعند انتشار أشعة الفجر الأولى نهض على غير عادته منذ أن بدأ بالمبيت في هذا البيت. اغتسل وبدل ثيابه. توجه إلى المطبخ. فتح الثلاجة. تناول قارورة ماء بارد شرب منها حتى ارتوى. ألقى نظرة أخيرة على آنية الآيس كريم وقد أهملت منذ أن وجدت له عيشه عملا غير بيع الآيس كريم. عاد إلى الصالة وتناول فوطة صر فيها ملابسه القليلة. كانت عيشه قد غسلتها وكوتها ورتبتها. أحس بصفاء عجيب. شيء من المرح والسرور ينبعث من داخله لا يدري لماذا. انسل خارجا من البيت وأقفل الباب بعده بهدوء. اتجه نحو موقف السيارات المتجهة من الشيخ عثمان إلى كريتر. ما يزال الوقت مبكرا. الشمس توشك

على الطلوع. والهواء ما يـزال غير حـار. والطرقـات شبه خالية مـن المـاره والسيارات. أناس كثيرون ينامون أمام منازلهم أو دكاكينهم على سرائر محلية أو حديدية لم يستيقظوا بعد. النائمون على أرصفـة الشـوارع وحدهـم استيقظوا قبل أن يأتي من يؤاخذهم على نومهم في الشارع. يخافون الشـرطة وأصحاب البيوت والدكـاكين وحرارة الشمس. يحس الآن انه انضم إلى هؤلاء. ومع ذلك مضى واثقا كأنه يسير إلى موعد مهم. لا يدري سبب هذا الوثوق وعدم الندم.

جلس على كرسي حديدي فقد لونـه مـن كثرة الاستعمال. اتكأ على طاولة خشبية متسخة تنبعث منها روائح بقايا المرق والسمك. اعتاد منذ أسبوعين أن يأتي إلى هذه المخبازة الواقعة في شـارع جـانبي بـالقرب من الميدان الرئيسي ليأكل وجبة واحدة في اليوم. خبزا وشايا أو مرقا. لا يأكل منـذ أن ترك بيت عيشه سوى خبز سـاخن يغمسه في الشاي بالحليب أو في المرق. يأكل وعيناه على الشـارع كأنما ينتظر أن يرى صديقا أو حبيبا. لا صديق له في هذه المدينة الواقعة على فوهة جهنـم. لا أحد هنا يلتفت لأحد. اعتـادت المخبـازة استقبال أفواج مـن المشـردين والعاطلين القادمين من أنحاء الريف. بعضهم قادر على دفع قيمة ما يأكل وبعضهم يطلب الصدقة. أحمـد في وضـع يستحق بسببه الصدقـة، لكـن كبرياءه وحدها تمنعه مـن السؤال. كئيـب إلى درجـة الإنفجـار. لا يجد حتى من يشكو له مصيبته. فقد الثقة بالناس. فقد الإحساس بطعم الحياة. لا يجد سبيلا للخروج من ورطته. حياته كلها ورطة متواصلة. يخرج مـن أزمة إلى أزمة. من سلسلة إلى سلسلة في الدائرة نفسها. أحيانـا ينظر إلى ما حوله في المخبازة. أناس مثله شبه عراة، يكتوون بحر الظهيرة. يلتهمون ما يقـدم لهـم مـن الأكـل بسرعة كـأنهم معرضـون للمطـاردة. حمـالون مستعدون لحمل أي شيء بأي أجر ولو كان زهيدا. بـاحثون عـن عمـل مثله. أي عمل. سائقو سيارات. بائعون متجولـون. عمـال بنـاء. عـابرو

سبيل أضناهم العطش، دخلـوا لشـرب فنجـان شـاي أو وجبـة بلديـة أو كاس ماء بارد. يتردد عليهم أسراب من الشـحاذين والمتسـولين القـادمين من مملكة أمير المؤمنين، من الأطفال والمعوقين والشيوخ والنسـاء اللواتـي يغطين وجوههن. بعـض المتسـولين ممـن يقـدرون علـى العمـل لكنهـم لا يجدونه. تقوم بين آونة وأخرى معركة بين القطط الجائعة والمتسولين مـن حول عظم أو كسرة خبز أو بقايا ما يأكله بعض الزبائن.

وهذا المراهق الطويل النحيل يجري بين الزبائن وبين المطبـخ وطاولـة الحساب. رجلاه الطويلتـان تسـاعدانه علـى قطـع المسـافة في زمـن أقـل. صوته الرقيق الذي بدأت تغزوه الخشونة ويوحي بأنه دخل المراهقـة قبـل وقـت قريـب يجلجـل وسـط ضجـة الزبـائن وأحـاديثهم الـتي تصـل حـد الصراخ. يسمع ما يطلب منه وهو يجري، ويلقي الطلبـات علـى الطبـاخ دون أن يتوقف. أعجب أحمد نشاطه وجلده. يعمل بإخلاص قـل نظـيره حتى عند من يعمل لنفسه. لا يتوقف. لا يتذمر حتى عندما يردد الطبـاخ السؤال عن الطلبات مرات عديـدة. يبتسـم في أغلـب الأحيـان. فضـولي بطبعه. يمازح الزبائن ويرد على انتقاداتهم بلباقة.

كان أحمد قد لفت انتباه عمـر منـذ الأيـام الأولى لـتردده علـى هـذه المخبازة. دفعه فضوله لأن يحاول إخراج أحمد عن صمته. كـان أحمـد في ضائقة تضغط على أعصابه. لا يقوى على الإستجابة لمشاكسات مراهـق يعج بالحيوية والفضول. لاحظ عمر انه لا يـأكل سـوى الخبز والشـاي. وأحيانا لا يأكل سوى الخبز. وضعه أشـبه بالشـحاذين لكنـه لا يشـحذ. صامت على غير عادة أمثاله من الجائعين الذين يـترددون علـى المخبـازة. أثار فضول عمر أكثر فأكثر. لا بد أن وراءه سرا دفينا يخفيـه في داخلـه. دفعه فضوله للتصميم على معرفة سره. واتتـه فرصـة لم يكـن يتوقعهـا أو لعله كان ينتظرهـا. ذكـرت أحمـد عجـوز تتسـول بأمـه. لا يـدري لمـاذا اهتزت مشاعره لمرأى هذه العجوز مع أن منظر المتسولين والمشردين جزء

من حياته منذ أن وصل إلى عدن. بكى. لا يدري يبكي أمه أم يبكي نفسه وهو بوشك أن يعاني من وضع مشابه. لم يكن البكاء من عادته في مواجهة المشاكل. هذه مشكلة المشاكل. أن تجد نفسك أمام الإختيار بين الحياة والإنتحار. اقترب منه عمر في هدوء عندما بدأ ورود الزبائن إلى المخبازة يخف واحمد ذاهل عنه بحالته. حياه مبتسما. لم ينتبه أحمد إلى انه يكلمه. لا أحد يكلمه منذ أن هرب من بيت عيشه. كرر عمر الحديث. ظنه يسأله عما يطلب من الأكل.

- شكرا. لا أريد شيئا.

أشاح بوجهه بعيدا حتى لا يرى عمر الدموع تنسال على خديه. مسحها بيده.

- ما بك ياصاحبي؟ لماذا كل هذا الهم الذي يثقل عليك. ليست الحياة بهذه الصعوبة.

- أنت ما تزال صغيرا لا تعرف عن صعوبات الحياة الكثير.

- لكل إنسان مشاغله، لكن لكل مشكلة حل.

- بالنسبة لي، كل مشكلة ولو صغرت لا أمل في حلها.

- قل لي ماهي مشكلتك. ربما ساعدتك في حلها.

- لا أظن!

- جرب. لن تخسر شيئا.

- أحتاج إلى ضمين يضمنني. وجدت عملا. اشترطوا أن آتي بضمين. أنا لا أعرف أحدا هنا. أخشى أن يطير العمل وأنا أبحث عن ضمين. ربما كان قد طار فعلا.

- المسألة سهلة.

- كيف؟ أتسخر مني؟

- اذهب إلى الأستاذ سيف.

- من هو هذا الأستاذ سيف؟

- من لا يعرف الأستاذ سيف يا رجل؟ في أي عالم تعيش؟
- أنا لا أعرفه. أعيش في عالم لا أحد فيه ضامنا يضمنني.
- الأستاذ سيف أشهر من نار على علم. نقابي مشهور وزعيم سياسي محترم. ليس من السياسيين النصابين. الأستاذ صنف جديد من السياسيين. يساعد الناس ويسهل لهم العمل ويدافع عنهم.
- حتى لو عرفته. إنه لا يعرفني. كيف سيضمنني وهو لا يعرفني!
- اذهب إليه ولن تندم. إذا لم يستطع أن يضمنك سيرشدك إلى من يساعدك.
- أتظن أن الأمر بهذه البساطة؟
- اذهب إليه. لن تندم.
- وأين أجده؟
- استطيع أن اذهب معك إليه.
- هذا جميل لن أنساه لك.
- إذا لم نساعد بعضنا بعضا سنضيع.
- أنت أروع انسان وجدته منذ أن وصلت إلى عدن. بل أروع انسان وجدته في حياتي. بعثت في الأمل من جديد. كنت على حافة الإنتحار.
- لا داعي لكل هذه المجاملات. دعنا أولا نأمل أن يكون الأستاذ موجودا وأن يستطيع مساعدتك.

بدأت صورة الأستاذ تحتل كل مساحة تفكيره. رسم له بخياله صورا يبدو فيها بصورة شيخ وقور ذي لحية بيضاء كثة ومسبحة طويلة وملابس تنسدل حتى قدميه. وضاء الوجه والجبين. تنبعث منه نورانية آسرة. يتسم بوقار واتزان. لا يتكلم إلا بلغة عربية فصيحة. والناس يلتفون من حوله في حلقة متسعة يستمعون منه إلى الوعظ والإرشاد. وطن نفسه على سماع موعظة حسنة. سيستفيد من حضور مجلسه حتى بعد أن يلتحق بالعمل.

أستاذ بهذه المكانة يستحق أن يحل محل استاذه الذي درس عليه. سيواصل معه ما بدأ من دراسة علوم الدين والفقه والبلاغة. سيعود إلى سيرته الأولى. سيعود فقيها كما كان أبوه يريد له. لن يواصل هذا العمل حتى لو وجد ضمينا. لن يظل حارسا إلى الأبد. هذا عمل مؤقت. قد يجد له الأستاذ بعد أن يعرف ثقافته الدينية عملا مناسبا يليق بمستواه وبكفاءته. لعل أبواب السماء قد انفتحت أمامه. من يدري؟ تتالت الصور والأفكار وهو يمشي كالمخدر مع عمر نحو الدكان الذي يتردد عليه الأستاذ. فجأة توقف عمر أمام دكان متواضع في شارع مسفلت يجلس في بابه من الداخل رجل كبير السن، ويجلس في خارج الباب رجل قصير القامة. خفيف الشعر بدأت الصلعة تغزو أغلب رأسه. وجهه مدور نحيل، حليق الذقن والشارب. جسمه نحيل مثل غالبية اليمنيين. يلبس فوطة عدنية وقميص بنصف كم، وينتعل حذاءين قديمين متسخين من كثرة المشي. صافح عمر الرجل الجالس خارج باب الدكان بحرارة وصافح الرجل الجالس داخل الدكان بحرارة أقل. استغرق في حديث ومجاملات معهما وأحمد متضايق من ثرثرته. يريد أن يبلغ به عند الأستاذ. تشاغل عن حديثهم بالنظر إلى الشارع لتفريغ شحنة ضيقه بهذه الثرثرة. شعر بيد عمر تهزه وتقول له:

- ما لك شارد؟ الأستاذ سيف.

ارتبك. لم يفهم قصده. قال:

- عفوا. ماذا قلت؟ لم أفهم.

أجاب عمر ضاحكا:

- صح النوم. قلت هذا هو الأستاذ سيف الذي جئنا نبحث عنه. من حسن حظك اننا وجدناه.

اندهش أحمد. قفز يسلم على الأستاذ بحرارة وارتباك. كاد أن يضحك من نفسه. لا علاقة بين الصور التي رسمها للأستاذ وبين الواقع. هذا أستاذ من نوع غير الذين عرفهم.

ـ عرض مشكلته منذ وصل إلى كريتر يبحث عن عمل. صارحه بحالته الصعبة وطلب منه مساعدته في الحصول على ضمين. الأستاذ يستمع باهتمام. لم يعلق بشيء. ربت على كتف أحمد مشجعا ونهض مبتسما. ودع صاحب الدكان وأمسك بيد أحمد ومشى. ودعه عمر وعاد إلى عمله. مشى الأستاذ بخطوات بطيئة ويد أحمد في يده. سأله أثناء المشي عن بلدته. عن الناس فيها. سأله عن أشياء كثيرة دون أن ينطق بكلمة عن العمل الذي جاء أحمد اليه بسببه. مشى أحمد مستسلما. لا يرى شيئا سوى همه الدفين. لا يسمع بين ضجة الشارع سوى كلمات الأستاذ الهادئة ترن في أذنيه كأنها أطرب لحن سمعه في حياته. مندهش من أن انسانا لا يعرفه يتطوع للمشي معه لمساعدته بدون مقابل ولا قَرابة ولا حتى معرفة سابقة. في الحياة ما يستحق أن يعيش الإنسان بسببه. ليست عدن بالسوء الذي تصورها به. عدن الأستاذ سيف غير عدن عيشه. لم يخرجه من هذا الحلم الجميل سوى شعوره انه وصل باب الشركة التي طلب العمل فيها. دخلا من الباب الخارجي لمقر شركة الشحن والتفريغ دون أن يمنعهما أحد من الدخول. صعد الأستاذ وأحمد معه إلى الطابق الثاني من مبنى ذي طابقين من الأسمنت. بعض الموظفين يحيونه باحترام. توجه إلى أحد المكاتب المغلقة. دق الباب ودخل بهدوء. نهض الرجل الجالس وراء المكتب بحركة ملفتة للنظر. تقدم نحو الأستاذ وصافحه بحرارة ومرح. تبادلا الأحاديث وأحمد جالس يخيم عليه الصمت ويستولي عليه الشوق لمعرفة النهاية. يريد أن يبدأوا الحديث في موضوعه. مرت الدقائق بثقل السنوات. وأخيرا اهتز كيانه كله لسماع الأستاذ يبدأ الحديث في موضوعه. التفت المسؤول الإداري إلى أحمد وسأله:

ـ أتجيد اللغة الإنجليزية؟

صدمه هذا السؤال فالتفت إلى الأستاذ دون أن يجيب. لا يجد الكلمات للرد. ابتسم الأستاذ بهدوء ورد بدلا عنه:

- في مستوى المبتدئين. سيتعلم أثناء العمل. (أضاف ضاحكا) أنتم في حاجة إلى حارس وليس إلى محاسب.

كاد أحمد يضحك من قول الأستاذ إنه يعرف شيئا من اللغة الانجليزية.

- أنت تعرف يا أستاذ. هذه شركة أجنبية تتعامل مع أجانب.

- سيتعلم. سأضمن عليه.

- هذه مسئولية يا أستاذ.

- ثق انك لن تندم على توظيفه ولن يصيبك أذى. الأمر أبسط مما تظن. اعمل خير يا أخي. ساعد محتاج. من طبعك عمل الخير. أضف هذا إلى مكرماتك السابقة. لن تندم على شيء. أبناء بلدك في ضائقة. الوقت وقت مبادرات طيبة. إذا لم تساعدهم الآن فمتى؟

كان أحمد يستمع إلى هذا الخطاب العاطفي وهو يكاد يبكي من التأثر. قال في سره هذه كلمات تلين الصخر الأصم.

- ابحث أولا لنفسك عن عمل يا أستاذ. أنت أولى بالعمل. أما زلت مفصولا من العمل؟

- وعدت بعمل عما قريب. حل مشكلة هذا الشاب الطيب ودعك من مشكلتي. مشكلتي على وشك أن تحل قريبا.

الأستاذ سيف رجل مجرب. يعرف كيف يستدر عطف محدثه. يمدحه بما ليس فيه لينجح في مسعاه. لا يقنع بالعودة خالي الوفاض. يجامل إلى درجة تستفز من يسمعه. يراوغ عند الضرورة. سريع البديهة. سريع النكتة. ينجح حيث يفشل كثير من النقابيين. إذا عجز المرح تدخل التهديد المبطن. يخافه البعض ويحترمه البعض. تحيط به جماعة من الشباب المتحمسين ممن ساعدهم على شق طريقهم. لا يترددون عن استخدام أيديهم للدفاع عنه أو الانتقام له. يوهم الناس أن سلطته واسعه. وأن نفوذه في أوساط العمال والمستخدمين مكينة. وأن الإدارة

تحسب له ألف حساب. يختلط الإدعاء بالحقيقة في سلوكه. التواضع الجم بالعناد والتصلب. ومع ذلك تعرض للفصل من الشركة التي يعمل بها. لا يحب الحديث في موضوعه. يحول موضوع فصله إلى قضية وطنية عامة. حسن الحديث. لطيف المعشر. صاحب نكتة لاذعة. يشفع كل حديث باستشهاد بمثل يمني. لهجته خليط من اللهجة العدنية ولهجة منطقته. عمل راعيا للغنم قبل أن يهاجر طفلا كأمثاله إلى عدن. عمل بأعمال مختلفة من غسل سيارات إلى مساعد سائق إلى عامل في المطاعم والمخابز إلى بائع متجول. كما عمل سائقا لسنوات وبحارا. درس كلما سمحت له ظروفه في صفوف نظامية وغير نظامية. تحول خلال سنين من الجد والتعب من أمي لا يجيد القراءة والكتابة إلى أحد المثقفين السياسيين في عدن وأحد المحررين في أكثر من صحيفة في المدينة. عرف عنه في كتاباته الصحفية الحدة في مهاجمة الإستعمار ومقارعة الخصوم السياسيين. المشاعر العربية سجية في سلوكه.

واصل إلحاحه على المسؤول الإداري دون أن يترك له أية فرصة للتهرب حتى قبل أخيرا محرجا بإعطاء العمل لأحمد موضحا انه انما يقبل احتراما للأستاذ. اشترط أن يتعلم شيئا من اللغة الأنجليزية فور التحاقه بالعمل، والإتيان بضمانة تاجر. وافق الإستاذ على كل الشروط وكأنه هو الذي سيلتحق بالعمل. تناول الإستمارات المكتوبة باللغة الإنجليزية وصافح المسؤول الإداري وخرج. وأحمد يرافقه كأنه طفله المدلل. صامت لا ينطق بكلمة. مشى الأستاذ صامتا وأحمد يرافقه بصمت ورهبة. اتجه إلى أحد الدكاكين الكبيرة. صافح صاحب الدكان بحرارة. انهمكا في حديث طويل عن شئون قريتهما وعن السياسة وأمير المؤمنين وعبد الناصر والإنجليز. ظل أحمد واقفا وهما يتحدثان كأنه غير موجود. سلم الأستاذ استمارة الضمانة لصاحب الدكان لملئها وانهمك هو في ملء الإستمارات الأخرى. قال صاحب الدكان:

ـ أتعرفه يا أستاذ؟

ـ منذ زمن طويل. شاب مستقيم وعلى خلق. يستحق المساعدة. طلبوا منه ضمانة كأنه سيستلم إدارة بنك. قلت لنفسي لا يفعل الخير إلا أهله. أسرعت إليك دون غيرك. من للشعب اليمني المنكوب غير الأحرار أمثالك؟

تناول صاحب الدكان استمارة الضمانة ووقع عليها بخط ضعيف. طبعة الخاتم التجاري أخفت سوء التوقيع. ودعه الأستاذ ومضى ومعه أحمد عائدا إلى الشركة. حرص أن يسلم الإستمارات بنفسه. لم تبق سوى الصور. تعهد الأستاذ أن يأتي بها أحمد خلال يومين. أصر على أن يستلم أحمد العمل في أسرع فرصة ممكنة. كان يبدو مستعجلا أكثر من استعجال أحمد نفسه. أزاح عنه عبء قلق البحث والإنتظار. سلم أحمد قياده للأستاذ. رآه أكثر حماسة ونجاحا منه. قلق الأستاذ وسعيه ناجح. قلق أحمد حرق أعصاب بلا نتيجة. أحس نحو الأستاذ بإحساس الطفل نحو أبيه. أو احساس التلميذ بحضرة أستاذه. عندما ودعه الأستاذ سأله:

ـ متى ألقاك يا أستاذ؟

رد ببساطة:

ـ إذا احتجت إلي ستجدني في المكان نفسه. إذا عرقلوك جئني. لا أظن انك ستواجه صعوبات.

تأسف أحمد لأنه لن يجده كل يوم. يحتاج اليه دائما. رده يوحي بأنهما لن يلتقيا إلا اذا واجه صعوبات تمنع قبوله في العمل.

باشر أحمد العمل منذ صباح اليوم التالي. أكثر ما فرح به تسلمه غرفة الحارس. وجد فيها مأوى يقيه شر التشرد. أحس فيها بالإطمئنان لأول مرة منذ وصل إلى عدن. وجد لأول مرة في حياته ان لديه مكانا مستقلا يأوي إليه ويخلو بنفسه. وداعا يا حياة الشوارع. وداعا يا حياة بلا جدران. تسلم أيضا بدلتين تعطيانه زيا مميزا. بنطلونين من الكاكي الفاتح وقميصين من القماش نفسه بكمين قصيرين. العمل الجديد يغير

شخصيته منذ البداية. يعطيه سيماء جديدة متميزة عن أمثاله من الباحثين عن عمل. الفارق كبير بينه وبينهم. يحس في داخله انه منهم. لا يهم ما يحس به. المهم وضعه الجديد. ظرفه المختلف. لبس الزي الجديد فور استلامه لتلك الثياب. يريد أن يندمج في طقس عمله الجديد دون ابطاء. مملكته الجديدة غرفة صغيرة في جانب من ساحة مقر الشركة، مفروشة بمشمع رمادي ملون بخطوط طولية وعرضية ذات لون بني. لها نافذة كبيرة تطل على الساحة لمراقبة ما يدخل وما يخرج من المقر، وأخرى صغيرة تطل على الشارع الرئيسي. في المساء يصبح عمله أصعب، بعد أن يخرج الموظفون. مسئوليته حماية مقر الشركة من السطو والسرقة. لم يعتد على هذا العمل. كان أبوه يحرص على أن يساعده في حراسة القات في الليل لمنع السرقة. انشغاله بحضور دروس استاذه منعه من مساعة أبيه في الحراسة. لو فعل لأكتسب بعض الخبرة. لكن حراسة القات في مدرجات جبلية تختلف عن حماية شركة لها أوراق وخزانة وبضائع للشحن. تهيب العمل كثيرا دون أن يفصح عن مشاعره لأحد. ما يزال غريبا عن جميع من في الشركة. لا يعرف أحدا منهم. أخذ سلفة اشترى بها موقد كيروسين واناء للشاي وراديو صغير. لم يعد يطيق البقاء بلا سماع الأخبار. الراديو صديقه الحميم ومونس وحشته في غربته. وطن نفسه على العيش في هذا المكان وقتا يسمح له بتجاوز حالة التشرد. سيجعل هذه الغرفة بمرور الأيام مسكنا أقل ضنكا. يريد الذهاب الى الأستاذ سيف لشكره على ما فعل، لكنه لا يعرف الطريق إليه، ولا يجد الوقت للذهاب إليه ولا للذهاب إلى عمر لشكره أيضا والإستعانة به للذهاب إلى الأستاذ. يكتشف شيئا فشيئا أن عمله سجن لا يسمح له بالخروج. لا يهم. ولماذا يخرج. السوق قريب. سيذهب في النهار عند تواجد الموظفين لشراء ما يأكل ويشرب، ليعود بعدها للإعتكاف في محله يحرس ويستمع للراديو بصوت منخفض لا يسمعه إلا هو. يخشى أن ينشغل

بالراديو عن سماع حركة اللصوص. مقر الشرطة ليس بعيدا من هنا. يكتشف مع الأيام ان الأمان موجود وأن مهمته ليست مستحيلة. ليس في المكتب الذي يعمل فيه سوى موظفون ومكاتب وأوراق. ليس فيه ما يغري بالسطو. لا مخازن فيه ولا بضائع. نادرا ما تخزن فيه البضائع. والنقود تدفع في مكتب آخر وإلى البنك. وعند ما تكشف لأحمد هذه الحقائق بدأ يطمئن إلى عمله ويألفه. المهم انه عمل يوفر له المسكن والمأكل والمشرب قبل كل شيء. أصبح بعد وقت قصير يعرف جميع الموظفين والعاملين في هذا المقر. يعرف الكثير بأسمائهم والبعض يعرفهم بسيماهم. يحيونه عند الدخول والخروج، البعض يحييه بالعربية والبعض بالإنجليزية، فيرد على الجميع بابتسامة ودودة. تعلم بالممارسة والسماع الكثير من الكلمات والجمل الإنجليزية. من يسمعه يرطن يظن انه تعلم شيئا من اللغة في مدرسة. يتدبر أمره ويتهرب من الدخول في مناقشات تفضح جهله باللغة الإنجليزية. يفكر بالدراسة المسائية لكن عمله لا يسمح له. عمله يزداد في المساء بالذات، ولا يثق بأحد يسلمه عمله خلال ساعات الدراسة. قد يهمل فتحل الكارثة. علمته الحياة الشك في المجهول. الحذر ولا الشجاعة.

فرحه بالعمل الجديد لا يحد. عمل يستقر فيه دون أن يدفع ثمنا من كرامته ومن حياته. لا مشقة فيه. لا يحتاج فيه إلى التجول في شوارع عدن في حرارة الظهيرة. عمل لا يدخل اليه على استحياء. ما ان يذهب الموظفون إلى بيوتهم حتى يصبح مقر الشركة تحت تصرفه. يتمشى خلال الليل في ساحته قبل أن يعود إلى مكانه للإستماع الى صديقه الوحيد الحميم: الراديو. يتعرف منه على أخبار الدنيا، ويشعله بالحماسة أو يصيبه بالإحباط. يسمح له بفهم أسباب المظاهرات التي يشاهدها تمر من أمام الشركة دون أن يحس بأنه معني بها. وشيئا فشيئا بدأ يتفاعل معها. يحس بحماسة عارمة تدفعه للمشاركة، وبالأخص حين يكون للأمر

علاقة بقضية فلسطين. المظاهرات تسير في الصباح أثناء تواجد الموظفين في المقر. يستطيع أن يشارك إذا أراد دون ضرر.

رأى المتظاهرين يتجمهرون في الميدان القريب ورأى خروج بعض الموظفين من الشركة للإشتراك في المظاهرة. دفعه فضول لا يقاوم للإقتراب منها دون أن يفكر بالمشاركة. وما أن رأى عن بعد عمر محمولا على الأعناق يهتف بشعارات مكتوبة على قصاصة من الورق حتى أسرع للإلتحاق بمجموعته. يريد أن ينتهز هذه المفاجأة السارة التي سمحت له برؤية عمر على غير انتظار لتحيته وشكره على صنيعه الجميل. لم يلتق به منذ عرفه على الأستاذ في يوم خالد الذكر في حياته البائسة. فاجأه أحد المتظاهرين بأن ألقى في يده إحدى سواري لافتة طويلة لم يعرف بعد ما كتب عليها فوجد نفسه يسير في صف مقيد باللافتة يمنعه من الحركة الحرة داخل المظاهرة أو الخروج منها. انتهز أول فرصة واتته وتهرب بالطريقة نفسها مسلما مكانه في حمل اللافتة بسرعة إلى شخص لم يكن منتبها لما فعل، واقترب من عمر في لحظة نزل فيها من على الأعناق ليرتاح قليلا. كان عمر منشغلا عنه بما هو فيه من حماسة تصل حد الهياج. لا يستقر. وبدلا من أن يصافحه عمر تناول من جيبه قصاصة ورق كتب عليها بخط الأستاذ هتافات خاصة بالمظاهرة وسلمها لأحمد وانصرف إلى ما هو فيه من انشغال بتحريك المظاهرة والمشاركة في قيادتها. أراد أحمد الإعتذار عن المشاركة معهم لانشغاله بالحراسة إلا أن عمر كان قد غاب في الحشد بسرعة البرق. خشي أن يقول عنه عمر إنه بلا وفاء وإنه خان الأمانة في أول فرصة سنحت له لرد الجميل. لا. لن يجبن و لن يتردد. لن يخيب أمل عمر فيه منذ البداية. لن يفقد ثقته أيا كانت النتيجة. بدأ صوته يلعلع هاتفا. صوته عال وجميل. اعتاد أن ينشد في الأعراس والمناسبات الدينية كالمولد والإسراء والمعراج وليلة النصف من شعبان. وجد نفسه بعد لحظات محمولا على أعناق ثلة من متظاهرين تشعلهم حماسة لا تحد. تلفت

شمالا ويمينا. رأى الجموع الهادرة تسير تهتف وراءه. انتابته حالة من الهياج أنسته هتافات الأستاذ المكتوبة فانطلق يهتف بهتافات يرتجلها بالمناسبة. أفرغ كل ما في جوفه من كبت ومن رغبة في البوح تصل حد البكاء. أفرغ همه الدفين وأطلق لنفسه العنان حتى بلغ حدود الهستيريا. نسي نفسه. نسي الناس. بلغ حالة لم تبلغها محاولاته المستميتة في حلقات الصوفية لبلوغ العرفان. لا يدري حقيقة العرفان. ربما كان ما بلغه الآن وربما كان غير ذلك. اغتسل من تشرده في هذا النهر البشري الهادر. تحرر من ظلم القرون وقهر السنين. أحس بقامته تكبر. تكبر. لم يعد أحمد الهارب من عسكر أمير المؤمنين. أصبح أحمد الهادر. أحمد المجلجل بصوته حتى يبلغ الأرضين السبع والسموات العشر. ارتفع عنقه نحو عنان السماء فوق أعناق ترفعه إلى الأعلى بلا حدود. نسي حراسة مبنى الشركة، ونسي المدير. نسي عمر والأستاذ سيف. نسي المظاهرة. نسي عدن. نسي قريته. نسي عيشه وحمامة. نسي أمير المؤمنين والشاوش والعسكر. نسي حتى نفسه. نسي كل شيء. ظل يصرخ ويصرخ. يتنقل بين الجمل النثرية المسجوعة والأبيات الشعرية. يهتف. ينادي. يصرخ. يصرخ. يحتج. يترنم. يغرد. يزغرد. يسبح. يهذي.

وحين استنفد صوته كل طاقة للصراخ توقف عن الصراخ والهذيان وهدأ في خشوع كأنه يتهجد ساعة السحر. وجد نفسه وحيدا يمشي في الشارع. لم يسأل نفسه عما إذا كان ما شهده واقعا أم حلما. سار بجسد أثيري رقراق. يحس بأن وزنه خف أو أنه بلا وزن. كأنما يطير. كأنما يسبح في بحار أثيرية. فتح عينيه على اتساعهما. وسرعان ما تنبه لتغيبه عن عمله. عاد مسرعا نحو مقر الشركة في ذعر فاستقبله الفراش الذي تطوع بالحلول محله في العمل حال غيابه قائلا:

ـ أهلا بالزعيم.

ـ ...

- قالوا إنك تزعمت الجماهير في المظاهرة؟

- شاركت مثل غيري.

- يا ابني اهتم بعملك. قد ينتبه النصراني مدير الشركة ويحرمك من هذا العمل الذي يحسدك عليه كثير من المهاجرين. تذكر دائما انك حارس ولست زعيما. دع الزعامة للزعماء واهتم بعيشك. اذا فصلت لن تجد من يعطيك شربة ماء. الذين يحركون المظاهرات لديهم معاريف ووسطاء يجنبونهم الطرد. وإذا طردوا وفروا لهم أعمالا أخرى أو أعطوهم ما يقتاتون به حتى يعثروا على عمل آخر. ستحل الكارثة بك أنت الحارس البسيط.

أحس أحمد بالصدق في حديثه وإن كان يأتي بأسلوب التقريع وإعطاء المواعظ والدروس الأخلاقية. شد ما أغضبه أن ابتسامة ساخرة ظلت تعلو شفة الفراش طوال هذه النصائح المتهكمة. لم يخف الموظفون سخريتهم من هذا القروي الذي قفز بسرعة إلى قيادة مظاهرة فجأة وبلا مقدمات ولا معرفة سابقة ولا ثقافة سياسية. وقع الكلام في مقتل عند أحمد. داخله الخوف على عمل لم يجده بسهولة. صدف كثيرة ساعدته. لن يكون الحظ دائما معه. أخفى خوفه. لا يحب التخويف أو التهديد. لا يحب السخرية به. حاول تغيير مجرى الحديث فقال مازحا:

- لماذا لا تحاول أنت قيادة العمال والمتظاهرين؟ اسمك قائد وأنت منهمك في عملك البسيط دون أن تحاول حتى أن تقود القطط.

- أنا قائد نفسي. قيادة الإنسان لنفسه ليست سهلة. لو أجاد كل إنسان قيادة نفسه وأمن الناس من شره لصلحت الدنيا.

- لو كانت أمك تعرف لسمتك الفيلسوف.

- دعك من أمي وانتبه لنفسك ولعملك.

قالها مغاضبا وخرج.

مال أحمد بعد المظاهرة إلى الانطواء على نفسه. كأنما أفرغ خلالها كل مافي جعبته من كلام ومن مشاعر. أصبح يعمل ويتحرك وكأنه في عالم لا يوجد فيه أحد سواه. لا يكلم أحدا. وإذا سلم عليه أحد رد بإيماءة غاضا بصره حتى لا يضطر إلى الدخول في حديث مع أحد. يخاف على عمله وكأن كل مافي الدنيا من مؤامرات وصفقات تتمحور حول سلب العمل منه. تنتابه أحيانا حالة داخلية من الزهو بالنفس تقترب من الغرور لا يدري سببها ولا مصدرها. وأحيانا تغشاه حالة من الخوف والشك. ينتابه إحساس عميق بالظلم الذي يرغمه على العمل في عمل أقل مما يستطيع عمله. تمنى لو يجد عملا آخر يليق به مثل تدريس اللغة العربية والأدب العربي والتاريخ الإسلامي مثلا. لن يبقى في هذا العمل إلى الأبد. عمله هذا مؤقت حتى يجد العمل المناسب. انطوى على نفسه في انتظار الفرصة المناسبة. لا يتواصل مع الناس إلا في الحدود الدنيا. يميل إلى العزلة وعدم الكلام. يحس في داخله بصعوبة الحياة. ورضى الناس أصعب. وجحيم الجسد وحش ينهش في داخله. أعصابه تحترق. والعالم يحترق من حوله. والطقس يشويه ويعتصره. والبقاء في هذا العمل قدر لا فكاك منه سوى التشرد أو عيشه. وفي البعيد هناك جحيم مملكة أمير المؤمنين. سئم الملجأ الجميل الذي كان يوفره له الإستماع إلى الراديو. مال إلى سماع القرآن الكريم والأغاني وتجنب الأخبار والتعليقات السياسية. الأخبار متضاربة. لا يخرجه من سأمه سوى قضاء أوقات ممتعة في مشاهدة شرفة بيت مقابل لمقر الشركة تظهر فيها في أوقات متباعدة شابة جميلة يقترب عمرها من نهاية العقد الثاني. تلوح في الشرفة وفي يدها كتاب، في حين تعبث الريح بثيابها الخفيفة وبشعرها المتناثر في الجهات الأربع والذي يغطي بعضا من جمال وجهها الصبيح في البعد. تتنقل نظراتها بين الكتاب والأفق البعيد دون أدنى التفاتة للمحيط القريب الذي يقع أحمد في دائرته. يشاهدها في أغلب أيام الأسبوع تخرج

من البيت بتنورة كحلية وقميز أبيض لتصعد الباص المدرسي الذي يأخذها في الصباح الباكر ويعيدها في نهاية اليوم الدراسي. تخرج من الباب فيتسمر في مكانه مشدودا إلى حركتها: كأنما هو أحد حراس جلالتها يؤدي لها تحية الصباح. يراقب حركة الباص حتى يختفي. وينتظر عودتها كل يوم بشوق حتى يؤدي لها تحية العودة. يظل منشدا إلى الشرفة كأنما تعده بخلاص لا يدري ما هو. وحين تخرج يتوقف عن أي عمل للنظر نحوها بانشداه. ينتابه إحساس غامض بأنه يعرفها منذ زمن بعيد. كأن بينه وبينها صداقة قديمة أو قرابة. تختلط في ذهنه مشاعر الألفة والإعجاب والشوق. يحلم بفرصة مجنونة تتيح له اقتحام عالمها البعيد. يحلم في اليقظة والمنام أن يشاركها الدرس والهم والخروج في الصباح والعودة في بعد الظهيرة. إلا أنها لا تلتفت إليه ولا إلى المحيط القريب وتسبح في حلم يطارد الأفق البعيد. لا تنظر إلى الأرض التي تمضي عليها شامخة في إباء، واثقة من نفسها ومن جمالها. تتهرب من نظرات الفضوليين بالتركيز على ما في رأسها. خطواتها ثابته في اتزان مبالغ فيه بعض الشيء. يتمنى لو يحدثها. لو يسألها عما تقرأ. أن يطلب منها إعارته كتابا. يعرف أن لا سبيل إلى ذلك. اكتفى بالنظر اليها من بعيد. ومع ذلك ظلت قمره الذي ينتظر طلوعه كل يوم وشمسه الداخلية التي تضيء مجاهل مشاعره.

وحين رآها بعيدة كزحل والمريخ والمشتري مسخها قطة جميلة وأخذها لتعيش معه. ينشغل بها وبمناجاتها واللعب معها والمشي معها خوفا من العودة لسماع الراديو وما ينقله من أخبار تشعل فيه الحماسة للمشاركة في الأحداث السياسية الملتهبة من حوله وفي العالم العربي. اعتنى بها كما يعتني الأب بطفله الوحيد. يعد لها الطعام ويشتري لها الحليب. ينظفها من الأوساخ ويناغيها ويستمع إلى موائها وترانيمها بسرور. يمضي كثيرا من الوقت يحدثها دون ملل. تنام فوقه حين ينام

وترافقه في تحركاته داخل مقر الشركة وخارجه. أصبحت رفيقه الذي لا يفارقه في الليل أو النهار. اكتسب حب القطط من أمه التي تربي في بيتها ما يزيد على عشر قطط تعتني بها وتوفر لها الغذاء والظروف المناسبة للتزاوج والتكاثر طلبا للثواب من الله، ثم توزعها دون مقابل لمن يحتاجون إليها لحراسة بيوتهم من الفئران والحشرات والحنشان.

انتابته لفترة عادة الخروج أحيانا للمشي في الشوارع ومعه قطته في حالة ذهول وبكاء داخلي. استولت عليه الحسرة والألم. لا يجد ما ينفس به عن كربه سوى مناجاة قطته والبوح لها. يحس انها تستمع اليه. تشاركه أحزانه. يقضي أغلب وقته معها. يحرس معها وينام معها ويخرج معها ويعود معها ويتطلع بوله نحو شرفة عائدة معها. وزع وقته بين الأعتناء بقطته والحراسة ومشاهدة عائدة حين تلوح له الفرصة. كلما مر بناظريه على جهاز الراديو تجنبه بحنين ممض. أخفاه وراء فراشه حتى لا يراه وينشد إلى سماعه من جديد. عمد كل يوم سبت إلى أن يغسل قطته ويزيل الأوساخ العالقة بيطنها بالذات وينشفها ويصفف شعرها. وبعد أن تنتهي من الإستحمام الأسبوعي يلاعبها حتى تنصرف من نفسها معلنة انتهاء وقت الراحة واللعب. هذه العناية المستمرة بها جعلتها تبدو في لونها الرمادي في الأعلى الأبيض في الأسفل لامعة متلألئة. وبدت غرتها البيضاء وشارباها الأبيضان علامات بشاشة وبشر ودلال. عادت اليوم الى أحمد في غرفته في هيئة مختلفة عما ألف منها في الأيام الماضية:

ـ ياو. ياو. ياو.

ـ ادخلي. ادخلى ياحبية القلب.

ـ ياو. ياو. ياو

واصلت المواء بصوت فيه نغمات التوسل والإستعطاف، في حين كانت تواصل النظر إلى خلفها بين آونة وأخرى.

ـ ماذا معك اليوم؟ فار أم صيد آخر؟

نظرت إلى خلفها وقالت بصوت أنعم من ذي قبل:

ـ ياو. ياو. ياو.

نظر أحمد الى ما وراءها. رأى قطا سمينا ذا رأس كبير وعينان تبرقان بنظرات متوحشة، وشاربان أسودان يخترقان الفضاء كأنهما هوائي شاشة رادار. يقف بخيلاء غير معهودة في القطط. أرعد القط الضيف بصوت مكتنز بالضيق: ياوووو.

ـ لا مكان هنا يكفي لعراككما الأليف. فهمت القطة بذكائها الذي اعتاده منها نصيحته. دارت نصف دورة. نظرت إلى اليفها الجديد. همست بحزم: ياوو. قفلت راجعة نحو الخارج فتبعها القط المتوحش في ضيق كأنما هاله أن يجرؤ أحمد على سد الطريق بينه وبين الدخول إلى غرفته للراحة. مرت بضعة دقائق من الصمت الذي يقطعه أحيانا مواء محموم. خاف في البداية أن تكون قطته الحبيبة إلى نفسه قد تعرضت لمكروه. سمع صراخها العالي يقطع صمت الليل الذي تخترقه بين آونة وأخرى أصوات سيارات عابرة. قفز من مكانه مسرعا. هب للدفاع عن قطته مؤنسة وحشته. رآها في وضع لا تحتاج فيه إلى دفاع. ضحك وعاد أدراجه نحو غرفته. ندم في الأيام التالية لأنه لم يمنع تلك المغازلة الجميلة ولو بالقوة لأن قطته وجدت ما يشغلها عنه. أرغمه انشغالها عنه على العودة إلى أحضان الراديو والأخبار المضطربة. عاد شيئا فشيئا إلى حبه القديم: الراديو. اكتشف أنه لا يستطيع الإبتعاد عنه كثيرا. الراديو أوفى حتى من قطته. لعن ذلك القط المتوحش الذي فرض عليه العودة إلى حياة كان يظن انه قد طلقها وإن كانت تراوده من حين لآخر رغبة جامحة للعودة إليها. وعلى الرغم من أنه صرف نفسه باستمرار عن هذه الرغبة، فإنه وجد أخيرا أنه لا يستطيع مفارقتها. ثم اهتدى إلى طريقة توفق بين عشقه لسماع الراديو والإنفعال بما ينقل من أخبار مثيرة، والحفاظ على عمله الذي بدونه يعود إلى حياة التشرد. سيكتفي بأضعف الإيمان. بالإستنكار القلبي. سمح له هذا

الحل السحري بأن يكون في غاية التطرف في مشاعره دون أن يضطر لترك عمله. لا أحد يؤاخذ الآخرين على ما يحسون به من مشاعر. حتى لو توفرت الرغبة لديهم لحسابه على مشاعره، لن يعرفوا حقيقة ما يعتمل في داخله من أحاسيس. علمته هذه التجربة الميل إلى التكتم. كبت النفس قاس وأليم، لكن التشرد أقسى وأفضع. جعله الراديو يتفاعل مع قضايا العالم كلها ما عدا القضايا القريبة منه. لا يعجبه الحديث عن الشركات الإجنبية في عدن. يخشى أن يفقد عمله إذا حدث لها مكروه. لم يكلمه أحد عن الظلم في مملكة أمير المؤمنين. الراديو يتحدث عن كل مناطق العالم ما عدا بلده. يريد منهم أن يقولوا أن الناس يموتون جوعا وعسكر أمير المؤمنين يحطون كالذباب على جثث صرعها الجوع. يبدو أن أحدا ممن يذيعون في الراديو لا يعرف تلك المملكة المقيتة. تمنى أن يتحدثوا عنها ولو لمرة واحدة. لماذا لا يتحدثون عن ذلك؟ أيكون أمير المؤمنين قد أخافهم أو رشاهم أو سحرهم؟ أم أن رعيته منسيون في زاية منسية من الكرة الأرضية؟ لو تحدثوا عنه ربما تشجع وغامر. قد يضحي بعمله إذا لزم الأمر. قد يقبل التشرد من جديد. يحلم أن يكون في بلد بلا قلاع، بلا عسكر. بلا أمراء. بلا مظاهرات وبلا هتافات وبلا خوف من المدير النصراني. بلد لا يحتاج فيه الأستاذ سيف لأن يكذب كل يوم متوسطا للباحثين عن عمل. بلد بلا ضمانة تجارية ولا وساطة. ما قيمة ورقة صغيرة يكذب فيها الأستاذ سيف من أولها إلى آخرها. عندها سيعمل، وسيربي القطط الجميلة ويقلد مواءها وينسى كل شيء، وسيدرس مع عائلة ويهيم بها عشقا.

وأخيرا اكتشف بالصدفة من إذاعة صوت العرب وجود من يتحدث عن ظلم أمير المؤمنين، ملكين من ملائكة الرحمة والعدل لم يخطرا له على بال: الزبيري ونعمان. كأنهما اخترعا اختراعا ليشفيا غليله. كلما سمع حديثا لأحدهما عن فض الاشتباك بين الرعوي والعسكري انشرح وانفعل وتنطط

من مكان إلى آخر. يفرك بيده على راســه أو على بطنـه دون شـعور. لأول مرة ينفعل بكلام عن السياسة إلى هذا الحد. يسمع ويصرخ:

ا لله ا لله. زدنا يا أستاذ زدنا من هذي الدرر.

اقتصر تعامله مع السياسة على سمـاع الراديـو والحماسـة حتـى حـدود التشنج بينه وبين نفسه. يشاهد المظاهرات تمر من أمامه وكأنهـا لا تخصـه. لا يسأل عن سببها و لم يكلف أحد نفسه عناء إفهامـه. وهـو لم يسـأل ولا يريد أن يعرف عنهـا شيئا. اعتـاد الموظفـون في الشـركة الـتي يعمـل فيهـا حارسا أن لا يهتموا بمشاركته. حارس بسيط. ثقافته الدينية تثير انتباههم عنـد مـا يحتـاج أحدهـم إلى فتـوى بسـيطة. وبعضهـم يطلبهـا علـى سـبيل السـخرية. أحد الموظفين يناقشه في النحو من باب تذكر ما تعلمه في صغره عند الفقيه. استحق منهـم لقـب (فقيـه) بجدارة. يقولـون ذلـك مـن بـاب التندر. وأحيانا يسمونه (الفقيه الحارس) أو (الحارس الفقيه). لا يتذمـر مـن سخريتهم ويعدها من باب المزاح البريء. يكفيه أنـه يعيـش بـلا تشـرد. لا ينغص عليه عيشه منذ وصل عدن عسكري ينهب لقمـة عيشـه. هـذا أهـم موضـوع لإستغرابه. يذهـب بعـض الموظفـين مـــن أمامــه للمشــاركة في المظاهرات ويعودون دون أن يكترثوا به أو يهتم بالذهاب معهم. يســمعهم يتحدثون في السياسة دون أن يشاركهم. لا يدري ما الذي دفعه ذات يـوم إلى الإنضمـام إلى مظـاهرة ضخمـة مـرت مـن أمامـه حـين دعــاه بعــض المتظاهرين مثل غيره من المارة إلى المشاركة. كأنما كان ينتظر هـذه الفرصـة منذ زمن. كأنه عاد إلى بيته الذي هجره منذ وقت طويل. وجـد نفسـه في وسط المعمعة يصرخ بحماسة ويندفع في رغبة جامحة. شارك بكـل مـا لديـه من قوة متلفتا شمالا ويمينا عله يرى فيها عمر أو الأستاذ سيف. كان حزنـه عظيما لأنه لم يجدهما. ربما غرقا بين هذا اليم المتلاطم من البشر. تناول من أحد الهتافين قصاصة ورق كتبـت عليهـا هتافـات محـددة تشبه تلـك الـتي أخذها من عمر في أول وآخر مظاهرة دفع بطريق الخطأ للإشتراك فيها قبل

ذلك. الخط نفسه وإن اختلفت العبارات بحسب المناسبة. لم يجد صعوبة في لم المتظاهرين من حوله. جلجل بصوته المدوي فتجاوبت الساحة معه. يشعر بالنشوة والفخر. يحرك الشارع وراءه ويحس بقدرة لا تحد على فعل أي شيء. مشى إلى الخلف ووجهه متجه الى المظاهرة. رأى أحد المتظاهرين يمشي صامتا. صفعه في وجهه قائلا:

ـ اهتف أو اخرج من المظاهرة. لو كنت في جنازة لوجب أن تهلل وتكبر.

واصل الهتاف بحماسة. سمع أحد الهتافين يصرخ:

ـ فلتخرج الشركات الإستعمارية.

ذابت فرائصه. عاد إليه من جديد الخوف من أن يفقد عمله ويعود إلى التشرد من جديد. بدأ يفكر في الخروج من المظاهرة والعودة إلى عمله بسرعة. لاحت في ذهنة صورة عائدة بجمالها الآسر وترفعها المدلل. بحث عن منفذ ينسل منه خارجا من بين سيل البشر الهادر. لا منفذ. كان قد أصبح دون أن يشعر في معمعان مقدمة المظاهرة. تراجع القادة السياسيون والنقابيون نحو الخلف. وكذلك فعل من يخشى الترحيل من عدن. وتشابكت سواعد المتظاهرين. وجد نفسه وقد شبك من هم على شماله ومن هم على يمينه سواعدهم إلى ساعديه. التفت نحو اليمين. رأى نفسه مشبوكا إلى شاب اسمر البشرة مفتول العضلات يسير في الصف الأول من المظاهرة بمرح ولا مبالاة كأنه في حلقة رقص. التفت نحو اليسار. وجد عمر يضحك له بود. حاول أن يكلمه. أن يقول له انه تمنى أن يراه في موقف أهدأ من هذا. لم تسمح ضجة المظاهرة سوى بتبادل الإبتسامات الودودة. أحس بشي من الألفة لوجود شخص يعرفه في المظاهرة. لم يعد يفكر في الإفلات منها. وحتى لو حاول. لا سبيل إلى الخروج. الصفوف تدفع الصفوف. مشى بقوة دفع الصفوف الخلفية. قوات الشرطة تصطف في الأمام مغلقة الشارع. والصفوف تدفع الصفوف. صفه يندفع بصورة

آلية لا سبيل إلى إيقافها نحو الإصطدام بصف الشرطة. حاول لاشعوريا سحب ساعديه من قبضة السواعد التي تشدهما إلى الخرسانة البشرية التي تشكل الصف الأول والصفوف الخلفية. الأجسام متلاصقة كالصخرة. لم يعد قادرا على التفريق بين ساعديه والسواعد التي تشدهما نحو الشمال ونحو اليمين، ولا بين جسده والأجساد الملتصقة به في كتلة الصفوف المتلاحمة. الصفوف كلها كتلة واحدة تتدحرج في اتجاه صف العسكر المزودين بالسلاح والدروع والعصي الكهربائية. المسافة بين وجهه وصف الشرطة تتضاءل. اقتربت المسافة أكثر فأكثر في لمح البصر. عينه تقترب من حربة بندقية. رأسه يوشك أن يرتطم بعصى كهربائية. حاول بسرعة يصعب تخيلها أن يحول وجهه قليلا نحو اليسار أو نحو اليمين ليجنب وجهه الإرتطام بغابة السلاح والعصي والخوذات. عاد بسرعة للنظر نحو الأمام. ربما تمكن من تجنب ما يستطيع تجنبه. الأمور تمضي بسرعة مذهلة. وجد نفسه حجرة في جدار بشري يصطدم بحاجز الشرطة. اغمض عينيه. اسلم نفسه لحركة الصفوف التي لا تقاوم. أحس بألم شديد كأن رأسه تفجر إلى شظايا. أصابه الدوار. لم يعد يتبين حقيقة ما يجري. لا يرى شيئا. لا يسمع شيئا. لا يفهم شيئا. سائل حار يملأ عينيه وأنفه وفمه. وشيئا فشيئا بدأ يسمع أصواتا غريبة تتردد بجانبه. حاول فتح عينيه لاستطلاع ما حوله. أحس بألم شديد في عينيه. رأسه كتلة من الألم الممض. وجد نفسه يجلس في قاع سيارة عسكرية تتحرك بسرعة وحوله صفان من جنود مدججين بالسلاح في حالة تأهب للقتال. كان في وسطهم بثيابه شبه الممزقة كشحات في أيدي فرقة مكافحة التسول. الفارق الوحيد أنهم مدججون بالسلاح وأن الدماء تسيل من رأسه المصاب بأكثر من جراح. حاول أن يكلم أحد العسكريين وكان قد سد عليه أي منفذ للنور. بادره العسكري بركلة من حذائه العسكري الخشن ألقت به على أرض السيارة. نهض في غضب واستعداد للإشتباك. أعين الجنود وحرابهم مصوبة إليه من كل

الإتجاهات. المعركة محسومة. ليس أمامه أية فرصة للإشتباك. سيقتلونه قبل أن يصل إلى أي منهم. سكت. ازدحمت الصور في ذهنه. أمه. عائدة. السجن الذي هرب منه. عيشه التي تريد الزواج به رغم أنفه. المدير النصراني. الطريق إلى عدن. أغمض عينين تقاتلان. أنفاسه تعلو وتهبط بقوة. أعصابه تحترق. أسرع الجنود الى إلقائه كأنه كيس تراب داخل السجن. مكث برهة بلا حراك في المكان الذي ألقي فيه. يريد أن يتبين حقيقة ما جرى له. جرت الأمور بسرعة مذهلة. لم يستطع بعد استيعاب ما جرى. تلفت بعد دقائق يمينا وشمالا. وجد نفسه في ممر مكشوف في جانب منه، مغلق بباب من الحديد المشبك. عند الباب جنديان محليان يلبس كل منهما بدلة كاكي بنصف كم وبنطلون (شورت)، على رأس كل منهما عمامة هندية. يؤدي الممر إلى غرفة كبيرة فيها أعداد من المعتقلين أكثر بكثير من طاقتها على الإستيعاب، ينحشرون فيها جالسين أو واقفين أو يزحم بعضهم بعضا في هواء حار خانق.

واصل استكشاف السجن ومعرفة مداخله ومخارجه، لم يقطع عليه استغراقه سوى وصول دفعة جديدة من المتظاهرين المقبوض عليهم. رأى عمر بقامته الطويلة وجسده النحيل مميزا بين الجميع. فرح بسجنه فرحا شديدا. على الأقل سيجد في هذا المكان من يعرفه من قبل. بادره عمر بضحكته المعهودة، يضحك بلا مبالاة كأنه في احتفال وليس داخل سجن:

- كيف جاءوا بك إلى هنا؟
- لا أدري. لم أحس بنفسي إلا وأنا في أيديهم.
- كان بإمكانك تجنب بعض الضرب.
- كيف؟
- تهرب مثلا.
- ولماذا لم تهرب أنت؟
- هربت. لحقوا بي وألقوا القبض علي.

ـ النتيجة واحدة. من حسن حظي انك سجنت. أنا لا أعرف هنا أحدا سواك.

ـ لا تهتم. هذا المكان ليس سجنا معتادا. الإعتقال فيه مؤقت. يفرج عن المعتقلين فيه بسرعة أو ينقلون إلى سجن يقضون فيه فترات اعتقال أطول.

ـ قد ننقل منه إلى سجن نقضي فيه فترة أطول.

ـ لا. سيهتم الأستاذ بالموضوع. سنخرج من السجن قريبا.

ـ بعد كم؟

ـ لا أدري. المهم أننا سنخرج بسرعة. اطمئن.

ـ بشرك الله بالجنة. أدخلت إلى نفسي بعض السرور وسط هذه الكارثة.

ـ لا تقلق أبدا. ربما خرجنا بعد ساعة أو ساعتين.

عمر يتحدث عن خروجهم بثقة مطلقة جعلت أحمد لا يشك لحظة في خروجه. عمر يعرف أصحابه معرفة تامة. يعرف الأستاذ وأمثاله. لا بد أنهم قد أعدوا للأمر عدته. عمر لا يتكلم من فراغ. أشاع تفاؤل عمر ومرحه حالة معنوية عالية بين المعتقلين. بدأوا ينشدون الأناشيد الحماسية ويعيدون هتافات المظاهرة داخل السجن. أثاروا زوبعة داخل السجن استدعت تعزيز الحراسات بجنود حمر الوجوه كمؤخرات القرود. جاءت سيارة نقل عسكرية وقفت باب المعتقل. وبدأ الجنود يستدعون المعتقلين دون تمييز للخروج والصعود على السيارة. استدعوا جماعة لنقلهم إلى معتقل آخر وعمر يصر على أنهم سيفرجون عنهم. فما أن استدعو أول سجين للخروج حتى صرخ:

ـ بدأ الإطلاق. ألم أقل لكم؟

أدرك أحمد بسرعة أن الأمور ليست كما يصورها عمر ببراءته الطفولية وثقته المبالغ فيها في قدرة الأستاذ على فعل المعجزات. عاد إليه توازنه وبدأ دماغه يفكر من جديد بعد أن كان قد تعطل عن العمل منذ

أن اصطدم بصف الجنود في المظاهرة. عاد من جديد يستطلع السجن لمعرفة منافذه ومخارجه علّه يهتدي إلى حل يخرجه من هذه الحفرة المشتعلة بدرجة حرارة لا تطاق. ليس الأمر سهلا ولكن لا سبيل سوى الهرب. اهرب تسلم. الوقت لا يسمح بالتفكير الطويل. السرعة أهم عامل لنجاح فكرته. اما أن يسرع واما أن ينتقل إلى سجن يبقى فيه مدة لا يعرف مداها إلا الله.

وعمر يحدث زملاءه في الزنزانة عن الأستاذ وقدرته الخارقة على اجتراح المعجزات، وعلى العثور على حل يخرجهم من السجن، وانه لن يترك سبيلا إلى إخراجهم إلا ويطرقه. سيتصل بالملكة وبجمال عبدالناصر وبالأمم المتحدة والجامعة العربية. وواصل الإصرار على أن السيارة التي نقلت الدفعة الأولى قد أخذتهم للإفراج عنهم. سأله أحمد بشيء من الإمتعاض:

ـ ولماذا لا يفرجون عنهم دون نقلهم بالسيارة؟

لم يجد أية إجابة. يحمل في جوانحه شحنة هائلة من الإيمان بالأستاذ تجعله يحلق دائما في دنيا الخيال الحالم، وهذا ما يجعله أسعد حالا من غيره من المعتقلين.

شيء من الشك يداخل أحمد ويجعله لا يطمئن إلى نجاح الأستاذ في إخراجهم. يصدق انه سيفعل كل ما يقوله عمر. لكنه لا يثق انه سينجح في زمن قصير. لا يجد أحمد سبيلا إلى النفاذ من السجن بسرعة سوى بالهرب. الفكرة تستولي على ذهنه لكن تنفيذها مستحيل. ربما اهتدى إلى طريق. ربما توفرت فرصة لا يعرف الآن ما هي. لا يعرف أحدا هنا سوى عمر. وعمر ليس رجل مهمات صعبة. ما يزال طفلا حالما في هيئة رجل.

لا يستطيع الركون إلى أحد حتى ولو كان الاستاذ أو عمر. عليه وحده أن يخرج نفسه بنفسه من هذه الورطة التي كان في غنى عنها. صدق قائد الفراش. سيفقد ببساطة متناهية عملا حصل عليه بشق الأنفس ولن يرحمه أحد. لعن المظاهرات والفضول الذي وضعه في طريقها. لماذا لا تمر

المظاهرات إلا من أمامه. كأنهم يتعمدون المرور به لاستدراجه حتى يحرموه من العمل ليعود إلى التشرد من جديد. كان الهرب من عيشه سهلا وإن كان حزينا، أما الهرب من وجه امبراطورية لا تغيب عنها الشمس فأقل ما يوصف به أنه مغامرة مجنونة. سيجرب الجنون ولو قليلا. ربما نجح فيما يعجز العقل عن فعله. تلفت فيما حوله. لا يجد أي منفذ للهرب. حتى الجنون لا يفيد في هذا الحصار المحكم. أسرع الجنود في تسجيل أسماء المعتقلين في قوائم وعمر يعلق على كل حركة قائلا إنها المقدمة الأولى للإفراج. وحتى حين بدأوا التحقيق الأولي مع المعتقلين قال إنهم يريدون أن يبرروا الإعتقال بتسجيل محاضر شكلية يكتب فيها اسم المعتقل المفرج عنه وشيء من الأسئلة والأجوبة التقليدية المعتادة في مثل هذه الحوادث. تفاؤل عمر ومرحه وبراءته يجعل حياة السجن محتملة بعض الشيء. كان أول من استدعوه من المعتقلين للتحيق الأولي: راجح. شخص يبدو غريب الأطوار. عادوا به بعد قليل. أشار إلى أحمد. أمسك الجنود بأحمد وأخذوه للتحقيق. لم يعرف لماذا يشير إليه بالذات. لم يعمل شيئا مميزا. تظاهر مثل الآخرين. ربما حملوه لبعض الوقت وهتفوا بعده. لكن آخرين فعلوا ما فعل وأكثر. لماذا يختارونه بالذات؟ أمسك جنديان بأحمد وربطا يديه واقتاداه إلى غرفة التحقيق حيث يجلس على يمين الداخل من الباب ضابط أحمر كمؤخرة القرد يكاد الدم ينبجس من وجهه المتصبب بالعرق. وإلى يساره مترجم هندي من البهرة تبدو عليه شراسة لا تناسب سحنته، وعلى جانبي الغرفة جنديان مسلحان. نظر الضابط في عيني أحمد مباشرة ورطن ببعض كلمات بعربية لم يفهم أحمد معناها. تحدث الضابط والمترجم فيما بينهما. عاد الضابط يسأل والمترجم يترجم

ـ اسمك؟

....

ـ عملك؟

ـ ماعلاقتك براجح...؟

ـ من راجح هذا؟

ـ زميلك في النهب والتخريب أثناء المظاهرة؟

ـ أي زميل وأي نهب؟

ـ أنت تعرف من هم شركاؤك.

ـ أنا لا أعرف أحدا.

استقام فوق رأسه ثلاثة أشخاص غلاظ، بدويان والمترجم الهندي. أوقفوه في وسط غرفة التحقيق وبدأوا يتبادلون توجيه اللكمات إليه كأنه دمية للتدريب على الملاكمة. يصفعه أحدهم بأقصى مالديه من قوة. يترنح. تستقبله لكمة من الجانب الآخر. أحس باللكمات الأولى تنفذ إلى قلبه ودماغه، وتراءت لمخيلته لحظات العذاب منذ طفولته حتى مماته. أحس برغبة عارمة في التقيؤ والنوم. مضى في غيبوبة على ضفاف الحياة والموت. رشوه بالماء وشمموه سائلا عطريا. أفاق متألما بعد دقائق لا يدري عددها. عاد المحقق يسأل والمترجم يترجم:

ـ ألن تعترف؟

ـ بماذا؟

ـ بمشاركتك لراجح في السطو على الدكاكين أثناء المظاهرة؟

ـ اسمعوا. أنا مستعد للتوقيع على أي شيء تريدونه.

ـ نريد الحقيقة.

ـ الحقيقة؟ أنا لا أعرف من يكون راجح هذا، ولا شاركت في أي سطو. لم أعرف عن وجود سطو إلا الآن منكم. كنت أتظاهر و لم أكن اسرق.

ـ ما علاقتك بالأستاذ سيف.

ـ سمعت به مثلما سمع به الآخرون. لا علاقة خاصة بيني وبينه ولا ألتقي به.

ـ لا تعتقد انك ستمرر كذبك علينا. نحن نعرف كل شيء. خير لك أن تعترف منذ البداية.

ـ...

أتوا براجح. تذكره أحمد. لأول مرة يعرف ان هذا اسمه. شاهده معهم في المعتقل يحاول منذ البداية أن يتحرش بالمعتقلين ويحاول أن يفرض قيادته وسلطته عليهم دون أن يعرف أحد منهم من هو. يتجنبه الجميع ولا يريد أحد أن يصطدم به. يستغل هذا الوضع حتى النهاية. كلما مرروا له ما يطلب مرة فرض نفسه مرات أخرى. شخصيته منفوشه مثل هيئته. قامته طويلة معوجة قليلا. يغطي اعوجاج قامته بتصنع وضع الخيلاء في مشيته. منفوش كالديك الهائج. ذو شنب طويل غير مهندم يغطي فمه. يحاول فتل شنبه من وقت لآخر لكنه من النوع الناعم الذي لا يقبل التشكل كما يريد. وشعر الرأس أشعث طويل. يربط الفوطة العدنية الملفوفة على وسطه بحزام من الجلد يهدد بجلد زملائه في السجن به لكنه لم يستخدمه ولو لمرة واحدة. يهدد زملاءه في السجن بالضرب ويفرض عليهم تجنبه دون أن يصل إلى درجة الإشتباك معهم لأنهم يرضخون قبل أن تصل الأمور إلى هذا الحد. وعمر يركز أنظاره عليه آخذا حذره منه بشدة ومضمرا في أعماقه الإشتباك به عند أي تحرش. لم يخطر في بال أحمد الدخول معه في أي احتكاك لأنه مشغول بالبحث عن طريقة للهرب. لا يريد الدخول في أية تعقيدات تفسد عليه خطته. راجح يستخدم حزامه وصوته الجهوري لإسكات من حوله وارهابهم مع أن عمره يزيد عن خمسين عاما في حين أن أغلب المساجين شباب مفتولو العضلات، بناهم أقوى من بنيته بكثير.

دخل راجح غرفة التحقيق وهو يبتسم بلا مبالاة. قال له المترجم:

ـ هذا صاحبك يقول إنه لا يعرفك.

قال بلا أدنى تفكير

ـ كذاب.

علق أحمد منفعلا:

ـ من أين أعرفك و أنا الآن فقط أعرف أن اسمك راجح؟

قال راجح بلا مبالاة عجيبة وقد رأى أحمد مضرجا بدمائه:

ـ أنا آسف. اختلط الأمر علي. لا. لا. ليس هذا من كان معي. قلت لكم أنا لا أعرفهم. متظاهرون مثل غيرهم من المتظاهرين. ظننت أن هذا واحد منهم.

ثم وجه حديثه لأحمد قائلا:

ـ لم تكن معنا. أليس كذلك؟ عفوا. عفوا.

كان راجح يتحدث بسذاجة جبلية مفتعلة أو بتذاكي متخابث. أحس أحمد أنه يعمد قاصدا إلى تتويه التحقيق بأكاذيب هدفها حماية الفاعلين من عصابته التي اعتادت الإندساس في كل تجمهر بغرض السرقة. أحس نحوه بغيظ وبرغبة في الإشتباك به. قال له في غضب:

ـ عفوا يابن الكلب؟ تتسبب لي في هذي التهمة وهذا الضرب وتقول لي عفوا؟

رد راجح على غضبه بابتسامة غبية لا مبالية.

أجروا لأحمد اسعافات أولية وأتوه بفوطة وقميص نصف كم جديدين للتستر على الدماء التي سفكت منه وأعادوه إلى غرفة الإعتقال كتلة من اللحم والألم. لم يعد يطيق النظر إلى راجح. ود لو ينقلونه إلى سجن آخر ولو في آخر الدنيا حتى لا يرى هذا الوغد. وراجح يمارس هوايته في انتزاع دور مهم له في قيادة من حوله. يوجه الأوامر وينتظر أن يطاع بمناسبة وغير مناسبة. افعل كذا. لا تفعل كذا. حتى غذاء المساجين حين يأتون به يبادر إلى المساهمة في توزيعه دون أن يطلب أحد منه ذلك، ويعمل بوسائل شتى للإستحواذ على أي شيء منه. ويحاول الإستحواذ على جزء أكبر من

الشاي. المعتقلون يتجنبونه. ينتظرون أن يخرجوا بسرعة. شجعه سكوتهم على التمادي. يردد في لهجة تخلط الجد بالهزل:

ـ لا يوجد هنا إلا زعيم واحد.

يضحك المعتقلون ساخرين. يظن انهم يضحكون موافقين وينظر إلى أحمد ويضيف:

ـ اذا كان هنا من لا يوافق على ما أقول سأعلمه الأدب. سأعلمه كيف يحترم أسياده الكبار. سأجعله يرى أمه في يوم عرسها.

بدأ يتحدث مع المعتقلين عن مشاريع للسطو على الدكاكين وتهريب البضائع من عدن إلى مملكة أمير المؤمنين. و أحيانا يتحدث عن استزراع الحشيش وبيعه. يعلق ضاحكا:

ـ النصارى غزونا بعسكرهم فلنصرعهم بالحشيش. هم يحبون الحشيش أكثر من حبنا للقات. دعوكم من السياسة. لا حاجة لأن تتظاهروا أو لأن تطالبوا بتحرير عدن. استمعوا لي واتبعوني نهزمهم في سنة أو سنتين. ضحك أحمد ساخرا من مشاريعه المحششة. التفت راجح إليه بعينين تصطنعان الغضب واتجه فورا إليه مهددا:

ـ من لا تعجبه خططي سأكسر رأسه.

أجاب أحمد بهدوء وحزم باذلا جهده للسيطرة على غضبه الذي يكاد ينفجر:

ـ تعوذ من الشيطان.

صاح راجح بصوت أجش ملأ السجن وشد جسمه ليبرز صدره إلى الأمام في حركة صبيانية مقتربا من أحمد أكثر فأكثر:

ـ تهددني؟

ـ تعوذ من الشيطان.

ـ من أنت يا ابن الفاجرة حتى تهددني؟

رفع أحمد ركبته اليمنى بكل ما يملك من قوة ليركل فحلق راجح ركلة أفقدته وعيه، وانهال عليه ضربا باليدين والرجلين والرأس. المعتقلون يتفرجون دون أن يتدخل أحد لإنقاذه. يريدون أن يوقفوه عن التمادي. أسرع حراس السجن إلى انقاذه مركزين كل اهتمامهم عليه باعتباره أخطر مجرم يتعاملون معه منذ فترة طويلة. ما يكاد يخرج من السجن حتى يعود إليه. أخرجوا أحمد إلى غرفة الحرس حتى يتدبروا له مكانا آخر غير المكان الذي يجمعه براجح وانصرفوا منشغلين باسعاف راجح الذي كان قد فقد الوعي والدم ينزف من رأسه وأنفه. لاحت لأحمد في تلك اللحظة فرصة ذهبية عند انشغال الحرس. لا تتردد. قد لا تلوح أمامك مثل هذه الفرصة مرة ثانية. غامر. جرب. اقفز. اهرب تسلم.



-٦-

انزوى في زواية من زوايا السجن لا ينظر إلى صاحبه ولا إلى أي شيء آخر. حدقتا عينيه مفتوحتان دون أن تريا شيئا سوى الظلام والفراغ. صامتا لا يكلم حتى نفسه. سدت جميع الأبواب. سدت الطرق. كيفما توجه وقف الجبل منحنيا في مواجهته. والليل يرحل ويعود منتصبا أمامه. وباب السجن ينفتح وينغلق من حوله. وعمر يزداد حركة وركضا من دون أن يغادر مكانه. لا شيء سوى لجة الفراغ ولون الهاوية. يتلوى من الشك أو من الألم دون أن يسمعه أحد. ينفجر بالأفكار والجدال مع صاحبه دون نهاية أو جدوى. الكلام كالصمت. والصمت كالموت. حتى الموت لا يجد له مكانا في هذا القبر الجهنمي. يتردد في المجيء قبل أن يتأكد من أنه سيظفر بحمولة تستحق تجشم أعباء الرحلة الطويلة بين السماء والأرض. لا شيء يغريه في هذا الحصن المغروز في خاصرة الجبل الغريب.

أحس بيد صاحبه تمسه كالدبوس في الكتف. سمع صوته يطن من مكان ضائع بعيد:

- هون عليك ياصاحبي. ليس أقسى على نفسي من ان أراك مهموما قلقا على هذا النحو. اعتدت أن ألقى عندك السلوى والأمل. لا تطفيء هذا البصيص الجميل في عيوننا. اشتدي أزمة تنفرجي. ألست أنت من

علمتني هذه الجملة التي لم أتعلم أجمل منها في جحيم الأسر وعزلة السجن.

لم يفلح عمر في التخفيف من عذاب صاحبه. كان قد غادر المكان والزمان في رحلة الكآبة. خشية غامضة من مصير مجهول. من الموت جوعا وعطشا. بالإلقاء من رأس الحصن إلى الهاوية. كل شيء جائز. لا قانون ولا شريعة سوى شريعة قطاع الطرق ووحوش الجبال القاحلة. مرور الإحتمالات الغريبة بخاطره يحرره شيئا فشيئا من الخوف ويدخله في دوامة كآبة تشده نحو حافة الإنفجار. كل شيء صامت من حوله إلا طنين رأسه. لا قتال ولا حرب ولا سجانين ولا معارك. الحرب تدور في الداخل. لا مصدر للأخبار سوى الطنين الداخلي. كانت رؤية السجانين كل يوم تجعله يحس بأنه ما يزال على قيد الحياة. لم يعد ينتظر فتح باب السجن صباح كل يوم ليرى سجانيه ويأنس حتى بمشاكستهم. إحساسه بالضياع والإنكسار يقذف به في جحيم داخلي لا فكاك منه ولا مهرب. وصاحبه يمثل دور المتفائل عن غير قناعة عله يخرجه من مستنقع الكآبة. يقص عليه النكت والنوادر الغريبة وهو لا يسمع. يصم أذنيه طنين لم يسمع مثله قط. حبل الحياة والموت ممدود بينه وبين صاحبه دون أن يراه. يخشى لو تعلق به واندفع نحو الهاوية أن ينقطع في يده ويهوي معه. نجح عمر في سحبه نحو الشاقوص لرؤية الخارج ومشاهدة النور بدلا من التحديق في ظلام الزاوية الضيقة. رفع وجهه قليلا حتى يشاهد السماء البعيدة. مشهد الغروب على صفحة الجبل يملأه بالوحشة والحنين. ينسحب خيط الضوء الأصفر من المكان ليغيب وراء الجبل مخلفا وراءه سواد الليل وصرير الصراصير. تعودت عيناه على الظلام فلم تعد قادرتان على رؤية شعاع الضوء الغارب وهو يذوي كما تذوي ابتسامات الأطفال في ليل حزين. السحب السوداء في البعد تزداد سوادا وتبدو قطعا من الدم المتجمد في وجوه حفرها الجوع وأحرقتها براكين ميتة. لم

تراكمت عليه (البواقي) من الضرائب الخرافية التي تفرضها القلعة. هذه القلعة التي لا تشبع ولا تقنع بأقل من اجتراف تراب المدرجات بما عليها لتبقى الجبال عارية من سكانها الذين يتحولون بمرور الأيام إلى دود جائعة عجفاء. تساءل عن سبب تسمية قاموس القلعة لهذه المتأخرات بالبواقي. أوحت له بفضلات الطعام بعد استهلاكه أو بروث البهائم. كلها تثير التقزز والإشمئزاز. إسم على مسمى. لا يستطيع الناس إطعام أطفالهم. من أين يأتون للقلعة بالنقود؟ جوعهم يعني جوع عسكر القلعة دون أن يدروا. بعض العسكر فضل الإنتقال لنهب مناطق أوفر حظا من هذه الأشباح المتحركة ببطء لا يطاق. نهب الجائع عبث، وقتل الميت حرام. سيعودون حين تهطل الأمطار وتنبت الوديان والسفوح أنهارا من عسل مصفى، ويفيض الماء من أكف المزارعين الخشنة المتكلسة. أشر العسكر يصرون على البقاء حتى أخر قطرة من جوع المزارعين ومن حياتهم. البواقي توفر فرصة لامتصاص ما تبقى من رمق للحياة في مآقي أطفال يعيشون بجاعة دائمة ويتما لا يذهب إلا ليجيء من جديد.

وجد نفسه في مواجهة غير محمودة ولا متوقعة مع عسكر لا يريدون أن يبحثوا عن مصدر لمعيشتهم بعيدا عن روث البهائم الميتة. المواسم شحيحة. وشبح المجاعة ضيف ثقيل في كل بيت. والقلعة تطلب تزكية النفوس بدفع عشر ماتملك. لكن عشر القلعة يختلف عن العشر في الحساب الذي لم يتعلمه العسكر والمزارعون وأمير المؤمنين. عشر القلعة يساوي الثلث، أو النصف، أو المحصول كله. وأحيانا يزيد عن المحصول. لكن لا أحد حتى القلعة يعرف مقدار عشر المجاعة. هل يساوي نصفها أم ثلثها أم كلها أم أكثر؟ المزارعون لا يتخلون عن مجاعتهم بسهولة. شكل من أشكال مقاومتهم لهذه القلعة المخيفة. كل ما تطلبه ثقيل على النفس حتى ولو كان المجاعة نفسها. والعسكر يطلبون ما يوفر لهم المأكل الدسم والقات الذي يرفع الكيف إلى درجة الدوار بحيث لا يسمعون

أنين الجوعى، وصراخ المرضى وعويل الهاربين ساعة الرحيل. كلهم يريد أن ينفق من جيوب نست شكل النقود منذ زمن لا يدري أحد متى حل ومتى اختفى. والسماء تشارك في حفلة الحصار الجبلي لهذه الأشباح التي يظن أنها من بني الإنسان دون أن يتأكد أحد من صحة هذا الخبر. بعضهم قد فكر ببيع الأرض للقلعة كي يحصل على زاد الطريق قبل الرحيل. فكرة رائعة. لكن القلعة لا تريد أن تبقى وحيدة في هذه الجبال الموحشة. لا تعرف شيئا تفعله سوى محاصرة المدرجات ومنعها من الهرب. وإذا غادروا أصبحت بلا رعية. هل سمع أحد بقلعة بلا رعية، تأكل مما تنتج، وتلبس مما تصنع؟ هذا ضلال وكفر يستحق صاحبه الشنق. اتهموا أحمد بأنه صاحب هذا الإختراع العبقري: قلعة وعسكر بلا رعية. لم يهتد إلى مثله أحد. قالوا إن إصراره على البقاء ورفض الرحيل يحمله المسؤولية الأولى في تحريض الجائعين على الإضراب عن طعام غير متوفر حتى ولو في الحلم. قال لهم:

ـ إذا أمطرت حل الخير بالجميع، وإذا جفت الأرض حل القحط في بطون الجميع. لا يمكن أن تمطر على القلعة لترتوي وحدها. سأخرج حينها حاملا سيف جوعي لتحويل مجرى السحاب إلى بلد لم تكن لتبلغه إلا على جثتي.

جوع الوديان والجبال يحاصر القلعة والقلعة تحاصرها بدورها. لا يمكن أن يخص الخير بعضا دون بعض، ولا أن يخص الجوع بعضا دون بعض. الخير للجميع والجوع للجميع. والمساواة في العدل أو في الظلم عدل.

أرسلت القلعة ثلاثة من العسكر للبقاء في بيته لمساعدتها في الإنفاق عليهم حتى يدفع البواقي المتأخرة من الضرائب. يواظب على دفعها بإخلاص يزيد عن إخلاصه لأبيه وأمه. لكنه عجز في الأخير عن إشباع جوعه. كيف سيفعل بهولاء العسكر؟ كيف له أن يطعمهم وأن يشتري لهم القات وأن يوفر لهم الراحة اللائقة بأهل القلعة في بيت نسي شكل الطعام ولون النقود.

أمسكوا به صدفة في الطريق بحيث لم يجد متسعا من الوقت لتجنبهم. يعرف أنهم لا يهتمون بدفع البواقي بقدر ما يهتمون بالحصول على ما يعيشون به بضع أيام حتى يرسلوا إلى بيت آخر للحصول على مدد جديد. ليس مستعدا للعب هذه اللعبة السمجة معهم. حاله من الوهن والضيق بحيث لا يجد في نفسه الرغبة لفعل أي شيء. لا يريد أن يكون بطلا يقاوم القلعه بوهنه ودمه الذي يفور في العروق. قابل هذه المفاجأة غير السارة ببرود. ليس في بيته ما يسد رمق قط. إذا دخلوا البيت احتلوه وأخربوه حجرا حجرا وأحرقوا أخشابه ونثروا ترابه في الهواء. لا. لن يمكنهم من بيته أبدا. عرض عليهم أن ينفق عليهم في مقهاية القلعة. أذهلهم الخبر. لا يوجد في هذه الأيام من يتمتع بهذا الكرم الحاتمي حتى مع عسكر القلعة. هذا أسعد حظا من الذهاب إلى بيت لا يوجد فيه ما يغري بالبقاء. بيوت المزارعين هذه الأيام مقابر مفتوحة لا تجد من يهيل التراب على الميتين فيها قبل أن يلفظوا أنفاسهم بقليل. بدا لهم هذا أسعد اقتراح سمعوه في هذه الأيام المدبرة. أيام عجاف لا يليق بعسكر القلعة أن يدخلوا خلالها بيوت المزارعين، بل ينبغي أن ينفقوا عليهم في قلعتهم بما يحفظ عليهم غطرسة يوشك الجوع أن يمرغها في التراب. قال أحدهم:

- ربما خدعنا.

- أين سيهرب منا. سنجده مثل غيره من الأوغاد حتى لو هرب إلى عين الشمس الحامية.

ذهبوا إلى المقهاية والبشر يترقرق من وجوههم، وطلبوا رطلين من اللحم الغنمي المسلوق بالمرق والبهارات. وفتة بر بالمرق، وحلبة وسحاوق. مضوا يتحدثون بوله عن هذه الوجبة الدسمة وذئب الجوع يعوي في أحشائه. عرض أن يذهب للمجيء بالقات ليعود لتناول الغداء معهم. فكرة راقت للجميع. بعد وجبة دسمة في زمن المجاعة يحتاج المرء إلى جلسة قات محلقة ليكتمل نعيم الدنيا والآخرة. اشترطوا عليه أن يحسن اختيار أغصان القات،

وأن يعود في وقت مناسب وإلا خسر نصيبه من هذه الوجبة. يعرف أنه سيخسر أي نصيب في أي شيء. نصيبه الخسارة دائما. الهرب ملازم له في كل شيء. الهرب من النعيم والهرب من المواجهه. لا يقوى سوى على الهرب. وعدوه إذا دفع ما يكفي من النقود أن يكافئوا كرمه بأن لا يأخذونه إلى القلعة لتسليم البواقي.

- سيرسلون غيركم وسادفع لهم كما دفعت لكم. هذا ليس بحل.

غادرهم عائدا إلى بيته مسرعا. ما أن دخل من الباب الخارجي الأمامي حتى أغلقه بإحكام واختبر قدرته على مقاومة الطرق والضرب والتكسير. كل شيء يغريه بالتمرد. يعيش وحيدا كالعفريت المتوحش. لا زوجة ولا أطفال، ولا بقرة ولا حمار، ولا مسئولية ترغمه على الرضوخ. حتى قطه الأرقش ذو الرأس المكور كرأس صميل متشرد ينتزع طعام يومه من كل البيوت والوديان والكهوف البعيدة. وحيد كالقلعة. غريب يقاوم غرباء. اهرب تسلم. في الهرب السلامة. لا. لن يمكنهم من القبض عليه أيا كانت الظروف. سيتبخر في هواء السفوح المحيطة حتى لا يجدون له أثرا. بيته مكون من أربعة طوابق حجرية. إذا اضطر سيبقى في كل طابق حتى يخربوه، وعندها سينتقل إلى الطابق الذي يليه. سيكر ويفر معهم حتى تنتهي هذه المطاردة بالموت أو بالحياة، لا فرق. سيرغمهم على التفتيش عنه تحت كل حجر، وداخل كل ذرة تراب، وبين أوراق الشجر الجافة المبعثرة تحت شجر أحرقها القحط اللئيم. لماذا لا يتلمذ على قطه الأرقش المتشرد ولو لبعض الوقت. لماذا لا يكون قطا يخربشهم بمخالبه وينفخ فيهم بصوته الجريء. لا ضرائب على القطط. سيقول لهم إنه قرر أن يكون قطا أليفا أو وحشيا إذا اقتضت الضرورة. لا سلطة على القطط ولا على الفئران. صحيح أن قطط أرض المجاعة ليست سمينة، وحياتها متشردة، لكن لا أحد يطالبها بالبواقي. حالها أحسن من حاله. سينضم إليها، سيطلب جوارها وحمايتها. لا قلعة تشرد القطط، ولا أمير ولا عسكر ولا شاوش. هذا يناسبه.

سرى الإنشراح في صدره لهذه الفكرة. الأمر واضح في مخيلته. لا يملك سوى التراب الجاف المحروق بشوق لا حدود له لقطرات مطر تبلل الشفاه العطشى. لا زكاة على التراب. لن يستسلم. ماذا أفاد المستسلمين استسلامهم. باعوا أرضهم بثمن بخس دون أن يأمنوا مكر القلعة وذل الجوع. يودون لو يبيعون أطفالهم. لديهم فائض من الأطفال يكفي لهم ولغيرهم. لا أحد يطمع في شراء الأطفال حتى القلعة. وحتى لوقبلت فهو لم يتزوج بعد وليس لديه أطفال ليبيعهم. هذا لا يحل أزمته. التشرد أقصر الحلول وأيسرها. حرية التشرد أدعى للإطمئنان وراحة البال. فليفعل العسكر ما بدا لهم. ولتخرج القلعة كلها بقضها وقضيضها للبحث عنه. ضائع في بلاد الضياع. حين تزدحم الأفكار والهواجس في رأسه يفكر في الهرب. ليس مثله ترياق يشفي من الأرق والكوابيس.

أطرق في مجلسه المعتاد بالطابق الرابع من منزله ينظر إلى القرية تحته وإلى القلعة. حول نظره عنها إلى بيت زهرة. تتردد نظراته بين تلك الأماكن الثلاثة بمشاعر متضاربة تتراوح بين الضيق والكراهية واللوعة الحرى. تنهشه الحسرة والألم من المصير الذي انتهى إليه حبه الكبير. حول نظره إلى لا هدف. يحاول طرد الأفكار المضطربة التي أثارها فيه طيف زهرة في هذا الظرف المزعج. لا يجد ما يكسر به صمت الأفق سوى شيء من صفاء داخلي شفيف يشوه فيه ذكر الهرب. لا تجد مشاعره ما تستقر فيه وترتاح سوى مشهد العسكر يبحثون عنه فلا يجدونه. استسلم لهذا الشعور راضيا. كأنه طفل تائه عاد إلى حضن أمه الرحيم. أخلد إلى النوم في اطمئنان عميق.

موقع البيت موات لمثل هذا الظرف. أعلى بيت في القرية المنزرعة بيوتها في أعلى مرتفع من الجبل. بابه الرئيسي ينفتح إلى منتهى الطريق الذي يربط بين بيوت القرية ويربطها بما دونها. الطابق الأسفل منه غارق في أشجار الموز والباباي وأخشاب الطنب والثعب. توشك هذه الأيام أن

تجف من أثر القحط بعد أن سقطت أغلب أوراقها وإن كان ما يزال هناك بقية تكفي للإنزراع بينها بحذر عند الهرب. لا يعرف أن له بابا خلفيا إلا القليل. وهذا الباب ينفتح إلى سفح لا يشاهد من جانب القرية ولا طريق إليه إلا من داخل الأراضي المملوكة المسورة. متاهة صغيرة كأنما صنعت خصيصا لمساعدته على الكر والفر بأمان.

استيقظ في الصباح بعد ليلة هانئة من نوم عميق لم ينعم بمثله منذ عاد من عدن. ما كاد قرص الشمس يصعد نحو سماء جرداء لا تلطخ زرقتها ذرة من سحاب حتى شاهد خمسة من العساكر يغذون السير نحو بيته كأنهم ذاهبين إلى معركة مصيرية يتحدد بعدها مصير الحرب والسلام. ظل يراقبهم من مكانه بهدوء وطمأنينة. لا يحس بمثل هذا الإطمئنان إلا متى غادر منطقة التردد ووطد العزم على أمر جلل. لا وقت للتردد. اللحظة للثبات وحسن التدبير. وصل العسكر إلى باب البيت وهو قابع في مكانه لا يتزحزح، يشاهدهم دون أن يروه. نادوه لم يجب. واصلوا النداء ساخرين تارة وغاضبين تارة أخرى. بدءوا بشتمه علهم يستفزونه، دون جدوى. لم يكونوا متأكدين من وجوده. بدأوا الضرب بطبان بنادقهم على باب بيته لكسره واقتحام البيت. الباب صامد لا يلين. عازم على مقاومتهم هو الآخر. بدأوا بالضرب واحدا واحدا. كلما كل أحدهم واصل الآخر. يضرب كل منهم قدر ما يستطيع والباب لا يتزحزح. انقسموا إلى مجموعتين، مجموعة تضرب والأخرى تستريح، والباب يتبسم ساخرا. اعتلى الأهالي سطوح منازلهم لمشاهدة ما تسفر عنه معركة من طرف واحد بين طبان بنادق العسكر والباب المصنوع من خشب الطرح السميك. يعرفون أن أحمد لا يتراجع لكنهم غير واثقين من أن تصميم الباب على المواجهة أو الهرب بقدر تصميم أحمد. قال أحد المزارعين لأمين القرية:

ـ أخشى أن يصطدم بهم ويرتكب جريمة أو يضطرهم لقتله.

رد الأمين ساخرا:

- سيفعل كما فعل من قبل. سيهرب ويتركني أواجه نتائج جنونه.

- الهرب أرحم من دفع البواقي في سنة الجوع. لا يكلف الله نفسا إلا وسعها.

كل العسكر من الضرب. بدأو يجمعون الحجارة ويرجمون بها النوافذ. أقرب نافذة تسمح بدخول إنسان منها تقع في الطابق الثالث، وبعيدة لا يستطيع أحد الوصول إليها. حاولوا التسلق فلم يتمكنوا من تجاوز الطابق الأول. كلما ألقوا بحجر إلى الأعلى عاد نحوهم. ظلوا يبذلون محاولات جادة لاقتحام البيت دون جدوى. لا يجسرون على إطلاق رصاصة. الرصاص مكلف، إذا أطلق على بيت هارب لا أحد يضمن استعادة ثمنه. انسل أحمد بهدوء خارجا من الباب الخلفي دون أن يشاهده أحد ودون أن يتأكدوا من وجوده بالدار، تاركا لهم مواصلة محاولاتهم الفاشلة. كلف باب بيته بردهم نيابة عنه. قرأ في سره ﴿ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها.﴾. ضاع في هدأة السفوح وامتداد الجبل. حيوان أليف في مرعى فسيح لا يحيط به أحد. أطلق لقدميه العنان يمشي كالمسرع ويقفز كالمطارد دون أن يحس أن أحدا يلاحقه. يسابق الوبر والغزلان والأرانب في جريها، ويتوقف عند كل منعطف وتحت كل أكمة. يرتاح قليلا ويواصل العدو. انغرز في رحم الوادي، وغرق في عطش غابة أشجار البن الباسقة التي تغطي الوادي من أسفله إلى أعلاه.

عاد بعد مرور الساعات الأولى من الليل. تسلل بهدوء كقط يعرف طريقه نحو مكمنه. اقترب من البيت ينصت إلى ما قد يكون حدث في غيابه، ليتأكد من أنه ما يزال في مكانه. لا حركة. لا صوت. لا همس. لا شيء يثير الريبة. كل شيء يثير الخشية والحذر في النفس. هذا هو اليوم الأول لهذه المواجهة المثيرة. معركة تاريخية حاسمة بين وطواط أعزل إلا من الليل وقلعة مدججة بالعسكر. القلق يعلو على كل شعور في داخله. يخشى أن ينصبوا له كمينا حاذقا. انتظر متسمرا في مكانه

كجذع شجرة جافة. لا يتحرك. لا يتنفس. عاود الإقتراب بحذر شديد. ينبغي أن لا يقع في الفخ بسهولة وسذاجة. لا يريد أن يكون أرنبا في جلد نمر. لن يرحموه إذا وقع في أيديهم لقمة سائغة. الباب الخلفي موصد كما تركه. اقترب منه وهو في حال الإستعداد للهرب من جديد عند أية مفاجأة. توقف بجانبه ثابتا للحظات علّه يتأكد من الأمر. تحسسه بهدوء في سواد الليل. لا يرى شيئا من شدة الظلام. تناول المفتاح الخشبي من حزامه. تردد قليلا قبل أن يولجه في ثقب الباب. ثم أدخله بحذر. توقع أن تنهال عليه طلقات بنادق العسكر عند أول صوت لقعقعة الباب القديم. صوت الباب يصم أذنيه. دفعه فجأة نحو الداخل واندفع مستعدا للمواجهة. أسرع بإغلاقه ويداه ترتعشان وقلبه يخفق بقوة. تمالك نفسه للحظات وسيطر على أنفاسه التي تعلو وتهبط بسرعة. أجال نور الكشافة في زوايا الطابق الأسفل لاستطلاع المكان. أجال بصره هنا وهناك. أقبل نحوه قطه الأرقش المتشرد الذي يدخل ويخرج بحرية يحسد عليها. تمسح القط الوفي بأذياله كأنما يرحب به. تأكد من أن الباب الأمامي موصد بإحكام لم يؤثر فيه ضربهم المتواصل. أحس عندها بألفة المكان وبأنس لا حدود له لوجود قطه المتشرد بجانبه في هذه اللحظة العصيبة. طرب كما لم يطرب من قبل للموسيقى الحالمة التي عزفها وهو يتمسح بساقيه. صعد إلى مكان المجلس والقط يرافقه كأنه حارسه الشخصي. يحس بحالة غير عادية من الشعور بالإطمئنان والهدوء. فتح النافذة وألقى نظرة على القرية. الظلام يلفها حتى لا يرى منها شيئا. الظلام يلف القلعة أيضا. يلف الجبال والسفوح والوديان. لا يرى سوى بصيص نور خافت بعيد في بيت زهرة. الصمت يملأ المشهد كله. لا يسمع حتى صرير الصراصير ولا فحيح أفعى ولا نقيق ضفدعة. الصمت سيد المكان. أغلق النافذة وتناول جهاز الراديو مديرا قرصه من إذاعة إلى أخرى ليتغلب على شعوره بالعزلة والوحدة. أسرع القط بالخروج عند

سماع أول صوت للراديو وقد أزعجته أصوات هذا الجهاز، منصرفا لعمله المعتاد في تنظيف البيت من الفئران والحشرات والأفاعي. واصل أحمد تحريك قرص الراديو من إذاعة إلى أخرى بحثا عن شيء لا يعرفه أو عن لا شيء. مر بإذاعة صنعاء. لعن وشتم وبصق وقد أصابه ذعر لسماع نعيقها تسبح وتقدس أمير المؤمنين. لم يعد إلى هدوئه إلا حين توقف على إذاعة لندن التي اعتاد سماع نشرات أخبارها وبرامجها بانتظام منذ أن بدأ الإستماع إلى الراديو.

واصل لعبة الكر والفر مع القلعة بعد أن اعتاد عليها بسرعة لم يكن يتوقعها. أصبحت لعبة مسلية لا يدري ماذا سيفعل بعدها إذا انتهت على خير. ينسل بهدوء من الباب الخلفي تائها في السفوح والوديان أو يزور قرى بعيدة لا يعرفه فيها أحد، يتسكع بلا هدف سوى تجنب الوقوع في الشباك المنصوبة. أحيانا يغير وجهه أو رأسه أوسحنته، أويغير جسده أوثيابه ليخفي ملامحه أو ليحجبهم عن عينيه حتى لا يتعرف عليه أحد، وتارة يغير لحيته وشاربه وأنفه أو أذنيه أو فمه، لكنه لا يغير عينيه أبدا. يعتمر عمامة فقيه أو كوفية طفل أو ظلة من تلك التي تحمي الرؤوس من أشعة الشمس. يسبل ثوبه حتى يلامس الأرض، أويلفه بحزامه حين يسلك الطرقات الوعرة، أو يلبس ثيابا قصيرة تبدي أكثر مما تخفي، ويمشي وفي يده صميل غليظ مكور الرأس حتى يبدو في هيئة قاطع طريق. اكتشف أنه يملك موهبة لا تبارى في التخفي وبالأخص في إخفاء ملامح وجهه بسهولة أذهلته. يستمع أحيانا إلى ضربات طبان البنادق على باب بيته وهو متكيء في مكانه المعتاد من مكان المجلس دون أي هلع أو انزعاج. يدعهم يواصلون ضربهم على خشب الذرح السميك الصلب الذي صنع الباب منه دون أي اكتراث وكأن الأمر لا يعنيه. أصبحت ثقته العمياء بقدرة الباب على صدهم أكثر مما ينبغي. لكن العسكر تكيفوا مع هذه اللعبة وأصبحوا يلعبونها على طريقتهم بعد أن

يئسوا من إمكان القبض عليه، ويئسوا أكثر من فائدته لهم. لن يجـدوا مـا يكفي للإنفاق عليهم عند مزارع فقير متشرد ومشاغب. لا يملـك شيئا يعطيه لهم. وحتى لو دخلوا البيت لن يجدوا فيه شيئا. قرروا عندها تـلزيم القرية بالإنفاق عليهم حتى يسلم نفسه. هذا وضـع يناسبهم. لـن يسـلم نفسه بسهولة. عندها تتعاون القرية على إعالتهم في هذا الزمن الكالح، أو تقوم بمهمتهم في القبـض عليـه وتسـليمه إذا أرادوا التخفيـف مـن عبئهـم الثقيل. هكذا يجد كل لاعب في هذه المطاردة المسلية مـا يناسبه. لم يعـد يهم العسكر كثيرا أتى أم ذهب. سلم نفسه أم هرب. أما هـو فقـد ازداد حذره عما قبل وخشيته من أن يقع في المصيـدة بعـد كـل الـذي جرى. انقطع عن الذهاب إلى المسجد لأداء الصلاة أحيانا واستطلاع الأخبار في الأوقات التي لا يحتمل أن يكون العسكر بالقرب منه. قطع الحبل السـري الذي يربطه بالناس وأكثرهم تربطه بهم قربى نسب أو صداقـة. بعضهـم شجعوه وأعجبوا بتصرفه وشجاعته. وبعضهم يأخذ عليـه مـا سـبب لهـم من مشاكل وغرامة في أوقات صعبة. والقليل منهم نصحه بتسـليم نفسـه للقلعة. ألسنة الكثيرين تتغنى بشـجاعته وسـرائرهم تتمنـى أن يستسـلم مثلهم، وأن يريحهم من هم مطاردته. وحتى أولئـك الذيـن كـان يظنهـم أصدقاء له ويذهب خلسة لقضاء بعض الأوقات عندهم بعيدا عـن القلعـة وعسكرها، أحس أنهم يتمنون أن لا يأتي في وقت المواجهة مـع القلعـة. قـد يعـرف العسـكر فيطاردونـه إلى عندهـم وحينهـا سـتتعرض بيوتهـم للنهب. لن يرحموهم أبدا. سيظلمون مرتين، مرة بدفـع البواقـي وأخـرى بسبب مساعدتهم له. لا يجرؤون على البوح بما في نفوسهم لكنـه يحس بما فيها من نظرات عيونهم التائهة ومن كلماتهم المتلعثمـة. الجـوع قـاتل للشجاعة. والظلم قاتل للمـروءة. الخـوف مـن أن يوصمـوا بعـدم الوفـاء يمنعهم من البوح. لكـن الجميـع شـكوا إلى القلعـة مـن تـلزيمهم بشـخص متمرد على الجميع. قالوا إنهم لم يحرضوه على التمرد وإنـه لم يستشـرهم

ولا أخذ رأيهم، وإن القلعة أقدر منهم على القبض عليه وإراحتهم من أذيته. قال الأمين:

ـ نحن نبرأ منه ونطلب من القلعة أن تنصفنا منه. سبب لنا المتاعب. ليست المرة الأولى التي يتمرد فيها ونتحمل نحن تبعات تمرده.

واصل الأمين شكواه باسم القرية مستشهدا بالآية القرآنية ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾. لم تفدهم شكواهم شيئا. فقد ألقي بهم جميعا في السجن. فرح الشاوش لسجنهم لكن العسكر حزنوا لأنهم سيضطرون للإنفاق على أنفسهم في انتظار فرص أخرى يرسلون فيها إلى بيوت المزارعين للحصول على تغذية مجانية. أما الشاوش فقد بدأ يحسب المبالغ التي سيحصل عليها منهم لقاء سجنهم وعند خروجهم من السجن.

وأحمد في حيرة من أمره. كان همه أن يتزوج زهرة. أصبح همه الآن أن يخرج من هذا المأزق المستعصي على الحل. لا يستطيع أن يهرب هذه المرة إلى عدن. أصبح هاربا مطاردا مرتين، في قريته وهاربا مطاردا من عدن. الحياة كلها تطارده. القحط يطارده والسجن يطارده أينما ذهب. والوحدة القاتلة تطارده. والعزله عن الناس تطارده. والحاج حيدر وحسين النشم يطاردانه ويتمنيان أن يزج به في السجن حتى يأمنا من شره. يخاف وشايتهما أكثر مما يخاف العسكر. العسكر غرباء لا يعرفون مداخل القرية ولا مخارجها. يصعب عليهم أن يكمنوا له في الأماكن التي يتوقع أن يمر بها، في حين أن الحاج حيدر وحسين النشم يعرفان القرية شبرا شبرا. تعاونهما مع العسكر يغلق عليه كل المنافذ. زادت هذه الخواطر من حذره وشكوكه. زادت حركته صعوبة، وأصبح اقترابه من بيته متباعدا وفي الأوقات التي يكون كل الناس قد ناموا وشبعوا نوما وشخيرا. تحول إلى وطواط عصي على الإمساك. ينام النهار ويتحرك في الأوقات المتأخرة من الليل. يخاف من العسكر ومن ضوء الشمس والقمر ويتحد بسواد الليل البهيم في حركته الدائبة بلا قرار. غريب في أرضه وداره. أينما توجه في سواد الليل تراءى له

وجه زهرة الجميل ينير طريقه في غياهب الظلام، ويشجعه على المضي حتى النهاية. من أجلها يرغب في مهادنة العالم كله لكنهم لن يسمحوا له بالإقتراب منها. كلما زادت وحدته وعزلته زاد تعلقه بها. بسمتها الخجولة سلوته في ليالي الضنى والمطاردة. من يضمن له الظفر بها وهو مستعد لكل ما يطلبون منه. قسوتهم تهد الصخور فكيف بإنسان من لحم ودم. يحس أنه شاخ وهو ما يزال في مقتبل الشباب، وأن شيخوخته سبقته قبل أن يولد. لو تركوه وحاله لعمل بالزراعة وانتج له وللقلعة. لو نظروا إلى أبعد من أنوفهم لعرفوا أن من مصلحتهم أن يزرع له ولهم. هربه يخسرهم واحدا ممن يطعمونهم. جوعه جوعهم. اللعنة عليهم جميعا.

لم يعد يأوي إلى بيته كل ليلة. فضل النوم في أغلب الليالي في أي مكان بعيد يأمن فيه على نفسه. تارة في محراس شبه مهدم عرض الجبل، وتارة أخرى في نوبة صغيرة على صخرة ضخمة نزلت قبل قرون مضت من الجبل واستقرت في جوف الوادي وسط غابة البن. وأحيانا ينام في مسجد مهجور قريب من أعلى الوادي. قرر بعد أن ضاق الخناق به أن ينام في كل مكان يأمن فيه على نفسه. وحين يكون المكان الذي يقصده نائيا يقضي ليله سائرا إليه لساعات ليقضي نهاره كله نائما. يختطف ما تيسر من غذا في الفجر ثم يعود للنوم. لا يطيق البقاء لفترة طويلة بلا حركة وبلا سفر من مكان إلى آخر. يعرف أن هذه نقطة ضعفه التي قد تودي به للوقوع في أيدي العسكر ولكنه لا يستطيع البقاء بعيدا عن بيته وعن زهرته لفترة طويلة. يقضي ليله في حالة حركة دائمة لا يستقر. يمشي أحيانا ويقفز أحيانا من مدرج إلى آخر، ويجري ما استطاع. لكنه لا يتوقف إلا حين ينام أو يأكل أويقضي حاجة. يؤرقه أن الناس مستسلمون بقدرية عبثية. يرزحون تحت كل ظلم كالمخدرين بلا انقطاع. لا يتساءلون ولا يرفضون ولا يقبلون. يستمع البعض منهم لإذاعة صوت العرب، ويتحدثون عن نعمان ويرددون ما يصلهم من شعر الزبيري لكنهم لا

يحركون ساكنا. وإذا هرب أحد لاموه لأنه يسبب لهم ما لا يطيقون من المتاعب مع أن حياتهم كلها متاعب لا مجال لزيادتها. يتساءل دائما ماذا لو هربوا وتركو القلعة بلا مزارعين ينفقون عليها؟ ربما أرغموها على تغيير أساليب معاملتها لهم على أمل أن يعودوا لإنقاذها من المجاعة. وربما هربت القلعة مثلهم بحثا عن لقمة العيش.

ألحت عليه هذه الأفكار طوال ليلة قرر أن يقضيها في بيته بعد أن هجره لبضع ليال متوالية. منعه الأرق من النوم وأضناه التفكير بورطة لا يلوح له منها مخرج. وصل في وقت متأخر من الليل إلى البيت مسافرا إليه من مسافة بعيدة. البقاء في البيت يقتضي أن ينام قليلا ويستيقظ مبكرا لمغادرته قبل أن ينتبه لخروجه أحد. حاول النوم دون جدوى. هامت طيوف أفكاره بكل شيء. تراءت له حياته كلها وأغلبها مر ومزعج لدرجة جعلته يستغرب قبوله بمواصلة هذه اللعبة السمجة التي يسميها حياة. لم ينقذه من هذه الأفكار سوى ذكريات حميمة غابرة لا يبدو أنها ستتكرر أو تعود. دهمه النوم على حين غرة عند أول ضوء للفجر في وقت ينبغي أن يغادر فيه إلى مهرب آمن بعيد. لا أحد هناك ليوقظه. حتى قطه الأرقش الوحشي المتشرد لم يكن هناك ليتمسح به ويعزف موسيقاه الحالمة الجميلة علّه يوقظه وينبهه إلى أن الخروج قد تأخر أكثر مما ينبغي. طالت غفوته على غير عادة. استيقظ في ظلام المكان مغلق النوافذ دون أن يحس بأن الوقت قد تأخر. أدار قرص الراديو بلا اكتراث. حين مر عرضا بإذاعة صنعاء، التي لا تذيع شيئا في الصباح والتي لا يتوقف عندها في العادة، فاجأته مفاجأة هزت كيانه من الأعماق بحديثها عن قيام الجمهورية. لم يصدق ولم يستطع في البداية تبين حقيقة ما سمع. انتفض واقفا. أعاد الإنصات باهتمام إلى ما تقول وجسده كله يرتعش من هول المفاجأة. الصوت يغيب فيكاد قلبه ينهب معه. يعود فيتمسك به وينشد إليه يتوسله أن لا يغيب ثانية. يريد أن يتأكد مما حدث.

ارتبك. يمضي من طرف المكان إلى طرفه المرة تلو الأخرى في اضطـراب. انتابه إحساس غريب. حائر بين الشك والتصديق. بين الحلم والواقع. بين اليأس والتفاؤل. يا لله رضاك. أهذا حلم أم حقيقة. يحاول التأكد من أنـه لا يخرف بعد هذه المـدة مـن المطـاردة اللعينـة. سـرت في جسـده موجـة عارمة من الإنفعال. شيئا فشيئا بدأت المسافة بـين الحلـم والواقـع تضيـق وتتضاءل. بدأ الشك يتبدد شيئا فشـيئا كلمـا واصـل الإسـتماع لصـوت الراديو. لم يستمع في حياتـه لصـوت المذيـاع بهـذا الشـوق والإنفعـال. كانت إذاعة صنعاء في نظره إذاعة تافهة تستحق أن يبصق عليهـا ويحـول قرص المذياع عنها. واليوم يحتضن الراديو ويقربه من قلبه ويتمسك به في اشتياق ولوعة خوفا من ضياع صوته. يتوسله ويستغيث بـه أن لا يغيـب ويتركه في حيرته وتشتت ذهنه.

يقفز من مكان إلى آخر داخل المكان ويمشي من طـرف إلى آخـر لا شعوريا وكيانه كله مشدود إلى صوت المذياع وهو يواصل الحديث عـن الجمهورية بين كل نشيد وآخـر مـن أناشـيد ثـورة عبدالنـاصر في مصـر. صرخ بأعلى صوته وكأنه يشارك في مظاهرة تأييد للتغيير الجديد:

ـ حدثت المعجزة.

واصـل البحـث عـن إذاعـات أخـرى للتـأكد مـن الحـدث. صـوت العرب، لندن، القاهرة. تأكد له أن شيئا كبيرا قد حدث. إنه أكثر النـاس حاجة إلى هذا الذي جرى. أول ما فعلـه للمشـاركة في الحـدث أن فتـح نوافذ ديوان مجلسه على مصاريعها بعد أن كانت قد أغلقت دون أمل في فتحها من جديد. رفع صوت المذيـاع إلى أقصـاه ووضعـه في النـافذة بما يسمح بسـماع صوتـه في الجبـل والـوادي. يريـد أن يسـمع الجميـع وأن يستيقظوا من سباتهم الأزلي ليشاركوه فرحه بالخروج من حياة الليـل كالوطواط إلى ضوء النهار. ظن جاره أنه جن وأراد المواجهة النهائية مـع

القلعة. أحس الجار أن أحمد مقدم على كارثة كبيرة لن تقتصر نتيـ
عليه وحده. أطل برأسه من النافذه صارخا:

- أجننت. أغلق النوافذ واهدأ أو سلم نفسك إليهم بلا مقاومـ
داعي للعنتريات وجلب المصائب علينا وعليك. مدبر ومشاغب.

قال الجار هذا وأسرع بإغلاق باب بيته ونوافذه. ترك أحمد المذ
يجلجل في النافذة وواصل تحريك شوكته من إذاعة إلى أخرى بحما
وانفعال وتوتر. تشعله الرغبة في سماع مزيد من الأخبار. وحين يغيـ
الصوت يقرب المذياع من صدره كأنما يحتضنه ليحمي الصوت م
الذبول. ينصت بلوعة. لا يطمئن لسماع الخبر من إذاعة واحدة.
يدرك ما ينبغي أن يفعل سوى تتبع الأخبار. أطل من النافذة. رأى القر
تحت ناظريه هادئة لا تحرك ساكنا وكأن شيئا لم يكن. لا شيء غ
عادي. الوقت قبيل الظهر. لا أحد يعبر عن فرحه أو عن استغرابه و
حتى عن فضوله. لعلهم لم يعرفوا بعد ما يجري بعيدا عنهم. لعلهم م
يزالون حذرين يريدون التأكد من صحة الخبر. ربما اعتادوا على قبول م
يأتي من القلعة حتى لا يستطيعون تصور وعود الحرية. لم يطق البقاء في
مكانه. يريد الخروج لمقابلة الناس والحديث إليهم بعد طول انقطا
قسري. يرغب في معانقتهم واحدا واحدا. سيبشرهم بوعود التغيير
سيدعوهم لأن يتغيروا هم أنفسهم. السكوت في هذا الظرف جريمة
البقاء في خمول بلا حراك عار. لا يستمع إلى أي شيء بتفصيل مما يقول
المذياع. تلح على مسامعه كلمة واحدة: جمهورية. يلتهب بالحماسة.
ترك المذياع يجلجل في مكانه في النافذة المطلة على القرية وأسرع يهبط
درج البيت قفزا. فتح الباب الأمامي لبيته لأول مرة بعد أسابيع من
الإغلاق المستمر. اندفع الضوء ليملأ الطابق الأرضي. لم يلتفت إلى ما
أحدثته ضربات طبان البنادق بالباب طوال الأيام الماضية. يندفع مسرعا
نحو بيت جاره. يهبط الدرجات القليلة بين البيتين بسرعة لم يعتدها من

قبل. يحس بجسده يطير كالضوء الخافت. طرق الباب. لا أحد يرد. الباب مغلق والنوافذ مغلقة على غير عادة في هذه الوهاد الضائعة. الناس أقارب بالنسب أو بالمصاهرة. لا أحد غريب. وحتى لو وصل غريب يجد الأبواب مفتوحة أمامه ويجد الترحاب والزاد والمأوى. ولا يخرج أهل الدار كلهم إلا لأمر خطير. لا يهاجرون ولا ينتقلون من مكان إلى آخر. لا ينتظرون شيئا. حتى الموت يفاجئهم دون انتظار أو يعيش بينهم لكنهم لا ينتظرونه. أطل الجار من نافذة صغيرة في درج بيته قائلا في تذمر:

ـ ماذا تريد؟ تعقل واهدأ وصل على النبي.

رد أحمد بصوت يتهدج من الإنفعال والمفاجأة برد فعله:

ـ ثورة. جمهورية.

ـ تعقل. لا تتسرع. ربما كان هذا كمينا نصبوه لك. صل على النبي.

ضحك أحمد كما لم يضحك منذ زمن.

ـ يا مجنون هذا في صنعاء. اسمع الإذاعات. لازم نتحرك. نحتل القلعة أو نسحقها ونرمي حجارتها إلى الوادي.

ـ أنت دائما متسرع. اهدأ ودعنا نتدبر الأمر بروية. لا تتوقع الخير من صنعاء. لا تدري ماذا يدبر لنا.

فتح الجار باب بيته ودعاه للدخول وأسرع يحاول تناول المذياع وسماع إذاعة صنعاء، دون جدوى. لم يعتد على سماعها من قبل. كرر المحاولات الفاشلة دون أن يفلح. أخذ أحمد منه المذياع وضبطه على صنعاء وأسمعه ما تقول وهو ثابت في مكانه لا يتحرك ولا يبدي أي رد فعل. الوضع مشوش وغامض في ذهنه. يستمع ولا يستطيع الحكم بصحة ما يسمع أو بكذبه. يخشى العواقب على نفسه وعلى أهله. علمته الحياة أن لا يطمئن لأي شيء بسهولة. صب لأحمد فنجانا من القهوة وعاد إلى مكانه ثابتا كالجدار بلا حراك. وثب أحمد واقفا كالملسوع. لا يطيق البقاء صامتا في هذه اللحظة. يرغب في تفجير ما بداخله من مشاعر

حبيسة ومن قهر كظيم. أسرع بالخروج يصرخ ويهتف ويلعن. لم يفهم الناس في البداية ما يقول. نظرت النسوة اللواتي سمعنه يصرخ إلى بعضهن البعض في استغراب. ظنن أنه جن. قال عجوز يجلس بجانب المسجد:

- حركة من حركاته الغريبة المعتادة. كل يوم وله شأن. لا يستقر على حال. أصلحه الله.

صعد على سقف المسجد الجامع. وقف في مكان المؤذن للصلاة وصرخ بأعلى صوته يعلن للناس أن كل شيء انتهى، ويدعوهم إلى سحق القلعة. ارتقى الصبية سطوح المنازل وانتشروا في الطرقات يستمعون إليه. أما الرجال والنساء فاكتفى بعضهم بالإطلال من النوافذ لسماع صراخه العجيب. أرسل إليه الأمين من يأتي به إليه، لم يقبل دعوته. قالوا له:

- الدنيا مربوشة ولا داعي للإستعجال. تبين الأمر قبل أن تزج بنفسك في مغامرة جديدة لا تدري ماذا تجلب عليك من مصائب.

قالوا له إن القلعة تقول:

- هذي قصة سخيفة لفقتها إذاعة صوت العرب والزبيري ونعمان.

لم يكن مستعدا لسماع أية نصيحة. يريد أن يطلق ثورته الحبيسة في الطلوع. ثورته العارمة التي تجتاحه منذ سنين دون أن تجد متنفسا. لو صح ما يقولون لقام بثورة خاصة به تستنقذه من أيدي العسكر والقلعة. لن يهرب منهم بعد اليوم. جاء دورهم في الهرب. هكذا حال الدنيا. يوم عليك ويوم لك. هذا يومه. هذا يوم يطارد فيه مطارديه ويقفل قلعتهم إلى الأبد. لن يبقي لها أثر ولا ذكر. من الآن وصاعدا لن يكون أحمد الهارب. سيكون أحمد المغامر. واصل الصراخ نازلا وصاعدا في الشارع الوحيد الذي يربط بين بيوت القرية من أعلاها حتى أسفلها. التف حوله الأطفال. جمعهم ونظم صفوفهم في مظاهرة. وقف في مقدمتهم يصرخ بالهتاف ويشير بيده إليهم كي يرددوا معه. يقف كالمايسترو أمام فرقته

الموسيقية بعزف سمفونية أثيرة إلى نفسه. والأطفال يرددون في مرح لا علاقة له بصرامة ملامحه وحديثه وبريق عينيه الذي يقدح شررا. أثارت ضحة الأطفال هرجا ومرجا في القرية. زاد التساؤل. الناس بين مصدق ومكذب ومنتظر انجلاء الموقف. بعض العجائز لا يحسنون نطق اسم الجمهورية فينطقونها (جمروكية) أو (جهرومية). انفجر أحمد غاضبا صارخا في وجوههم:

- ابذلوا على الأقل جهدا في سماع الإسم ونطقه. اللعنة عليكم وعلى القلعة التي أغلقت عليكم الأبواب. سجنتكم في سجن يمتد من طرف البلاد إلى طرفها. أقسم با لله أنكم تستحقون أن تسحق بيوتكم وتقذف بحجارتها إلى الوادي وتشردكم في كل الآفاق. ربما تحركت عندها هذه الكرات المنفوخة فوق رقابكم. تقبعون كالبلهاء وتستسلمون كالنعاج الميتة.

اعتادوا أن يكونوا عبيدا للأرض وللسماء طوال العام. ظهورهم منحنية تعمل في الأرض دائما، وأبصارهم شاخصة إلى السماء تنتظر المطر. بدون المطر تصبح عبودية الأرض عبثا لا طائل من ورائه. يقضون وقتهم في التردد بين البيت والأرض، والمسجد والأرض، والقلعة والأرض. يحرثون، يزيلون الأعشاب والحشائش، ينتظرون المطر والعسكر وبزوغ الزرع من بين التراب، يصارعون العقب والدود والآفات الزراعية والعسكر، ويتصارعون مع الهوام والطيور خوفا على المحصول قبل نضجه، ويصارعون القردة والقلعة بعد الحصاد. أجسادهم منشورة على الأرض، وعيونهم زائغة تذود أعداء الزرع من كل نوع، وأكفهم متصلبة من مناجاة السماء كي تسخو بالمطر، وأقدامهم ممدودة إلى سجن القلعة. الأرض من أمامهم وطوفان الدود والحشرات والآفات من خلفهم، وفم القلعة مفتوح حتى أقصى شدقيه يلتهم ما يزرعون. حيوانات خرافية تكد بصمت اسطوري تسير بلا هدى نحو جوف غول مرعب يترصد كل السبل. ليس أمامهم إلا الجوع والقبر. وأحمد يريدهم أن يتغيروا

بأسرع من لمح البصر. أن يخرجوا من سرابيل تاريخ وحشي ملطخ الأنياب والأظافر بدمائهم الغزيرة المسفوكة على كل الطرقات والجدران. أن يقفزوا إلى عالم مخملي لا وجود له إلا في مخيلته وفي المذياع الذي لم يعد قادرا على سماعه بانتظام. لم يسألهم أحد رأيهم في هذا العالم الجديد، ولم يشركهم أحد في قرار دخوله. يقول لهم لم تعودوا رعية. أصبحتم مواطنين. يخترع الأسماء من نفسه ويصدر القرارات وكأنه صاحب الأمر. والقلعة ما تزال جاثمة فوق صدر الجبل. والأرض ما تزال هي الأرض. من يقنعها بأن تحتاج إلى عمل قليل ومطر أقل؟ من يقنعها بأن تغير نفسها بنفسها وتتخلى عن استعباد المواطنين؟ من يثور عليها؟ من يقنعها بان تجمهر؟ من يقنع العصافير والدود والآفات والقرود بأن تتخلى عن جشعها وتترك ما يزرعون.

أضفت مشاركة الأطفال في اللعبة جوا من المرح الذي طغى على صرامته وتبرمه من لامبالاتهم، لكن الجو ظل قلقا مشحونا بالتوتر والترقب والإنتظار. لم يجدوا من وسيلة لإسكاته سوى دعوته للنقاش في منزل الأمين. أجاب الدعوة بسرور لأنها تتيح له فرصة الإجتماع بهم بعد طول غياب. أحس بالألفة والسعادة لوجوده بينهم. حاول الأمين سد فمه عن الحديث المتدفق في حماسة بإعطائه أفضل غصن قات طالبا منه أن يمضغه في هذه المناسبة السعيدة. رد ساخرا في مرح ظاهر:

ـ أظن أن هذا العشب هو رابطة النسب بينكم وبين النعاج. لهذا لا استغرب استسلامكم ولامبالاتكم.

أجاب الأمين بابتسامة عريضة:

ـ بطل الجنان. انتظر ما تبدي لنا الأيام.

ـ جربوا الجنون ولو مرة واحدة في حياتكم. اتبعوا جنوني تأمنوا من القلعة الجاثمة فوق صدوركم مثل ملك الموت.

ـ اهدأ حتى تتضح الأمور.

- خنوعكم لا يرضاه إنسان لنفسه.

- مشكلتك أنك لا تفعل كما يفعل الناس. تقفز قبل أن تتأكد من أن الأرض صلبة تحت قدميك.

تواصل الحديث في مرح ومزاح متواصل. وأحمد يقرع رضوخهم وهم ينتقدون تسرعه وعدم ترويه، دون أن يضيقوا بتقريعه لهم أو يضيق بانتقادهم له. وجدها مناسبة لدعوتهم إلى مظاهرة حاشدة صباح الغد لسحق القلعة وتحويلها إلى مدرجات لزراعة الذرة والبن. اقترح أحدهم أن يزرعوها بأشجار القات. رد آخر مقترحا أن تزرع بالبسباس أوبالمشاقر. كانوا يتحدثون ظانين أنه يمزح. لم يعرفوا في حياتهم مظاهرة ولا اعتراض. لم يفتحوا أفواههم إلا للأكل والشخير ومضغ القات دون أن يصفقوا ولو لمرة واحدة.

بدأ من فوره يرسم في ذهنه الخطط لزحزحتهم من أماكنهم المسمرين إليها بألف أمير مؤمنين وألفين قلعة وثلاثة آلاف شاوش وأربعة آلاف عسكري. طاف بالقرى يبشر الناس بنهاية القلعة والجراد وبقاء الذرة في حقولهم. وعدهم بحفر قبر للحمى في أرض القلعة بعد سحقها. والناس يبتسمون في وجهه كالنائمين أو كالبلهاء. ظل طوال الليل يستمع إلى إذاعات صنعاء وصوت العرب ولندن، دون أن يستمع إلى شيء محدد. ينقل قرص الراديو من إذاعة إلى أخرى وكأنه يفتحها ليستمع إليها غيره. ذهنه مشغول بتنظيم المظاهرة التي ستدشن مشاركة الجميع في هذا التغيير الذي سمع عنه من المذياع. سيكسيه بلحم ودم بعد أن أطلقت صفارة البداية وبدأ اللعب في جانب محدود من أرض الملعب. ما تزال القلعة تتصرف وكأن شيئا لم يكن، وتشيع أن ما حدث تمثيلية هزلية من تأليف الزبيري وإخراج نعمان وتنفيذ صوت العرب. زاد تصميمه على سحقها. القلعة لا تتغير ولا تتبدل. إما أن يسحقها وإما أن تسحقه. لا حل وسط بينه وبينها. سيندفع الناس إذا نجحت المظاهرة لإحراقها

وتسويتها بمدرجات الجبل. ظل يرقب خيوط الفجر الأولى بقلق. خرج منذ الصباح الباكر. تناول فنجان قهوة قشر بالزنجبيل والقرفة في أول بيت مر به مفتوحا. جلجل بصوته يدعو الناس إلى أن يبادروا للتجمع في مكان اللقاء. نادى سكان القرى البعيدة للإسراع بالتجمهر. أمضى الصباح كله يجري من قرية إلى أخرى يحرض الناس على عدم التردد ويبدد الشكوك، ويبث الحماسة في قلوب بلا صبابة. ينتظرون أن تأتي المعجزات واحدة تلو الأخرى تلاحقهم وتلح على ترددهم وهم نائمون منهكون بلا أحلام، وتقتحم عليهم مدرجاتهم القاتلة المقتولة، أو تنتزعهم من فيء ظلال شجر سقوه بعرقهم ودموعهم لكنه يتنكر لهم ويتخلى عن أوراقه وقت الحاجة إليها. دعى كل منهم إلى أن يأتي بما عنده من مفارس وصبار ومقاطف حديد وعصيان وصمول قد يحتاجون إليها لقلع حجارة القلعة وسقوفها وأخشابها وقضاضها القديم. راقت له فكرة أن يكونوا لأول مرة خارجين على القلعة وليس مسوقين إليها بالجنابي والبنادق والسيوف والعصيان. تصورها تهرب منهم بعد أن كانوا يهربون منها. نصب نفسه متحدثا باسم الجمهورية. قال لهم:

ـ الجمهورية مشتقة من الجمهور. أنتم الجمهور وأنا المتحدث باسمكم. أنا إذا ممثل الجمهورية في وديان أزهار البن. الذين أعلنوا الجمهورية لم يكلفهم أحد. نصبوا أنفسهم بأنفسهم. أنا ممثل جمهورية بلا قلعة. أعد الشعارات على قصاصات ورق لتوزيعها على الهتافين دون أن يدرك أن مظاهرته غير مظاهرات الأستاذ سيف في عدن. استعاد في ذهنه تفاصيل معرفته في مظاهرات عدن وحاول تطبيقها بحذافيرها. لا ينقصه غير جمهور كجمهور عدن. يتجاوب في دقائق من كل مكان ويتدفق بالآلاف، ويهتف من أعماق الحناجر ويستعد للإشتباك حتى ولو دخل السجن أو استقبل الموت بالصدور العارية. بدأ السكان بالوصول بتكاسل وتردد إلى مكان التجمع بلا اهتمام أو شرارة حماسة. كان

الأطفال أول الحاضرين. وأغلب من وصل فضولي يريد مشاهدة ما يحدث دون الإشتراك فيه. بعد قليل من الإنتظار اعتلى أحمد مكانا مرتفعا وقد اكسب وجهه صرامة مفاجئة وحدية تفوق الوصف فرضت حتى على الأطفال الإنصات بهدوء. جلجل بصوت زادته المناسبة خشونة وعمقا يدعو الجميع إلى الإلتفاف حوله. تعود الناس على لغة خطبة الجمعة الفصيحة المقعرة جعلتهم لا يرتاحون لحديثه بلهجتهم العادية. بدا لهم الحدث عاديا وغير مهم. تنبه للوضع. أسرع إلى تغيير لغة الحديث بفصحى جديدة تعرف عليها في قراءآته الأدبية. نظم الصفوف ودفع المتفرجين إلى داخلها. يتكلم بلا توقف. ويتحرك بلا توقف. وهم مسمرون إلى كلماته وإلى حركته. أينما اتجه اتجهوا معه. يتابعون حركة لسانه وقدميه ويديه ورأسه. دعاهم إلى الهتاف وراءه لم يسمع صوتا واحدا. دعى الأطفال إلى تقليد ما يقول ففعلوا. دعى الرجال إلى تقليد الأطفال فترددوا. صرخ فيهم يوبخهم ويعنفهم ويحرضهم وهو يستشيط غضبا من تقاعسهم. وشيئا فشيئا بدأوا يفهمون الدور المطلوب منهم. ارتفعت أصواتهم شيئا فشيئا. دعاهم إلى الحركة وهو يدور بسرعة من أول المظاهرة الصغيرة التي لا يتجاوز عددها ثلاثمائة رجل وطفل إلى آخرها. لم يعثر ولو على هتاف واحد يساعده في تهتيف المظاهرة بشعاراته التي أعدها منذ ليلة أمس. نسي تلك القصاصات ومضى يصرخ بما أوحت له اللحظة من هتافات وهم يرددون بعده بحركة آلية، البعض بحماسة والبعض من باب المسايرة. صوته يعلو، ورأسه يتحرك، ويداه ترتعشان تدعوانهم إلى رفع أصواتهم حتى عنان السماء. يمشي في المقدمة ووجهه نحوهم. يتحرك إلى موءخرة المظاهرة يجتذب المشاهدين للإنخراط فيها. يدفع المترددين إلى دخول الصفوف. ويحرض الصامتين على المشاركة في الهتاف بقوة. ويدعو من صوته متردد منخفض إلى الإقدام ورفع صوته إلى عنان السماء. كان كالقائد العسكري في معركة حاسمة

يقود متطوعين لم يجربوا القتال من قبل. بدت المظاهرة في البداية وكأنها تمثيلية سمجة، لكنها وصلت الباب الجنوبي للقلعة وقد أصبحت مظاهرة حقيقية. تعلموا بسرعة. استحضروا أناتهم وحسراتهم المدفونة. وجههم نحو القلعة مباشرة. طلب منهم أن يرفعوا مفارسهم ومعاولهم ومقاطفهم بأيديهم استعدادا لبدء العمل. يخشى أن يغشاهم الخوف من المشاركة عندما يصبحون وجها لوجه مع القلعة. استعد للإشتباك عند الضرورة. العرق يتصبب من أنحاء جسده. والزبد يتطاير من فمه الذي يكاد يبح من الصراخ. يتحرك بعصبية وانفعال، ويصرخ هاتفا بأقصى ما يستطيع من صوت. ما أن عبروا الباب الجنوبي إلي داخل القلعة حتى رأى منظرا أذهله: رأى صفا من العسكر يقفون في وضع استعداد رافعين اسلحتهم في شكل عمودي أمام وجوههم يؤدون التحية العسكرية للمتظاهرين. تحركت المظاهرة نحو الطرف الشمالي للقلعة حيث يقع مبنى السجن والشاوش والأمير. وجدوا الباب مغلقا. بادر شاوش الحبس باستقبالهم طالبا منهم اختيار شخص يمثلهم للتفاهم معه. تقدم أحمد إليه. صافحه الشاوش وطوقه بذراعيه مهنئا بين ضحكات العسكر المتحلقين حول المظاهرة وسخريتهم. بدا الجو للمتظاهرين وللمشاهدين أهدأ مما تصوروا. انتحى الشاوش بأحمد جانبا وتحدث معه على انفراد، سائلا:

- ماذا تريدون؟

- نريد إغلاق القلعة.

رد الشاوش بلهجة آمرة:

- وصلنا اليوم قرار القيادة العليا للجيش بأن تتولى أعلى رتبة عسكرية في كل منطقة الحكم باسم الجمهورية.

فوجيء أحمد بما قال. تلعثم قائلا:

- حسنا.

أجاب مهددا ومتوعدا:

- أنا أعلى رتبة في هذه القلعة. توليت الحكم منذ صباح اليوم. وآمركم بالتزام الهدوء والسكينة وإلا اتخذت كل الإجراءآت اللازمة لحفظ النظام، ومن كذب فليجرب. وهذا الفرس وهذا الميدان.

-...

تلفت أحمد حوله، وجد العسكر يحيطون بالمظاهرة وأيديهم على زناد بنادقهم مستعدين لإطلاق الرصاص.

غادر القلعة من الباب الجنوبي صامتا لا يكلم إنسا ولا جان. نسي حتى أن يسلم على حمامة وقد أصبحت أحد رموز ثبات هذا المكان وعدم تغيره. عاد إلى بيته صامتا لا يكلم أحدا ولا يلقي التحية على أحد ولا يرد السلام على أحد. ألم به وجوم مفاجيء. اعتكف داخل بيته لا يخرج منه أبدا. يقبع كل يوم في مجلسه المطل على القرية يستطلع حركاتها وسكناتها. لا يرى أي تغير ألم بها. لا الوجوه انفردت أساريرها ولا القلعة تزحزحت من مكانها ولا حتى غيرت اتجاهها كأن تنقل الباب الجنوبي إلى الشرق أو الغرب، والباب الشمالي إلى الجنوب مثلا. قرر فجأة أن يصرف النظر عن أخبار القلعة ووضعها على خارطة الجبل ليركز نظره على بيت زهرة. يخشى وقد أصبح الشاوس سيد القلعة أن يصبح الناس كلهم ضيوفه في السجن ليحصل منهم على مقابل إغلاق القيد أو فتحه، ومقابل إدخالهم السجن أو خروجهم منه. سيحول القلعة كلها سجنا يمتد من الباب الجنوبي حتى الباب الشمالي. لا شيء ينسيه القلعة وخيلائها واستعصائها على السحق أو الإندثار إلا وجه زهرة. زهرة وحدها رائحة الجبل العطرة، وندى الوديان، وحفيف أورق قصب الذرة في المدرجات، وزغردة العصافير في الموسم الخصيب. فلتذهب القلعة إلى الجحيم. سينساها إلى الأبد ويشغل ذهنه ووجدانه بزهرة. كل وجود قبلها عدم، وكل وجود بعدها عبث. لازم مكانه بجانب النافذة كالراهب في محرابه. لا يبارحه إلا لضرورة قصوى. يستطلع الأفق البعيد. بارق المطر يبرق من فوق تهامة، يسقي بذرة الأمل في قلوب الحيارى

الضائعين. تشققت الأرض من شوقها للمطر. وتشققت الشفاه البضة من لوعتها للحب. السماء والأرض تحترقان شوقا لقطرة ماء عذب سلسبيل. ريح محملة برذاذ لذيذ تلفح الوجوه العابسة. توشك السماء أن تفتح أبوابها لدعواتهم بعد أن كانت قد أوصدتها بمغاليق من صخر أصم وأدارت ظهرها لإلحاحهم على نزول المطر حسب الطلب. يحتاجونه في مواسم ولا يرغبون فيه في مواسم أخرى. فتح ذراعيه وعينيه لمعانقة حبات المطر الأولى تتسلل من النافذة، معجونة بتراب الأرض. زخات المطر تتالى كبسط منشورة في البعد. بعثت فيه رائحة المطر المشبع بالغبار نشوة خاصة نفذت بلغتها العجيب إلى أعماقه مباشرة. مد يديه نحو الخارج يداعب جسدها السائل العذب. ارتفع صوته تلقائيا ينشد لحنا يحفظه منذ طفولته المنسية. سالت دموعه مختلطة بحبات المطر المتسللة على متن نسيم عليل:

يا حنان يا منان من علينا بالأمطار

يا من الجود جودك يا محنحن رعودك

جد علينا بفضلك واسقنا الغيث يا الله

استمطر كما يستمطر الناس. من عادتهم أن يصمتوا وأن يتوقفوا عن أي فعل أو حركة حين ينزل المطر. أن يتوقفوا حتى عن تلاوة القرآن. لحظة نزول المطر مقدسة. لحظة خشوع ومناجاة باطنية. والمطر يهطل بعد المطر. والنفس تتنقل من الخشية والخوف من أن ينقطع قبل أن يروي الأرض العطشى إلى الرجاء والرضى، إلى الخشية من أن يزداد عن المطلوب فتتحول النعمة إلى نقمة وبلاء. يراقب المدرجات ودرجة تشبعها بالمطر. يستطلع بعين راضية تدفق المياه خلال ساعات قليلة من مدرج إلى آخر. إذا لم يتوقف هذا التدفق جرف معه تراب المدرجات المعلقة وحجارتها إلى الوادي. بدأ يكرر دعاء (اللهم حوالينا ولا علينا). منظر الماء المتدفق فرح لم تعرفه القرى المسكونة بالحزن والمجاعة منذ زمن لم يعد يدري متى بدأ. حمد الله أن المطر توقف فجأة بعد أن تحول خلال

ساعات من أمل بعيد المنال ترتعش الأكف وتتضرع الأفواه نزوله إلى ضيف ثقيل لا يرغب في حلوله في تلك اللحظة أحد. أدى توقفه إلى تواصل حالة الفرح في قلوب منكوبة بالحياة في جحيم الجبال المحاصرة بالقلعة والجفاف. أحس بسعادة غامرة أنسته كل شيء. استرخى في مكانه مفرغا ذهنه من كل هم أو تفكير. لكن زهرة تقتحم عليه كل لحظة. زهرة هي الأرض والسماء والمطر. هي الحياة والموت، هي الفرح والحزن والعذاب. وجد نفسه لا يفكر سوى بتحريرها من أسرها، وتحرير نفسه من همها الساكن في الظلوع.

احس أن من العار أن يبقى صامتا لا يحرك ساكنا. يزعم لنفسه حب المغامرة ورفض الضيم واجتراح المعجزات في أصعب اللحظات، بينما هو يترك زهرته الجميلة تذوي أمام ناظريه دون أن يقذف حتى بحجر. تتعرض لمؤامرة محكمة الحلقات على شبابها وهو قابع في محله لا يدري ماذا يفعل، مستسلم مثل الآخرين، خانع مستكين ينتظر معجزة عارضة تخلصه من أي هم، لن تأتي أبدا. ماذا يفعل؟ يتساءل كيف يكسر هذه الحلقة الجهنمية الملفوفة على عنقها الفضي. لا بد أن يشحذ همته وأن يشغل ذهنه. أن يسأل أو يتوسل، أو يرشي إذا لزم الأمر. الرشوة تحكم القلعة القديمة الجديدة. والقلعة تحكم الجبل. لماذا لا يتمرد ولا يغامر، لماذا لا يفعل أي شيء أيا كان. فعلت زهرة بوهنها ما لا يخطر على بال امرأة في حالتها، وواجهت الجميع دون يأس، وقبلت أن تقضي بقية حياتها حبيسة، لا متزوجة ولا مطلقة، ثمنا لتحررها من أسر زوج مفروض بالغصب. من يقبل حجتها أنه كبير السن. هذا تفصيل لا يتنبه له أحد، بل مدعاة للسخرية من وقاحتها كأنها تطلب زوجا قادرا على معاشرتها كل ساعة وكل يوم وليلة. هذه أمور لا تطالب بها امرأة محترمة، ولا تفصح عنها، حضرت أم غابت نهائيا. تفصيل من تفاصيل الحياة الزوجية لا يجوز الإفصاح عنه.

بمرور الوقت تغير الموقف لصالحها. زاد المعجبون بشجاعتها وبوقاحتها من الرجال والنساء. من النادر أن يجتمع الجمال والشجاعة والأغرب أن يجتمع جمال زهرة وشيخوخة حسين النشم. أن يفوز بها وهي محط الأنظار زوج يكبر أبيها سنا أمر يستفز الكثير من الشباب ويثير غيرتهم. وأحمد يتألم ويقلب الأفكار بعد الأفكار بحثا عن حل لا يؤدي إلى فقدانه لها إلى الأبد. يغرق في الكآبة ويستسلم للسهر والتفكير العقيم في حين يفرح الجميع بهطول الأمطار ورجوع العصافير إلى أعشاشها المهجورة منذ زمن، وبدء المناقير الفضية باستطلاع فرص العودة إلى خمائل أحرقتها الشمس وحولتها إلى قبور موحشة. وهكذا على الرغم من أن الأمل عاد إلى قلوب أشرفت على الموت جوعا أو كمدا فإن القحط والوحدة والحسرة الصابرة ظلت تحاصر زهرة من جميع الجهات. تحرر أحمد من البواقي فجأة ودون سابق إنذار لكن سعادته مرهونة بزهرته النظرة. مفتاح سجن زهرة بيد حسين النشم. ماذا يريد منها بعد أن تزوج بامرأة أخرى سوى الإذلال والإنتقام.

بدأ أحمد يجاهر برفضه لوضعها ويحشر نفسه علنا في موضوعها دون أدنى مراعاة لما يقتضيه العرف والأخلاق المرعية، مصمما على جعل موضوعها معركته القادمة. كلهم يظنون ما يفعل اندفاعة من نوبات الفضول التي اعتادوها عنده حول أية قضية خلافية. يجاهر برأيه قبل الآخرين. يقبل أو يرفض قبل أن يتمكن الآخرون من معرفة موضوع الخلاف. خرج من اعتكافه في منزله وبدأ الحركة الدؤوبة صاعدا ونازلا في شارع القرية الوحيد يمسك من يلقى في الطريق ويحدثه ويستطلع أقصر الطرق إلى النجاح. تزيد سرعة مشيه بقدر درجة إلحاح الموضوع على نفسه. بدأوا يدركون من مشيته أنه مشغول بشيء يلح على مشاعره ويضغط على أعصابه. وسرعان ما اكتشفوا في دهشة واستغراب أن ثورته القادمة تركز على تحرير زهرة. أية جرأة أن يتدخل شخص في

موضوع امرأة متزوجة لا قرابة نسب بينه وبينها. ماذا يمكن أن يفعل مع زوج لا يرغب في طلاق زوجه. من غير المعقول أن يفرض عليه الطلاق بالقوة. عرض عليه الخبيرون ببواطن الأمور أن يمول سعيهم للدفاع عن الأخلاق الحميدة من بقاء امرأة شابة جميلة يرغب في الزواج منها الجميع ناشزة بلا زوج. لا يدري دوافعهم بالضبط. حسين النشم يثير غيرة الجميع بثروته وبفوزه بهذا الجمال النادر المسور كحديقة تركت لتذوي وتتصحر. فلتكن دوافعهم الطمع في الرشوة أو غيرها. فلتكن ما تكون. كان هو أكثرهم جهرا بخطر بقاء زهرة بلا زواج على كل أخلاق حميدة أو غير حميدة. خطر على كل مجتمع. امرأة في جمالها وفتنتها تفسد الإنسانية جمعاء. المرأة لا تبقى هكذا متزوجة وغير متزوجة. إما أن تكون متزوجة أو مطلقة. كان يهذي بحجج ساخرة لم يعد قادرا على صياغتها. كل ما يستنكر وضعها الحالي صحيح حتى ولو كان غير معقول. وافق على شروطهم دون تفكير ولا تردد ودون أن يعي منها ولو حرفا واحدا. وافق على طلباتهم السابقة واللاحقة دون أن يستمع إلى ما يقولون. لم يعد يفهم شيئا ولا يسمع شيئا كعادته عند ما تستولي عليه قضية ملحة. تسكنه الرغبة الجامحة في تحرير زهرة بأي ثمن وبأية طريقة، بحكم شرعي أو بالحيلة والخديعة أو حتى بارتكاب جريمة، والآن قبل الغد. فقد ملكة الصبر وملكة التفكير وملكة الإحساس. لا يسمع سوى صوت زهرة يدوي من بعيد في أذنيه ويصمهما بأنين لا قرار له، ولا يرى سوى بسمتها المشرقة تزين الأفق بعذوبتها الساحرة. لا يدري كيف نجح في غمضة عين في تحويل سكان القرية من نساء وأطفال وشباب وشيوخ إلى فرقة إنشاد تمتدح زهرة وتنعي ضياع الدين والفضيلة والعدالة بتركها في الحال التي هي عليه. تطوع الجميع دون سابق إنذار للدفاع عنها. اكتشف الجميع أن العدالة ضائعة، وأن الفساد مقيم، وأن الأخلاق مهددة بالإخلال، وأن القيامة قاب قوسين أو أدنى. اكتشف

فجأة أن الحمية قد بعثت بعد اندثار، وأن الإستسلام قد تحول إلى رفض عام، وأن حال الدنيا ليس بالسوء الذي كان يظنه. تطوع الوسطاء بعد الوسطاء بين والد زهرة وحسين النشم. وزادت المراسلات، وعقدت الإجتماعات واللقاءات ومقاتل القات. وفجأة وجدت القلعة نفسها معزولة عن حدث حاسم، وعن تحركات غامضة، وعن مكاسب ليست قليلة. قررت حينها أخذ زمام المبادرة. أرسلت عساكرها ليأتوا بجميع المتورطين إليها. فرضت عليهم أن يحرروا تفويضا تاما معمدا من المحكمة الشرعية، لتكون بعدها طليقة اليد، مفتوحة لكل الإحتمالات. عدالة القلعة هي السجن. وجد حسين النشم نفسه ومعه الحاج حيدر، والد زهرة، نزيل سجنها حتى يطلق. تساءل الحاج حيدر:

- ولماذا أسجن أنا حتى يطلق هو؟

- ولو.

ولو. هذه عدالة القلعة التي كان ممنها أن باع أحمد أغلب ما يملك من أرض زراعية وتحول إلى مستأجر لها. الناس بالنسبة لها ظالم ومظلوم. لا يوجد من يملك الحق ومن لا يملك. حسين النشم سقط في فئة المظلومين هذه المرة. الحبس أو الطلاق. طلق تسلم. فلتمر العاصفة. وحسين النشم لا يواجه. تاجر يبيع ويشتري. يشتري المواقف بماله. يكسب الجميع بالنقود. يدع العاصفة تمر حتى يأتي وقت مناسب يستطيع فيه كسب ود القلعة. طلق تسلم. هكذا قضت القلعة ولا راد لما قضته. فاجأته قبل أن يستعد للأمر كما ينبغي. عرض عليه أحد العسكر أن يهربه إلى القلعة الهاربة على الحدود. حسين النشم أذكى من أن يهرب من قلعة إلى قلعة. حسين النشم لا يهرب ولا يواجه. يبيع ويشتري ولكنه لا يواجه. والقلعة هي القلعة. لماذا التشرد والذهاب إليها في الحدود وهي موجودة في متناوله. طلق زهرة ببساطة وعاد إلى زوجته الجديدة سالما.

أشعلت زهرة البيت بالزغاريد، وزينتها بـالزهور والمشـاقر، وبخرتهـا بالعود والمستكا والجاوي والنـد، ورشـتها بمـاء الـورد. فـاضت رائحتهـا الزكية على سفوح أزهار البن، وحولت يوم طلاقها عرسـا أزليـا وفرحـة لم تشهد البلاد مثلها. دقت الطبول وعلت الأصوات الجميلة من حنـاجر شابات أجمل بألحان عذبة رددت صداها الوديان والسفوح المحملة بالخـير القادم، فتقاطرت النساء في جماعات يسرعن للمشاركة في البهجة المظللـة على بيتها. تنافسن على حلبة الرقـص وتنـازعن بقـوة علـى الـدور، كـل ترغب في أن تكون هـي الـتي تشـق عنـان السـماء بزغرودتهـا المجلجلـة، ورقصها المتخايل، وعزفها الفريد. وزهرة توزع عليهن النعناع والقرنفـل والهيل معلنة في فرح وسعادة: (هذا يوم عرسـي. هـذا يـوم فرحـي) بـين ضحكات النساء وتنازعهن الذي يصل حد الإشتباك للحصول على دور في الرقص والغناء. أحست أنها ولدت في هذه اللحظة ميلادا تعيشه لحظة لحظة، وتذوق فرحه قطرة قطرة. انتصرت في النهاية بعد أن سقت غصن حريتها بدمها ودموعها. فاجأتها الأحـداث بهـذه النتيجـة غـير المتوقعـة. كانت قد أيقنت أنها ستبقى حبيسـة سجنها حتى آخر لحظة من حياتهـا. اسرعت إلى ثيابها الجديدة المزركشـة الـتي هجرتهـا منـذ زمـن وأعـادت إخراجها ونشرها، ولبستها مـن جديـد. وعـادت إلى ارتـداء زينتهـا مـن الذهب والفضة. وأخرجت عطرا كاد يتجمد من فرط الإهمال والنسيان وتعطرت به. عادت إلى شبابها الذي كاد ينوي قبـل الأوان، وخرجـت من قبر الوحشة والملـل إلى ملعـب حريـة ضـاعت منـذ زمـن سـحيق. لم تكف عن الزغردة حتى سمع زغاريدها الغادي والرائح. ظنها البعـض قـد جنت. تواصلت الأفراح أسبوعا كاملا حتى ملت النساء الرقص والغنـاء كل يوم، وتبخرت الزغاريد يوما بعد يوم. أخلدت بعدها إلى نوم عميـق متواصل ليوم وليلة حتى تهـدأ نفسـها مـن شـدة الإنفعـال الـذي عاشـته طوال أسبوع حافل بالنشاط والفرح.

وكان أحمد المنتصر المجهول يقبع في منزله ساكنا فرحا حزينا في الوقت نفسه. أدار المعركة مع حسين النشم ومولها وشارك فيها كأنه صاحب الشان الأول. وها هو يقف وحيدا بعيدا عن زهرة وفرحها. كأنما كان ينتظر أن يحتفل معها، أو على الأقل أن يهنئها. لا شيء من ذلك حدث. لا يستطيع الإفصاح عن فرحه ولا عن حزنه. لكن الأمل راوده من جديد. أول السفر خطوة. وهذه الخطوة بدونها لن يفوز بزهرة. أصبحت طليقة لكن المشكلة ظلت نفسها وهي رفض أبيها له. عاوده التفكير بالزواج منها بعد أن كان يظنها ستبقى بعيدة منه إلى الأبد. وفت بوعدها الغريب كما لم تف امرأة. لكن حاجز الرفض ما يزال يفصله عنها. جاء الآن دوره بعد أن واجهت الجميع بمفردها. ما يحز في نفسه أنها تجهل أنه الذي حرك حملة تحريرها ومولها منذ البداية حتى النهاية. بحمد الله أن النجاح كان حليفه. كان الأمر سهلا إذا قيس بما يطمح فيه من الفوز بها. أية حملة لا تستطيع إرغام أب على تزويج ابنته لرجل لا يريده حتى ولو كانت تريده. جاء وقت التحدي إذا لزم الأمر. ولكن تحدي من؟ جاء وقت إظهار الشجاعة ولكن لأي عمل؟ مستعد لعمل أي شيء لكنه لا يدري ما هو الشيء الذي يوصله إليها. أول ما يود معرفته هو ما إذا كانت زهرة ما تزال وفية لوعدها، أم أن تلك المعركة الطويلة التي خاضتها قد ثبطت عزيمتها وصرفتها عنه. مستعد لقبول كل الكوارث ما عدا أن يفقد ثقتها به. لا يجد وسيلة للإتصال بها. فكر في الكتابة إليها. أمسك بورقة وقلم. عجز عن كتابة سطر واحد. كلما خط كلمة أو كلمتين أو جملة شطبها. وأحيانا يكتب سطرا أو سطرين ثم يمزق الورقة. كلما أرضته جملة عاود قراءتها ووجدها لا تروق له ومزقها. ظل هكذا يتردد في حيرة وقلق. قدرتها على القراءة محدودة. قد لا تفهم مقصده إذا أطال. لا يحتاج إلى قول الكثير. سيقول أقل القليل. الحليم تكفيه الإشارة. وأخيرا استقر رأيه على

رسالة برقية (مبارك الخروج من السجن. متى يظهر المخبا ويديم الله السرور؟). ظل يعد الساعات والثواني في انتظار الرد. بدا له التأخير أمرا غير طبيعي. كان استعجاله غريبا في أمر يحتاج إلى صبر. راودته الظنون. توجس الأسوأ. لم ترد على رسالته المستعجلة فزادت حيرته وارتباكه. لا يجد من وسيلة لمعرفة حقيقة موقفها سوى الصبر ومحاولة إعادة الصلة بها من جديد. ولكن إلى متى يصبر. ومن يقنع العاصفة المجنونة في داخله بالهدوء. قال له أحدهم:

- حتى لو وافقوا على زواجك منها يجب أن تنقضي العدة.

استشاط أحمد غضبا ورد:

- أية عدة و لم تكن بينهما معاشرة؟

- وما أدراك؟

- أعرف. الجميع يعرف. هذا ليس بسر.

- وما أدراهم؟ من يعرف ما بين المرء وزوجه؟

اغتاظ من هذا الحديث وفضل مغادرة المكان قبل أن يشتبك بالمتحدث. ومع ذلك فطن لحيلة يمكن أن تستخدم لو وافقوا على زواجه منها. قد يتعللون بحجج واهية من هذا النوع لمنعه من بلوغ مقصده. ينبغي أن يحسب منذ الآن لكل شيء حسابه. ظل يعد الليالي والأيام حتى تمر فترة كافية. افترض أن هذه الفترة ثلاثة شهور. بدأ من أولها العد التنازلي. تسعون يوما. تسعة وثمانون يوما وثلاثة وعشرين ساعة. تسعة وثمانون يوما واثنان وعشرون ساعة وتسعة وخمسون دقيقة... وهكذا بعدها دقيقة بدقيقة. وحين انتهت كان جالسا يستعد لها كما ينتظر الصائم أذان المغرب. ثم انطلق بعدها لإرسال وسيط يجس النبض عسى أن يقبلوا خطبته لها. أخشى ما يخشاه أن يتقدم أحد لخطبتها فتتعقد الأمور من جديد ويخسرها إلى الأبد. ربما غير الأب موقفه بعد كل ما جرى لابنته بسبب إصراره على زواجها من رجل لا تقبل به. الكل

يتوقع أن يرفض الأب زواج ابنته من أحمد، إلا الوسيط الذي اختاره لجس النبض قبل الخطبة الرسمية. الأب يعده سبب الفضيحة التي تعرض لها بتحدي ابنته لسلطته الأبوية بحيث جعلته مثار سخرية الجميع. لن يسمح له بجني ثمار تحريضه لها. لن يكون ضحية لعناده من جديد. قد يظن الناس أن ابنته قد سلمت نفسها له منذ زمن وأن إصرارها على الزواج منه ليس إلا من باب تغطية الفضيحة. لن يسمح لأوهامهم بأن تصبح حقيقة. استقبل أحمد عودة الوسيط ببشر وثقة لا يعرف أحد مصدرها. كان يخاطب أحلامه أكثر مما يتعامل مع الواقع. قال له بسرعة وابتسامة رضى على شفتيه:

- بشر؟

- اصرف النظر عنها. هذي امرأة مدبرة، ستدبرك معها.

- لن أتزوج غيرها.

- غيرها أحسن منها.

- لن أتزوج غيرها.

- ستبقى بلا زواج إذا.

- بل سأتزوجها.

- كيف؟ بالقوة؟

- ....

ترك الوسيط وحيدا وغادر وهو يرغب في صفعه لتخطي حدود اللياقة. يحس في داخله بغدر من ينصحه بتقبل الأمر الواقع. عنيد لا يقبل بالحقيقة المرة. يتصرف وكأن العالم عجينة لينة التشكيل في يده. يحاول أن يصل إلى ما يريد بإصرار حتى ولو بدا الأمر يحتاج إلى معجزة أو مغامرة. لكن أية مغامرة توصله للزواج بزهرة. ليس في الزواج مغامرات. الزواج قربى وصلة أسرية. الزواج يبنى دائما على التراضي وليس على التحدي. هذه مشكلته. أية مغامرة تستطيع إقناع الحاج حيدر أن يرضى به زوجا

لابنته؟ وأية مغامرة غير محسوبة ستفسد عليه أية حيلة. سيخسر زهرة إلى الأبد. بمجرد مرور فكرة أنه سيخسرها بخاطره تملأه بالرعب. الأبواب موصدة. كل شيء ضده. الأب والعادات والتقاليد والشريعة والمجتمع وخصوصا الوسيط. هذا الوغد الذي بدلا من مساعدته على حل المشكلة ينصحه بصرف النظر عنها. جميع الطرق مسدودة. عاوده أرق أيام الهرب من عسكر البواقي. لا أحد يطارده في الخارج. أفكاره تطارده في الداخل. يشحذ ذهنه عله يهتدي إلى وسيلة دون جدوى. الأفق قاتم أمامه. يسرح البصر في القرية المنشورة تحت ناظريه دون أن يعي شيئا مما يشاهد. هذا ذروة القلق عنده. يسترق النظر نحو بيتها فيكاد قلبه ينخلع من بين جوانحه. بعيدة عنه في وقت ظن أنها قد اقتربت.

فكرة مغامرة تلح عليه في يقظته ومنامه. يطردها لكنها تعود وتعود حتى تقلق عليه كل لحظة من لحظات حياته. يحاول البحث عن بدائل أقل جرأة منها لكن جميع محاولاته للإبتعاد عنها تعود خائبة وهو في سباق مع الزمن. يخشى أن يجد زهرة قد خطبت لرجل آخر. كلما حاول طرد هذه الفكرة عادت وفرضت نفسها على تفكيره بقوة وعنف تصم أذنيه حتى لا تترك له أي خيار. لم يعد يفكر بسواها. يمسي ويصبح مسكونا بها. يكثر من قطع مكان المجلس من طرفه إلى طرفه بحثا عن بديل دون أن ينطق بكلمة. يفرك شعر رأسه بيده كالمجنون. يخرج بسرعة دون أن يقول كلمة لمن يقابله في الطريق، يمشي بخطى أقرب إلى الجري. لا يسلم على من يمر به ولا يرد السلام. يذهب ويعود صامتا مهموما. ظل يحوم هكذا داخل البيت وفي طريق القرية كأنه في حالة مخاض. لاحت له فكرة مصادفة زهرة في الطريق لاستشارتها وعرض خطته عليها. استحال عليه اللقاء بها في حين نفد صبره ولا يطيق الإنتظار فوق ما انتظر. لا يطيق البقاء معلقا بين السماء والأرض. لا بد أن يحسم أمره ويتخذ قراره. لا يبقى أمامه إلا المغامرة. غامر تسلم. لا حب إلا مغامر.

لا حب إلا بجنون. ما فاز باللذة إلا الجسور. بجنون زهرة؟ بجنون ليلى جبان رعديد. تظاهر بالجنون وهام في الصحراء هربا من مواجهة من يقفون سدا بينه وبين حبيبته. لا لن أكون لا قيس بن الملوح ولا كثير عزة. سأكون بجنونا مغامرا. اقدم تسلم. لن يحدث أكثر مما حدث ولا أخطر منه. لن يكون أول من قتل أو قتل في سبيل الحب.

عاد إلى منزله منشرح الأسارير، باسم الثغر، مطمئن الجنان: كعادته عندما يكون قد استقر على رأي ووطن نفسه على الإقدام عليه بلا تردد. اليوم يوم فاصل لا تراجع فيه. كل شيء جائز الحدوث. النجاح والفشل وفقدان الأمل أو فقدان الحياة. وليكن ما يكون. لا تراجع ولا انتظار. ركوب متن الخطر أهون من انتظاره. الإنتظار قلق دائم، ومصاحبته سباحة في المجهول. وما أن اقتربت الساعة من منتصف الليل حتى خرج بسرعة الريح واندفاع العاصفة. لا يريد أن يفقد لحظة واحدة ولا أن يلفت انتباه النيام إلى مروره. مضى في طريقه محفوفا بصرير الصراصير ونقيق الضفادع في المياه الآسنة في برك المساجد. داخلته الرهبة وهو يمر بالمقبرة مع أنه يمر بها دائما دون اكتراث. نفذ نعيق البوم إلى مسمعه كأنه رصاص اخترق رأسه من الأذن إلى الأذن. واصل تسلله نحو بيت زهرة. انسل بين أشجار الموز والباباي الكثيفة حول البيت يداخله خوف مرعب من أن يدوس على رأس حنش أو ذيل حية. قفز هاربا يتسلق البيت الحجري نحو غرفة نومها في الطابق الثالث. هدأ روعه بعد أن ابتعد من خطر الحنشان والحيات، فنظر إلى الأعلى خوفا من أن يراه أبوها ويدفع حجرا من أحجار جدار السطح فوق رأسه تلقي به جثة هامدة تلتهمها الهوام. لا وقت للخوف حتى من الموت. الوقت للعمل. للمغامرة. حين بلغ نافذتها قرع قرعا خفيفا. من حسن حظه أنه وجد النافذة مردودة دون إقفال بما يسمح لقليل من الهواء بالنفاذ إلى الغرفة. دفع مصراعي النافذة فأحدث انفتاحهما صوتا أيقظ زهرة في حال من الرعب

جعلها تغلق الباب أمام أية محاولة للتفاهم. لم تكن مستعدة لأي شيء. كادت تصرخ قبل أن يقول لها بصوت مرتعش مرتبك:

- أنا أحمد.

- انصرف قبل أن أصرخ واجمع الناس...

- سأذهب فورا. لكن دعيني أكلمك في أمر مهم.

- لا. لا. لا.

- أرجوك. اهدئي. دعيني أشرح لك...

- اذهب وإلا صرخت.

- سأذهب. لكن متى يمكن أن أكلمك؟

- غدا.

- أين؟

- هنا في الساعة نفسها.

أسرعت تغلق النافذة وتدفعه نحو الخارج. أسرع بالإنزلاق وهو في حال من الذهول من هذه المواجهة غير المتوقعة. عاد إلى بيته محبطا متذمرا. كان يظن أنها تنتظر قدومه بشوق مثل اشتياقه للحديث معها. داخلته الهواجس من جديد حول مدى نجاح خطته. لم يعد قادرا على التفكير بغيرها. سيواصل السير فيها حتى النهاية. لا وقت للتراجع. بدأت العجلة بالتحرك. ينبغي أن يذلل الأرض أمامها ويزيل الصعوبات لا أن يوقفها. احتجب في بيته منذ تلك الساعة. أغلق نوافذه وباب بيته. استعد لحالة تشبه الحصار. فرض السرية التامة على تحركاته. لا يعرف أحد إن كان داخل البيت أم خارجها. لم يعد يرغب حتى في رؤية بيت زهرة. يتحرك داخل البيت صاعدا ونازلا بدون هدف معين. يكرر النظر إلى ساعة اليد لا شعوريا مرات في الدقيقة. يدفع الزمن دفعا ويحثه على إسراع خطاه. يريد له أن يتكور على نفسه ويمضي بسرعة الضوء. أحس به يبطيء في سيره أكثر مما يجب نكاية به. كأنما يشارك في مؤامرة

لإتلاف أعصابه. يتمالك أعصابه بقوة. يريد أن يكون اليوم في ذروة تركيزه الذهني. هذه ساعات عصيبة. ربما كان هذا آخر يوم في حياته إذا لم تسر الأمور كما توقع. بدا له مثيرا أن يختم حياته شهيد غرام. أكرم من أن ينهي حياته قتيلا في معركة عابثة في حروب القبيلة على القبيلة. ليس لديه ما يخسره. عاش في حياته القصيرة أحداثا تكفي أجيالا عديدة ممن يقبلون كل شيء بلا اعتراض. لا يدري أيلعن الأحداث أم يمتدحها. أرغمته منذ الصبا على أن يكون علامة احتجاج ومشروع سوءال محير.

وصل في موعده وهي تنتظره في قلق وتوتر عصبي شديد. ساهرة في الظلام في انتظاره في النافذة. ما أن بلغ النافذة حتى مدت يدها تساعده على النفاذ إلى داخل الغرفة. بادرته قبل أن يستعيد أنفاسه قائلة:

- أسرع قبل أن ينتبهوا لوجودك. ماذا تريد:

- عندي حل نهائي لمشكلتنا.

- ما هو؟ قل بسرعة؟

- إما أن... ونفرض على أبيك أن يزوجنا تجنبا للفضيحة

قاطعته قائلة:

- هذا مستحيل.

- وإما أن تهربي معي وأتزوجك على سنة الله ورسوله.

- هذا هو الحل.

- متى؟

- الآن.

- لم أستعد بعد. لم...

- إما الآن وإما أن نصرف النظر عن الزواج إلى الأبد.

أذهلته إجابتها، وأذهله استعداها للهرب دون مناقشة أو تردد أو تساؤل. بدا تصميمها وحسمها أكثر منه. تناولت صرة كانت قد جهزت فيها بعض الثياب وهبطت الدرج في الظلام نحو الباب الخارجي.

وسارت نحو بيت الحاكم الشرعي للإحتماء بزوجته. أما أحمد فقد عاد من حيث أتى يفكر في تدبير الوسطاء وتوفير النقود التي تقنع الحاكم بالتعاون معه وإتمام الزواج. لم يأت الصباح حتى كان قد دبر الأمر من كل الوجوه. امتلأ جيب الحاكم حتى لم يعد في حاجة إلى من يشرح له القضية. والسوق مليء بالوسطاء الجاهزين للبيع بسعر الزمان والمكان. وشهادة الزور مزدهرة بما يكفي لخراب بلاد وإعادة عمارتها. وسوق القلعة يبيع كل شيء: القيود والحبس والشريعة والعدالة. ادفع تسلم. ادفع تربح حقوقك وحقوق غيرك.

أسرع الحاكم بالتهام طعام إفطاره ونزل إلى المحكمة للبت في قضية لا تحتمل التأجيل. أرسل حراسه ليأتوا بالحاج حيدر قبل أن ينتبه إلى أن ابنته قد هربت. حين وصل أحمد بادره الحاكم قائلا:

- أنت إذا لا تؤخر عمل اليوم إلى الغد.
- خير البر عاجله.
- الأمر حلل.
- وأنا مستعد للدفع.
- قد تتردد البنت عندما ترى أباها.
- اطمئن.
- لا تورطنا. الوضع الجديد في بدايته. والشعارات على أشدها.
- إنشاء الله ما يحدث إلا خير.

اقتيد الحاج حيدر إلى الحاكم قبل أن يتناول طعام إفطاره. انتزعه العسكر من مرقده وهو ما يزال شبه نائم. ظل طوال الطريق يفكر في دوافع القلعة لدعوته بهذه السرعة. هؤلاء لا يطلبون أمثاله لخير. في الأمر ما يثير الريبة، لكن ابتسامة الحاكم في وجهه طمأنته إلى أن الأمر ليس بالخطورة التي تصورها. ربما يحتاجه الحاكم لأمر يخصه. هؤلاء لا يتسمون لمزارع بجانا. حمد الله على أن الأمر ليس خطيرا على كل

حال. اسرع الحاكم باستدعاء زهرة دون معرفة أبيها. جعل الأب يجلس في مكان لا تراه ابنته وهي تتحدث خوفا من أن تنهار وتتراجع وهي تنظر في وجهه. أصبح متورطا في القضية بقدر تورط أحمد بعد أن امتلأ الجيب وحلت عدالة القلعة العرجاء. وما أن جاءت زهرة ووقفت على استحياء في الباب حتى أسرع الحاكم في لفلفة الموضوع قبل أن يحدث أي طارىء يعقد الأمور. سألها:

- اسمك؟

- زهرة

- بنت من؟

- بنت الحاج حيدر...

لم يدعها تكمل اسمها لأنه يعرفه. إجراءآت شكلية أراد منها أن يدرك الأب حقيقة القضية التي جاء من أجلها. وجوده أيضا شكلي. فقد حسم الأمر قبل مجيئه.

- تريدين الزواج من هذا الرجل، أحمد بن الحاج عبدالله، وأبوك يرفض زواجك منه.

- نعم.

- إذا رفض أبوك عقد النكاح توكلين الحاكم؟

- نعم.

صرفها بسرعة. اكتفى منها بما هو ضروري. بما يكفي ليعقد نكاحها.

صعق الحاج حيدر لما سمع وغشاه شبه إغماء، وغطى وجهه عرق غزير حجب عنه رؤية المكان. عجزت أعصابه عن تحمل الصدمة. توقع كل شيء إلا هذه الصاعقة. نفسه تحدثه بأن التي يسمعها امرأة أخرى وليس ابنته. يغالط نفسه قدر المستطاع. لا يريد أن يصدق ما يسمع.

غير معقول أن تكون هذه ابنته زهرة. هــذه ليســت زهـرة. سمـع الحـاكم يقطع عليه حبل أفكاره المضطربة المشوشة بالقول:

- أسمعت ما قالته ابنتك؟

- لا.

- ومن التي تكلمت بحضورك وحضور بقية الشهود؟

- لا أدري.

- لم يبق أمامك سوى أن تعقد نكاحها. لا داعي للمكابرة.

- ليس لي ابنة بهــذا الإســم. لـن أعقـد حتـى لـو قضيـت حيـاتي في السجن، ولو تسلسلت القيود من قدمي إلى عنقي.

أسلم قياده للشاوش يسوقه ذاهلا إلى الحبس في حين زفت زهــرة في تلك اللحظة على استعجال إلى بيت أحمد في وضح النهار مـع أن العـادة أن تزف العروسة في أول الليــل. لا طبـول ولا موسيقى ولا طمـاش ولا رصاص ولا مديح ولا تواشيح. لا مقيل قات ولا عشاء. لا شيء ســوى رجل غريب وامرأة غريبة يخرجان بمفردهما فـور زواجهمـا متجهـين إلى عش الزوجيـة في مشـهد حزيـن. عـرس فريــد أذهــل الجميــع وصــدم مسلماتهم، لرجل فريد تعـود المواجهـة وحيـدا بـالحرب وليـس بـالإقدام، وامرأة فريدة استعصت على كل السلاسل والقيـود المرئيـة وغـير المرئيـة. عرس كتب بقطرات دم عمدت عهد غرام قديم تفوق على عهود الكلام المزور.



-٧-

أتيحت له فرصة أكبر لمعرفة تفاصيل المكان حين استعان بهما العسكر في احتطاب ما تبقى من شجر في المكـان. لأول مـرة يملـك في يـده فاسـا. يقطع به جذع الشجرة وعينه على جذع الحـارس. هـم أكـثر مـن مـرة أن يهوي به على رؤوسهم واحدا واحدا. تتردد عينـاه علـى جمجمـة الحـارس وعلـى البندقيـة المعلقـة إلى كتفـه والخنجـر المـزروع في وسـطه. تتضـارب الافكار والخطط في راسه. كلما فكر بإحداها وهم بتنفيذها هجم بالفـاس على جذع الشجرة بحماسة وانفعال. يحس عمر أن أحمد يضطرب بشئ ما يغلي في داخله. يقفز نحوه بسرعة. يتناول الفاس من يده. يلقي نظرة عنيفـة على الحارس قبل أن يهجم على جذع الشجرة بضربات سريعة متتاليه مـن الفاس. تثير هذه التصرفـات ريبـة الحرس. يلمسـون الشرر الـذي تقدحـه عيون السجينين. يتعدون مسـافة كافيـة عنهمـا ويصـوب أحدهـم بندقيتـه نحوهما دون انقطاع. بعد الفراغ من قطع الحطب جمعوه في حـزم شـدوها بالحبال ودحرجوها نحو باب غرفة الحرس. انحرفت إحدى الحزم وواصلـت تدحرجها حتـى وصلـت الـوادي. لم يعـد أحمـد يـرى تدحرجهـا. واصـل الاستماع إلى صوت تدحرجها بتركيز شديد. واصل الاسـتماع فيمـا بعـد لصوت الحجارة التي تتدحرج نحـو الـوادي. طـول الوقـت الـذي يسـتغرقه هبوط الحجر من أعلى الجبل إلى الـوادي يصيـب أحمـد بالإحبـاط. الهـرب محاولة ميئـوس منهـا. انتحـار مؤكـد. أعادهمـا انتهـاء العمـل إلى عزلتهمـا

القاتلة. تحمل ظلمة السجن قبل هذا الخروج للعمل أيسر. كان العمل قد صرف بعضا من الطاقة الحبيسة. العودة من جديد إلى حالة العزلة تزيد الإحساس بالضياع. عم الملل أكثر من ذي قبل. طعم الملل يصيب أحمد بالدوار والغثيان. هذا قبر غير أن نزلائه يزعمون لأنفسهم البقاء على قيد الحياة. بناه أحد المتغلبين على المنطقة لسحق المتمردين على سلطته. قسوة الحياة فيه ارغمت سكان المناطق المجاورة على الخضوع للجبروت والبطش. الظلم طبيعة ثانية لحكام المنطقة. ليسوا سوى قاتل أو مقتول لا ثالث لهما. صعوبة التضاريس تجعل حراسة المسجونين في هذا الحصن أقل صعوبة. لا يحتاجون إلى حراسة سوى لأيام قليلة تنتهي حياتهم خلالها أو يخضعون ويستسلمون. بركة الماء الصغيرة توفر قدرا من مياه الأمطار يغطي حاجة النزلاء. وملفن الحب يسمح بالصبر على الحصار لشهور. اليأس يداخل أحمد من إمكان الهرب هذه المرة. كلما قلب الفكرة من كل وجوهها عاد من تفكيره يائسا. يتمنى حدوث معجزة لكن صوتا في أعماقه يقول زمن المعجزات انقضى. اصنع معجزتك بنفسك. عمر غارق في اليأس حتى من التفكير في أي حل. استسلم لقدر مطلق. لا يفكر بأي حل. كل حل بدا له مستحيلا. لماذا التفكير فيما لا فائدة ترجى منه. الوقت يمر ببطء. والحياة تصبح مستحيلة. يحاول أحمد تحمل السأم بتغيير مكان جلوسه في السجن في اليوم عدة مرات. يرتب مكان جلوسه. يمسح التراب عنه بيده بعناية فائقة. يضغط بكفه مرات عديدة لتثبيت التراب. يحاول مسح التراب والأوساخ عن المكان وعن ملابسه. وعمر قابع في زاويته من السجن. ينظر حينا إلى أحمد بلا اكتراث، ويتابع حركته دون انتباه. وحينا ينام كأنه بمفرده في السجن. ملأته حالة اليأس باسترخاء لم يعرف مثله في حياته. يجلس أحمد في مكانه قليلا. تغمره الكآبة. ينتقل إلى مكان آخر. يرتبه بالطريقة نفسها. يبالغ في ترتيبه. ينشغل بهذا العمل عن فيض الأفكار السوداوية التي تصطرع في رأسه. حياته كلها تمر في مخيلته. مئات الأحداث والأفكار الصغيرة والكبيرة تضطرب في الوقت نفسه. لا يترك أحدها

مساحة زمنية للآخر كي يمر. جميعها تظهر معا وتختفي معا. تزحم بعضها بعضا. ويطرد بعضها بعضـا. رأسـه مثقـل بـالأحداث والصـور والأفكار. وقدماه مقيدتان داخل جدران مغلقة. يحس بالوحدة في الكآبـة. ينظر نحو عمر. يسمع شخيره ينبعث في هدوء. هـمَّ أن يوقظـه. يريـد أن يطـرد عنه كابوس الكآبة بـالحديث معه. تراجـع فجـأة. هـرع إلى النـافذه الصغيرة. يحـاول بشـعاع الضـوء المنبعـث من الأفـق كسـر هـذا الاحتقـان بـالصور والأحداث والأفكار. يبدو الأفق قاتما. امتدادا عاريا من اية سـحابة. شمسـا باهتة. وجبالا تتالى بـلا اتسـاق. البحـر البعيـد وراء الجبـال وحـده يوحي بالاتسـاع. أحس نفسه يسبح في مياه البحر الأحمر الدافئة. صارع الأمـواج العاتية حتى انهكه التعب. غلبه النعاس. نام مستندا إلى الجدار. كان جسده قد تصالح مع حشرات السجن. تعود النوم مستسلما لقرصات القمل والبق ولأصوات الصراصير والوزغ والخنشان والحيات المنتشرة في المنطقة. تعود النوم في أية لحظة. في النهـار أو المسـاء. لا فـرق بـين النهـار والليـل داخل السجن. الليل أكثر هدوءا. لا يأتي الحرس في الليـل. لا يخشـى الإسـتدعاء للإهانة والإذلال. يخلـد السـجين إلى نفسـه أو إلى زميلـه. السـجين هنـا لا ينتظر شيئا. حلمه الغامض بـالخروج مـن السـجن يتلاشـى بمـرور الوقـت. والأغاني فقدت قدرتها على الإطراب. حـاول أحمـد أن يعـود إليهـا حـين استيقظ عمر. لم يتجاوب. بدا كالأخرس. لا يسمع شيئا. لا يقـول شيئا. فكر بالعودة إلى أناشـيد الصوفيـة. شـيء مـا داخلـه يمـانع. الخيـارات كلهـا تتساوى. الغناء والهرب والبقاء ساكنا بلا حراك. حتى زمالته مـع عمـر في قلب هذه العزلة الموحشة فقدت مذاقها. تساوى كل شيء بكل شيء. حيـاة السجن بالموت. الموت أقل ألما. الحياة جلسة تعذيب متواصلة بطيئـة. كـان يظن نفسه أقدر على تحمل المصاعب. شيء مـا تغير في داخلـه في السـجن. فقد الحزن والشوق والشجاعة والجبن. مـذاق الحيـاة قبـل السـجن والأمـل بحياة بعد الخروج منه. كل الخيارات تنتهي بجدران السجن وبغرفة السجان والهاوية. لون الجدران يوحي بلون دموع ودماء لطـخ بعضهـا بعضـا حتـى

أخذت لون الكآبة والاستبداد. وهذا الجبل المنتصب كقرن الشيطان بعض ترابه من عظام نزلاء هذا السجن المشيد في فم الهاوية. وهذا الباب المؤدي إلى أشداق الوحوش البشرية الكاسرة، إغلاقه أولى من فتحه. الإحتماء بوحدة السجن أدعى للسكينة. الخروج إلى محيط السجن يكشف استحالة الفوز بالحرية. أيها الصبر: منذ إلم يبق في وحشة السجن من ونيس سوى ضوء القمر، إذا اتجه غربا تعامد مع نافذة السجن الصغيرة. التصق أحمد بشاقوصه. أحس بعمر يلوذ بالشاقوص الأخر. ألقى عليه التحية كأنه يلتقي به لأول مرة. لم يجب. كان غارقا في عزوفه عن الحياة. كأنما ينتظر انتهاء الحياة. لم يبق في حياته ما ينتظر. ألح أحمد في الحديث معه. لم يجب. وفجأة بادر بسؤال غير متوقع. كان أحمد يتمنى منذ أيام أن يعود إلى الحديث معه دون أن يحاول. وإذا حاول لا يستجيب. رن سوءال عمر:

- بماذا تحلم؟

فرح أحمد لهذا السوال. اندفع يجيب قائلا:

- بكسرة خبز تعقل هذا الغول الذي ينهش أحشائي منذ زمن. بفنجان قهوة ساخنة تنعش جسمي ليحرب مغادرة هذا الموت البطيء الذي يسري في أوصالي دون استئذان. برشفة ماء صاف تخفف تقززي من شرب هذا السائل القذر الذي يسمونه ماء زورا وبهتانا. أنا يا صاحبي من جبل يشرب الناس فيه دموع الجبال الصافية العذبة بعد أن تلقي فيها شرايين الصخور من طيبها ونقائها.

- أما أنا فأحلم باليوم الذي أتحرر فيه من رؤيتك صباح مساء. كنت أخشى أن يعزلونا عن بعضنا البعض. لم أعد أحس بالخشية نفسها.

- لو كانوا يقدرون لفعلوا. لا أدري أهي من حسنات هذا السجن أم من سيئاته أنه مكون من غرفة واحدة.

- أتساءل؟ هل انتهت الحرب دون أن نعرف؟ لم يأتوا بأي أسير بعدنا.

- أنت دائما متفائل.

- كنت متفائلا. ومع ذلك نحتاج إلى صنع معجزة لا أدري كنهها. الموت والسجن من طينة واحدة.

- ربما قتلونا قريبا. لا نحتاج إلى معجزتك.

فرح أحمد في أعماقه لهذا الحوار. واصلا الحديث وكل متسمر إلى شاقوصه. قال دون حماسة:

- لم لا نغني كما كنا نفعل؟

- سئمت كل شيء. لا أقوى على الشدو بأي شيء. أحس بصوتي يذوي في داخلي. لم أعد أحتاج إليه في هذا السجن بأي حال.

- فلنقلد أصوات الحيوانات. هذا أيسر. لا نحتاج إلى لغة.

راقت الفكرة لعمر. انطلق فجأة يقلد مواء القطط ونباح الكلاب وزقزقة العصافير. تجاوب معه صوت أحمد في تقليد أصوات الحيوانات. امتزج صوتاهما في سمفونية من أصوات الحيوانات وكل يجتهد في إضافة أصوات حيوانات أخرى مثل الثور والحمار والديوك والبلابل والصراصير... تنتهي المعزوفة بنوبة ضحك متواصل تبلغ حد الهستيريا. لحظة جنون شفيف يتحرران فيه من كل المشاعر. يتواصل استغراقهما في الضحك حتى يلفهما النعاس بردائه، فيستغرقان في نوم هادئ حالم.

استيقظا في الصباح على يوم شبيه بغيره من الأيام السالفة. لا يحمل بشارة ولا خبرا. يطلع بحكم العادة. لا خيار أمامه سوى الطلوع. فتح السجان باب السجن كالعاده. ألقى بكسرتي خبز جاف. وضع جرة ماء وأخذ الأولى بعد أن أسن ما تبقى فيها من ماء وزاد لونه وطعمه تغيرا. ترك الباب مفتوحا وذهب دون أن يقول شيئا. بعد دقائق من التعود على النظر إلى النور عبر الباب خرج أحمد وعمر متثاقلين للجلوس في دفء الشمس وتعريض ملابسهما الممزقة لأشعتها. هذه هي الوسيلة الوحيدة لتنظيف الملابس التي بدأت تهترئ فوق جسديهما. لم تبدل أو تغسل منذ أسرهما.

تغير لونها وعرقها مرات ومرات دون أمل حتى بغسلها. على أي حال لم تعد تتحمل الغسل بعد أن أصبحت مزقا. ألقى كل منهما بما تبقى منها على صخرة في الشمس ومضى يحك كل مكان في جسده بلذة. أصبح الحك في الشمس متعتهما الوحيدة يمارسانها منذ أن سمح لهما بالخروج للإستمتاع بدفء الشمس. جمع أحمد بعض الحصى واقترح على عمر تمضية الوقت باللعب بالحصى. أية لعبة تساعد على تمضية الوقت. وبعد أن لعبا لبعض الوقت توقف عمر وصار يقذف الحصى نحو الهاوية في قرف. تنبه الحرس إلى ما يفعله. ارتفعت أصواتهم بالشتم والصراخ. عاد أحمد غاضبا إلى داخل غرفة السجن وتبعه عمر. أدرك أن أحمد غاضب من افساده جو الفسحة التي يقضيانها خارج السجن. عاد إلى جدّه السابق قائلا:

ـ لا أدري لماذا لم تتحرك المنظّمات الدولية المهتمة بالأسرى للمطالبة بالافراج عنا؟ بعض المنظمات الدولية تتحرك إذا حدث في عدن حالات اعتقال.

ـ نحن في قبر لا يعرفه حتى الشيطان نفسه.

أصابت هذه الفكرة أحمد بالدوار والغثيان. نهض من باب السجن وانزوى في زاوية ينظر عبر النافذة إلى الأفق البعيد. يتمنى لو يستطيع البكاء دون جدوى. يحملق في الجبل كأنه يتقرى شيئا محددا في حين لا يرى شيئا البتة. كأن غشاوة داخلية قد أعمته. التفت فجأة نحو عمر قائلا: ـ لا بد أن نفعل شيئا لقهر هذه الكآبة.

ـ لا فائدة. فكرنا في كل شيء. لا تتعب نفسك. نم مرتاح البال. فعلنا كل ما يجب أن نفعل في مثل هذا الحال.

ـ لا. لا. أحيانا أوافقك على هذا، وأحيانا أحس اننا لا نفعل ما يجب أن نفعل. لا نفكر كما ينبغي.

ـ استنفذت كل حيلك وألاعيبك يا فقيه. لا جدوى. دعنا نخلد إلى النوم.

- قل دعنا نموت.

- لا فرق في حالنا بين الحياة والموت. ربما كانت الحياة أشق وأكثر مهانة.

وفي المساء جربا كل الوسائل التي ألفا تمضية الوقت بها خلال الأيام الماضية. لم تلق أي منها حماستهما. السأم يلف حياة السجن بكل تفاصيلها. اندفع أحمد يقرأ من محفوظه كتاب مولد الرسول قائلا في صوت رخيم:

الحمد لله الذي قد فضل بمولد الطهر ربيعا أولا

وخصه بأبرك الأعوام وأفضل الشهور والأيام

واصل القراءة في الظلام مزاوجا بين الشعر والنثر دون اكتراث لما إذا كان عمر يستمع إليه أم لا. استغرق في الدور وكأن جمهورا غفيرا يستمع إليه. ولما وصل إلى (لحظة الحضور) علا صوته قائلا: (فلما اشتد بها الطلق ولدته صلى الله عليه وسلم كأنه البدر في التمام) وقفز واقفا في مكانه. يداه مضمومتان إلى صدره، وسواد عينيه منقلب إلى الأعلى، وجسده منخطف إلى اللاوجود. مرتعشا في خشوع من جلال اللحظة. غائبا في لحظة اتصال بما وراء العالم الحسي. العرق يتصبب من كل مسامات جسده المنسحق تحت وطأة الإنفعال، وصوته يترنم:

مرحبا يانور عيني مرحبا جد الحسين

مثل حسنك ما رأينا قط يا وجه السرور

كان عمر قد بدأ بمسايرة اللحظة للتسلية. وحين رأى أحمد، في ضوء القمر المتسلل عبر النافذتين الصغيرتين، وقد غاب في لحظة مشحونة بالإنفعال، اندمج شيئا فشيئا بالموقف وقام في خشوع. ولم يلبث أن توحد باللحظة وغاب في داخل ذاته. لم يعد يرى ما حوله ولا يفكر بأي شئ وهو يردد بعد أحمد:

مرحبا يانور عيني مرحبا جد الحسين

واصل أحمد أداء التواشيح التي تنشد عادة في المولد النبوي وعمر يردد بعده تارة بحماسة وتارة أخرى بتلقائية آلية. وأخيرا غرق عمر في الضحك فتجاوب أحمد معه بلا شعور، فاستغرقا في نوبة ضحك متواصل حتى أخذهما النعاس. ناما نوما عميقا حتى طرق أحد الحراس باب السجن في وقت مبكر من الصباح غير معتاد. فتح الباب بحركة عصبية توحي أن في الأمر سوء. استيقظا منزعجين من مجيئه في هذا الوقت المبكر. دخل أحد الحراس منفعلا وصرخ بأعلى صوته: انهضا يا أولاد الزانية.

نهض أحمد من فوره وهو يفرك عينيه بظاهر سبابته في حين ظل عمر مستلقيا لا يفهم ما يجري حوله من شدة غلبة النعاس عليه. بادره أحد الحرس بتوجيه ركلة قوية إلى ظهره مشفعا إياها بأقذع الشتائم. أدرك عمر حينها أن الأمر جد وأن شيئا ما قد حدث لايدري كنهه. نهض بسرعة. ظل كعادته في مثل هذه المواقف صامتا وترك لأحمد مهمة الإستفسار والأخذ والرد مع الحرس. حاول أحمد من جهته أن يفهم سر هذه الزيارة الصباحية الصاخبة. سأل:

- ما الخبر ياجماعة؟

لم يتبرع أحد بالإجابة على سوءاله. زاده صمتهم توجسا وخيفة. ماالذي قد يكون جرى؟ لم يحققوا معهما منذ إلقائهما في هذا السجن المنسي. لماذا يستدعونهما اليوم بالذات؟

بادر العسكر الثلاثة بربط يدي كل منهما إلى خلف الظهر، وربطوهما بحبل كما حدث غداة أسرهما. همس عمر في إذن أحمد وقد علا وجهه شحوب الإحساس بالموت: (حانت النهاية). ظلت الاسئلة تتوارد على ذهن أحمد. لم يستطع الإطمئنان مثل عمر إلى نتيجة واحدة حتى ولو كانت الموت.

اقتادهما الحرس نزولا على الطريق الهابطة نحو باب غرفة الحرس، وأوقفا عند الباب والسلاح مشرع فوق رأسيهما. ظلا ينتظران نحو

ساعة في الشمس وحركة الحراس لا تتوقف حولهما توحـي بـأن الموقف خطير. ربما رحلا إلى سجن آخر. ربط الأيدي يدل على ذلـك. استبعد أحمد انهم سيغتالونهما. داخل السجن أنسب مكان لهذه الجريمة. لا شيء في الأفق يدل على اقتراب قوات الجمهورية من هذه الجهـة حتـى يغيروا مكان سجنهما. لا أصوات قذائف أو رصاص يدل على معارك بـالقرب من هذه المنطقة. رجح أن القوات الجمهورية تحاصر المنطقة كلها. ارتـاح في أعماقه لهذه النتيجة التي اهتدى إليها تفكيره فاطمأن اطمئنانـا شـديدا. أقبل أحد السجانين لأخذهما. نهض أحمـد موجهـا وجهـه نحو الطريق النازلة نحو أسفل الجبل، لكن السجان جذبه نحو الداخل وأجلسـهما أمـام الشاوش. لأول مرة يشاهده بهذا القرب ويتقرى ملامحـه. أذهلـه التشـابه بينه وبين الشاوش الذي عرفه في القلعة. تدويرة الوجه نفســها. الشـارب نفسه. الأنف المنحني نفسـه. الفم الواسـع بشـفتين شبه محروقتـين نفسـه. العينان الصغيرتان نفسـاهما. غطاء الرأس نفسه. الجنبيـة نفسـها. السـاقان النحيـلان نفسـاهما. لكـن الصـوت مختلف بعض الشـيء. صـوت ذاك جهوري يزمجر كأنه في غضب لا يتوقف وصوت هذا أقـرب الى صـوت المرأة منه إلى صوت الرجل. أيمكن أن يتشابه شخصان إلى هذا الحد؟ لعله الشـخص نفسـه بعـد أن غير صوتـه. خـاف أحمـد مـن أن يكـون فعـلا الشخص نفسه. سيحقد عليه لهربه الأول منه، وسيبالغ في التشـدد معـه. سيكون بينهما ثأر شخصي.

نظر الشاوش إليهما نظرة متغطرسـة وسـأل بلهجة فجة:

- ماذا فعلتما البارحة؟

تفاجأ أحمد بهذا السؤال. كاد يضحك. كان يتوقع أن الأمر جلـل. جعلته المفاجأة لا يحير جوابا.

أجاب بسؤال:

- ماذا فعلنا؟

أعاد الشاوش السؤال بصوت أعلى:

ـ ما هذه الضجة التي وصلت إلى آخر الدنيا؟

ـ نحن في راس جبل معزول لا يسمعنا حتى الجن.

ـ تكلم ((سوا)) وإلا علمتك كيف تجيب بهذا ((الصميل)).

أحس أحمد أن هذا الحيوان لن يتردد عن فعل أي شئ لإيذائهما. ومع ذلك يشعر بالإرتياح لأن الأمر ليس خطيرا. يشعر بقدر كبير من الحزن لأنهما لن يغادرا هذا المكان الضائع في هذه الجبال المنسية. كم تمنى أن ينتقلا إلى سجن آخر. من مشنقة إلى مشنقة فرج. ربما أتيحت لهما خلال الإنتقال فرصة للهرب أو الإشتباك مع السجانين. تمالك نفسه وأجاب بهدوء وثقة:

ـ كنا نحتفل بمولد النبي عليه الصلاة والسلام.

ابتسم الشاوش ابتسامة سخرية غطاها شاربه المنسدل بدون ترتيب فوق فمه.

ـ تحتفل بمولد النبي في شعبان؟

ـ الإحتفال بمولده صلى الله عليه وسلم جائز في أي وقت.

ـ نبيكم أنتم. نبي اليهود والنصارى. نبي الجمهورية.

ـ منعتم عنا الخروج للوضوء والصلاة. اضطررنا للتيمم بالتراب.

ـ لن تصلي حتى لو مرت السائلة من تحت شاربك. أنت جمهوري كافر. شيوعي. عقابك القتل على يدي انشاء الله.

راح الشاوش يكيل الشتائم المقذعة وأحمد يتأمل علامات التشابه بينه وبين الشاوش الذي عرفه في القلعة. يريد أن يتبين ما إذا كان الشخص نفسه أم لا. لو كان هو لذكره بهربه السابق من السجن. ما يحيره ان علامات التشابه بينهما كثيرة. تنبه لقول الشاوش لأحد الحرس:

ـ إذا كررا هذا الصراخ قطعتم لسانيهما حتى لا يقدرا على رفع صوتيهما من جديد. أعيدوهما إلى السجن وامنعوا عنهما الخروج للراحة. سنرتاح من شرهما قريبا.

أحس أحمد بالاطمئنان. ردد في سره المثل الشعبي (قتله وفيها ميعاد يحلها الله).

اقتادوهما نحو السجن. فكوا رباطهما وألقوهما في الداخل واغلقوا الباب من الخارج ومضوا.

ما كاد الباب ينغلق حتى عاد عمر إلى ذروة حيويته، وانطلق صوته ينشد ضاحكا:

مرحبا يا نور عيني مرحبا جد الحسين

واستغرقا في ضحك عال متواصل حتى خارت القوى وتراخت الأعصاب.

لا تنتظرهم يا أحمد. واجههم عند كل منعطف، وعند كل منحدر. خير وسيلة للدفاع الهجوم. وخير وسيلة لصد القلعة حشرها في الحدود. اخرج رافعا رأسك من باب بيتك في الواجهة قبل أن يرغموك على الهرب من الباب الخلفي. إن لم تذهب لمواجهتهم عادوا إليك بطبانات بنادقهم تضرب الأبواب والنوافذ والجماجم. هربوا هذه المرة من الباب الخلفي. فلتسد عليهم الواجهة. لا تدعهم يمرون. أغلق باب العودة في وجوههم بخوفك وبحبات العيون. تلق الطلقة في النحر. لا تدع باب بيتك الخشبي يتولى الدفاع عنك. دافع عن نفسك بنفسك. كن شجاعا في المواجهة كما كنت شجاعا في الهرب. الشجاعة في المواجهة وليس في الهرب. لا وقت تضيعه. الوقت كحد السيف. بينك وبينهم شعرة دقيقة، إن لم تقطعها نحوهم قطعوها في ظرف لحظات نحوك. إن لم تذهب إليهم أتوا إليك. ليس أمامك من خيار آخر. القلعة هي القلعة. والبواقي هي البواقي، والحبس هو الحبس. لا تدعها تعود ثانية إلى بيتك. ابسط دمك سدا بينك وبينها وليس باب بيتك الخشبي القديم. دمك وحده يستطيع سد المنافذ أمامها حتى تتطاير حجارتها وتطيش رصاصاتها في الفضاء الفسيح. لن تعود ببنادقها وحميرها، بل ستركب إليك من الحديد وانهيارات العصر

الجليدي. باب بيتك ما يزال يدافع بجلده الواهن. ستنهار هذه المرة البيوت قبل الأبواب ولن تجد متسعا من الوقت للملمة أوصال جسدك المتطاير في كل الجهات، قبل الهرب. تمددت ساحة المواجهة واتسعت. والموت متربص في كل خطوة من خطواتها. انتظار الموت جبن لئيم. والطريق مفتوح أمامك. لا تؤخر عمل اليوم إلى اليوم. انتماؤك كان دائما إلى الزبيري ونعمان. طر إليهما حيث كانا. جسدان أثيريان انتشرا في كل الجهات، وتوزعا في كل الأجساد. كن واحدا من تلك الأجساد النورانية الممتنعة على المذلة والهوان. أن تكون مع القلعة أم ضدها، هذا هو السؤال. تستجمع قواها لتغزوك في عقر دارك. فلتغزوها في مهربها. لا تعد إلى سلوك الباب الخلفي لبيتك أبدا. إذا عادت هذه المرة فأنت الجاني على نفسك، لأنك اخترت التشرد بدلا من المواجهة. أن تكون وطواطا وليس كلبا. أن تكون مطرودا وليس مطاردا. مظلوما وليس ظالما. اخرج من وكرك الذي تستعد منه للهرب.

يتابع بكل جوارحه تغيرات الوضع الجديد. أغرب ما فيه انشغال المذياع كل ليلة بقراءة قائمة طويلة من الترقيات للمؤلفة قلوبهم من العسكر القديم. تسترضيهم حتى لا ينضموا إلى القلعة الهاربة في الحدود. تحول الفرح في داخله إلى قلق وارتياب. عيناه مسمرتان بالأفق البعيد في أغلب الأوقات ترقب بزوغ شيء جديد لا يدري ما هو. يسرح بصره نحو الشمال فيعود خائبا. لم يعد ينظر باتجاه القلعة تحت ناظريه إلا لماما بعد أن هاجر بعض عسكرها فيمن هاجر إلى الحدود، والتحق من التحق منهم بالمؤلفة قلوبهم. وزهرة تخاف عليه من أن يعصف به هذا المذياع بعيدا عنها. لم يعد لها من رفيق حياة سواه بعد أن تخلت عن كل شيء من أجله. وتلك الأعراض اللعينة للحمل تأتي قبل الأوان في حين لم يكتمل شهران على زواجهما. لم تكن ترغب في الحمل بهذه السرعة. فرح الأيام الأولى من الزواج واطمئنانها الأسطوري يتبلد بسرعة مبالغ فيها. كانت تظن أن

هذا المعين النابض بالحب والحنان والإطمئنان لن ينضب أبدا. فرحه الغامر بظهور أعراض الحمل يتبخر بسرعة مذهلة. الرجال يفرحون بتلك الأعراض والنساء تتحمل العواقب والمشاق. قلق لا يبوح به يبعده عنها يوما بعد يوم. لعل المذياع اللعين مصدر شقائه وقلقه. أصبحت تكرهه كضرة أثيرة. لا ينشغل عنه بشيء آخر. يده ملصقة إلى قرصه تحركه ذات اليمين وذات الشمال بحثا عن خبر جديد، أو عن بشارة طال انتظاره لها، أو لضبط حركة الصوت حتى لا يختفي وتختفي معه الحياة. في حوار دائم معه، بابتسام أو في قلق أو خصام. يفرح معه ويغضب لغضبه ويضحك لضحكته وأحيانا يتجهم ويشتم.

فاجأها ذات يوم من ديسمبر قائلا:

- ساضطر لتركك للذهاب إلى صنعاء.

- ماذا تريد منها؟

- الجمهورية مهددة.

- وماذا تستطيع أن تفعل؟ دع أهل صنعاء يحلون مشاكلهم بأنفسهم.

- المشكلة مشكلتنا نحن. هم يستطيعون التكيف مع أي وضع والإستفادة منه.

- وماذا ستفعل أنت؟ دع صنعاء لأهلها.

- هل تتركنا وشأننا؟ ستعود البواقي. سأعود للهرب من العسكر.

- وأنا؟ والأرض؟ وطفلك الذي يوشك أن يقتحم حياتنا بهذه السرعة؟

- لن أتأخر كثيرا.

ذهلت لهذا القرار الخطير الذي اتخذه دون أن يشاورها أو يحدثها بما هو مقدم عليه. غضبت غضبا شديدا لإحساسها أنه يتغير بسرعة لم تتوقعها. لاحظ انزعاجها من نظراتها الزائغة ومن انفعالاتها التي تفضح غضبا كظيما. تعرف أنه عندما يصمم على أمر لا يعود قادرا على التفكير بسواه. وتعرف

أكبر أن اقناعه بالعدول عما نوى من المستحيلات. منذ أيام وهو حاضر بجسده فقط وغائب بذهنه عما حوله. أعصابه في حالة طوارىء دائمة، وحركته في المكان لا تستقر. ضيق النفس، حزين الفؤاد، كئيب الملامح. متبرم بكل ما حوله. حائرا بما عساه يفعل. لا يقنع لنفسه بأن يكون مشاهدا. يطمح دائما بأن يشارك ولو بدور متواضع في مسرحية الحياة.

بحر الحديدة غاضب وملتهب بحرارة شمس لا ترحم، ثائر ببراكين لم يشعلها أحد. شمس الحديدة تولد في الجحيم لكنها لا تحرق أكواخ العشش المنتشرة على امتداد البصر نحو بحر الرمال المغسولة بالملح. بحر هادر وشمس تصلي الجميع بأشعتها الملتهبة، وعلامات استفهام كبيرة ترتسم على صفحة الأفق من كل الإتجاهات، تحاصر الشاطىء الممتد بعيدا نحو الشمال ونحو الجنوب، وقلب مفعم بمشاعر متضاربة، ومشرب حتى الثمالة بهمس البحر ونسائمه. لأول مرة يرى الحديدة وأكواخها وناسها الذين أحرقتهم شمس الظهيرة، بعد سفر طويل بلا راحلة. بدت له أبعد ما تكون حين وصل في الهزيع الأخير من الليل مع قافلة الجمال التي لا حد لعددها. الحديدة لا تقبل الإنتظار. حين تنوي السفر إليها لا تجد متسعا من الوقت يسمح بالإنتظار ولو للحظات. الحديدة آسرة طاردة في الوقت نفسه. ما تكاد تصلها حتى تنتابك رغبة جامحة في مغادرتها. تمتلىء رئتيك بعباب البحر ودفء الشاطىء وغبار الصحراء. أوى إلى ساحة نشرت عليها سرر الحبال، المنشورة في العراء، ينام المسافرون عليها شبه عراة يتصبب منهم عرق غزير، وينطلق شخير متداخل بأنفاس البحر. لكل واحد شخيره الخاص. لماذا لا يميزون بين الناس بحسب شخير كل منهم. اعتاد دائما الخروج من مضيق إلى متاهة. يحث الخطى مستعجلا النتائج حتى يعرف حدود المغامرة التي يلجها الآن. ما تزال غير محددة الملامح. سيذهب إلى الزبيري ونعمان. سيعرف منهما كل شيء. سيضع نفسه تحت تصرفهما ليقوم بدوره المطلوب منه. سيتطوع للمشاركة في الدفاع عن الجمهورية

على أن يعود في موسم الزراعة. إذا لم يزرع حلت المجاعة. ألقى بجسده المتعب من وعثاء السفر على السرير. هجم عليه النوم بسرعة غير معتادة في هذه الأيام القلقة حتى أيقظته شمس الصباح الملتهبة كالجمر. فتح عينيه وتطلع فيما حوله. كانت غابة السرر المنتشرة في العراء قد اختفت. لم يعد في الساحة الترابية من ينام سواه. أسرع بالوقوف منزعجا من لفح حرارة الشمس تصلي جسده شبه العاري في هذا الوقت المبكر. أسرع بغسل وجهه ويده. وارتدى ثيابه وخرج يطوي الشوارع على غير هدى. تناول في أحدها فنجانا من الشاي بالحليب. مضى زمن على تناوله الشاي بالحليب. يشتاق إلى مذاقه اللذيذ، ونشوته الآسرة. كم تبدو بعيدة وحانية أيام الشاي بالحليب في عدن. كل ما فيها يدعو للحنين واللوعة. كم تبدو الآن أليفة وحانية بحلوها ومرها. آه يا عدن كم تبدين ساحرة وعصية. حتى طقسك الجهنمي يبدو محتملا وآسرا.

يا طائرة طيري على بندر عدن طال النوى زاد الهوى زاد الشجن

واصل تسكعه في الشوارع الترابية يقارن بين شوارع الحديدة ودار سعد وعشش الآبص كريم. شاهد في الطريق تجمعا لأناس يسيرون شبه عراة وقد أصلتهم الشمس بحرارتها وشوت جلودهم. مظاهرة صغيرة تتجمع وتطوف الشوارع. مضى وقت طويل منذ أن شاهد مظاهرة صاخبة في عدن. حرب تقليدها في قريته بين أناس لم يسمعوا بمظاهرة في حياتهم. استحال عليه انتزاع الهتافات من أفواههم، وانتزاع الخطوات من أقدامهم المثبتة إلى أرض حجرية صلبة. المظاهرات تحتاج إلى أصوات تزمجر من أعماق الحناجر وليس إلى أفواه. حناجر صلدة وحبال صوتية قدت من صخر. لا يتطهر الجسد الواهن من حدب السنين إلا بأن يلقى في خضم الحشد المنتشر في الآفاق. الجمع قليل. والتنظيم ضعيف. أين منها مظاهرات عدن. لا تظاهر إلا في عدن. خيط يربط الإنسان ومواني العالم البعيد، وحشود قادمة من كل المدن والقرى الضائعة، وأصوات هجرت كل الحقول والمراعي القاحلة. هتافات

متكررة، وحماسة مشتعلة بالنشيد، ورسل الأستاذ شرايين ممتدة من أول الحشد إلى آخره، يتحركون كالنحل يربطون أوصاله المبعثرة. لا كلل ولا ملل. تتغير الشعارات بسرعة البرق إذا تغير الظرف. ويتغير خط السير في لمح البصر. حضور طاغ. لا شيء متروك للمصادفة.

في هذا التجمع لا أستاد ولا رسل. كل استاذ نفسه. الكل يصرخ، والكل يمشي كيفما اتفق. الكل يردد شعارا واحدا. لا تجديد ولا تغيير. لا قصاصات مكتوبة يمليها رسل الأستاذ. لا أحد محمول على الأعناق. تمنى لو يبادر أحد إلى حمله ليقوم بدو الهتاف. سيستعيد ما تختزن ذاكرته من مظاهرات عدن. لا أحد ينتبه لوجوده. لو كان الأستاذ هنا لدلهم عليه أو لاكتشف موهبته التي لا تبارى ودفع من يحمله على الأعناق ليحرك الجمع وينشر الحركة في الأرض الموات. عدن مظاهرة حاشدة مثورة بين الجبال. الكل يستجيب والكل يشارك في حين أن الحشد هنا يمضي دون أن يلتفت إليه أحد.

اندفع لا شعوريا نحو التجمع الرخو وأخذ مكانا وسطا فيه. بذل ما يستطيع من جهد لتحريكه وإخراجه من حالة الملل وعدم الإندفاع. جلجل بصوته حتى كاد حلقومه يتفجر. دوى صوته فوق هدوء الجمع. لا أحد يستجيب. واصل الصراخ دون اكتراث بمن يستجيب أو لا يستجيب. لا أحد يلتفت إليه أو يأبه به. وفجأة أحس بجسده يطير بسرعة في الهواء. وجد نفسه يعلو الجميع، يراهم يلتفون من حوله يتجاوبون مع هتافه. اتجهت انظارهم إليه في الأعلى، وعلت أصواتهم بعلو صوته. يمضون كالمخدرين على وقع صوته الذي يعلو على صوت حركة المد والجزر في البحر. وحركة أقدامهم تغتسل في زبد الموج على الشاطيء الفسيح. ركز نظره في الأفق البعيد على امتداد البحر. أتاه من بعيد صوت أليف يناديه باسمه، يمازحه في لحظة انفعاله الشديد، ويهزه هزا عنيفا كاد صوته يختفي بسببه، وكاد يطوح به فوق هام الجمع الغاضب المندفع.

(غير معقول. هذا عمر. غير معقول). يالمفاجأة. عمر يحمله. أسرع بالنزول. تعانقا وسط الحشد المتحرك. نسيا الجميع. نسيا الحديدة وعدن، لجة البحر وزمهرير الظهيرة. علت ضحكتهما فوق هدير الجمع المندفع.

دله عمر على طريق التسجيل في عداد المتطوعين في الحرس الوطني. بمجرد تسجيل الإسم في دفتر صغير تصبح عضوا. لا يحتاج الأمر إلى أي إعداد. تستلم بندقية منقرضة وبضع رصاصات وتستعد للذهاب إلى جبهات القتال. من يعرف القتال ومن لا يعرف. من له خبرة سابقة في التعامل مع السلاح ومن لا خبرة له. تعطى مرقدا مؤقتاً في اصطبلات منقرضة بناها الأتراك لجيشهم، وخبزا منقرضا تأكل منه وتستعد للذهاب إلى أية جهة. لا أحد يهتم بما ستفعل وكيف ستقاتل. والتدريب خطوات يمشيها في ساحة تلهبها حرارة الشمس وحرارة الأرض. يحس بالوحشة في هذا المكان. ارتعش الجوا بهواء أخرس يصفع الوجوه والجدران المندثرة المشربة بالعرق، ويخترق مسامات الجلد حتى النخاع. يحس نفسه سجينا في هذا العنبر التركي الطويل المفروش ببقايا حصير استهلك حتى الرمق الأخير. أغلب سكان هذه العنابر هجروها وأصبحوا يقفون على الجانب الآخر في هذه المواجهة بين الجمهورية والملكية، والبقية مؤلفة قلوبهم ينتظرون ما تسفر عنه الجولة الأولى. ينظرون إلى هؤلاء المتطوعين بسخرية وريبة. الناس في رأيهم إما عسكر بالولادة وإما رعية بالولادة. العسكرة لا تكتسب لا بالتدريب ولا بالتسجيل في قوائم المتطوعين. والجمعة لا تصح إلا بإمام. اختلطت الأوراق والألوان في هذا العنبر بصعوبة. كل يلبس ما بداله، ويتدرب متى شاء، ويتحمس حتى يخرج حسده عن جلده. لا أحد يشرح لأحد ما هم مقدمون عليه. إلى أين سيذهبون، وماذا ينتظر منهم أن يفعلوا، ولا ما الذي سيحتاجون إليه في سفرهم. الكل متحمس، والكل مشغول عن الآخر، والكل يبتسم في وجه صاحبه. ومدرب يتبختر ويرعد ويزبد ببزته العسكرية ونجمته النحاسية على الكتف دون تأثير أو تحديد لما يريد أن يفعل، وسط

سخرية زملائه وعدم رضاهم. يعلقون على سلوكه تعليقات غير ودية توحي بجو يحبل بالغيبة والتآمر. وهذا الجو لا يوحي بالطمأنينة. يسرعون الخطى في ميدان التدريب هربا من حرارة الشمس ومن أسئلة جارحة تحاصرهم. يتضاحكون ويلهون ليخفون حيرتهم وارتباكهم. والحياة سلسلة تجارب ومغامرات متواصلة. لا تنقطع إلا لتبدأ من جديد. نظرة قلقة حائرة تعلو الوجوه. تصلب أحمد في مكانه من طابور التدريب منتظرا ما تسفر عنه الأيام من أجوبة لحيرته. لاذ بالضحك لسبب ودون سبب مع عمر. يواجه كل تصرف غريب بضحكة بلهاء هاربة من فم يريد أن يصرخ محتجا على هذا التدريب الذي لا يؤهلهم لا للقتال ولا للهرب. شيء واحد يتدربون عليه هو المشي، وهو لا يجيلون شيئا سوى المشي. فهم يمشون منذ لحظة ولادتهم حتى مماتهم. يموتون وهم يمشون نحو حتفهم، تمشي بهم الأماكن الهاربة أو التي لم تمتلك من الجلد والشجاعة ما يكفي لتهرب. لا يملكون من نعيم الدنيا سوى أقدام تمشي حتى حين يستغرقون في النوم. ومع ذلك يصر المدرب على تدريبهم على المشي.

وأحمد يقف في الطابور بجانب عمر في مشهد مضحك. هو بقامته التي تميل إلى القصر وصاحبه بقامته الطويلة النحيلة وشعر رأسه الأكرت العاري المحفوف بشريط أحمر. يحاول إضحاك صاحبه في طابور التدريب كما يفعل خارجه دون جدوى. يجد صعوبة في التقيد بإرشادات المدرب كما يفعل صاحبه. يرغب في أن يضحك حين يصمتون، وأن يلهو حين يجدون، وأن يجري حين يمشون، وأن يجرب البندقية التي في يده حين يقفون. يصوب المدرب نظراته نحوه بعدم رضى. يحس أن لحظة الشجار بينهما آتية. تتكون داخله مئات من الإعتراضات على هذا التدريب الذي يصلي الجسد ويهدر الوقت فيما لا يفيد. لا يفهم فائدة هذه الحركات الغريبة. لم يجربوا ولو لمرة واحدة إطلاق النار من هذه البندقية المليئة بالشحم المخلوط بغبار ميدان التدريب. لم يستطع منع نفسه من المطالبة

بتدريب المتطوعين على استعمال السلاح. نظر إليه المدرب نظرة عدائية صارمة أرغمته على الصمت خوفا من يندفع نحوه للإشتباك معه. لا يريد أن يرغم على ترك عمر. يحس بالأنس لوجوده معه. هو الوحيد الذي يعرفه في هذا الجمع منذ زمن. يطمئن إليه أكثر من غيره. قال له:

- آخر ما كنت أتوقعه أن أراك، وأن أراك هنا.

- أما أنا فكنت أتوقع أن أراك منذ وصولي مع المتطوعين من عدن على طريق تعز. أحس بك في كل مكان. أرى أشخاصا أظنهم أنت لكن أملي يخيب عند ما أقترب منهم. الآن أحدك بجانبي وهذا مصدر اطمئنان وأنس في نفسي. كنا في سجن عدن نسميك (الفقيه). بعد هربك صرنا نسميك الهارب. أي الإسمين تحب أن يلتصق بك؟

أجاب أحمد مازحا:

- الهارب أفضل. ابن كلب هرب ولا ابن ناس انغلب.

- إذا، سأسميك (الفقيه) لأغضبك بعض الشيء.

لم يتجاوب عمر مع مشاكسات أحمد في ساحة التدريب إلا في المطالبة بالتدريب على الأسلحة خوفا من إرسال المتطوعين للقتال قبل معرفة استخدام السلاح. وسرعان ما عمت المطالبة كل المتدربين الذي استجابوا لدعوته إلى الإضراب عن التدريب حتى يستجيب المدرب لطلبهم. وحينها تقرر تدريبهم على إطلاق بضع رصاصات من بنادقهم التشيكية التي لا يدري أحد كيف وصلت إلى هذا الميناء. بعض المتدربين ومنهم عمر يمسكون لأول مرة بندقية في أيديهم. لا يعرفون كيف يفتحونها وكيف يطلقون النار بها. وحين أطلق أول رصاصة أمسك بالبندقية بثقة وعناد وألصق الطبان بكتفه وشد على الزناد. انطلق صوت مدوي صم أذنيه، وقذفت به البندقية بقوة دفعها إلى الخلف بقوة طرحته أرضا وسط تضاحك الجميع. مضى يضحك معهم وكأن الذي أخطأ غيره، والمدرب يشتاط غضبا.

أتوا بسيارات تطوع المواطنون بها أو صودرت منهم لنقل المتطوعين إلى جبهة القتال التي لا يعرفون سوى أنهم سيتجهون نحو الشمال أو الشمال الغربي، نحو الجبال البعيدة المجهولة. الكل يصعدون إلى السيارات وجلين. لم يشرح لهم أحد ماذا سيفعلون، ولا طبيعة المنطقة التي يرسلون إليها، ولا أي نوع من المعارك سيخوضون، ولا ما يحتاجون إليه هناك. عمر وحده يتحدث عن الإنتصارات الساحقة الماحقة الخاطفة السريعة، في حين لاذ الجميع بصمت مطبق، كل يرسم في ذهنه ما يمكن أن يكون عليه الوضع الذي سيصلون إليه، وما ينتظرهم من مهمات، وكيف سيؤدونها ويعودون لأهلهم وبيوتهم. وحين تحركت السيارات تودع الحديدة قبيل الصبح بقليل حلت الأسئلة المكتومة في الصدور بلا جواب محل الحماسة والإندفاع. بدا لأحمد أن الزمن يمضي بسرعة مذهلة، وأنه لم يجد متسعا من الوقت حتى للتفكير بزهرة وجنينها الذي اقتحم حياتهما مستعجلا القدوم قبل الأوان.



Eng.muhammad Gh. Alsaedy

-٨-

مرت الأيام ثقالا لا تبشر بجديد. لا بارقة أمل تلوح في الأفق. التغيير الوحيد في حياة أحمد وعمر أن السجانين اعتادوا على وجودهما وأصبحوا ينظرون إليهما وكأنهما جزء من أشياء المكان. لا أحد يفكر بالإفراج عنهما، ولا مجال أمامهما للهرب. الكل مستسلم لهذه الحالة. حالة الركود. السجانون مرتاحون من عناء المراقبة المستمرة، وأحمد وعمر قادران على الخروج والدخول في محيط غرفة السجن دون رقابة شديدة. باب غرفة السجن يفتح في الصباح ويغلق بعد المغرب. وأحيانا يغلقه الحراس بعد انتهاء مقيل القات الذي قد يستمر إلى ساعة متأخرة من الليل. الجوع وحده سيد المكان. الخبز الجاف الذي يقدم لهما يتناقص أحيانا إلى قرص واحد في اليوم لكل منهما. والخرق التي ظلت فوق جسديهما بعد الأسر تمزقت وأصبحت تبدي أكثر مما تخفي. يشغل أحمد أغلب وقته بتنظيف أرض السجن. يزيل التراب المنقشع بيده بعناية شديدة. يتناول حجرا مسطحة يضرب بها الأرض برفق. يثبت التراب في مكانه حتى يبدو مسطحا ناعما. وعمر ينظر إليه في صمت أو ينام كأن الأمر لا يعنيه. كلما انقشع التراب بعد مرور الأقدام عليه عاد أحمد إلى ضربه في صبر شديد بالحجر المسطحة ليعيد له نعومة سطحه. يقول ان تسوية التراب يمنع القمل من البقاء فيه. البرد يزداد قسوة. الجسد

يرتعش. لا فراش ولا أغطية ولا ملابس. فكر أحمد بالاحتجاج لدى الشاوش. الحرس يتغيرون باستمرار. عزلة المكان تجعل السجان نفسه مسجونا. لا فرص لكسب النقود ولا للحصول على بنادق ولا للنهب. لا معارك ولا طلب لمقاتلين. من يريد العمل في سوق المقاتلين توجب عليه أن يغادر إلى أقرب سوق. بعض الحرس عادوا إلى قراهم في موسم البذار. والبعض رغب في رؤية زوجته وأطفاله. البقاء في هذا المكان غير مربح. الهرب منه مكسب. الشاوش وحده لا يستطيع مغادرة المكان لأنه ملزم بحراسة السجن.

عرض أحمد على عمر فكرة الإحتجاج على وضعهما. أسرع عمر بالإعتراض دون تفكير. لا يأمل بأي خير منهم. أضاف:

ـ لا فائدة من طلب الرحمة من هؤلاء الهمج.

ـ لن نطلب الرحمة. سنحاول تحريك الماء الراكد.

ـ سندخل في مشاكسة معهم تنتهي بضربنا أو إهانتنا. إذا كنت مصرا فاذهب لوحدك. يكفي ما جرى مع هذا المتوحش.

استمر عمر في رفضه القطعي لهذه المحاولة. وأحمد يحاول إقناعه بطرق الجد والهزل دون جدوى. لاحت الفرصة فجأة حين جاء الشاوش يفتش السجن لأول مرة منذ وصولهما إلى هنا. كان يمشي كأنه يقفز قفزا. شبه مهزوز. حافي القدمين. في نظراته حدة عدوانية. يحيط به ثلاثة من العسكر ببنادقهم وجنبيانهم و(صمائطهم) السوداء. دخل باب السجن متشاغلا بالحديث مع مرافقيه. بادر أحمد بالحديث قائلا (وعليكم السلام) وكأنما يحتج على دخولهم دون سلام. لمحه الشاوش بنظرة قاسية دون أن يرد. تظاهر بتفقد غرفة السجن بالنظر في جنباتها كأنما يفتش عن شئ ما. بادر أحمد بفتح الحديث والشكوى:

ـ نحن في السجن منذ زمن دون أن يهتم أحد بأمرنا. إلى متى نبقى هكذا؟ ما المطلوب منا؟

أجاب الشاوش بهدوء ولكن بامتعاض:

- انتما أسيران.

- متى تنتهي الحرب ويعود كل إلى أهله؟

- عندما يخرج المصريون الفراعنة من اليمن.

ذهل أحمد لهذا الجواب. سرت رعشة في أنحاء جسده. قال:

- هل جاء المصريون إلى اليمن؟ نحن لا نعرف شيئا.

- الحرب تتسع وعدد الأسرى يزداد وأنت تطالب بالإفراج عنك.

- لا فائدة من بقائنا هنا. أسرنا لا يفيدكم. اطلقونا نعود إلى مناطقنا ونلتزم لكم بعدم المشاركة في الحرب.

- ابق مؤدبا كصاحبك (وأشار بيده نحو عمر القابع في زاوية السجن كأنه مشاهد عابر طريق لا يهمه من الأمر شيء) وإلا اظهرت لك الوجه الآخر.

كان الشاوش يتكلم بصوت هادىء ولكن بشيء من الإنفعال العصبي. أحس أحمد بأعصابه تحترق في داخله. واصل الحديث وكأنه لم يلحظ انفعال الشاوش. صوته هذه المرة يسبق تفكيره. يسترسل غصبا عنه من شدة الضيق:

- بلغوا المسؤولين عنكم. اعرضوا عليهم مصيبتنا. نكاد نموت في هذا القبر من الجوع والبرد والحسرة. لا أثر للرحمة في النفوس...

تجاهل الشاوش حديثه وغادر المكان دون اكتراث. أغلق أحد مرافقيه باب السجن من الخارج. انطلقت من حنجرة عمر ضحكة عالية متواصلة. نظر إليه أحمد في البداية بانفعال راغبا في الإشتباك معه. يريد أن يشتبك مع أي كان ليتأكد انه ما يزال على قيد الحياة. وجد نفسه يضحك ساخرا من استغراق عمر في الضحك مع أن الموقف يستحق إقامة مأتم. اندفعت ضحكة من فمه ليجد نفسه يشارك عمر الضحك رغما عنه. واصل ضحكه دون سبب وجيه يدعوه إلى ذلك. أوقفه عمر بقوله مازحا:

- إخفاق جديد يا فقيه.

ـ لم نخسر شيئا. محاولة لم تنجح و لم تضر. قد يؤدي تكرارها إلى نجاح ما. لا أدري متى ولا كيف. لكن قد تنجح واحدة.

ـ أنت تحرث في البحر.

ـ على الأقل ضيعنا بعض الوقت. كسرنا روتين حياة السجن المملة ولو لبضع دقائق. بل استفدنا فائدة كبيرة. عرفنا بوجود جيش مصري في اليمن. إبشر. الفرج قادم.

ـ هذا تخريف. لا تصدق هذا البغل. لو جاء الجيش المصري لكان كل شيء انتهى بسرعة.

ـ ربما وصلت مئات قليلة من الجيش المصري لمساعدة الجمهورية.

ـ عبدالناصر ليس مثلك مجنونا ليرسل بضع مئات. لا. لا. هذا تخريف.

أصر عمر في عناد شديد على نفي وصول جيش مصري إلى اليمن وكأنه هو الذي اتخذ قرار عدم إرساله. بدا واثقا مما يقول بصورة غريبة. ومع ذلك أطلق هذا الخبر غير المؤكد خيال أحمد. هجمت عليه موجة أحلام متناقضة تنتهي كلها بخروجه من السجن والعودة إلى زوجته وطفله الذي لعله سيأتي وهو في الأسر. بدأ عادة التفكير بمفرده صامتا. يرسم المخطط تلو المخطط. ويخوض المعركة تلو المعركة. يشطب كل محال بلمحة ويخوض الحروب وينهيها في ثوان. يبني دولة وينقضها في ثانية أخرى. ظل فترة لا يحدث عمر عن هذه الأحلام. لأول مرة يبدو أحمد مبالغا في حلمه ويبدو عمر ميالا إلى الإعتدال. أسر أحمد لرفيقه ببعض ما يجول في خاطره. رد عمر ساخرا:

ـ افضل الحلم بزيادة ما يعطى لنا من الخبز. احلم بقرص خبز يسكن ثائرة الجوع الذي يكاد يقتلني. ينتابني خوف من أن لا يأتي يوم آكل فيه حتى أشبع. وأنت تبالغ وتحلم بما فوق المستحيل. بدأ السجن بالتأثير على

قواك العقلية. تتصور أشياء لا وجود لها. تحلم بالطيران في الفضاء الرحب بلا أجنحة. تصبر يارجل. لا تدعهم يفقدونك عقلك. كن شجاعا.

تضايق أحمد من كلام عمر كما لم يتضايق منه منذ التقيا. استفزه انه يعطيه درسا في الشجاعة فاحتد في رده عليه حتى كاد النقاش ينتهي بعراك. ومع ذلك ظل يختلق المبررات في خياله. يضفي عليها معقولية من رغبته في النفاذ من هذا المأزق الذي يزداد كل يوم انغلاقا. يحس بالحاجة إلى الحديث مع عمر عن أي حل. جعله حديث عمر عن الشجاعة يتردد. يحس انه يشكك في قوة احتماله. عاد إلى انكفائه. قل كلامه وعاد إلى العيش مع أحلامه منفردا. يغيب عن عالمه في نوبات حلم بقظة طويل. أحيانا يكلم نفسه دون أن يدري. أحيانا يحرك يده أو أصابعه كأنه يتكلم. وأحيانا يهتز جسمه أو تصطك اسنانه أو يقفز من مكان إلى آخر في حركة مفاجئة عصبية، أو ينتف شعر دقنه بعصبية شديدة. لاحظ عمر ما يضطرب في داخله من أفكار. تركه وشأنه في البداية. دفعه تكرار تلك الحركات لأن يقول له أخيرا:

- انتبه يا فقيه. فكر كما تريد، واحلم بما تشاء. لكن أرجوك أن لا تجن. أحتاج إليك عاقلا في هذه العزلة القاتلة. لا يهم أن لا نستطيع الخروج من هنا سالمين. لكن المهم أن نبقى معا. إذا خرجت من هنا أو فقدت عقلك سأقفز من أعلى هذه الهاوية.

ابتسم أحمد قبل أن يرد مازحا:

- لست قليل عقل حتى أجن.

أحس أحمد عندها أن حركات لا شعورية تصدر منه دون أن يدرك. أحس في أعماقه بحزن شديد. انطوى على نفسه في زاوية من زوايا السجن متظاهرا بالنوم مع ان الشمس لم تصل كبد السماء بعد معلنة قرب وقت الظهيرة. اصطرعت الأفكار في داخله حتى كادت تصيب دماغه بشلل يمنعه من التفكير. سرت في جسده رعدة، وغشته الحرارة. أحس بحبات العرق

تتكون على جبينه. غلبت عليه حالة هبوط عام في القوى. فجأة سمع ضجة خارج السجن. صوت المفتاح الخشبي في ثقب الباب يصل إلى مسمعه من بعيد كأنه يحلم. أصوات تختلط بعضها ببعض. جاهد لفتح عينيه. رأى الشاويش بشحمه ولحمه يقف خارج الباب ومعه حارسان آخران. اضطجع بتكاسل غير قادر على إدراك حقيقة ما يجري. رأى عمر واقفا قرب الباب يستقبلهم في صمت. ظل أحمد جالسا في مكانه. يحس بشيء من الدوار. صوت الشاويش يجلجل يأمرهما بالخروج معه. استعد الحارسان بالسلاح لمرافقتهما. نهض أحمد ومضى دون أن يسأل. كان عمر قد خرج قبله ينتظر خارج الباب. لأول مرة يمضي صامتا دون سؤال عن أسباب هذا الإستدعاء. منعه السأم وهبوط القوى عن السؤال. لا يفكر بأي سبب. يمشي كالحالم أو كالنائم. يتحرك دون أدنى اكتراث. مضى يتقدمه عمر والحارسان والشاويش من ورائهما. أطرق بنظره نحو الأرض. تتدحرج قدمه خطوتان أو ثلاث. يترك قدماه تتدحرجان حتى تتوقفان. لا يحاول منع نفسه من السقوط. لا يوقفه من التدحرج إلى الأسفل سوى جسد عمر الواقف أمامه. أحس عمر به كأنه يريد أن يستعجل خطوه. توقف. أفسح له الطريق كي يتقدمه. واصل أحمد سيره دون توقف. وصل باب غرفة الحرس تارة يمشي وتارة يتزحلق. وجد نفسه أمام زحام مسلحين لم يعتده من قبل في هذا السجن المعزول. البعض يجلس على حجارة. وآخرون يستندون إلى الجدار. والبعض واقف يتكيء على بندقيته البشلي أو الجرمل أو الكنده. تنبه لأول مرة لأصوات العسكر غير المعتادة. العدد كبير على نحو يثير الإنتباه. استغرب ذهوله عنهم في البداية. كيف لم يلاحظ عددهم الكبير وأصواتهم العالية وبنادقهم الجديدة. أفسحوا له الطريق كأنما ينتظرون وصوله. دلف إلى الداخل وعمر وراءه. انقشع الذهول عنه شيئا فشيئا.

الموقف جديد. لا بد من مواجهته. ليس الوقت وقت خمول واستسلام للكآبة. ألقى نظرة على المكان. صدم نظره مرأى رجل يلبس

ملابس رجال الدين من مسئولي الملكيين. يرتدي قميصا طويلا بأكمام واسعة معقودة إلى ما وراء العنق. وجنبية مغروسة في غمد فضي ملون بلون الذهب، ملصقة بحزام مزركش قديم. وجهه مدور تغطيه لحية كثة إلى حد ما بدأت تغزوها شعرات بيضاء في جميع جوانبها. حاجباه أكثر كثافة من شاربه. تركزت نظراته على أحمد منذ اللحظة الأولى لدخوله. تمالك أحمد نفسه بسرعة. سرت في ذهنه حالة من الصفاء والشفافية. أدرك من أول لحظة أنه يعرف هذا... عبد... لا يتذكر الاسم بالضبط. يتذكر الأخوين التوأمين المتصارعين على تولي إمارة القلعة. جالت هذه الأفكار بسرعة البرق في ذهن أحمد. أدرك أنه في مأزق. يعرف سخافة الأخوين المبعوجين وقسوتهما. سرت رعشة خفيفة في جسده. ربما عرفه. ربما تذكر التهمة التي لفقت له ولوالده وسجن بسببها لأول مرة في حياته. طمأن نفسه قائلا (لن يحدث أخطر مما حدث). لم يدع له عبده المبعوج كطبل مجالا للإسترسال في خواطره. بادر بسؤال غريب وقع على مسمع أحمد وقع الصاعقة واستفزه بعنف حين قال بعربية مقعرة:

- أأنتما مسلمان؟

رد أحمد بانفعال ودون تفكير:

- اسمي أحمد واسم أبي الحاج عبدا لله.

- لم تقل إنك مسلم؟

أجاب أحمد بانفعال شديد ودمه يغلي في عروقه:

- أنا مسلم، وأبي مسلم، وأهلي مسلمون منذ مجيء الإسلام وإلى يوم يبعثون.

التفت عبده إلى عمر الذي كان صامتا يتعامل مع من حوله بنفور شديد وكأنهم غير موجودين:

- وهل أنت مسلم؟

-...

ـ أنت، إذا، غير مسلم. أنت شيوعي.

ـ ...

ـ السكوت علامة الرضى.

تدخل أحمد بحدة قائلا:

ـ هذا جائز في عقد نكاح العذارى وليس في مسائل الإعتقاد.

تجاهل عبده تعليق أحمد دون أن يعنفه على الرغم مما في رده من استفزاز. وجه السؤال إلى عمر من جديد:

ـ أأنت شيوعي؟

نظر أحمد نحو عمر يترجاه أن يقول شيئا. أشاح عمر بنظره بعيدا وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة. تدخل أحمد من جديد قائلا:

ـ قسوة السجن أثرت على قدرته على الكلام وعلى سلامة عقله. أستطيع أن أجيب عنه من معرفتي به قبل أن يصاب بهذه الحالة.

ـ شهادتك غير مقبولة.

ارتبك أحمد قليلا أمام هذا الأسلوب العدواني. لكنه تمالك نفسه. وطن نفسه على المجابهة أيا كانت النتيجة. قال لنفسه (لن أترك له فرصة إذلالنا هكذا بسهولة). أجاب بصوت أعلى:

ـ نحن مسلمون. من كفرنا فقد كفر وفقا لنص الحديث النبوي...

قاطعه بحدة:

ـ انتما، إذا، مرتدان. تستحقان عقوبة المرتد.

اشتعلت النار في رأس أحمد من شدة الإستفزاز المتواصل. كاد يفقد صوابه. قال:

ـ لسنا مرتدين.

ـ نكثتم بيعة أمير المؤمنين.

ـ لم أبايعه. لم أكن في صنعاء لأبايعه.

ـ بايعته الجماعة.

- جماعته هو. بيعتهم لا تلزمني.

عند هذا الحد أدرك عبده أن أحمد يسخر منه. تحول من الكلام الهادىء إلى التهديد بصوت مرتفع. جلجل في نوبة غضب مصطنع بصوت يسمعه كل من في منطقة السجن:

- بايعته جماعة المسلمين يا عدو الله. أنت تستحق القتل لارتدادك.

- الحرب بين الجمهورية والملكية. ليست بين كفار ومسلمين.

صرخ بأعلى صوته في نوبة هيجان مفتعلة:

- عقوبتكما القتل. خذوهما من أمامي

وأشار بيده نحو الخارج في شيء من الغطرسة والتخايل. اقتادهما السجانون نحو باب السجن وأوقفاهما خارج الباب. تحلق العسكر من حولهما.

- (حارس ١): استعدوا لتنفيذ حكم الإعدام.

- (حارس ٢): هل سينفذ اليوم؟

- (حارس ٣): خير البر عاجله.

- (حارس ٢): لا يوجد سيف هنا.

-(مسلح من القادمين مع عبده): بالرصاص.

- (مسلح آخر): خسارة أن نضيع الرصاص. الواحد منهما لا يستحق قيمة رصاصة.

- (مسلح ثالث): بالجنابي أسهل.

- (حارس ١): السنة بالسيف.

- (حارس ٢): ننتظر إلى الغد. سنأتي بسيف.

- (مسلح): اقذفوهما من راس الجبل يتمزق جسداهما وتأكلهما الوحوش تكسبوا أجرا عندا لله.

جعلت هذه التهديدات أحمد وعمر يوقنان بأن لحظة الموت قد دنت. كان عمر قد استعد لهذه اللحظة منذ أسره. اقتنع منذ البداية أن لا رحمة

لديهم ولا إنسانية، وأنهم وحوش لن يقتنعوا بأقل من سفك دمه. كانت أيام سجنه أيام انتظار للنهاية المحتمه. حررته هذه القناعة من الموت بالتقسيط. اعتبر نفسه في عداد الموتى. ما تبقى من عمره وقت ضائع. مزيد من التعذيب قبل النهاية. انعكس هذا في التعامل مع سجانيه. واجه التعذيب والإهانة بعناد ولامبالاة في الوقت نفسه. كان يبدو دائم الشرود. يحتقر سجانيه ويتجاهلهم. يتعامل مع التعذيب والتهديد دون خوف. كأنما أصبح في عداد الموتى. لا يجزع من التهديد ولا يفرح لأي انفراج. لا يستمع إلى الإهانات. كأنها موجهة إلى غيره ممن لا يعنيه أمرهم. كلما استدعوه استجاب بحركة آلية كالنائم. يتحرك حيثما يطلبون منه دون أن ينطق بكلمة. لا يطلب الرحمة، ولا يسأل عن أي شيء.

أحمد يحاول أن يأخذ ويعطي معهم عله يشق ثغرة في الجدار السميك المفروض من حولهما. يبحث عن أمل ولو كاذب. يفكر دائما بالهرب. الهرب عنده هاجس لا يفارقه. طبيعة ثانية. يسكن أحلام نومه وأحلام يقظته. عندما سمع حديثهم عن الإعدام أصابه رعب حقيقي. لأول مرة يشعر انه أمام موت محقق. سرت في أعضائه رعدة الموت. لأول مرة يفقد القدرة على التفكير باليأس أو بالأمل إلى هذا الحد. فجأة وجد رأسه يضطرب بخواطر لا يفكر فيها عادة بهذا القدر من الحضور الكثيف. زوجته. أمه التي ماتت وهي تنتظر عودته من مهربه في عدن. طفله الذي لا يدري أولد أم لم يطق البقاء في هذه الحياة. أبوه في لحظات الموت. حمامه. استاذه. الحمار الذي كان أبوه يملكه. قطته التي انتهبها منه قط متشرد. عائلة التي لم يعد يرها منذ خرج للتظاهر في عدن ولم يعد. قطه الشريد الوفي. التوق إلى فنجان قهوة من تلك التي اعتاد شربها في نافذة بمجلسه المطل على وديان بن تعطر الجو بشذى أزاهيرها الزكية. أشياء كثيرة صغيرة وحميمة.

حين ربط السجان يديه إلى ما وراء ظهره وغطى عينيه وجد نفسه يجلس في صف دراسي مع عائلة. يتبادل معها الكراريس ويستذكر ما

غمض من الدروس. انتابته مشاعر غامضة كثيفة لا يدري كنهها. تحرر جسده من الأرض التي يقف عليها. خدر لذيذ يسري في عروقه. حالة وجد يعجز عن وصفها. ابتسامة طفل بديع التكوين تملأ المشهد. رائحة عطري. تلاوين متداخلة تحجب الرؤية. دم شفيف يحيط بالمشهد كله. أصوات ملائكية تملأ السمع. غاب عن عالم المحسوسات. سبح في سماوات لم ترها عين. لا زمان ولا مكان ولا حواس. فجأة، أحس بشيء غريب يجتذب رأسه ويطوح به في كل الاتجاهات. يشده بعنف. نور كثيف يملأ عينيه، وألم شديد يمنعه من الرؤية. شيئا فشيئا بدأ يتبين ما حوله. ما يزال إذا، في المكان نفسه. مسلحون يتحلقون في المكان. أحس بخيبة أمل شديدة. رآهم أشد قبحا من ذي قبل. بدا له العالم مستنقعا ينضح بالقبح والقسوة والتوحش. لماذا يعيش فيه؟ لماذا لم يسأل نفسه من قبل مثل هذا السؤال؟ أحس بحزن شديد لعدم تنفيذ تهديدهم بقتله.

ما يزال المسلحون يتحدثون عن قتله وصاحبه. سخر منهم في أعماقه. تجاهلهم. كان أكثر منهم استعجالا للموت. لا يعرفون انهم الآن لا يعاقبونه بالقتل. بل يلبون رغبة جامحة لديه لا تعادلها أية رغبة أخرى. فرح غامر يسري في عروقه عند التفكير بمغادرة هذه الحياة البائسة. نظر إلى عمر. لأول مرة يحس بوجوده منذ أن عصبوا عينيه. ابتسم له بود. تمنى لو يستطيع أن يقول له لا تخف يا أخي. الموت ليس عقابا. الموت فرح. الموت في ظرفنا حرية. لم يرد عمر على ابتسامته. كان شارد الذهن كعادته. لا يأبه بما حوله. ينظر في اتجاهه دون أن يشاهده في مثل هذه الحالات. اقتادهما الحراس من جديد نحو السجن. لأول مرة يحس أحمد بقدر كبير من الأسى. تمنى لو لم يعد. دفعهما السجان داخل السجن قائلا:

- استعدا لتنفيذ حكم الاعدام غدا.

(حكم). ود أحمد أن يسأله (متى حوكمنا؟). و (من حاكمنا؟). و (كيف صدر الحكم دون علمنا؟). لم تعد لديه رغبة في المناقشة. لا يريد

منهم حتى العدالة. يريد أن يستريح منهم. أن ينتهي بالموت قبل غيره. ما كاد السجان يختفي حتى صرخ عمر بأعلى صوته ضاحكا:

مرحبا يا نور عيني مرحبا حد الحسين

وأحمد واجم. متكوم في مكانه لا يتحرك. أقبل عمر نحوه بمرح. يتحسس عنقه ورأسه قائلا:

ـ كاد هذا الرأس أن يطير في الهواء بافقيه؟

ـ يذهلني تصرفك. قبل قليل كنت غائبا كالميت أو كالمعتوه. انتقلت الآن إلى صفحة مغايرة بسهولة عجيبة. أتمنى لو أستطيع مجاراتك.

ـ ماذا حدث؟ كدنا نقتل؟ فليكن. طز.

ـ أنت على حق.

ـ ولماذا هذا الحزن؟

ـ لأننا لم نقتل.

ـ العجلة من الشيطان.

ـ شيء ما تغير في داخلي. لا أدري ماهو.

ـ انس ما حدث.

انطلق عمر يشدو بأغنية عدنية عاطفية. لاحظ أن أحمد لا يستمع إليه. كأنه غير موجود. أدرك أن قرب الإعدام يشغله بقوة. قال مفتعلا ضحكة لم تطاوعه في الخروج من فمه:

ـ هون عليك يا رجل.

لم يرد أحمد على محاولاته الحديث معه. ظل كل منهما في مكانه دون حراك لبضع دقائق. كل غارق في دوامة من الأفكار المتناقضة. فجأة قفز عمر في فرح نحو أحمد قائلا:

ـ وجدتها.

ـ ...

ـ عندي خطة جاهزة للتنفيذ.

- هات ما عندك.

- نتسلل إلى غرفة السجانين وهم نيام. نستولي على سلاح نقاتلهم به.

- سنقتل قبل أن نقتل أحدا منهم. لا. لا.

- سنقتل بعد أن نكون قد قتلنا من استطعنا منهم.

- فلنفكر بخطة أكثر إحكاما من هذه.

- أتحداك أن تجد غيرها في ظروفنا.

- خطتي الهرب.

- مستحيل.

- خطتي الهرب المستحيل.

- كيف يا بطل؟

- إذا لم توافق عليها سأنفذها بمفردي.

- في هذه الحالة سأفعل أي شيء حتى الانتحار.

انتظر حتى آخر المقيل قبل أن يكشف عن خطته. كان العسكر في حالة هبوط بعد مضغ القات منذ الظهيرة. تسلل خارجا نحو حرف الجبل بين السجن ومكان الحرس. أتى بقطع قصيرة من حبال كان الحراس يستخدمونها لربط الحطب وسحبه من الشعاب الواقعة تحت السجن. جلب أيضا كيسين كان فيهما قمح قدمه الأمريكان مع بعض الأسلحة الخفيفة والمتوسطة. كان أحمد يمشي كالقط. لا يسمع لحركته أثر لكن في ثبات يوحي لمن رآه بأنه يؤدي عملا عاديا. عاد إلى السجن وعمر يراقب حركته بلامبالاة. كأنما يشاهد لعبة طفولية لا تثير لديه أي انتباه. سأله وقد نفد صبره:

- عجزت إذا عن العثور على خطة أفضل من خطتي. كنت واثقا من ذلك.

أجاب أحمد بابتسامة هادئة:

- هذه أدوات تنفيذ خطتي

مشيرا إلى الحبال والكيسين.

ـ هذه لعب أطفال تضيع بها وقتك.

ـ سنستخدمها للهرب.

أجاب عمر بسخرية:

ـ هل سنقطع أنفسنا أوصالا نحشوها في الأكياس ونلقيها من الهاوية إلى أسفل الجبل؟

ـ شيء من هذا.

ـ متى؟

ـ الآن.

ـ أما تزال بكامل قواك العقلية؟

ـ لم أكن في أي يوم أعقل مما أنا الآن.

لاحظ عمر أن أحمد يتصرف بصفاء ذهني وبتركيز شديد. أدرك أن الأمر جد. سأل:

ـ قل لي ماذا يدور بذهنك؟

ـ فيما بعد.

احتد عمر قائلا:

ـ لا. لا. هذي قضية حياة أو موت. لن أخاطر بحياتي دون أن أعرف على الأقل ما أنا مقدم عليه. هذا من حقي.

نظر أحمد نحو الخارج. تطلع في كل الاتجاهات. تأكد أن لا أحد يستمع لما يقول.

شرح خطته لعمر. عرض كل المخاطر والإحتمالات: القتل بالرصاص حال الهرب، الأسر من جديد، الإعدام بعد الأسر، الموت بالسقوط من الهاوية، الإصابة بجروح بليغة، أن يهلك أحدهما وينجو الآخر، وقد ينجوان وتفترسهما الأفاعي على طريق الهرب، وإذا حالفهما الحظ نجيا معا. وقد ينجو أحدهما ويهلك الآخر. هذه هي الإحتمالات. احتمال النجاح ضئيل. البقاء في السجن وانتظار الإعدام أصعب الإحتمالات كلها. ظل عمر يقلب

الأمر من كل الوجوه. بدا له مستحيلا. كلما حاول إقناع نفسه بتوفر نسبة ولو ضئيلة من النجاح عاد خائبا. سأل:

- أأنت جاد فيما تقول؟

- سأنفذ المحاولة بمفردي إذا رغبت في البقاء في السجن.

- هذا انتحار بطريقة ملتوية. أن نموت في اشتباك معهم خير ألف مرة من الموت المجاني الذي تقترحه.

- هذه محاولة توفر نسبة ولو ضئيلة من النجاح.

- مغامرة طائشة تبارز فيها الرياح وتصارع صخور الجبل.

- قد تكون هوج الرياح وقسوة الصخور ألين وأيسر من المأزق القاتل الذي يلف سلاسله حول اعناقنا ويخنقنا.

- هذا عمل جنوني.

- الجنون أيسر من هذا بكثير. نحن في ظرف يفرض احتراح ما هو فوق الجنون.

- مستحيل. مستحيل. مستحيل.

- اعتدتك شجاعا.

- مستحيل.

- سأنفذ المحاولة بمفردي.

فحص الكيسين من جديد. تناول أحدهما. جهز قطعة من الحبل. مد يده إلى عمر مصافحا قبل أن يخرج:

- أغلب الظن أننا لن نلتقي بعد اليوم. لن أنساك إذا قدر لي العيش. كنت أروع صاحب في أقسى محنة.

اغرورقت عيناه بالدموع من التأثر.

قال عمر:

- لن تودعني ولن أودعك. جئنا معا وسنخرج معا. لست مقتنعا. لكن لن أبقى بمفردي. هذا انتحار. فلننتحر.

شرح لـه أحمـد مـا يجـب أن يفعلـه بتفصيـل. خرجـا معـا إلى أعلـى الطريق المنحدرة المؤدية إلى أسفل الجبل مرورا أمام غرفة الحرس. انطـوى كالجنين في رحم أمه. تكور واضعا كفيـه فـوق رأسـه. هـز نفسـه حتـى تدحرج. هوت الكتلة نحو الأسفل. أحس بألم شديد من تتالي الضربـات والوخز بقوة على رأسه وجسمه من كل جـانب. كبـت صوتـه حتـى لا يصرخ من هول الألم. أنفاسه تعلو وتهبط بقـوة الصاعقـة. صـوت عمـر يدوي في أذنيه كالزلزال صارخا: مرحبا يا نور عيني مرحبا.....

رأى في الظلام البهيم شفتين رقيقتين لطفل وليد تبسمان له في بـراءة الملائكة. قبله في جبينه بحنـان. بسـط جنـاح الرحمـة فوقـه خوفـا مـن أن يصيبه البرد في ليلة ليلاء عاصفة. نام قرير العين كما لم ينم قبلها أبدا...



-٩-

يمشي مترنحا بين الحشود الفوضوية الزاحفة إلى ميدان التحرير. تغمره سعادة لا قرار لها، ويملأه فرح طفولي لا يحد. حر بين حشد مبعثر حر، وعصفور جذل عاد إليه جناحاه بعد طول جفاء. ود لو يعانقهم واحدا واحدا. يريد أن يغسل بأناملهم الغليظة عذابات السجن، ويعوض بابتساماتهم الوالهة ليالي العزلة القاتلة والأرق الممض على تخوم الغياب. ود لو يستمعون إلى ثرثرته المنطلقة من عقالها. سيحدثهم عن تجربته القاسية، عن عودته من القبر، وعن بطولات تجاوزت طاقات الجسد الإنساني لأناس مجهولين لن يسمع بهم أحد، وعن عار انهيارات لحظات الضعف وذلها المهين، وعن حاجات صغيرة لجسد صغير منسحق تحت وطأة أشواقه وعذاباته وقهره. عن حرس وطني بلا وطن، وعن وطن جميل بلا جند ولا قادة ولا أعلام ولا نشيد ولا نهب، وعن ملاحم لم يخضها جيش، وعن متاهات سفر بلا دليل، وعن إبحار بلا بوصلة ولا أمان، وعن خيانة مجانية، وعن صفقات بيع بالجملة والمفرق، وعن ليل بلا نهار، وعن صيام بلا إفطار، وعن عسكر من صلصال تفوح منه نتانة الغبار والملح. سيعبر لهم عن شوقه لهم فردا فردا. أبطال الجمهورية. إخوته وصحابته. سنده الذي لا يخيب. مأمنه إذا عز الأمان. مرجعه إذا فقد الإتجاه. أهله وناسه الذين لا غنى له عنهم في السراء والضراء. ود لو

يذرف دمعيّ فرح لوجوده بينهم. لكن. آه. قلبه يتفطر من الداخل باللوعة، وينطوي على هم دفين. حزنه على فراق عمر يفسد عليه كل فرحة. يشتاق إلى رؤيته كما تشتاق الأرض العطشى إلى المطر والأم إلى وليدها. والأخ إلى أخيه الشقيق. والصديق إلى صديقه الحميم.

لا يدري أتبعه في الهرب أم صعبت عليه المغامرة؟ يعرفه شجاعا مقداما لا يحسب للنتائج حسابا. ربما انتبهوا له بعد انزلاق أحمد نحو الهاوية فأمسكوا به وقتلوه. وربما أطلقوا عليه الرصاص قبل أن يصل الوادي. احتمالات كثيرة يقلبها في رأسه منذ وجد نفسه في الوادي يخرج من شرنقته، ملطخا بالدماء، ينوء جسده تحت وطأة الجروح والرضوض والكدمات في كل أعضائه. تلفت شمالا ويمينا وفي كل الاتجاهات بحثا عن عمر. لا يستطيع الحركة. يريد أن يمسك بيده لإخراج نفسه من الشرنقة. رجلاه لا تقويان على النهوض. (أين انت يا عمر؟ أحتاج إليك الآن أكثر من أي وقت مضى. لا تتركني وحيدا في هذا الخلاء الموحش. أخاف أن تأكلني الوحوش الآدمية قبل الوحوش غير الآدمية. أخاف من مواجهة المجهول بمفردي. احتاج إلى لامبالاتك. إلى اندفاعك. إلى مشاكساتك. إلى مناقشاتك غير المنطقية. إلى قناعاتك المبالغة في اطمئنانها إلى أنها تملك الحقيقة كاملة. إلى جنونك. إلى ضحتك تدوي في أحلك الظروف. إلى وفائك الأسطوري. احتاج إليك الآن كيفما كنت. أحتاج اليك).

لا يدري لماذا كلما فكر بعمر تعلق بأمل اللقاء به قريبا. كلما مر بجانبه شخص أو سمع صوتا تخيله عمر. يراه في كل عين وفي كل بسمة وفي كل من وما يقابله. يراه في كل شيء. يسمعه في كل صوت. من شقاوة الأطفال إلى أصوات الحيوانات. ما يزال الذهول الذي أصابه لفقده يمنع عليه استيعاب ما حوله. أنساه آلامه وجروحه. أنساه زوجته التي تنتظره ووليده الذي لا يدري هل امتلك مايكفي من الشجاعة واللامبالاة حتى يقتحم غابة الحياة بما فيها من قهر ووحشية.

عمر زوبعة صغيرة مـن زوابـع رمـال الصحـراء، ونسـمة عليلـة مـن نسمات الجبال العالية شديدة الإنحدار. ترعد وتزبد في غضـب مدمـر ثـم تهدأ هدوء الأطفال بعد يوم من اللعب الشقي. هجر قريته المعلقة كعـش الطير على خد جبل وعر هربا من وجه العطش والعسكر. فتح عيناه على رعي الأغنام والبقر والحمير. وما لبث أن وجد نفسـه بعيـد ذلـك بقليـل طفلا غض العود ألقتـه الأيـام العجـاف علـى قارعـة طريـق قفـر ومدينـة تائهة. تلقفه فاه مشوه لمخبازة تفوح منها رائحة السمك المشـوي والخبز المعجون بحبات العرق المقلي وأعقاب السجائر. غمس يده منذ البدايـة في الماء الساخن بغسل الصحون والآنية المعدنية في سنين أكثر سخونة. عمل يقيه غائلة التشرد والإنحراف، وسطح يوفـر لـه النـوم في الهـواء الطلـق لا فرق بينه وبين الشـارع الـترابي إلا بالإسـم. مثابرتـه وصرامتـه في ضبـط نفسه وإلزامها بالتخلي عن رغبة الأطفال في اللعب والشقاوة البريئة أهلته لأن يقدم الطعام للزبائن. ولأنه مبدع حتى في طفولته فقـد ابتكـر وسـيلة جديدة رشيقة لتقديم الطعام علـى الطـائر. يسـمع الطلبـات وهـو طـائر، ويبلغها للطباخ وهو طائر، ويتسلمها وهو في حالة حركة ليلقيها بسـرعة أمام الزبون برشاقة وخفة. وأحيانا تخونه الرشاقة فيسفح المرق على صدر الزبون أو في حجره مبتسما معتذرا. زبائنـه متسـامحون يغفـرون لـه هـذه الزلات النادرة بسبب نشاطه ولطفه معهـم. عمـال مجهـدون مكـدودون مغسولون بعرق أسود، ليست ثيابهم قبل سفح المرق عليها أنظف. مـزق فقدت لونها مبللة بسائل حار لا يختلف عـن المـرق إلا في النـوع. وعمـر يقطع المخبازة جريا بلا توقف كأنه في مـسابقة للعـدو لكـن ذهنـه مركـز ومنتبه لكل الطلبات في وسط الضجة العالية التي يضيق بها المكان. يـأتي الزبون إلى المخبازة ليجد متنفسا وظلا ظليلا في حر المدينة القاتل ومكانـا يأوي إليه لدقـائق مـن براثـن تشـرد ينشـب أظـافره في أحشـاء عشـرات الآلاف مـن كائنـات منبـوذة لفظتهـا الحيـاة بـلا اكـتراث في شـوارع

الأسفلت والجمر والغبار. وحين يأوي الجميع إلى تشردهم يبدأ عمر مشوار التحدي والغثيان وهو يحاول تنظيف أسطح بلا لون من أوساخ اختلطت بأحجارها وأسمنتها المندثر. يغالب طفولته وينتزع من عضلاته فوق ما تستطيع من قوى. يعمل بلا كلل ولا ملل. يتراكم الإرهاق فوق الإرهاق والتعب فوق التعب. لكنه ما يكاد يرتاح قليلا حتى تستعيد عضلاته قوتها ونشاطها بسرعة تشبه استعادة الرياضيين المتمرسين. أرغمت عضلاته على التكيف مع العمل المتواصل، فاختزنت طاقة لا تجارى على العمل. لا يشكو ولا يتذمر ما دام مقتنعا بعمله. يعمل كل عمل أيا كانت صعوبته وكأنه يؤدي واجبا لا سبيل إلى تجنبه. عرف بصوته الطفولي الناري يجلجل ويلح. يستوعب الطلبات قبل أن ينطق الزبون، ويكررها على الطباخ المرة بعد الأخرى وهو متحرك لا يتوقف دون تذمر من ذاكرة الطباخ المتبخرة كالعرق المتصبب من جسده. صوته يملأ المكان بحيويته وضحكته البريئة الودودة. يواسي المجهدين بكلماته العذبة، ويمازحهم ويهون عليهم مما يثقل كواهلهم من كرب الحياة.

حسن العلاقة بأولئك الذين حصلوا من أبناء قريته على نصيب واقعي أو وهمي من تعليم نظامي أو غير نظامي، وبخاصة الأستاذ سيف، وهذا ما جعل القراءة منذ سن الصبى سلوته في ليل الكد والضنى. مولع بالقراءة إلى درجة الهوس. يقرأ كل ما يقع في يده: مجلة، قصة، جريدة، رواية، أو أية ورقة. لا يهم ما يقرأ، بل المهم فعل القراءة ذاته. القراءة محرابه الذي يأوي إليه بعد فراغه من العمل وخيمته الظليلة في عراء الغربة. إذا قرأ انهمك وغاب بين غابة السطور حتى ينسى من معه وما حوله. صاحب المخبازة التي يعمل فيها يسميه لذلك مازحا (العلامة). إذا أراد أن ينبهه إلى خطأ ما قال ممتعضا (حقنا العلامة مشغول عن عمله). يتقبل عمر المزاح عن طيب خاطر دون تضايق، ويتصرف بتساهل كأنه لم يسمع ما قيل في حقه من انتقاد. يقرأ الكتاب أو المقال ويخرج منه بتفسيرات وتأويلات غريبة لا يتفق فيها مع من يقرأون الموضوع نفسه،

كأنما يعيد كتابة ما يقرأ على نحو لا يدرك الآخرون سر ما يكتب. يناقش مستندا في حججه إلى آخر كتاب أو مقال قرأه.

إجتماعي بطبعه. يحب الإختلاط بمن يلقى من المشردين القادمين إلى شوارع لا ترفض أحدا ولا تقبله، ولا تكترث إن كان ما يدب عليها قردا أم حمارا أم إنسانا. عرف الأستاذ سيف فيه ميله إلى المثابرة والوفاء والسماحة فوجهه بأسلوبه الشعبي البسيط نحو الإشتراك في المظاهرات المعادية للإستعمار بالتدريج دون أن يطلب منه ذلك مباشرة. يتناقش معه، ويزرع فيه قناعات جديدة دون أن يفطن إلى أنه وهو ما يزال طفلا يقتحم بعنفوان الصبا عالم الكبار المتمرسين بالعراك وحق الإختيار. ينجذب نحو تلك المتاهة في سهولة ويسر وإصرار حبيب إلى نفسه التي لا تأنس للتفاهة والغرق قبل الأوان. فوجيء صاحب المخبازة به يوما يستأذن دون مقدمات بالسماح له بالتغيب قبل وقت الغداء للمشاركة في مظاهرة. كان يعرف أنه يهوى القراءة ويسميه لذلك العلامة، لكنه لم يكن يتوقع أن يقتحم السياسة في هذا السن. قبل بطيب خاطر مشترطا العودة لتقديم الغداء للزبائن معلقا بأسلوبه الساخر:

ـ العلامة حقنا يريد أن يصبح زعيما كبيرا.

ومن يومها أطلق عليه مازحا لقب (الزعيم). يبتسم عمر لهذا المزاح دون أن يرد أو يعترض. يحلم بعمل يوفر له وقتا أطول للقراءة. لا شيء يضجره مثل دعوته للعمل في حين يكون منكبا على قراءة مقال أو موضوع. عنيد في أعماقه لكنه ودود باسم الثغر دائما. معتد بنفسه وبآرائه إلى درجة المغالاة. معتمد في معيشته على نفسه. تائه بلا أسرة تربطه أو يرتبط بها. عمله وحده يقيد حركته ويحد من اندفاعه وطيشه. وأبوه مهاجر ضاع مثل غيره في متاهة التشرد والغياب في بحر لا قرار له وقفار ضائعة مشردة مثله. وأمه تطلقت في طفولته المبكرة من أبيه وتزوجت وضاعت تحت بقرة عجفاء أو داخل بيت موصد النوافذ مخلع الأبواب. لا يفكر في العودة إلى قرية لا

تربطه بها حتى الذكرى، بعد أن أصبحت مواني البؤس والأسفلت المحروق قريته الأليفة وبيته المشرع على الآفاق السديمية. يعمل بلا كلل، ويقرأ بلا كلل، ويناقش بلا انقطاع، ويتسم لكل من يحدثه.

غير الأستاذ سيف حياته بالتدريج وأدخل عليها تجديدات بطيئة منذ استدرجه دون أن يفطن إلى دنيا القراءة والمظاهرات. تزلزلت حياته الحيوانية القاحلة وجمحت نحو آفاق كونية حالمة ينسحق فيها الفرد المهموم المكدود تحت حوافر الإنسان الملاك، ويهصر اللحم والدم بأنياب اللوحة الموقف. لم يعد يهتم بذاته أبدا ولا بحاجات جسده الذي يكبر ويغادر الطفولة ويقتحم حمى الشباب واندفاعه الواله. انتفخ رأسه ووجدانه بأسماء وتلاوين جديدة مثل فلسطين وعبدالناصر، والإستعمار، والإمام، والسلاطين، والجمهورية، والعدالة، والإشتراكية، والنقابات، والأحزاب. ينهمك في العمل في مخبازة تفوح منها رائحة السمك المشوي والعرق الحار ورأسه هائم بهوى العالم البعيد الفسيح. قريته الصغيرة المشنوقة بأعمدة الجبل أبعد مكان في الأرض. خارج التاريخ وخارج أحلامه. لا تخطر لا في أحلام يقظته ولا في أحلام منامه. ينسى بإصرار الصائم المتبتل حاجات جسده المتطاول النحيل بحيث لا يتذكر أن له زائدة دودية أو عضوا مذكرا حتى عندما يتبول. يحتضن الفضاء الفسيح وينام على قطع من الكرتون الممزق واثقا من نصر لا عين رأت مثله ولا أذن سمعت، لا يدري متى ولا أين ولا كيف. لا يسأل نفسه هذه الأسئلة الكمالية الفاسقة التي توحي برخاوة وكسل موروث من ذل الأقدمين ومن حليب أمهات أرخت أفخاذها دون تمنع. يؤدي دوره بتفان عز نظيره وكأنه راهب في دير، واثقا من أن الجموع، وإن كان لا يعرفهم ولا يعرفونه، يسيرون من كل حدب وصوب، الملايين تتلو الملايين، على الطريق نفسه، ويجهدون لبلوغ سدرة المنتهى التي نذر نفسه للمضي نحوها حتى آخر قطرة من طفولته الغاربة وحياته الضائعة.

ارتبط بالمظاهرات وكأنه بجسده الطويل النحيل سارية علم يتجمع حوله الحشد من كل مكان من المدينة الملتهبة بالغضب وبحرارة الشمس الحارقة. لا تتجمع مظاهرة صغيرة أو كبيرة إلا وهو في مقدمها أو محمول على أعناق السائرين فيها يرددون هتافاته التي كأنه يجهزها قبل أن يعلم متى وأين ستنطلق تلك المسيرة. وشاءت الصدفة المحضة حين قدم من عدن للتطوع في الحرس الوطني أن يلتقي بأحمد على شاطيء التظاهر. كان منذ افترقا قد اكتسب ملامح أكثر جدية وصرامة وبدا أكبر من سنه. جسد نحيل مكون من عظام صلبة بارزة وعظلات نحيلة لكن مفتولة قوية، وشعر الرأس أكرت مربوط بشريط أحمر على طريقة الهنود الحمر. يقوم بأعمال وحركات لا يوحي جسده النحيل أنه يستطيع القيام بها. شارب أزغب لا يكلفه وقتا في حلاقته، ولحية لم يبزغ منها بعد سوى شعيرات شهباء وإن تلون أكبرها باللون الأسود. صارم الملامح وإن لم يفقد ابتسامته الودودة حتى حين يستدرج للإشتراك في عراك. إذا اشتبك انهمك في ذلك الإشتباك بالحمية نفسها التي يؤدي بها أي عمل. ويخرج من الإشتباك مبتسما بلا حقد وبلا رغبة في الإنتقام. يعود للنقاش أو إلى العمل الذي كان بدأه قبل العراك وكأنه ممثل فرغ من أداء مشهد في مسرحية أوكل إليه دور المشاغب. إذا اشتبك تحول إلى كرة حديد ثقيلة تتدحرج وتضرب بقوة بكل جوانبها، بالرأس واليد والكتف والكوع والقدم الركبة والصدر والجنب. بسيط على نحو لا يتسق مع ميله إلى التفلسف والجدال في كل أمر صغر أم كبر. لكن بساطته غير متصنعة بل تصدر عن طبيعة شعبية أصيلة عمقتها ثقافته اليسارية. لا يتقن الخلط بين الألوان ولا تصنع المواقف والنفاق. لا يخشى أن يسمي الأسماء بمسمياتها ويقول للأبيض أبيض والأسود أسود صراحة وفي وجهه. لا يخشى أية نتائج ضارة ولا يحسب النتائج قبل الإقدام على أي فعل. يدخل السجن إذا استدعى الأمر كما يدخل أي مكان عادي دون

خوف أو تذمر. إذا استفز أظهر شخصية عصبية حادة المزاج تتبرعم من أعماق شخصيته المتسامحة. كريم مقدام. لا يحسب للنتائج أي حساب. يتخذ الخطوة ويقدم على الفعل وبعدها يفكر في النتائج. الفعل عنده سابق للتفكير. رجل فعل لا يهاب شيئا. لم يخلق للخوف. شغوف بالشعارات السهلة، والألوان الفاقعة، والجمل القصيرة الموجزة ذات الرنين والقافية. يحفظها بسهولة ويرددها بانتظام. يحب بصعوبة ويتخلى عن حبه على نحو أصعب. لكن إقناعه مشكلة صعبة. لاتختلط الألوان في مخيلته ولا يطيق تداخل الألوان والظلال وتشابكها، ولا الخطوط المنكسرة، وأحيانا لا يفهمها. وإذا فهمها لا يقتنع بها ولا تستهويه. يمضي منتصبا كالسيف. لا يكترث بما تحت قدميه. يمشي على الأشواك والعقارب والحيات دون أن يلتفت ليرى ما فعلت بأقدامه. نظراته مصوبة نحو الأفق البعيد كالزرافة ورأسه في الأعلى كالجمل حتى حين يخدم الزبائن في مخبازة المرق البلدي والسمك المشوي. لا يهاب الموت أبدا. الحياة والموت عنده لعبة سمحة ولكن ممتعة. يقترب من الموت بسهولة ويسر في أمور تبدو للآخرين بلا قيمة. متطرف في الحب ومتطرف في الوفاء. إذا أتيحت له فرصة ممارسة الجنس أفرط، وإذا أكل إلتهم أي طعام، وإذا صام زهد عن كل ملذات الحياة حتى المرخص بها حتى تخاله راهبا متطرفا في رهبانيته. وإذا ناقش لا يتوقف، وإذا تحمس بلغ ذروة الهيجان. وأحيانا يصمت وينزوي في نوبة محزنة من الكآبة والإحساس بالوحدة والعزلة. عنيد في آرائه بحيث يصعب إقناعه، لكنه إذا اقتنع بموقف جديد تحمس له بثبات. لا يدخن ولا يشرب الخمر ولا يمضغ القات وينظر إلى هذه المسالك باعتبارها مدعاة لضياع الطاقة والصحة فيما لا يفيد القضية. لا يكسب إلا القليل من عمله، لكنه يصرف ما في الجيب دون أي انتظار لما في الغيب. يهزه منظر جائع في الشارع فيعطيه

كل ما في جيبه من نقود أو ما في يده من طعام. يعيش اللحظة متلفعا بحلم فضفاض باهر دون أية رغبة للإلمام بأطرافه وزواياه المعتمة.

لكن زلزال الأسر صدمه بقوة وهز أعماق أعماقه، وزج به في غياهب الحيرة والإضطراب. كان قد أطل على عالم السياسة من خلال المظاهرات ضد الإستعمار. بسجن فتتحرك النقابات والأحزاب والمنظمات الدولية العاملة في مجال حقوق الإنسان. وفي ذروة اندفاعه الحماسي وقع في أسر عصر لم يسمع به و لم يخطر بباله أنه ما يزال موجودا. عصر لم يعرف بعد لا الإستعمار ولا الأحزاب ولا النقابات ولا الإنسانية ولا المظاهرات. عصر أخرس وأصم وأبكم. بعث من الكهوف عنوة ليصدمه في زهو استراحته الجميلة. اهتدى بعد اضطراب أليم وبحث مرير عن السلوى والهدوء إلى واحة ظليلة لم يجد في متناوله أية وسيلة للدفاع عن نفسه سواها، هي الإحتماء بالداخل الحصين في وجه بشاعة الخارج وقبحه. شطب الخارج من حساباته دون انتظار لأي شيء سوى هدأة الجسد المعذب بأي موت عاجل أم آجل، أليف أم غريب، لا يهم. لم يعترض على أي شيء في معاملة العسكر له، و لم يجادلهم في أي أمر. لا يكلمهم ولا ينتظر منهم أي شيء. لا ينتظر الفرج ولا يتذمر من عزلة الأسر. لا يأسف على الهزيمة ولا يفرح للإنتصار. كل قسوة تقربه من هدفه المنتظر. وكل تعذيب يقترب به من يوم الحرية الوحيدة المتبقية له. الموت قادم اليوم أو غدا. الأمر واضح في ذهنه. لا يحتاج لكد الذهن في محاولة معرفة لحظة حلوله. سخر منهم في أعماقه. تجاهلهم. نساهم وغرق في اللعب مع صاحبه المنتظر لتمضية ما تبقى من وقت ضائع.



-١٠-

ما يزال أحمد يستكشف المدينة الأليفة الغريبة. هـذه أول مـرة يصـل إلى صنعاء. لم يفكر في أيـة لحظـة بزيارتهـا قبـل أن تغير أقنعتهـا لتصبـح مدينة الزبيري ونعمان. كانت حممها تصليه سعيرا في جبله المنعزل البعيـد وتلاحقه في كل خطوة من خطوات هربه أو استقراره. تتعقبه بعناد أينما حل أو رحل. وحين قرر الذهاب إليها بنفس راضية ألقـت بـه في عبـاب هاوية لا يدري كيف نفد بجلده من غياهبهـا. وحين وصلهـا علـى مـتن سفينة النجاة بدت كالحة أكثر مما توقع. مغبرة كما لم يخطـر ببالـه أبـدا. تحيط بها جبال سوداء تضفي عليها مزيدا من القتامة. انضم منذ اللحظـة الأولى إلى طوابير المتطوعين القادمين مـن الداخـل والخـارج وبخاصـة مـن عدن. العرضي ثكنة خلفها الأتراك لهذه المدينة. فندقهـا الوحيـد وديـوان استقبال القادمين الجدد، وحده يفتح أبوابه أمامهم في مدينـة تنظـر إليهـم بريبة. بشيء من السخرية، وبشيء من الاحتقار. الجموع تجوب شـوارع المدينة المتربة، تبشرها بتغيير قادم. تثير فيها الخـوف مـن المجهـول. صنعـاء مهد الجمهورية. تريد منهـم أن يتبعوهـا، وأن يخضعـوا لهـا، وأن يتعلمـوا منها. الجموع الغريبة تحمل أفكارها الخاصة بها. كل يحمل فكرته الخاصة به. يجوبون الشوارع حفاة وأشباه حفاة. ملابسـهم الخفيفـة لاتحمـي مـن برد مع أن البرد ينهش أجسـادهم النحيلة. لا يأكلون ما يكفـي ليشبعوا.

ثيابهم مهرجان ألوان غير متناسق. لهجاتهم تفوق اختلاف الألسن في برج بابل. لهجات عدن والجنوب والوسط والشمال والغرب والشرق. لهجات جميع الجهات. جميع الجبال وجميع القرى وجميع الوديان. لهجات ضفتي البحر الأحمر وكثبان رمل الصحراء. يتحدثون إلى بعضهم البعض دون عناء. يصافحون بعضهم بعضا كأنهم أصدقاء منذ زمن. يفهمون بعضهم بعضا دون صعوبة. أحيانا بالإشارة، وأحيانا بالهمس أو الصراخ. يتبسمون لبعضهم البعض كلما التقت نظراتهم كأنهم يتعارفون منذ ما قبل ولادتهم. جمعتهم الأحلام والغربة والبؤس. والأمل. والحماسة لهذا المولود الجديد في هذه المدينة المحنطة. استدرجهم هذا المذياع الذي لا يكف عن الثرثرة. يوزع الأحلام ليل نهار بلا حساب. لا يكل عن دعوتهم لاقتحام عالم لا يعرفه حتى هو. عالم لا وجود له. يعدهم وعدا غامضا بعدالة قد تأتي وقد لا تأتي. يجلجل في مسامعهم كل لحظة، ويفتح لهم أبواب مدينة مسورة بأكثر من سور مرئي وغير مرئي. يدعوهم للموت دفاعا عن مدينة ليس لهم فيها سوى مرقد مؤقت في ثكنات منقرضة خلفها الأتراك. وحدها هذه الثكنات الأجنبية تفتح أحضانها لهم. ترتاب المدينة أمام هذا الحشد غير المألوف. تندهش أمام تنوعهم واختلاف لهجاتهم. تجعلهم مصدرا لتندرها وتعليقاتها الساخرة. تسميهم لغالغة، أو مولدين، أو قبائل، أو أخدام، أو رعية أو أية تسمية ساخرة، وتتكيف معهم بصعوبة. مدينة الحكم أمام حشد الهامشيين القادمين من كل صوب. تفتح أبوابها لهم وتسخر منهم. تغني لهم ساخرة:

دشمان دخل بالجلافه ومفرسه وزن طن

تزداد الحشود وتزداد الريبة والشك. يبدأ الشحار أحيانا. لا يهم. ود لو يحدثهم واحدا واحدا عن أشياء لم تعد ذاكرته تسعفه للحديث عنها. يتذكر أنه كان في الأسر لكن التفاصيل تهرب كلما حاول

الإمساك بها. تبدو لمخيلته التي خانته أخيرا تراكمات سديمية لا يستطيع فك طلاسمها. وحده عمر الذي ربما كان ما يزال ينتظر ما يفعلون لإنقاذه ظل واقفا كالطود الشامخ وسط المشهد المترجرج بسديم بلا ملامح. أحس من نظرات الحشد الودودة ومن ابتساماتهم الحنونة انهم يعرفون ما يريد أن يقول لهم دون حاجة إلى الإفصاح. ينفذون إلى القلب. يتحدثون لغة القلب. لغة تعلن عن نفسها فيفهمها الآخرون دون كلمات. ما بهم من شوق غامض للعدل المفقود وللبشارات الضائعة الموعودة لا تحتاج إلى لغة كي تصوغها. تعجز اللغة عن التعبير عنها. وحده القلب يستطيع أن ينفذ إليها. لا يهم أحمد لمن يهتفون ولا ماذا ينشدون. وجوده بينهم نعمة أكبر من أن يحيط بها. ود لو كان عمر معه. يمتح من هذا النهر البشري الذي نضب في السجن وكاد يسلب رمق الحياة منهما. عواطفهم ودفء مشاعرهم تجب حياته الماضية كلها بحلوها ومرها. هذا مولده الجديد. هذا مولده الوحيد. قبله عدم إلا عمر وزهرة البن الفواحة بعطر سرمدي في هذه الجبال المعزولة الموحشة. أحس ان المدينة ابتكرت هذا الحشد البشري الفوضوي احتفاء بسلامته. حشد يليق باستقباله. لا هو مظاهرة، ولا مهرجان، ولا طابور، ولا احتفال، ولا حفل زواج، ولا حلقات راقصة، ولا مسيرة صامتة، ولا جنازة. حشد فوضوي جميل، تجمع تلقائي مشتت ومضطرب، حشد وحدته الأحلام والضياع. يسيرون وعيونهم شاخصة إلى الأفق البعيد وأقدامهم تائهة على الطرقات الترابية الباردة. إنهم أجمل الثمرات الجديدة لمدينة عاقر وقد بلغت سن الشيخوخة واليأس. صرخ فجأة بشعار من مخزون ذاكرته منذ مظاهرات عدن. ردد البعض وراءه بحماسة، والبعض بحماسة أقل. اكتشف انه ما يزال غير قادر على الصراخ دون ألم. ما تزال احشاؤه مسكونة بألم ممض. لو كان عمر هنا لاستلم راية الهتاف منه وواصل بلا كلل. لا أحد يجلد عمر اذا تجلد، ولا يجده اذا جد الجد.

ما يزال حيا بلا شك. ليس من السهل التغلب عليه. قد يأسرونه من حديد. قد يعذبونه عذابا شديدا. ليس من السهل إخضاعه إلا اذا كان أجله قد دنا. عمر من النوع الذي لن يستسلم لأجله بسهولة. واصل أحمد الهتاف مع الجموع متحاملا على أوجاع جروحه. محاولا التغلب على آلام حزنه الدفين على غياب عمر وشوقه إليه قدر ما يستطيع. وجد نفسه يعود إلى سابق عهده. يصوغ الشعارات ويجمع حوله الناس ليرددوا وراءه. لا توقفه إلا وخزات الألم الممض في أحشائه.

يجتمع القادمون الجدد في العرضي فندق المدينة الوحيد، ومأوى القادمين المتطوعين بالقرب من باب اليمن. يحلمون بنصر لا يعرفون متى ولا أين. كل منهم يثرثر سرا وعلانية ويحلم ببرد غامض على ظلم القرون. يدربهم العرضي على الخطوات العسكرية حتى قبل أن يتطوعوا في الحرس الوطني أو في التكوينات العسكرية الجنينية. يزودهم بالمرقد والماء والخبز الجاف المخصص للعسكر والأيتام ويغذي فقراء المدينة كلهم (الكدم). يحسون ان تدريبهم لا يفيدهم كثيرا في القتال. العرضي مدخلهم إلى المدينة الجديدة. يمشي أحمد بينهم في مظاهرة من العرضي باتجاه باب اليمن. يتجهون عبر حارة النهرين نحو السائلة. يقطعون باب السبح نحو ميدان التحرير. يسير فرحا بالسلامة بعد أيام من الألم والضياع والعذاب. لا يعرف أحدا بين هذه الجموع. لكنه يحس بالألفة والبهجة بينهم. كل مكان بعد السجن جنة من الجنان. يتطلع في كل الجهات ليتعرف على ملامح المدينة. ما يزال في ملابسه التي تفوح منها رائحة الكيروسين من أثر الركوب من الحديدة إلى صنعاء فوق براميل الكيروسين طوال الطريق. عرضي صنعاء لا يختلف عن عرضي الحديدة. قاعات مستطيلة طويلة تعج بالقادمين الجدد ينامون جنبا إلى جنب في صفوف طويلة. تختلط رائحة الأحذية القديمة برائحة بقايا الكدم برائحة الأجساد البشرية لأناس قدموا من الريف أو من عدن، من جيبوتي أو من

الحبشه أو من السعودية والخليج. القليل منهم عائد من معارك سابقة. بقايا الحرس الوطني أيام عزه. يجمع كل منهم ما يملك من متاع قليل اذا وجد تحت رأسه. ينبعث من هذا المتاع رائحة كريهة تزيد اعتكار الجو. الكل يطالب بالتدريب على السلاح. الكل يستمع لشكواهم ولا أحد يستجيب. الكل يتذمر. الكل في حالة مؤقتة. ينتظرون شيئا ما. البعض ينتظر تحسين التدريب. ومنهم من ينتظر النصر. ومنهم من ينتظر تحسين وضعه. ومنهم من ينتظر الحصول على ترقية. ومنهم من ينتظر السفر. ومنهم من ينتظر الثورة الحقيقية. ومنهم من ينتظر العدالة. ومنهم من ينتظر التغيير. ومنهم من ينتظر العودة إلى قريته في موسم الزراعة. ومنهم من ينتظر أن يتغير وجه المدينة. ومنهم من ينتظر الإنتقال إلى الاستقرار في بيت. ومنهم من ينتظر أن يأكل في يوم ما ملء بطنه. البعض يحلم بالزواج من صنعانية أو على الأقل اقتحام شرشف المدينة المنزوية وراء الأسوار. الكل ينتظر. الكل مؤقت. الكل في حركة لا يدري أحد إلى أين. أحمد وحده مرتاح لأول يوم بين هذا الحشد البشري. يقف في الصف الواقف في الميدان ما بين وزارة الصحة والمدرسة. أنساه الحشد شمس صنعاء الحارة في الظهيرة. لا يهم. العرق يتصبب منه وهو يتطلع في الصفوف غير المنتظمة. في الملابس المتنوعة. في النظرات الحائرة. في الأجساد المنهكة. الكل يشترك لأول مرة في مثل هذا الحشد في صنعاء. لا يدري ماالمقصود به. وما المطلوب منهم. يطالبون بالسلاح. بالتدريب على سلاح. لا يستجيب أحد. الحرس الوطني حل وهؤلاء بقاياه وورثته. الحرس الوطني غير موجود رسميا. النية تتجه إلى تشكيل وحدات مدربة. وصول القوات المصرية بعث في اليمنيين شيئا من التواكل. لم يعد القتال كما كان في الأيام الأولى من الحرب، مسألة حياة أو موت. انتقل الجهد الأكبر إلى المصريين أو إلى مقاولي الحرب. حتى الحرب لها مقاولون. ادفع تحصل على موقع لا أحد يضمن ثباته تحت سيطرتك.

يبيعون نقدا. لا يضمنون البيع بالدين. والبعض يبيع للجهتين أو لكل الجهات. لم يعد أحد متحمسا بالقدر نفسه لتدريب المتطوعين. وصل أحمد في هذا الجو المتثائب. الحرس الوطني انتهى. حماسة المتطوعين لم تنته بعد. قدومهم يتواصل. العرضي يفتح صدره لهم دون اكتراث. نزلاؤه يقتسمون الكدم إذا دعت الضرورة. يستوعبون أي قادم قبل الحصول على أمر رسمي بقبوله. أكثر النزلاء غير مسجلين على قوائم المتطوعين. التسجيل بسيط. يكفي أن يذهب القادم إلى مسؤول يأتي نادرا، يسجل اسمه ليحصل على أربع كدم. يتدبر أمره بين المتطوعين في أية قاعة من قاعات العرضي. يذهب إلى التدريب في الصباح إذا أراد. يشترك في حلقات التذمر والشكوى والإشاعات في أية لحظة.

يستمع باهتمام لما يقول من اشتركوا في معارك خلال الشهور الماضية. مصدر الأخبار والحكايات الغريبة. قصص تفوق الخيال. عن رجال غريبين مثل هذه المدينة المسورة. عن أفعال عجيبة ومصائر غامضة لآلاف الناس. يستمع لكل ما يقال في اندهاش. صامت. منذهل. لا يصدق انه هنا. فرح بوجوده بينهم. لو كان عمر هنا لانشد إلى الإنشاد والهتاف. ولصار في سرعة وسط مجموعة الأصوات العالية. ينجذب إلى الجمع كما تنجذب النحلة نحو الأزاهير. تخيله قد أصبح في ظرف ساعة أو ساعتين محركهم الأول. يملأ الدنيا بعنفوان شبابه. المدربون قليلون. عاجزون عن ضبط حشد غير منضبط بطبيعته. لا هو حشد عسكري ولا هو مظاهرة منظمة. كرنفال مرتجل. كل يمشي كما يحلو له. كل يقول ما بدا له. لا قواعد مشتركة. لا أوامر. لا قوانين. الكل يمشي. كل يحلم بطريقته الخاصة. حشد يحركه كل من ارتجل هتافا أو صراخا. أحس أحمد أن صنعاء جميلة بهذه الجموع. بحركتها. بهتافاتها وأناشيدها. بتلقائيتها وفوضاها الجميلة. بانضباطها الذاتي. بتميزها الأخلاقي. وجد نفسه ينشد إليهم. يردد الهتافات التي اشتاق اليها في سجنه دون أن ينتظر

أن يرددها معه أحد. لا يهم أن يشاركوه هتافاته أو يشاركهم هتافاتهم. اندمج بهم ببساطة. بين الجمع دون أن يفقد شخصيته. سار بينهم كأنه وحيد. كأن الجميع واحد. بعيدا عن ظلمة السجن ووحشته. يحس مع ذلك بالراحة للتملص من اشداق الموت ليصل إلى هذه المظاهرة التي لا تبدو كالمظاهرات. لا هي مظاهرة ولا هي عرض عسكري ولا هي احتفال غنائي ولا حتى حلقة صوفية. رجال يمشون لا يدرون إلى أين. أسلموا قيادهم لهذه المدينة الغريبة عليهم. يريدون أن يفعلوا شيئا يعدهم لملاقاة عدوها، عدوهم. الجمع يضج بالهرج والمرج. لا أحد يستمع لأحد. لا أحد يقود أحدا. كل يفعل ما يظنه أصلح لهذا الحدث الذي لا يدري حقيقته. لم يقل أحد لهم ما المطلوب منهم. كل يفعل ما يجب في رأيه. ضاع أحمد في الزحام. لا يعرف الطريق. لا أحد يقود أحدا بين هذا الجمع. كل يذهب على طريقته. الجمع يمضي في فوضى منظمة عجيبة. لا حوادث ولا مشاكل. مضى مقتفيا أثر الجموع. انحرف من الميدان في اتجاه الجنوب حتى بلغ الطريق الأسفلتية الوحيدة. قطعها ومضى. دخل العرضي من الباب الغربي. لا يرى من حوله إلا الجموع تسير معا في الإتجاه نفسه فرادى وجماعات. لم يسع إلى تكوين معارف وصداقات. حزنه على عمر يجعله على غير عادة منغلقا عن الجميع. ما أشد حرارة شمس الظهيرة في صنعاء. تنفذ إلى العظام. يحس بالحمى. يتمنى لو يستطيع الاغتسال. هذا مطلب صعب المنال. بدأ يحس بالتعب. قدماه تؤلمانه من أثر المشي. وحلقه يلتهب. ورأسه يشتعل بالصور الكثيرة التي شاهدها منذ وصوله. الدهشة وحدها تمنعه من السقوط مريضا. الفرح بنجاته يستولي عليه. يملؤه باحساس غامض بالتفاؤل. التهم كدمة وشرب ماء من القصبة. ومضى للراحة. واستغرق في النوم.

أي معسكر هذا. ربوة عارية في سفح جبل شديد الإنحدار. لا مهاجع ولا خيام ولا ملاجيء، ولا مكامن، ولا دفاعات معدة يحتمون

بها. ألقي بهم كحصى توشك أن تتدرحرج من سفح الجبل إلى الوادي دون أن يمنع سقوطهم أي مانع. لا أحد في استقبالهم سوى مسؤول مدني يدعي أنه ضابط. حازم أكثر مما يحتاج إليه متطوعون غير مدربين اندفعوا من أنفسهم إلى مكان لا يعرفون عنه شيئا ولا حدثهم عنه أحد ولا أعدهم لمواجهته أحد. والضابط يصدر الأوامر بلا انقطاع في حركات عصبية افقدته منذ البداية أي تعاطف أو قبول بينهم. كل ما فهموا منه أنه سيقودهم، وأنهم قوة دعم للمركز المحاور الذي يرابط فيه مجموعة من العسكر القديم، وأنه يلزمهم أن يبدؤوا من أول لحظة لوصولهم بحفر مهاجع يحتمون بها من أي هجوم. لم يكونوا يعرفون أن مهمتهم المستحيلة هي منع هؤلاء العسكر من الإلتحاق بأعداء الجمهورية بالحسنى إذا أمكن، وبالقوة عند الضرورة. شيء واحد كانوا متأكدين منه، هو أن هذه القوة غير موجودة. لا تسليح مناسب، ولا خبرة قتالية، ولا مصدر ثابت للتموين. ولم يكونوا يعرفون أنهم سيعتمدون في مأكلهم ومشربهم على المركز الذي يحتله أعداؤهم المحتملون. تحلقوا حول مسؤولهم الذي لا يختلف عنهم لا في ملبسه ولا في هيئته. لا يميزه عنهم سوى أنه يصدر الأوامر وهم ينصتون إليه في وجل لمعرفة حقيقة ما هم مقدمون عليه، وأنه يعرف هذه المنطقة التي ولد فيها، ويعرف الناس واحدا واحد، بأشكالهم وأسمائهم. كل شيء سهل إذا. لا قلق. الأرض تحت أقدامهم رخوة، والتراب ما يزال نديا من أثر مطر قليل هطل قبيل وصولهم. تناولوا من فورهم المعاول والمجارف وشرعوا في حفر المكامن والخنادق لتثبيت أنفسهم على ظهر الجبل غير المضياف، وللإحتماء من الطلقات والقذائف والحجارة المتدحرجة من أعلى. أول ما عرفوه عن صعوبة وضعهم أن عليهم أن يتوقعوا هجوم العدو من كل الإتجاهات، وأن يحفروا مكامن محمية من كل الإتجاهات ولا يتركوا أية جهة مفتوحة تنفذ منها طلقات الرصاص أو قذائف المدفعية. أحس أحمد منذ البداية أنه

الحصار المبكر. جعلوا مداخل المكامن متعرجة تسمح بقدر أكبر من الحماية والإتصال. خططوا لأن تكون متواصلة فيما بينها لسهولة التحرك دون تعرض لأي خطر. لكن الجبل الصخري لا يسمح بذلك. كان عمر أول من أمسك بالمعول وأفرغ ما به من حماسة وحيرة في الحفر. لكن كفيه خانتاه بسرعة، فقد تورمتا بسرعة وحالت بينه وبين الإشتباك بصخور الجبل وتراب الأرض غير الرخوة كلما أوغل في الحفر. واصل أحمد الحفر حتى حفرا قبرا يكفي للإنحشار فيه وأخذ شيئاً من الراحة والنوم من تعب السفر المضني، ليواصلا الحفر في الغد. انحشرا بصعوبة داخل الحفر، الأقدام إلى الداخل والرأس إلى الخارج ليسهل عليهما الخروج. علق عمر قبل أن ينام ضاحكا:

ـ على الأقل إذا متنا نكون قد حفرنا قبرا ترتاح فيه أجسادنا.

ـ هذا إذا تركوا أجسادنا ترتاح في قبر.

ـ أو نقبرهم فيه.

ـ أما أن نقبرهم أو يقبرونا.

الوضع في المركز الذي جاءوا لدعمه خطير، ومسؤولهم يحاول إخفاء الحقيقة عنهم حتى لا يثبط عزائمهم منذ البداية. يريد لهم أولا أن يتعودوا على المنطقة وعلى التعامل مع الوضع العسكري الصعب بالتدريج. مصيره مصيرهم. يعرف من أهله وجيرانه أن المركز يستعد للتمرد، وأن الإشاعات على أشدها، وأن الذهب والفضة تدور في الأيدي والجيوب، وأن سوق الحرب يوشك أن ينشط وينتعش بسرعة. يحاول استخدام علاقاته الشخصية والأسرية بقدر ما يستطيع لكسب الوقت. يعرف أن انضمامهم يجعله ومن معه في حالة حصار لا أمل في الخروج منه. مهمته الأولى تقضي بمنعهم من التمرد بالحسنى باستخدام علاقاته المحلية. لكن السوق أقوى من أية رابطة دم ونسب. انضمامهم يعني سقوط موقعه استراتيجيا دون قتال، لأنه ببساطة يمنع عنه الغذاء

والماء، ويسد المنافذ والطرقات. استراتيجيا، الموقع ساقط سلفا، لكن أحدا لا يقول ذلك للمتطوعين قليلي الخبرة بالفكر الإستراتيجي العسكري، وبالقتال. ومسؤولهم ممن يحسن الظن بالناس. يراهن على مزيج من أوهام ونوايا طيبة. يذهب إلى المركز مرات في اليوم ليدرس الوضع ويحاول ما أمكن أن يمنعهم من اتخاذ الخطوة المنتظرة، لكنه يحرص على قضاء وقت المقيل بين المتطوعين تحسبا لأي مغامرة تحت تأثير القات، وخوفا من أن يؤسر ببساطة دون أن يفعل شيئا.

أرسلوا إليه قبيل غروب الشمس أحد أقاربه يطلبون منه الإنضمام إليهم أو البقاء في بيته حتى لا يتعرض للقتل أو الأسر. أدرك عندها أن ساعة الصفر قد حلت، وأن هجومهم لن يتأخر. شكر لقريبه هذا الصنيع بلطف مبالغ فيه كأنما يرجوه أن لا يتخلى عنه مثلهم، وطلب منه أن يؤجلوا الإقدام على أية خطوة إلى ما بعد لقائه بهم في الغد للتفاهم على مخرج. يريد أن يكسب وقتا لا يدري في انتظار ماذا.اشعلت النيران على أسطح المنازل وعلى الإكام القريبة. أيقن أنه يحاول المستحيل. ظن بعض المتطوعين أن النيران أشعلت على السطوح ترحيبا بقدومهم. نظروا إليها بابتهاج دون أن يدركوا أن وقت المعركة المؤجلة قد حل فجأة، وأنه لم يعد أمامهم أي خيار آخر. أما مسؤولهم فلم يفاجأ بشيء. يدب بهدوء دون أن يفصح عما يفكر به. جرب الحياة بحيث لم يعد يفاجئه شيء، ولا يثير استغرابه. واصل حث المتطوعين على تعميق الخنادق والمكامن وتحصينها وبخاصة من جهة المركز. سألوا عن سبب تحصينها من هذه الجهة وهي جهة موالية، لم يجب. بدأوا بالشك في مغزى هذه المشاعل الشيطانية التي التهبت في وجههم. الحصار شامل، والعدو يحيط بهم من الجهات الأربع، كأنهم أرسلوا عنوة ليحاصروا. كأنما تطوعوا ليكونوا رهائن في أيدي قطاع الطرق. والمسؤول يحث قريبه، الذي أسرع بمغادرة

موقعهم بعد أن شاهد المشاعل، على بذل ما يستطيع من مساعي حميدة للخروج بحل. أجابه بحسم:

- أخشى أن يكونوا يبحثون عن نصر سهل يبيعونه بثمن كبير.

- لن يكون سهلا. تأكد من هذا.

- أفضل لك أن تترك الخطابات العنترية لوقت آخر. وضعك لا يسمح لك باشتراط أي شرط حتى لو كان بسيطا. أقصى ما استطيع الحصول عليه أن أبحث لك عن مخرج يحفظ حياتك.

- وحياة جنودي.

قطع القريب حديثه حاسما، مسرعا بمغادرة الموقع، قائلا:

- لن تحصل على كل ما تريد.

ودع ابن عمه وفي أعماقه شعور بأنه يودعه لآخر مرة. أسرع بالطواف على المتطوعين في مكامنهم معلنا الخبر الصاعقة التي لم يكونوا يتوقعون أن تهب بهذه السرعة، وبهذه البساطة: إنهم محاصرون، من كل الجهات. لم يستطع عمر أن يتصور كيف يمكن أن يحاصر وهو لم يخض بعد أية معركة. لم يشتبك بأحد، ولم يقاتل أحدا، ولم يطلق بعد رصاصة واحدة ولو للتدريب. وإذا كان لا بد أن يموتوا فليموتوا وهو يفتحون طريقا ينفذ منها من يستطيع الخروج من الحصار. ما الحكمة من أن يختبئوا كالجرذان في هذه الجحور المحفورة في جلد الجبل. واصلوا الحفر في الظلام حتى منتصف الليل والذهول مخيم على الجميع في هدوء الليل ورهبة الموت الذي يحوم فوق الرؤوس. وحينها أوقف المسؤول العمل ليأخذوا قسطا من الراحة يسمح لهم بالعمل في اليوم التالي. لأول مرة يعمل أحمد وصاحبه دون نقاش. جفت الأفكار وخرست الألسن من هول الصدمة التي أصابت النفوس. وسرعان ما هجم النوم عليهما بعد يوم العمل الشاق في شق الجبل وقلع الأحجار ورفعها لتحصين المكامن. وبعد ساعة أو ساعتين من النوم العميق دوى انفجار مروع في الآذان

كأنه داخل حفرتهما. تتالت الإنفجارات بسرعة، أصوات قذائف مدفعية وطلقات بنادق. متمترسا، تمترس الجميع. أيقظهم دوي الإنفجارات. عبأ كل منهما بندقيته استعدادا للإشتباك. الظلام البهيم يخيم على كل شيء بعد أن كان القمر قد غرب واختفى آخر شعاع من أشعته التي توحي بالسكينة والإطمئنان. فتح أحمد عينيه على اتساعهما، يركز النظر لرؤية المكان لمعرفة مكان المهاجمين. لم ير شيئا. بدأ يطلق النار في اتجاه الشرارات التي تصدر عن طلقات بنادق المهاجمين، وتابعه عمر بإطلاق نيران من بندقيته. زحف المسؤول نحوهما آمرا بوقف إطلاق الرصاص، قائلا

- لا تضيعوا الذخيرة. دعوهم يطلقون ما بحوزتهم من ذخائر. خطتنا امتصاص الهجوم.

كان التوقف فرصة سمحت بتبريد البنادق الشيكي التي تسخن بسرعة بعد إطلاق طلقات قليلة وتحتاج كل خمس دقائق إلى هدنة مع العدو لتبريدها. إطلاق النار يجعل أحمد يشعر بأنه يتعامل مع المهاجمين. يرد على اعتدائهم. يصدهم. الإنتظار مقلق يثير الهواجس ويبث الخوف في النفوس. وعمر أكثر الناس عدم رضى عن خطة امتصاص الهجوم. المعركة أن تهاجم عدوك أو أن يهجم عليك. يده عاجزة عن الإمساك بالبندقية من أثر الحفر وحماسته مشتعلة. قال له أحمد مازحا:

- لن تشتبك معهم في عراك تناطحهم برأسك، أو تركلهم بقدميك، أو تضربهم بقبضتيك.

تواصل إطلاق النار حتى اقترب الصبح حين بدأت أشعة الصباح تنتشر في الأفق المحتقن بلون الدم. أسرع أحمد وعمر بعد دقائق بالإنصراف إلى مكمنهم فإذا بالمسؤول يستشيط غضبا ويصرخ بهما خوفا من أن يكون توقف إطلاق النار حيلة لإيهامهم بانتهاء الهجوم لتغطية الهجوم الفعلي. عادا إلى موقعهما يتضاحكان من جهلهما بأمور الحرب. وأكثر ما

يضحكهم ويبكيهم أنهم أرسلوا إلى هنا بلا أجهزة اتصال لطلب النجدة، ولا ترتيب لعلاقة بمناطق جمهورية قريبة تسمح بتزويدهم بالغذاء والماء عند الضرورة أو إرسال تعزيزات. ولا مؤشر على أن أحدا يهتم بهم أو يحاول إنقاذهم. معزولين عن العالم في موقع منسي من بلاد منسية. لا أحد يتكلم عنهم. والنقاش لا ينقطع بين أحمد وصاحبه حول تقويم الوضع ومدى الورطة التي وجدوا أنفسهم أمامها. وقعوا في مصيدة محكمة التدبير دون تفكير. لم يسألوا و لم يعترضوا. سلموا أنفسهم دون تفكير لمن أرسلهم إلى حتفهم دون تردد أو اكتراث أو حساب. لم يطالبوا بأية تحصينات ولا أسلحة ولا أغذية. تطوعوا للحصار وليس للدفاع. الورطة خطيرة، لا باب يرد البنادق يا أحمد، ولا زاد يسد الرمق، ولا ماء يروي ظمأ، ولا منفذ للهرب، والجبل أسمك من أن يحفروه حتى ينفذوا من جانبه الآخر. لم يبق أمامهم إلا التطوع في جماعات انتحارية للحصول على الماء والزاد. أو أن يأكلوا جثث القتلى منهم ومن أعدائهم. ولما تشاوروا مع مسؤولهم قرروا بالإجماع القيام بهجوم مباغت بعد المغرب بقليل حين يكون أعداؤهم مخدرين من مضغ كميات كبيرة من القات لاحتلال المركز والتحصن فيه للإستحواذ على ما به من ماء وزاد يسمح بالصمود لشهر أو شهرين بدلا من الهلاك في ظرف يومين أو ثلاثة في حال البقاء في هذا الموقع المعزول. قضى بعد الظهر يشرح لهم بتفصيل ويخطط بيده على التراب تفاصيل المركز بيتا بيتا، الدكاكين والمقهاية. البيوت المحصنة التي ينبغي احتلالها بسرعة والتحصن بها، والأماكن التي ينبغي تجنبها، والمداخل التي يجب أن يزحفوا منها. حدد لكل واحد دورا معينا. ورسم حدود المنطقة التي سيتحصنون بها لرد الهجوم المضاد. حدد موقع بركة الماء، ومدفن الحبوب، والأكمة التي ينبغي منع تحكم العدو بها بأي ثمن.

زحفوا من مواقعهم زحفا على صدورهم لا يرفعون الرأس إلا بقدر ما يسمح بالرؤية. أي خطأ سيكون ثمنه حياة الجميع. لا مجال لأي خطأ.

حياتهم رهن في أيدي كل واحد منهم. واصلوا الزحف وعدوهم واثق من أن أمرهم في حكم المنتهي، وأن موقعهم بلا أهمية عسكرية تذكر. وحين وصلوا المركز اندفعوا إلى مواقعهم المحددة واشتبكوا مع من فيها من العسكر، واستولوا على قنابل وأسلحة وذخائر تسمح لهم بالقتال. اشتعلت الأرض والسماء بالإنفجارات، ودوى المركز بأزيز الطلقات النارية في موجة كاسحة صاعقة لم يحسب لها أي من الطرفين المتحاربين حسابا. اندفع المتطوعون في زفرة مستميتة قبل أن يلفظوا أنفاسهم الأخيرة. زفرة انتحارية لا أمل لهم بعدها في الحياة، موقنين أنهم لن يخسروا فيها سوى جثث محكومة بالموت في أي الأحوال. فانتصروا انتصارا ساحقا. انتصروا في أن يطيلوا أمد حصارهم لأيام أو لشهور قلائل. فخلال نصف ساعة كانوا قد أصبحوا محاصرين، لكن داخل مركز يسمح لهم بالبقاء على قيد الحياة والدفاع لوقت قد يطول أو يقصر. تفقد المسؤول المركز شبرا شبرا، وتفقد الماء شبه الآسن، وموقع المدفن، ومكان المقهاية الخاوية، والبيوت العالية وقد جمهر بعض سكانها حتى إشعار آخر، وهجرها بعضهم. ود المتطوعون المنتصرون المحاصرون لو يناموا ولو لليلة واحدة في موقعهم الجديد، لكن من أين لهم أن يناموا وقد ازدادت المعركة اشتعالا بعد الاستيلاء على المركز. فلم يناموا لا ليلا ولا نهارا بعد أن تواصل إطلاق النار عليهم دون انقطاع من كل الجهات. وبدأت الإشاعات تردد أن بعض إطلاق النار يأتي من البيوت التي ما يزال سكانها يقيمون فيها. حصار شامل من داخل المركز ومن خارجه، وليل تشعل سواده القذائف، ونهار قلق مشتعل بالرصاص وبالإشاعات في انتظار الهجوم الأخير، أو الموت الأخير.



-١١-

بدا له أنه نام نوم أهل الكهف قبل أن يصحو وهو يفكر فيما ينبغي أن يعمل. لم يأت للبقاء هكذا بلا عمل. ضائع بين الضائعين. ينتظر بين من ينتظرون أي شئ دون حراك ودون مطالبة. لا أحد يفكر فيهم. لماذا لا يفكرون بأنفسهم. بدأت ملامح المشكلة تتوضح في ذهنه. لم يكن وضعه يسمح له بالتفكير بأي شئ. يريد الآن أن يعرف طريقه. ماذا سيفعل بعد. إلى أين يتجه وإلى من؟ أول ما يجب أن يفعله هو التفكير بوسيلة لإنقاذ عمر أو البحث عنه، والعثور على مكانه. سيعود لمهاجمة سجنه وإنقاذه. لديه كامل الإستعداد لقيادة مجموعة تتسلل لإنقاذه. أو على الأقل سيشارك في مجموعة تتولى المهمة. سيعرضون عليه قيادتها. لن يقبل من باب التواضع. سيصرون. سيحتاجون إليه. هو الوحيد الذي يعرف المكان. سيكتفي بوضع الخطة المحكمة. سيرسم خارطة دقيقة للمسالك. وبعدها يستطيعون تنفيذها بوجوده أو بدونه. من أين يجب أن يبدأ؟ لا يعرف أحدا في هذه المدينة يستطيع أن يستعين به. هذا فعل خير. لا يحتاج إلى وساطة. كل من يعرض عليه المشكلة سيتحمس لها. إذا كان لديه سلطة سيتحمس لها أكثر. سيوافق عليها بدون عناء. انه لا يطالب بشئ خاص به، وإنما يريد إنقاذ حياة أسير. كان يتصور أنه سيستقبل كالأبطال. وانهم سيهتمون به وسيسألونه عن المعركة التي

شارك فيها. عمن شارك معه. عن بطولاتهم. عمن استشهد وعمن أسر. من هرب ومن لا يزال ينتظر الحرية. سيسجلون أسماءهم. سيتابعون قضيتهم، بل قضاياهم. سيرتبون لمنحهم النياشين. سيركز هو على منحهم ما يساعد أسرهم على العيش. سيهتم بما لا تهتم به الحكومة. بمساعدة أطفالهم على التعليم مثلا. لم يسأله أحد بعد عن أي شئ. في نفسه حسرة لأنهم لا يعرفونه. سيعرفهم بنفسه. سيفرحون به وسيهتمون به. سيتواضع. سيقول لهم دعوني أنا واهتموا بالباقين. سيصرون عليه. سينزل عند رغبتهم. سيقبل من باب الاحترام لهم اهتمامهم به. هذا يجنبه الإحراج. ستزيد قيمته في عيونهم. سيزدادون احتراما له. عندها سيكون لكلامه وقع أكبر في نفوسهم.

بماذا يجب أن يبدأ؟ ومن أين؟ تذكر اللقب الذي كان عمر يطلقه عليه. قال لنفسه مازحا: الفقيه يبدأ بامتشاع قلمه وتسطير ما يريد قوله على ورقة. سيكتب إذا عريضة لم يكتبها ابن العميد ولا عبد الحميد الكاتب. سيكتب سفرا ستهتز له صنعاء والجبال التي تحاصرها. سيكون حديث الناس في هذه المدينة الغبراء البارده. سيشرح كل شيء بالتفصيل. سيبدأ من سفره من الحديده إلى المعركة. لا. سيبدأ من خروجه من بيته مهاجرا للدفاع عن الجمهورية. ستطول العريضة كثيرا. الأهم ان يشرح المعركة والحصار ثم الأسر والعذاب والهرب. هذا كثير جدا. سيحتاج إلى مؤلفات. حار في أمره. توقف عن كتابة أي شيء. لم ينم طوال تلك الليلة. أقلقه تلاطم الأفكار في رأسه. وفي هجعة السحر رقت مشاعره وصفى ذهنه فأمسك بالقلم وكتب دون عناء. يده تحرك القلم بسرعة ساحرة دون أية ممانعة. الأفكار تنداح في يسر وبصيرة. اطلق لقلمه العنان. لم يعكر صفو استغراقه سوى معزوفة أصوات متنافرة ترتفع من الميكروفونات. ليس الوقت وقت أذان الفجر. حاول الانصات لفهم ما تقول دون جدوى. أصابته رعدة الخوف. لأول مرة في حياته يسمع مثل

هذه الأصوات المتنافرة. مر ما بين (بسم الله الرحمن الرحيم) في مقدم العريضة حتى (وسلام من الله عليكم وبركات) في نهايتها كأنه لحظة خاطفة. لم يقرأها ثانية. كان في أعماقه مرتاحا مطمئن البال إلى أنه قال ما لا يستطيع قول ما هو أفصح منه ولا أبلغ. نهض من فوره خارجا. سينتظر طلوع الشمس حتى إذا حضر الموظفون إلى مكاتبهم سلمهم عريضته. ستتغير حياته بعدها. لن يبقى هنا في هذه الحظيرة مجهولا كالنكرات. سيبدأ العمل الجاد. ستبدأ الحركة الدؤوبة. انتظرني ياعمر. سآتيك عما قريب. لن تنتظر بعد هذا طويلا.

اتجه إلى الباب الغربي للعرضي. صعد الدرج إلى الطابق الأول. في ثلاث غرف صغيرة مقتطعة من العنابر الطويلة تقع وزارة الدفاع. غرفتان داخليتان مغلقتان تكونان مكتب الوزير، وغرفة خارجية فيها مكتبان صغيران يجلس عليهما ضباط يتناوبون الجلوس بحيث لا تعرف من المسؤول الأول فيهم. رتبهم واحدة، وأشكالهم متشابهة. يتبادلون الأحاديث والنكت ويتنازعون كاس شاي واحد. عساكر في ثياب رثة وأشباه عساكر ورجال قبائل يدخلون ويخرجون. سلم على الحضور فلم يلتفت إليه أحد. قدر أن أحدا لم يسمعه. رفع صوته بالسلام محتجا على عدم رد السلام. ردوا على سلامه ببرود ومضوا في أحاديثهم. وقف حوالي دقيقة أو دقيقتين ظنهما دهرا. سأل عن الوزير. رد ضابط جالس على أحد الكراسي بالفتور نفسه أنه غير موجود. سأل ان كان سيأتي ذلك اليوم. أجابوا انه غير موجود في صنعاء. أصيب بخيبة شديدة. مخططه الذي فكر به بعناية يجهض منذ الخطوة الأولى. ألح في طلبه مقابلة الوزير شخصيا. نظر كل منهم إلى الآخر باسما. أحس بجرح في كبريائه لهذه الابتسامة الساخرة الماكرة. طلبوا منه أن يترك شكواه للرد عليه. رفض رفضا قاطعا. سينتظر الوزير حتى يرجع. لن يضيره الانتظار لبضعة أيام.

جاء اليه أحد المكلفين بالتدريب وطلب منه الإنضمام إلى طوابير التدريب. أصبح هذا على كل حال شرطا من شروط الحصول على الغذاء والمأوى في هذه العنابر التركية المنقرضة. ابتسم وقال في سره: (من لا يعرفك يجهل قدرك. لا يدري هذا من أنا. لا يدري انني أسير هرب من أشداق الموت). فرض تدفق العاطلين على العرضي شروطا محددة للقبول. يستطيع أي متدرب أن يأوي اليه من يريد. يكتشفون بعد أيام ويطردون من ليس في القوائم. لكن القوائم مرنة. والحياة شبه مشتركة. ما كفي الواحد كفى الأثنين. والسعة في القلوب. والأبواب مغلقة مفتوحة. والأسماء متشابهة. يتغير الشخص والإسم باق لا يتغير. تتغير الوجوه ولا تتغير الأسماء في الكشوفات. والسعة في الجيوب. ريال فضي للكاتب يغير السجلات والقوائم. أعجبته هذه الفوضى الإنسانية. لا ثابت إلا الله. حشد من المجهولين النكرات يسير دون هدى لا يدري إلى أين. لفظهم التاريخ وأنكرتهم الجغرافيا. ضحايا قرون من الظلم والإستبداد. لا أحد يهتم بمصيرهم. فقاعة من الضياع على هامش مدينة لم تتحدد ملامحها بعد. مصائر ملقاة على قارعة الطريق ترنو في خشوع نحو أفق سديمي. سينتظر أحمد. لا يهم. أيام ويصل الوزير. لن يسلم عريضته لأحد. هذه جوهرة لا تلقى إلا إلى الوزير. لن يفهمها سواه. بقاؤه في العرضي مؤقت. هذا شيء مؤكد في ذهنه. لا هم له إلا انتظار الوزير للبدء بالأمور الجادة. رفض رفضا قاطعا المشاركة في التدريب. وجوده هنا لأمر أهم. فليدع الآخرين يتدربون. مكانه ليس هنا. مكانه العمل لإنقاذ عمر وأمثال عمر. لن يكرر تمثيلية التدريب الهزيلة في الحديدة.

أتاح له وجوده في العرضي فرصة سماع قصص أغرب من الخيال. عن مئات من أمثال عمر. مفقودين أو مأسورين أو مشوهين أو استشهدوا، لا يتحدث عنهم أحد. كل شخص في العرضي يحكي قصة

صديق له أو قريب أو زميل خندق أو جار. والبعض يحكي قصصا سمعها من آخرين أصبحوا بدورهم ضحايا. كل يتدبر أمره بصعوبة بالغة. لا أحد يجد من الوقت ولا من الإستجابة ما يجعله يهتم بمصير الآخرين. كل يحاول تدبر أمر نفسه في وجه صعوبات لا تحد، وحالة ضياع شامل، وفوضى منظمة. أحضر دفترا يسجل فيه أسماء المفقودين والأسرى مع شيء من المعلومات عن كل واحد منهم. قد يحتاج المسؤولون إليها. سيسألونه عنها وقت الحاجة. عندما يكلفونه رسم الخطط لمتابعة قضاياهم وتولي تحريرهم من الأسر، أو الإهتمام بأسرهم وأطفالهم. بدأ تسجيل الأسماء بهمة وعزم. يكتب الإسم بخط عريض واضح ويضع تحته خطا. ويكتب المعلومات عنه بخط أصغر. لاحظ أن أغلب المتدربين لا يعرفون غير الأسماء. المعلومات قليلة وأحيانا منعدمة. أسماء متشابهة. محمد. أحمد. علي. حمود. عبدالله. دبوان. بجاش. مكرد. عادل. شوعي. وديع. صالح. عبدالرقيب. عبدال... وأحيانا يذكرونهم بأسماء مناطقهم وينسون أسماءهم. العديني. الرداعي. العبسي. العدني. الريمي. الخباني الخ. والبعض يذكرون بأبرز ما فيهم من صفات: الطويل. الصغير. أبو شنب. المجدور. الأحول. الخ. وبعض تذكر ألقابهم دون أسمائهم. معلومات مشوشة. عن متطوعين جاؤوا من مناطق مختلفة من الداخل والخارج. جمعتهم الجمهورية لأول مرة وانتهت صحبتهم بسرعة. جعلتهم المعارك والأحداث المتلاحقة لا يجدون وقتا كافيا ليعرفوا بعضهم بعضا بتفصيل. بعض المعلومات التفصيلية تأتي من أشخاص يتحدثون عن أقارب لهم، أو عن أبناء مناطقهم. وهؤلاء قليلون. وأحمد يسجل كل صغيرة وكبيرة. يقابل بين الأسماء. يحاول تجنب التكرار. أذهلته كثرة الأسماء وتعدد القصص. زاد حزنه وتضاعفت حسرته. كان يريد إنقاذ صاحبه في الأسر. اكتشف أن المشكلة أكبر بكثير. عشرات الآلاف من الأسر المنكوبة وعشرات الآلاف من الضحايا وآلاف القصص. أدرك للتو أن

عدم الاهتمام به لا يعد شيئا أمام هول المأساة. لا أحد يهتم بأحد هنا. من غاب عن الناظر غاب عن الخاطر. موجة من الشعور بالقهر والإحتجاج تجتاحه. أحس من فوره برغبة لا تقاوم في الخروج في مظاهرة احتجاج. لا أحد من حوله يشعر بأن في الأمر أية غرابة. هذا يبعث فيه احساسا بالعزلة. تطلع فيما حوله. رأى صنعاء محاطة بالجبال. زاد أحساسه بالعزلة. يحس أحيانا بالضيق، وأحيانا بالضياع وعدم التركيز وهي حالة جديدة لم يعان منها من قبل. يتساءل أحيانا ما إذا كانت ذاكرته قبل الهرب من الأسر وبعده هي نفسها. كان يتمنى وهو سجين أن يصاب بفقدان الذاكرة حتى ينسى ولو لبعض الوقت ما يعاني منه. ربما تحققت أمنيته متأخرة لبعض الوقت.

يذهب كل صباح للسؤال عن الوزير، أحضر أم ما يزال غائبا. الجواب نفسه. ضع شكواك للرد عليها. يبتسم. ليس لي شكوى. عندي ما هو أهم. عندي احتجاج. في داخلي غضب. بركان من المشاعر يريد أن يتفجر. إحساسه بالكرامة والتفاؤل في السجن كان أعظم. ليس أمامه إلا الصبر. ضجة وتزاحم. انفتح المكتب المغلق. دخل حشد من الضباط والعساكر وغيرهم. أدرك أن الوزير وصل. انغلق الباب بسرعة البرق قبل أن يفكر بالدخول. حاول الدخول. نهره بصوت عال عسكري يقف عند الباب. أحس بإهانة شديدة. صرخ فيه:

ـ يا أخي أنا آت من الأسر لا أحد من أحدثه عن المشاكل...

ـ اكتب ورقة ودعها ليرد عليها الوزير.

ـ أريد أن أقابله شخصيا. عندي قضايا مهمة لعرضها عليه.

ـ ارجع غدا، إذا.

ـ ولماذا لا أقابله اليوم؟ الناس يموتون ولا يجدون من يهتم بهم...

رد بلهجة حازمة:

ـ لا داعي لكل هذا الكلام. اترك ورقة أو تعال غدا. لا تكثر الكلام. كلمة وعشر سواء.

ـ من يضمن لي أن أقابله غدا؟

ـ لا أحد. لماذا لا تذهب إلى رئاسة الأركان. هي الجهة المختصة.

ـ لم يقل لي أحد هذا الكلام.

ـ أنا أقول لك.

ـ قضيت أياما انتظر الوزير. لا بد أن أقابله.

ـ تعال غدا.

تحامل على نفسه. غالب مشاعره. أمسك أعصابه التي توشك أن تخونه. نزل الدرج مصدوما منهك القوى. كأنه قام بأعمال شاقة متواصلة لسنوات. يحس بشيخوخة تهاجمه قبل الأوان. بطعم القرف يسد عليه بلعومه.

كرر لعبة الإنتظار منذ الصباح حتى وصل الوزير. انفتح الباب الخشبي الذي يغلق المكتب التركي. ما كاد الوزير يدخل حتى كان أحمد قد قفز قبله إلى الداخل. هجم عليه الحرس. وولى هاربا منهم. لاحقوه. تحصن خلف الوزير ملتصقا بمؤخرته شارحا له مشكلته. أحاطوا به من كل جانب شاهرين السلاح. التصق بالوزير حتى كاد يبطحه على الأرض. أصابت الوزير رعدة الموت. ظنها محاولة اغتيال. وبعد أن تأكد أنه بدون سلاح تركه يجلس في المكتب والحرس يحيطون به. طلب منه أن يعرض مشكلته لينتهي منه ومن مشاكسته. اندفع أحمد يشرح ما حل به. دائما يبتدي من الحصار والأسر. لا داعي للتفاصيل السابقة. سرد كل شيء بتفصيل والوزير يتشاغل عنه بالحديث مع آخرين ويحثه على الإنتهاء. لم يفاجأ الوزير بما سمع. اعتاد كل يوم على سماع قصص مشابهة. زوغان بصره يعكس ضيقه. قاطع المتحدث قائلا:

ـ اوجز.

واصل أحمد حديثه كأن لم يسمع شيئا. زاد تضايق الوزير من هذا الاستطراد. مضى يتحدث مع الآخرين دون التفات إلى أحمد الذي غضب لهذا الانشغال عن سماعه. صرخ طالبا أن يستمعوا له. ابتسم الوزير عندما شرع في شرح خطته العسكرية لاحتلال المنطقة التي كان مسحونا فيها. لم يدعه يكمل حديثه. قطع عليه حماسته قائلا:

ـ اعطني هذه الورقة. سنتدارسها بما تستحق من عناية. عد غدا للرد وانشاء ا لله خير.

لم يدع له الحرس فرصة للجدل. أسرعوا بإخراجه. حاول التملص. كانوا قد أمسكوا به. لن يستطيع التملص منهم. نظر إلى الوزير مستنجدا. كان قد انشغل بالاستماع إلى آخرين. لا فائدة. خرج دون حاجة للإشتباك معهم. حزن لهذه المقابلة الباردة. توقع أن يبدأ الإهتمام به في الغد بعد أن يقرأ الوزير عريضته البليغة. انها عريضة تنشق لها الجبال ما بالك بقلب وزير. ترك المكتب هابطا الدرج وخرج إلى وسط العرضي. اتجه نحو الشرق ثم انحرف قليلا نحو الشمال. دخل العنبر الذي ينام فيه حزينا. ملأته رغبة في البكاء. ربما كان يضيع وقته. ربما كان الأفضل أن يعود إلى قريته. يعانق زهرته ويستريح في صحبتها من هذا العناء. يرى أن كان جنينها قد عاش ليرى النور. ترى ماذا سمته؟ كيف يعود وهو لا يملك نفقة السفر. كيف. كادت دمعة أن تطفر من عينيه. خال الجميع ينظرون إليه. كلما أشاح ببصره عن أحدهم وجد وجهه في وجه آخر. لا خصوصية في هذه العنابر. الكل يعيش مع الكل. لا مجال للإنفراد. تناول دفتره الأليف ليراجع ما سجل من أسماء. جاء اليه من يحمل أسماء جديدة. سجلها وواصل قراءة الأسماء والمقابلة بينها عله يكتشف تشابها يمكن شطبه. أصبح هذا الدفتر صديقه وأنيس وحدته التي تزداد كل يوم. كاد الدفتر أن يمتلي. سيأتي بدفتر جديد.

خرج مبكرا. يجتاحه أمل مجنون. ستنتهي هذه اللعبة السمجة اليوم. سيجد جوابا شافيا ينهي قلقه وحزنه لهذا الجفاء وهذا النكران. اتجه الى

مكتب الوزير كعادته منذ أيام. اليوم يختلف عن الأيام السابقة. الأمر بيد الوزير الذي سيجد الحل المناسب بلا شك. لا يوجد ما يدعو للاهمال وتجاهل الحقوق. عادت فكرة أن يكلف بقيادة مجموعة تفك أسر عمر تراوده من جديد. لن يتواضع هذه المرة. سينتهزون فرصة تواضعه لاسناد المهمة إلى من قد لا يكون مهتما أو أهلا لها. لا أحد ينتظر الآخر أو يلح عليه. الفرصة تسنح مرة واحدة. اذا لم تقبض عليها فاتتك إلى الأبد. فليستعد لأخذ الفرصة بسرعة ودون تردد. قطع العرضي دون أن يشعر. صعد إلى المكتب. استقام ينظر عبر النافذة نحو الطريق المؤدية إلى الحديدة. عما قريباً جدا سيعود عبرها لأداء مهمة انتظرها كثيرا وفاءا لأعز صاحب ورفيق محنته. أحس بيد تلكزه في الظهر بجلافة. التفت. وجد عسكري يناوله الجواب على عريضته. فتحها مستعجلا. قرأ دون أن يصدق عينيه. غير معقول يا أحمد. هذا ضحك على الذقون. هذه لامبالاة: (رئيس الأركان لاتخاذ اللازم حسب النظام). صرخ بأعلى صوته. مزق العريضة بما عليها من رد. شتم الوزير ومن أعطاه هذا المنصب. هاج كالمجنون. أمسكوا به لإخراجه. اشتبك بهم. انهالوا عليه ضربا حتى سال الدم من رأسه وفمه وأنفه وطردوه تحت تهديد السلاح إلى الخارج. منعوه من العودة تحت طائلة السجن. لن يعود إليهم بأي حال. لا فائدة ترجى منهم.

بدأت مشاكله تتعقد. أصبح معروفا في العرضي بأكمله لبحثه عن أسماء المفقودين. يأتي اليه المتدربون ليسجلوا في دفاتره التي يزداد عددها وتزدحم بالأسماء، أسماء من يعرفون أو أسماءا سمعوا بها من آخرين. يطلب منهم أن يشاركوه في العمل لإنقاذ من يمكن إنقاذه. لا أحد يستجيب. الكل يائس. يقول بعضهم:

ـ جربنا وأخفقنا.

ـ فلنحاول مرة ومرتين وثلاثا. لا بد أن ننجح.

ـ جرب. اذا نجحت وقفنا معك.

ـ احتاجكم كي انجح وليس بعد ذلك.

ـ لا فائدة.

الكل يشعر بضرورة عمل شيء ما، لكن لا أحد يريد أن يتحرك. كل مشغول بهمومه الخاصة. الكل في دوامة لا يستطيع معها أن يعمل شيئا. الكل يتدرب ليعيش ويعيش ليتدرب. كاتب العنبر الذي يقيم فيه يلح على حضور طابور التدريب. يمكن أن يعفيه من التدريب إذا أعطاه ريالا فضيا أو حتى نصف ريال. لكنه قرر أن لايدفع شيئا لتجنب التدريب والمضايقة. أيقن أنه سينتهي مطرودا. المتدربون كرماء. يغطون غيابه ويشهدون انه يحضر معهم. جميعهم غرباء مثله، والغريب يرحم الغريب. لكن اللعبة أصبحت مكشوفة. لم يعد قادرا على التهرب من كاتب التدريب كما في السابق. وهو مضطر للغياب لمتابعة قضيته. لن يتخلى عن رسالته قط. قرر الذهاب للإتصال بالرئيس. سيخرج باكرا ليسير راجلا إلى بيت الرئيس الذي سينصفه بلا شك. سيفهم مالم يفهمه الوزير. سيكافيه برتبة عسكرية، وربما منحه وساما أو شهادة تقدير على الأقل. فقط يحتاج إلى كتابة عريضة تشبه في بلاغتها العريضة السابقة. حزن لأنه مزقها. يجب أن يتمالك نفسه. لا داعي للإنفعال. الصبر ضروري. الإنفعال لا يحل مشكلة. القريحة تكاد تنضب من الإحباط. لا يحس بقدرة على صياغة عريضة تليق في بلاغتها برئيس ينبغي أن تنفذ الكلمات إلى عقله وتستولي البلاغة على مشاعره. عندها سيرق ويتأثر ويستجيب للمقترحات عن طيب خاطر. تعود أحمد الخروج إلى الوزارة والعودة منها في دقائق بسبب قربها من محل إقامته. بيت الرئيس في المدينة بعيد نسبيا. غيابه للذهاب إليه ملحوظ. زاد تركيز الكاتب عليه. وزادت مضايقته.

ومن يومها يسمونه في العرضي الشيخ أحمد. البعض في شيء من المزاح والبعض بلا اكتراث. بحكم العادة.

مرور الوقت جعل الدفاتر الصغيرة التي يسجل فيها أسماء الأسرى والمفقودين والشهداء من الحرس الوطني لا تكفي. أحضر دفاتر كبيرة وبدأ ينظم العمل بصورة أفضل. قسم الصفحة الواحدة إلى ثلاثة أقسام متساوية. كتب في أعلى كل قسم إسما ووضع تحته خطا عريضا يميزه عما سواه. وبدأ في السطر التالي بكتابة ما يحصل عليه من معلومات وترك الباقي لما يستجد من معلومات عن الشخص بمرور الأيام. لا يريد أن يضطر كما فعل من قبل إلى إضافة معلومات في الهوامش وبين السطور مما يجعلها تضيع بمرور الوقت. أصبحت دفاتره معروفة للجميع وسعيه محل احترام البعض وسخرية البعض الآخر وبخاصة الكاتب. يخشى عليها من الضياع أو العبث أو السرقة. أولاد السوء كثير. لا يريد أن يندم ساعة لا ينفع الندم. يتقاطر عليه كل من يريد أن يبحث عن صديق أو قريب مفقود. أصبح مرجعا يزود الباحثين عن معلومات تخص أقاربهم فيزودهم بما عنده من معلومات عنهم. عن محل أسرهم أو قتلهم. مكان تواجدهم في تلك اللحظة. يسألونه ان كان واثقا في معلوماته. يرد بأنه لا يدري وأن ذلك ما بلغه. ومرة جاءه أحد المتدربين يشكو وجعا شديدا في رأسه ويطلب أن يكتب له حرزا أو رقية تشفيه ظانا أن دفاتره كتاب طب شعبي. أجاب أحمد:

- اذهب إلى المستشفى.

- ذهبت ورجعت أكثر ألما.

حاول أحمد ثنيه عن مطلبه. لكنه أبى. أعطاه مازحا قصاصة جرائد لفها بإحكام ووضعها في جيبه. جاء في اليوم التالي يشكره على ما أعطاه من دواء شفاه في سرعة غير متوقعة. انتشر الخبر بين المتدربين فبدؤوا يتقاطرون عليه كلما أحس أحدهم بألم. وبعضهم جاء يشكو أمراضا قديمة لم يجد من يداويها. لا يدري كيف يتهرب منهم. طاردته سمعة

منذ ثلاثة أيام يحاول أن يصوغ عريضة بنفس بلاغة العريضة التي مزقها لكن التعبير يخونه بعد أن فقد التلقائية والقريحة التي أحس بها حين كتب الأولى. لا مجال أمامه سوى كتابة ما يستطيع. لم يعد لديه وقت. الأيام تمر وعمر وأمثاله كثير في الأسر. لا بد من الإسراع بعمل شيء ما.

بيت الرئيس. في حي متواضع لا يزيد ارتفاع بيوته عن طابقين أو ثلاثة من الطين العادي. القليل من الطوابق العليا من الطين المحرق. شوارع ضيقة تسير في صورة متعرجة شقت لتمر عليها الحيوانات. تجد السيارات القليلة وأغلبها عسكرية صعوبة في المرور عليها. كل الشوراع ترابية تنبعث منها سحابة كثيفة من الغبار حين تمر سيارات حراسة الرئيس. اتجه أحمد إلى هناك مشيا على الأقدام. لم يجد صعوبة في التعرف عليه مع انه لأول مرة يشاهد هذا الحي لأنه وجد في الباب الخارجي الكثير من أطفال الحي يتزاحمون للحصول من بيت الرئيس على الكدم وملء أوانيهم بالفول المطبوخ للفطور كما يفعلون صباح كل يوم. عسكر يدخلون وعسكر يخرجون. بعضهم يمنيون وقليل منهم مصريون بعد أن بدأ الناس يألفون مشاهدة الجنود المصريين يؤدون مهمات مثل حراسة الرئيس. حاول الاستئذان لمقابلة الرئيس. كتبوا اسمه. انتظر دون جدوى. تعلم الصبر. أناس بملابس عسكرية وآخرون بملابس غير عسكرية وبعض بملابس حديثة يدخلون ويخرجون. لا يفهم لماذا هو بالذات ممنوع من الدخول. سأل الحرس. تجاهلوا سؤاله. الجميع هنا يأتون لعمل شيء ما إلا هو. مفروض عليه أن يكون مشاهدا فقط. ظل يشاهد المسرحية التي تعرض أمامه حتى الظهر. بعد الظهر سمع اسمه في نشرة الأخبار بالراديو بين من قابلوا الرئيس وقد أضيف إلى اسمه لقب شيخ. اندفع المتلربون يسألونه:

- أقابلت الرئيس؟

- آأنت شيخ؟

البحث عن أسماء الأسرى والمفقودين وسمعة التطبيب بالرقى وملاحقة الكاتب له كي يحضر طابور التدريب. يحس بالإختناق. يستفزه أن كل من يسمع منه الموضوع الذي يهتم به يتحمس ويشجعه على مواصلة المهمة. لكن أحدا منهم لا يريد أن يشاركه العبء. يحس بالإحباط. لا يتقدم خطوة إلى الأمام. كلما ظن أنه على وشك الحل عاد إلى نقطة البداية. أحيانا يفكر بترك المهمة والعمل مثل بقية الناس كأن لم يعرف شيئا ولم يسمع شيئا. يتذكر عمر فتعود إليه عزيمته. ربما كان ما يزال بالإمكان انقاذه. يضع دفاتره في شنطة يد قديمة أعطاها له أحد المتدربين ويأخذها معه أينما ذهب خوفا عليها من الضياع أو السرقة أو العبث.

وصل في الصباح كعادته كل يوم إلى باب بيت الرئيس. لن يسجل اسمه اليوم كما يفعل كل يوم. لا يريد أن يذيعوا اسمه بالراديو بين من قابل الرئيس كذبا. لا يريد لقب الشيخ الذي يطلقه عليه إعلام الكذب والسخافة. لن يقبل بأقل من مقابلة الرئيس. لن يسلم عريضته للرد عليها أبدا. يعرف نتيجة ذلك سلفا. لن يدعهم يضيعون وقته. لديه ما يكفي من الخبرة للتعامل معهم. اتجه إلى ضابط من الحرس يبدو من إصداره الأوامر لمن حوله في صورة نزقة أنه ذو شأن. عرض مشكلته وطلب منه إدخاله إلى الرئيس قبل أن يخرج. سأله الضابط:

ـ ما وظيفتك؟

ارتبك قبل أن يقول:

ـ أنا أتدرب في العرضي.

ـ يعني عسكري؟

ـ...

ـ اذهب واعرض مشكلتك على قائد وحدتك وإلا اعتقلتك وأرسلتك اليه.

ـ أريد...

قاطعه الضابط بصرخة مدوية:

ـ انصراف.

كان الضابط حازما حازما بحيث لم يترك أي مجال للأخذ والرد. (غير معقول يا أحمد. كلما قربت خطوة بعدت عشرين خطوة. هذه دائرة مغلقة لا تدري من أين تنفذ إليها. ما العمل؟). يحاول من جديد. يحرص على تجنب الضابط الذي طرده. لا يراه دائما وهذا يترك لديه بعض الأمل. لا يوجد خيار آخر. اما أن يحلها الرئيس واما أن يذهب جميع هؤلاء الذين سجل أسماءهم والكثير من أمثالهم سدى. لا مجال لليأس أو التفاؤل. ليس لديه أي خيار آخر. يعود كل صباح إلى الباب متلصصا خوفا من رؤية الضابط. لم يره ثانية. اطمأن قليلا. لا بد أن يلزم الحذر وأن يحتاط للأمر. جاءه أحد الحرس. سأله:

ـ ماذا تريد؟

ـ أريد أن أقابل الرئيس لأمر مهم.

ـ ما هو؟

ـ قضية مهمة تخص الرئيس شخصيا.

ـ هل كتبت ورقة؟

ـ طلب مني أن أشرحها له شفاها.

ـ ما وظيفتك؟

ـ مستشار عام.

ـ انتظر. عندما يسعف الوقت سأدخلك.

ـ هذه مسؤولية يجب أن أؤديها. الرئيس مستعجل عليها جدا جدا ومهتم بها اهتماما بالغا.

تعلم أحمد اللعبة بسرعة. كلهم يدخلون عند الرئيس إلا هو. كل يدعي أن الكرة الأرضية متوقفه على قرنه. سيحاول تقليدهم ليستطيع الدخول. سيجيد التمثيلية حتى ينفذ إلى غرضه. بدون هذه الطريقة لن يصل إلى شيء.

كلما جاء جماعة من الضباط أو القبائل أو المصريين اندفع للدخول معهم. لم يعد ينتظر الإستئذان للدخول. أصبح يدخل دون استئذان. يترجونه أن ينتظر قليلا. يصر. يتعارك معهم. يصرخون به ويصرخ بهم حتى يصل معهم إلى حافة الاشتباك. لكنه يتجنب الإشتباك المباشر لأنهم مسلحون وهو أعزل. يملكون السلطة وهو مواطن. صدمته رؤية الضابط الذي طرده قبل أيام. توجس شرا. استعد للإشتباك معه أيا كانت النتائج. لم يعد لديه ما يخسر. صرف الضابط نظره عنه. لعله لم يره أو لم يعره اهتماما. نظر أحمد في اتجاه آخر متجنبا النظر نحوه. وفجأة أقبل نحوه الحارس قائلا:

ـ أنت. ادخل. جذبه من ساعده نحو المدخل. على بعد خطوات قليلة يقع الباب الداخلي للمنزل. صعد درجات قليلة برفقة الحارس إلى صالون فيه كراسي وثيرة جديدة. سلمه الحارس لحارس آخر أجلسه على أحد الكراسي الوثيرة في مواجهة الرئيس. تلفت يمينا وشمالا. رأى حوله من الحرس مثل ما حول الرئيس. قال في سره (لم أكن أظن انني مهم إلى هذه الدرجة). لأول مرة يرى الرئيس بشحمه ولحمه. ببدلته العسكرية ذات الأشرطة الحمراء والرتب العسكرية العديدة وجسده النحيل الذي بدأت السمنة تغزوه. ينغرس داخل الكرسي الكبير وبين الحرس الواقف على جانبيه. دائما يجد أحمد أن الصور التي يرسمها لمن يسمع بهم تختلف عما هم عليه في الواقع. لا يدري إن كانت صورة الرئيس كما يشاهدها مصدر خيبة أمل أم مصدر تفاؤل. لكنه سعيد بأنه تمكن أخيرا من رؤيته بلحمه وشحمه. كان أحمد قد تعود إطلاق لقب (أفندم) على كل ضابط وان بدت له تسمية مضحكة تذكره بالتسمية الشعبية للقطط (دم). كان كلما قالها لضابط تخيل نفسه فأرا يقف أمام قط كبير يوشك أن يهجم عليه أو أن يخربشه بمخالبه. نظر إلى الرئيس وقلبه مسكون بالوجل والرهبة. أسرع قلبه بالوجيب، وارتفع صوت النبض في أذنيه حتى كاد يسد مسامعه عن سماع أي شيء آخر. زاد ارتباكا. يحس كأنه فقد القدرة على النطق. فليقل شيئا يجرب به قدرته على الكلام. (قل

شيئا. لعل لسانك ما يزال قادرا على الكلام. ماذا دهاك؟ أين ذهبت جلجلتك في المظاهرات، ومشاغباتك ومجادلاتك النحوية والفقهية؟. نظرات الرئيس مركزة عليه. فليقل شيئا أو فليهرول مسرعا نحو الخارج. سيظنون أنه ترك قنبلة وسيطلقون عليه الرصاص ويردونه قتيلا. لا مجال للمزاح هنا. الأمر جد. قد لا تطاوعه رجلاه في الوقوف. يحس كأنه مشلول. فليجرب صوته. ماذا يجب أن يقول؟ نسي ما دخل من أجله. فليصدر أي صوت كما يفعل من يجرب مكبر الصوت. واحد. اثنين. ثلاثة. هالو. هالو. لا يجوز أن يفعل هذا بحضرة الرئيس. سيقولون عنه انه مجنون. سيقتادونه إلى السجن. الجنون في هذا البلد جريمة خطيرة عقوبتها السجن المؤبد. نظر نحو الباب كأنما يتأكد من طريق الهرب. وقع نظره في عين الضابط الذي طرده قبل أيام، كأنما يقول له كنت على حق حين طردتك. أسرع أحمد باختبار قدرته على الكلام:

ـ يا... فندم..

خرجت الكلمة غريبة في نطقها تشبه مواء القطط. تنحنح. حمد الله لأنه ما زال قادرا على النحنحة. جرب نطق ما يسميه استاذه جملة مفيدة. خرج الكلام هادرا مجلجلا يتلفق بتلقائية وصفاء عجيب. استرسل بشرح للرئيس كل ما مر به منذ تطوع في الحرس الوطني حتى الهرب من الأسر والعودة إلى صنعاء. حاول إخراج دفاتره من شنطة اليد التي كانت بجانبه لعرض ما فيها. هجم عليه الحرس من كل جانب. عبثوا بمحتوياتها يبحثون عن قنابل أو متفجرات وهو يصرخ. واصل الصراخ والاحتجاج. أخذوا منه العريضة التي كان قد أعدها وسلموها للرئيس وهو يواصل شرح الموضوع في جو من الهرج والمرج. لم يعد أحد يستمع إليه. انهالت الأوراق على الرئيس. كل يصرخ طالبا الرد على طلبه. توقف أحمد منهك القوى. نظر إليه الرئيس نظرة أخيرة وتناول ورقته ومضى يكتب عليها. أحس أحمد بالامتنان لهذه اللفتة. لن يتركه يعود

ذكرهم أحمد بموعد الصلاة عسى أن يستريح وصاحبه من ألم احتكاك السلسلة الحديدية بالرقاب، وفي محاولة لإثارة الرابطة الدينية بينه وبينهم، عل قلوبهم ترق ولو قليلا. رد أحد العسكر عليه بصلف وعنجهية:

ـ صلاتكم غير مقبولة. أنتم جمهوريون شيوعيون كفار.

رد أحمد بامتعاض:

ـ اسمي أحمد، وأبي حج إلى بيت الله الحرام.

ـ والله لو جئت بمحمد رسول الله فوق ظهرك، ولو بلعت القرآن ما فككت رباطك. والآن اسكت قبل أن أن أرمي بك من رأس هذا الجبل إلى الوادي.

تدخل عمر لأول وآخر مرة في النقاش مع العسكر قائلا:

ـ دعنا يا أخي من هذا النقاش الفارغ.

علق أحد العسكر:

ـ استمع لصاحبك. هذا يهودي أصلي.

قال العسكري هذه الكلمات وهوى بطبان بندقيته على كتف عمر مع أن أحمد هو الذي بدأ النقاش ويحاول دائما أن يشاغب ويعترض. سكت عمر كاظما غيظه وألمه دون أن يظهر على ملامحه أنه اكترث بما حدث. شد ما يغيظهم أنه كلما تعرض للضرب والإهانة زاد تجاهله لهم. كأنه غير موجود أو كأنهم غير موجودين. يحتقرهم في أعماقه ويتصرف معهم بلا مبالاة كأنه غائب عنهم في عالم آخر لا يستطيعون أن يلحقوا به فيه. هارب منهم في داخل نفسه وفي تلافيف مشاعره وهذا يزيدهم غلظة في معاملته. صخرة لا تأبه أكان ما تتعرض له نسيما عليلا أم عاصفة ملوية. هو نفسه عاصفة صغيرة من لحم ودم. يمر بكل البيئات دون أن يتغير بسهولة. وإذا تغير استقر في محطته بأناة وارتياح دون أن تزحزحه عن موقفه العواصف العاتية. يستريح في كل محطة دون استعجال، ولا يقبل التغير بسرعة. وإذا تغير لا تعيده إلى الحال السابق أية قوة. وأحمد يشفق عليه من العذاب الذي

خائبا. سرح خياله.(ترى ماذا يكتب؟ لا بد انه اقتنع بحججي الواضحة وعرضي الأمين المتحمس. القضية عظيمة بذاتها، إلا أن عرضي لها زادها قوة ووضوحا. كان يجب أن أبدأ من هنا منذ البداية. أضعت الكثير من الوقت. لا أحد غير الرئيس يستطيع حل المشكلة وإنصافي ومكافأتي).
شيء ما في نظرة الرئيس الأخيرة نحوه يقول له إنه عينه في لجنة أو هيئة تهتم بمتابعة شؤون الحرس الوطني ورعاية من تبقى منه من المعوقين وأطفال الشهداء وأسرهم. أحس برعشة رضى وسعادة. ربما عينه على رأس هذه الهيئة الجديدة. هو أكثر الناس اهتماما بالموضوع. أحب أن يتواضع. قال لنفسه. (مساعدا للمسؤول. لا داعي للغرور. المسؤولية كبيرة. تحتاج إلى جهود الجميع. لا يهم المنصب الذي تؤدي واجبك منه. المهم أنك تستطيع أن تفعل شيئا). ابتسم ابتسامة رضى. (لعله يكتب مرسوما باعطائي وساما جمهوريا، وربما رتبة عسكرية. وربما مكافأة مالية أحتاج إليها أمس الحاجة. لم أطلب في العريضة مثل هذه المساعدة لكنه سيفهم ظرفي الصعب دون طلب. عندها يا أحمد ستجرؤ على الكتابة إلى زهرتك تخبرها بسلامتك أو تذهب لزيارتها زيارة قصيرة. سيسمعون تكريمك قبل هذا من الإذاعة. سترى ان كنت قد رزقت بمولود. إذا كان ذكرا ستعيد تسميته. ستسميه ثائر أو جمهوري. لا. لا. جمهوري ليس اسما تطلقه على ولد. نضال. جمال. عمار.... إذا كانت أنثى ستسميها ثورة. سحر. حلم).

تناول الضابط الرد من الرئيس وأخرج أحمد في الحال برفقة حارس. تبع الحارس كالمخدر. يجتاحه شوق عارم لقراءة الرد. مد يده يسترد العريضة. هبط الحارس الدرج والورقة في يده يقتاد أحمد نحو الخارج حتى تأكد أنه خرج إلى الشارع. عندها ناوله الورقة ومضى. تهيب أحمد النظر فيها. أثاره التشويق الذي يخلقه توقع ما فيها من رد مهم. أغمض عينيه. وفجأة توقف لقراءة الرد. ارتفعت درجة حرارته. أحس

كأن جسده يشتعل وأعصابه تحترق. العرق يبزغ من كل مسامات جسده. والغضب يمنع عنه الرؤية. لا يصدق ما رأى. غير معقول. لا يمكن. مستحيل. حاول قراءة الرد ثانية. لم يعد قادرا على القراءة. عقله الباطن يمتنع عن القراءة. عيناه تتمردان على الرؤية. إحالة إلى وزير الدفاع؟ عمل اللازم؟ أي لازم؟ حسب النظام؟ أي نظام؟

ربطوا يديه إلى ظهره، وكذلك فعلوا بعمر. وربطوهما معا بحبل مع ترك مسافة قصيرة بينهما تسمح بالحركة على طرقات هذه الجبال الوعرة، وعندما صعب عليهما المشي والحركة واليدين مقيديتين إلى وراء الظهر أتوا بسلسلة حديدية وربطوهما بها من العنق. ربط اليدين بالحبل أهون من قيد الرقاب بالحديد. ومع ذلك فالقيد هو القيد، والأسر هو الأسر، والسجانون نوع من البشر الصلة بينهم وبين حيوانات الغاب ليست بعيدة. صلة عمومة أو خؤولة ظاهرة لا شك فيها ولا جدال. والمشي على هذه الطرقات دون قيود صعب، فكيف إذا شدت الأعناق بحمولة ثقيلة من الحديد، وحزت الأعناق بها في كل خطوة. لا يمنعهما من الإنهيار سوى أن العسكر يتعبون هم أيضا ويحتاجون إلى الراحة ويتوقفون للحصول على قسط منها. لكنهم لم يسمعوا عن الكرم ولا عن شيء إسمه الرحمة أو الإنسانية، وأبعد من ذلك عن قوانين معاملة الأسير وفقا لقوانين دولية أو محلية أو حتى أعراف محلية. لا مسئولية ولا وازع ولا تكافل حيواني بين النوع الواحد. الأسير عندهم أحط من حشرة، وأحقر من دودة. بلا وجود ولا حقوق. لهم سلطة مطلقة عليه لا تقيدها قيود أو حدود. لعبة بلا مشاعر ولا أحاسيس ولا كرامة يتلهون بتعذيبها ويتفننون في إهانتها. إن شاؤوا قتلوه، وإن شاءوا عذبوه، وإن شاؤوا تركوه يموت موتا بطيئا. لا يحاسبون ولا يعاقبون. حفنة عصابات مجردة من كل ما له صلة بالإنسانية من قريب أو من بعيد. ينهمكون في لعبة المقتول فيها ضائع، والقاتل كذلك. الكل ضائع هالك.

يتعرض له على أيدي العسكر بسبب ميله العنيد إلى عدم المسايرة والمراوغة والتهرب الماكر. قال أحمد للعسكري:

- اتق الله يا رجل. هذا إنسان من لحم ودم. تعامله بقسوة لا تليق بإنسان. كلنا يمنيون.

أجاب العسكري بازدراء وسخرية:

- لا. أنتم مولدون.

- أقسم لك بالله انني من منطقة لا يخرج المرء منهم من قريته إلا إلى القبر.

- ولو. كلكم جمهوريون. كلكم مولدون. شيوعيون. كفرة.

- والجمهوريون يمنيون أيضا.

- اسكت وإلا كسرت رأسك. أنت هنا أسير ومهمتي أن أوصلك.

- إلى أين؟ تعبنا من السفر وجرحت رقابنا هذه السلسلة.

- إلى... أمك، يابن الفاجرة. تتذمر وكأنك في عرس وليس في الأسر. أحذرك لآخر مرة. انظر إلى صاحبك، صامت كأنه صنم.

- يا رجل تستطيع أن تكون كريما معنا وأن تتركنا نمضي لحالنا. لن يكترث أحد بفقداننا. من يعرف أنكم تمسكون بشخصين لا أهمية لبقائهما في الأسر. لا يفيدكم بقاؤنا ولا يضر الجمهوريين خسارتنا.

- كم تدفع لأهربك؟

- لا أملك شيئا ادفعه الآن. سأكتب لك سندا إلى عند عودتي إلى أهلي. سأبعث لك من هناك المبلغ الذي تريد.

- نحن لا نبيع دينا. من يضمن لي أنك ستصل إلى أهلك لترسل ما بذمتك؟

- سأكتب وصيتي من ىلآن وأدعها بيدك. إذا لم يصلك ما تطلب ابعث بالوصية يرسل لك ورثتي المبلغ المطلوب (أمسك أحمد ضحكة

كادت تنفر منه وهو يتحدث عن فكـرة الوصيـة). وفي الآخـرة ستضمن الأجر عند الله وتحصل على قصر في الجنة.

- توزع الجنـة وكأنهـا بيتكـم. اعطـني نقـودا ودع الجنـة لـك. لا أضمنك ولا أضمن القصر الذي تعدني به في الجنة.

- وكيف تريد أن ادفع لك وأنا في هذا الحال؟

- إذا، اسكت وابق في الأسر حتى تموت.

- وماذا تستفيد من موتي؟

- نريح الدنيا من جمهوري مغفل.

- الجمهوريون في هذا العالم كثر.

- إذا، العالم كله عاصي والديه. وأنت وصاحبك السـاكت أول من يموت.

تهاوى عمر على الأرض. لم يعد يقوى على السير حافيا فوق الحجـارة الحادة والحصى المقرنة بعد أن نهبوا حذاءه في أول الأسر. تجرحـت قدمـاه وسالت الدماء منها. كان في البداية يصرخ من الألم كلما مـرت قدمـه فـوق حجر حادة لكنه أصبح لا يشكو ولا يتذمر. لا يعرف أحمد حقيقة ما يحس به. هل اعتاد المشي على الحجارة والحصى أم أنه قرر في أعماقه أن لا يشـكو ولا يتذمر ولا يترك لهم أية فرصة للتشفي به والتمتع بمنظـره وهـو يعـاني من شدة الألم. لكن طاقة الجسد محدودة. تهاوى الجسد قبل أن تتهاوى المشاعر. العقل يعاند والجسد ينسحق وينهد. لا يبين عن ألمه وإنما يتهاوى مرة واحـدة حتى لا يستطيع الوقوف على قدميه. وأحمد يحاول أن يساعده متحملا ثقل جسد عمر ومرارة عذابه فوق ما به من تعب وإنهاك. وحين يحس عمـر أنه أثقل على صاحبه ينهض ويتحامل على نفسه ويمشي دون أن يتألم أو يصرخ أو حتى يئن. يمشي مترنحا كالسـكران ذات اليمين وذات الشمال. وأحيانـا يهمهم بكلام غـير مفهـوم لا هـو بـالكلام ولا هـو بـالأنين. هذيـان داخلي متقطع. لكن إذا نظر إليه أحد العسكر حول نظره عنـه ذات اليمين أو ذات

الشمال أو التفت إلى أحمد الذي يسنده من خلفه ويساعده في المسير خوفا عليه من غضب العسكر وغلظتهم التي يخصونه بها أكثر من أحمد.

وأحمد يثابر في فتح طريق للأخذ والرد مع العسكر علـه يهتدي إلى وسيلة تقنعهم بالتعامل معهما على نحو أقل قسوة، لكن عمر يائس تماما من أن صاحبه سينجح في مسعاه. فكر أحمد باللجوء إلى المكر أو الحيلة مقنعا نفسه بأن الحرب خداع. وكلما أغلظوا له القول حاول تلطيف الجو بنكتة أو دعابة أو حكاية من التاريخ أو حديث نبوي شريف أو قصة، حتى ولو لم يستمعوا إليه. وكلما أغلظوا له في القول وأوقفوه عن الحديث التفت إليه عمر وابتسم في وجهه خلسة. ومرة انتهز فرصة نوم العسكر مطمئنين إلى أن السلسلة المربوطين بها مربوطة إلى شجرة بجانب الطريق، فقال لأحمد:

ـ أعجبك يا فقيه؟

ـ من جد وجد. قد تنجح واحدة من هذه المحاولات.

ـ أنت تحرث في البحر.

ـ ربما عثرنا على طوق النجاة.

كلما توقف العسكر للراحة بالقرب من مساكن السكان أصبحا مصدر فضول. يتحلق الناس حولهم ينظرون إليهما. شبحين غريبين، أشعثين أغبرين، ينحنيان تحت ثقل سلسلة حديدية غريبة. وحين يعرفون هويتهما يبدؤون بشتمهما ورميهما بالحجارة والبصق عليهما. وقد كان هذا مصدر خيبة شديدة في نفس عمر. كان يتوقع معاملة العسكر على نحو قاس، لكن أن يعامله على هذا النحو من الإحتقار أناس لا يعرفهم وليس بينه وبينهم لا عداوة ولا صحبة ويعتقد أنه يعمل ويضحي من أجلهم أمر لم يستطع تحمله أبدا، مما زاد في غربته داخل نفسه، وفي إحساسه بالإنكسار. أما أحمد فقد كان ينظر إليهم بإشفاق وابتسام صبور. بدا له أنهم سادرين في قمقمهم المقفل بألف قفل، يرفضون الخروج منه بإباء وفخر، ويحقدون على هؤلاء الذين يريدون هز القمقم

من حولهم وتحريك الماء الآسن الذي يعمي عيونهم ويسد مسامعهم. استفزتهم بجنون محاولة تغيير القمقم ولو بآخر أوسع قليلا وأكثر شفافية. ينظرون إلى الأسيرين وكأنهما مخلوقان هبطا من كوكب آخر غير كوكبهم ليتطفلا على بؤسهم وتفاهتهم التي يفرزونها في سيل البصاق الذي يقذفون به الأسيرين. وفي إحدى المرات فكر باتقاء البصاق بالبول عليهم. لم يمنعه إلا الخوف من أن يردوا على التحية بمثلها أو بأسوأ منها. انتابته رغبة جامحة في البكاء، وأحس بوحدة قاتلة تخنقه أشد من خنق السلسلة التي تحز جلده ولحمه من العنق. لا يحس حتى بوجود عمر معه في السلسلة، ولا بالعسكر. بدا له أنه يسير إلى حتفه بلا انقطاع. تساءل في سره ولماذا يسير معهم. لماذا يطاوعهم في هذا السفر المرهق الطويل. إلى أين؟ وماذا يرجو بعد منهم. أحس أن نفاذه من الحصار ليس مكسبا. يفكر المحاصر دائما بالنفاذ من الحصار، والأسير بالهرب. أما هو فلم يعد لديه القدرة حتى أن يحلم بشيء حتى ولو كان الهرب. يريد أن يستريح، أن يهدأ، أن يتمدد بمفرده وينام. أن يضع رأسه على الأرض ويستلقي بأمان. وليس من سبيل إلى هذا الهدوء وذلك الأمان سوى بالموت. لم يعد لديه القدرة لا على السير ولا على الإنتحار. حتى الإنتحار يحتاج إلى قوة وإلى شجاعة في اتخاذ القرار وفي تنفيذه. خارت قواه وضعفت أعصابه ولم يعد يقوى على شيء. لم يعد لديه ما يتحرك سوى دماغه الذي يغلي بأفكار مشوشة مضطربة لا تصل به إلى نتيجة محددة، وعنقه الذي يتحرك متململا تحت وقع السلسلة الحديدية وحزها المتواصل في لحمه ودقها لعظامه. وبعد أن كان عمر يمشي دائما قبله تأخر الآن إلى خلفه وأصبح أحمد يجرجره وراءه بتلقائية لا شعورية بعد أن كان يدفعه أمامه.

ليلة قمراء في الطريق إلى عدن. مشاهدة السماء الصافية في ليلة قمراء سلوة الحزانى والمشردين. من ينام في العراء يألف التعايش مع

الصراصير والحشرات والدود والأفاعي. تمر بجانبه عقرب فيبعدها عنه بلا اكتراث. أنسته مشاق هذا الهرب الأول إلى عدن خوفه ورعبه من الحنشان والحيات والأفاعي. يترك لكل أفعى حرية أن تجد طريقها فوقه أو بجانبه حتى تبتعد عنه من ذات نفسها. يشجعها برفق وأناة على تركه وشأنه. الكلاب وحدها ناصبته العداء دون سبب مقنع. تطلق عليه وابلا من نباحها الغاضب دون أن يطمح لمنافستها على القليل من مما يصل إليها من غذاء فقير لا يسد رمق قط أليف صغير وليس كلب وحشي، أو يتطفل على ما تحرس من فضاء. لكنه وطد العزم على التصالح معها، وكرس نفسه للمثابرة في العمل على كسب ودها. وشيئا فشيئا انتهى به الأمر إلى تقليل رد فعلها نحوه، وتقليل شكوكها فيه. وحتى الحيوانات المفترسة في الوديان الخالية المقفرة التي مر بها، انتهت إلى عقد معاهدة عدم اعتداء بينها وبينه بعد أن نام ذات ليلة في واد لا يبعد كثيرا عن الراهدة بعد أن أنهكه السفر راجلا، وألهبت جسده شمس النهار، وغشته الحمى. ألقى بنفسه على مقربة من الطريق الترابي الذي تقطعه نادرا بعض سيارات نقل متهالكة، ونام كالمغشي عليه، وبلله عرق غزير من جراء حمى ملتهبة. غشته كوابيس خانقة، وتشممه حيوان مفترس بدا له أشبه بأسد أو بضبع. لم يستطع أن يحرك ساكنا. أستسلم للنوم القلق على الرغم من الإنهاك، غير قادر على القيام بأي رد فعل. وبعد أن هدأت الحمى قليلا استيقظ شبه استيقاظ. تطلع فيما حوله فلم ير شيئا. لكنه سمع أصوات حيوانات مفترسة وحركاتها بالقرب منه. عاد إلى النوم من جديد. وفي الصباح الباكر استيقض منهكا متحاملا على نفسه ومشى ببطء نحو الشريجة دون أن يجيل النظر فيما حوله. لا يريد أن يرى شيئا ولا أن يعرف شيئا. يريد أن يواصل السير نحو عدن.

عدن، عدن، يا ليت عدن مسير يوم شسير به ليلة، ما شرقد النوم.

هبط وادي عقان في أرض تحرقها الشمس دون هوادة. لم تعد قدماه العاريتان تحسان بشيء. لم يعد جسده يحس بشيء. مضى في بطن الوادي في اتجاه الطريق الغائر الذي حفرته سيارات النقل القليلة الهابطة الصاعدة. على الضفة الأخرى سيارة (عنترنلش) قديمة متهالكة متوقفة بعد أن أنزلت ركابها تخفيفا لحمولتها كي تستطيع صعود المنحدر الترابي الغائر. سر أحمد أيما سرور للقاء برفقة طريق حتى ولو كان ليضع دقائق لأنه يمشي بمفرده منذ أن ترك قريته حتى اليوم. وحتى حين يمشي مع قافلة جمال أو مع راكبي حمير يبقى وحده غريبا بين قافلة غريبة. مشى بين ركاب سيارة النقل مسرورا بهم كأنهم أصحابه الذين يعرفهم منذ زمن. لا يريد منهم شيئا سوى كسر شكيمة غربته القاتلة، والإحساس بدفء الحياة وألفتها بينهم. لم تستطع السيارة الصعود بعد أن انغرزت عجلاتها في التراب حتى لم تستطع لا الصعود ولا العودة إلى الخلف. دعا السائق ركابه إلى المساعدة في دفع السيارة إلى الأعلى وإسنادها بحجارة مناسبة كلما تقدمت حتى تتجاوز المنطقة الصعبة. أخرج عدته الجاهزة لمثل هذه المناسبات، إذ لا يغامر أحد بقيادة سيارة على هذه الطرقات الوعرة دون أن يحمل معه كل ما تحتاجه في هذه الحوادث من عدة ودون أن يكون قادرا على أن يقوم بكل ما تحتاجه السيارة من إصلاحات. اندفع أحمد بحماسة لمساعدة السائق والمشاركة في العمل على الرغم من الإنهاك الذي ينوء جسده تحت وطأته. أنساه أنس التقائه بهم والعمل بينهم كل الآلام. سأله السائق الذي لاحظ حماسته في العمل مع أنه ليس من الركاب عن وجهته. أجاب بصوت واهن:

ـ عدن.

ـ ولماذا لا تركب سيارة؟ الطريق طويلة والشمس حارقة وبخاصة في وقت الظهيرة؟

ـ لا أملك نقودا (قالها على استحياء مطرقا أمامه). وما أن صعدت السيارة عقبة عقان بعد عمل مضن حتى استراح الركاب والسائق في

المقهاية المكونة من عريش من القش وبعض سرر من الحبال والخشب، إلا أحمد الذي شرب ماء حتى ارتوى وواصل السير دون راحة. عدن بغيته ولن يستريح إلا بوصوله إليها. والجوع يعتصر أمعاءه ولا شبع إلا في عدن. حرارة الشمس تصلي جسده وهو لا يحس إلا بعدن. تورمت قدماه من السير وهو لايفكر إلا بعدن. الوحدة والضياع تبتلعانه في الشعاب والوهاد ولا راحة إلا في عدن. آه يا عدن الآسرة البعيدة.

واصل سيره الحثيث لا يفكر بغير عدن. قدماه تتحركان ببطء وجسده يوشك أن يتهاوى، والطريق تزداد طولا كلما اقترب من عدن. لا يدري كم قطع منها وكم بقي. لا يعرف ما سيصادفه عند الوصول، ولا أين سيتوقف في المرة التالية. يمشي كالنائم، كالحالم. لا يحس بما حوله. سمع صوت السيارة قادمة من ناحية المقهاية فابتعد عن الطريق بحركة آلية دون أن يلتفت. فاجأه صوت السائق وقد توقفت السيارة بالقرب منه يقول بلهجة آمر:

- اصعد.

- لا أملك نقود لأدفع الأجرة.

- اصعد. انكح عار الإمام.

اندهش لهذه المفاجأة السارة. واندهش أكثر بهذه اللهجة التي لم يألفها وبهذه الجرأة في شتم الإمام. صعد السيارة لأول مرة في حياته، وفرح حتى اغرورقت عيناه بالدموع، فالتفت نحو الشمال ليخفي دموعه عمن حوله من المهاجرين مثله بحثا عن عمل، وهربا من الظلم. عدن الآن في متناول يده. عدن في مرمى حجر.

عدن، عدن، يا ليت عدن مسير يوم شسير به ليلة ما شرقد النوم .



-١٢-

سيبحث عن عمل في صنعاء، ولن يبقى بعد اليوم في هذه الاصطبلات التركية المندثرة للحصول على الغذاء والمأوى. لكن العاطلين عن العمل بالآلاف، العائدين من المهجر والقادمين من الأرياف. أين يمكن أن يجد عملاً يتيح له متابعة القضية التي صمم على متابعتها. العرضي مغلق أمامه الآن، ووزارة الدفاع مغلقة، وبيت الرئيس مغلق. الحكومة كلها أغلقت في وجهه الأبواب. يحتاج إلى مرور وقت كاف يسمح بنسيان ردودهم السابقة. ويحتاج إلى طريقة جديدة لطرح الموضوع. إلى أناس يقتنعون بمساعدته. إذا ظل وحده لن ينجح. لكن هل سيبقى عمر وأمثاله على قيد الحياة حتى ينجح في إقناع الحكومة بالحركة؟ الأولوية الآن للحصول على عمل يمنع عنه غائلة الجوع، ويوفر له مأوى بديلا عن عنابر العرضي. طرأت في ذهنه فكرة العودة إلى مهنة تعلمها حين سجن لأول مرة. كتابة الشكايا والتظلمات. اعتاد كتابة رسائل المتدربين مجانا. سيواصل المهمة نفسها بجانب مكتب البريد بمقابل. وسيكتب الشكايا بجانب وزارة العدل أو وزارة الداخلية مقابل ربع ريال أو ثمن ريال. سيحدد السعر حسب الحالة وحسب منظر من يطلب الكتابة. تناول إفطاره بهدوء في مطعم متواضع مقابل المدرسة في الميدان. كدمة وفول بالسمن البلدي. جلس على دكة متسخة ووضع

الكدمة والفول على لوح خشبي ممدود أكثر اتساخا. طلب كاسا من الشاي. الطلبة يأتون بكدمهم من مدارسهم ليأكلوها مع الفول. ضجتهم تملأ المكان. يكلمون بعضهم بعضا بأصوات عالية كأن بهم صمما. خرج من المطعم متجها نحو الشمال. عبر شارعين ضيقين. وصل إلى باب وزارة العدل. جلس على الأرض ووضع على حجر مرتفع أمامه حزمة بياض عليها قلم ليدل على سلعته. مضى نصف ساعة وهو يتطلع شمالا ويمينا عله يجد من يطلب كتابة شيء. حرارة الشمس تزداد. أحس في البداية بلذة عجيبة وهو يجلس تحت أشعتها. أزاحت عنه الإحساس ببرد صنعاء. بمرور الوقت بدأت حرارتها تؤذيه. لا أحد يقترب منه أو يطلب منه كتابة شكية أو رسالة. لا أحد يكلمه. لا أحد يسأله عن شيء أو يعترض على شيء يفعله. كاد يفقد صبره ويغادر المكان بحثا عن مكان آخر يحتاج فيه الأميون إلى من يكتب لهم شيئا. ما يطمئنه هو كثرة الأميين في هذي البلاد. لا شيء في هذي البلاد يماثل في وفرته كثرة الأميين وكثرة المظالم. فقط يحتاج إلى لفت نظر هؤلاء الأميين إلى وجوده وإلى قدرته على التعبير عن مظالمهم وأناتهم. كسب ثقتهم ليس بالأمر السهل. فجأة جلس أمامه شيخ في السبعينات من عمره. لحيته الكثة تغطي الجزء الأعلى من الصدر. عيناه ذابلتان وفمه مغروس داخل الشعر. رأسه مغطى بخرقة قديمة ملفوفة كيفما اتفق. يلبس جلبابا متسخا إلى ما تحت الركبة بقليل. حافي القدمين. قدماه مفلطحتان من كثرة المشي. نظر إلى أحمد هنيهة قبل أن يقول له:

- اكتب

- ماذا أكتب يا عم؟

- أكتب لي شكية إلى وزير العدل.

مضى يشرح لأحمد بأناة ما يتعرض له من مظالم وأحمد يحول ما يقوله بلهجته المحلية إلى جمل وعبارات فصيحة بليغة ملأت صفحتين

طويلتين. ما أن انتهى من الكتابة حتى أسرع يقرأ بصوت مرتفع على الآخرين يتعرفون على قدرته في كتابة الشكايا والتظلمات. والرجل العجوز ينصت بامعان وخشوع. وحين انتهى من القراءة نظر نحو العجوز منتظرا ما يعطيه من أجر على حسن صياغة شكيته. لكنه دهش حين رأى الرجل العجوز يبكي صامتا ثم يتحامل على نفسه ويقوم منسحبا في صمت، تاركا الشكية في يد أحمد ودون أن يدفع شيئا. لحظتها تعلم الدرس الأول في هذه المهنة، أن لا يقرأ ما يكتب إلا بعد أن يستلم الأجر.

لم يحدد بعد تسعيرة لما يكتب. الأمر ليس بالبسيط. ليس من العدل وضع تسعيرة واحدة لكل ما يكتب. شكية مظلوم حلت به خطوب ورزايا كثيرة تستحق مبلغا كبيرا من المال. لكن من أين يأتي بالنقود في هذه الحالة؟ يختلف الأمر في حالة من يشكو أن أراضي كثيرة أخذت منه غصبا. لا يؤخذ الكثير إلا مما هو أكثر. معناه انه يستطيع دفع مبلغ محترم. كتابة رسالة من عاطل عن العمل إلى زوجته تختلف عن كتابة رسالة من أب إلى ابنه يطلب منه إرسال مصاريف. هذا علامة على أن لديه من يدفع له.

عبر باب السبح. توقف عند أول دكان صادفه يملكه رجل عجوز تبدو عليه علامات واضحة للإصابة بالسل. قصبة المداعة لا تفارق شفتيه. يسعل بانتظام. لا يفصل بين السعلة والأخرى إلا بجة من القصبة. تعود العمل وهو يسعل. يبيع للأطفال المليم والحلوى وهو يسعل. سلم عليه أحمد. لم يستمع لما قال. انتظر في باب الحانوت. نظر إليه الرجل العجوز باستهجان. ظنه طفيلي أو شحاذ. ارتبك لهذه النظرة الغريبة الموجهة مباشرة إلى عينيه. بادر بالسؤال عن غرفة للإيجار ليبدد سوء الفهم. انفتحت أسارير العجوز. المدينة تبحث عن فرص ثراء. تنتظر نقود القادمين الجدد وتبيع لهم كل شيء. أغلق العجوز دكانه بأناة كأنه

يفك طلاسم مستعصية، وتناول يد أحمد اليسرى بيده اليمنى كأنما يخشى أن يهرب منه في الطريق. عبر بـه أزقـة ضيقـة تسـير فيهـا الحمـير والغنـم والأطفال، وسار في شارع ضيق يقطع حي الطبري نحو الشمال في اتجـاه سمرا. وعندما بلغ سوق الحطب انحرف نحو الغرب. تـو قـف أمـام مـنزل طيني مكون من طابقين. دخل الباب الخارجي صاعدا نحو الطابق الأول. لم يدع يد أحمد إلا عند ما بلغ بـاب الغرفـة الـتي يريـد تأجيرهـا. أخـرج المفتاح الخشبي من وراء جنبيته. فتح ودخـل بفتـح زجـاج النـافذة المطلـة على سوق الحطب. دخل أحمد وراءه إلى غرفة تشبه القـبر أطوالهـا ثلاثـة أمتار في مترين، طليت قبل سـنوات بـالجص الأبيـض. تلفـت أحمـد فيمـا حوله. امتلأت رئتاه برائحة الفئران. أول ما صدمه عدم وجود المرحاض. أدرك العجوز ما يجول بخاطره. فتح الباب ليريه مرحاضا قديما في الجـانب الآخر من الممر الخارجي على ارتفاع درجتين عن مستوى الغرفة.

ـ والماء؟

ـ تشتريه بنفسـك. قد لا تحتاج إليـه كثـيرا. اغتسـل في الجـامع أو في الحمام العام. واشرب في أي مقهى.

ـ من أين اشتري ماء للتطهر.

ـ ستأتيك امرأة بالماء بانتظام مقابل ربع ريال في الشهر.

ـ كم الإيجار؟

ـ ريال في الشهر.

ـ آستطيع المبيت فيها اليوم؟

ـ منذ هذه اللحظة إذا أردت.

ـ شكرا لك.

ـ أين الريال؟

ـ سأدفع نصف ريال الآن والبقية غدا أو بعد غد.

ـ سأثق بك. لا تجعلني أندم.

- لن تندم أبدا.

تسلم أحمد من العجوز المفتاح الخشبي وودعه ثم عاد ليضع حقيبة الوثائق التي يجمعها بعناية في ركن من المكان. الآن يستطيع أن يطمئن عليها في مكان خاص به. يشعر بشيء من الراحة الداخلية لعثوره على مكان يقيم فيه بهدوء، بعيدا عن ضجة العرضي. يحس بفرح حقيقي. سيكون مواطنا له مأوى في هذه المدينة. لن يبقى غريبا يعيش على هامشها. لا يؤرقه إلا ترتيب وضعه ليتفرغ لمهمته. يشعر بثقلها على عاتقه كأنها رسالة كلف بأدائها ولا طاقة له بالتحرر منها. تلازمه كظله. تلاحقه في يقظته ومنامه. كأنها قدره الذي لا فكاك منه. لم يكلم أحدا في العرضي أنه يغادر نهائيا. لا يحب مشهد الوداع. يحس بالحزن لترك هذا الملتقى الذي استضافه منذ وصل هذه المدينة، وفتح له باب التعرف على الناس ودخول معارج الحياة الجديدة. الوداع يزيده حزنا على حزن. خرج يستطلع الحي الذي سيقيم فيه. لم يبتعد كثيرا عن سوق الحطب. تطلع في كل الإتجاهات. سور المدينة في الغرب، وسمرا في الشمال. والسائلة إلى الشرق. أسرع عائدا إلى مسكنه الجديد. يريد أن يستريح قليلا.

وفجأة قابلها في الدرج. فاجأها حاسرة عن وجهها حين صعد الدرج فركضت هاربة نحو الأعلى. ندم لما فعل. لا يريد منذ اليوم الأول أن يظن به جيرانه الجدد سوء الظنون. لاحظ أن المفاجأة تتكرر كلما خرج أو دخل. رآها في آخر مرة تسترق النظر إليه باسمة. عيناها تلمعان ببريق أخاذ، وابتسامتها ساحرة، وجاذبيتها لا تقاوم. لم يشاهد وجه امرأة منذ ترك زهرته. مرآها في طريقه يهز كل كيانه. يخضه خضا عنيفا. يعيده إلى مشاعر نسيها منذ التحق بالحرس الوطني. العودة إلى الحالة الإنسانية العادية تقلب كيانه. لا يريد أن ينجر إلى مغامرات تصرفه عن طريقه التي اختار (دع أوهامك يا أحمد. من يهتم بك أو ينجذب إليك

وأنت في هذا الحال. احمل الناس على السلامة. لا تذهب بعيدا في أحلامك. خذ الأمور كما هي ببساطة). ظهورها أمامه يفقده صوابه. ينسى نفسه وظروفه الصعبة. فتش في جيوبه. حاول إخراج المفتاح. لم يجده إلا بعد عدة محاولات مرتبكة للتفتيش. أخرجه في يده. أعاده إلى مكانه دون أن يدري وواصل التفتيش عنه. لا يجرؤ على الإلتفات نحوها. لا يريد أن يظن به أحد سوء الظنون. لا يريدها أن تسيء فهمه. حاول إيلاج المفتاح في ثقب القفل مرارا. العرق يتصبب من أنحاء جسده. يداه ترتعشان. عشاوة تمنعه من النظر الدقيق مع أنه حديد النظر. هبطت الدرج بجانبه. تسمر كالمشلول. (أعوذ با لله من الشيطان الرجيم. ماذا دهاني؟ ما الغريب في الأمر؟ امرأة تمر على درج بيتها. نصف البشر من النساء أو أكثر. لماذا كل هذا الإرتباك؟ يجب أن أتمالك نفسي. لم أمض حتى ولا ليلة واحدة بعد في هذا القبر. هل تبدأ المشاكل منذ البداية؟ لا. لا بد أن أكون قوي الإرادة. لا. لست متهالكا إلى هذا الحد. ولكن.. ماذا تريد مني أنا بالذات. لا شك أنها مصادفة. مصادفة عجيبة). داخلته حيرة اربكته. سمع طرقا على الباب. قفز من هول المفاجأة. لا أحد يعرف انه هنا. من يا ترى يدق بابه؟ وماذا يريد؟ أيكون صاحب الحانوت الذي استأجر منه الغرفة؟ ماذا يريد؟ لم يعد بينهما شيء يجعله يتردد عليه. حاول استراق النظر عله يعرف من الطارق. لا يوجد شق في الباب يسمح بالرؤية. تواصل الطرق على الباب. فتح الباب. تراجع إلى الخلف منذهولا. غير معقول. المرأة المحجبة نفسها. تنظر إليه من عيون تبرق من بين فتحة الحجاب الأسود. تسمر في مكانه مرتعدا من هول المفاجأة. مقابلة امرأة بعد انقطاع طويل حدث غير عادي في حياة رحل.

قالت بصوت منخفض بشيء من الخجل:

- مساء الخير

رد بارتباك:

- مساكم الله بالخير والعافية

(لماذا لم تطردها يا أحمد قبل أن تجلب لك الفضيحة؟ ربما حلت الفضيحة بطردها. خير لك أن تتجنبها برفق. أن تسوس الأمر بحكمة. وضعك حرج. لا تعرف من هم جيرانك. ماذا يحيط بك. احذر من المغامرة. لن تكون مقبولا في الوسط الجديد الذي تنزرع فيه إذا أخذت الأمور بلا مبالاة. تصرف بمسؤولية. تصرف كرجل. نعم كرجل). نسي منذ زمن ملمس جسد المرأة. نسي نعومة صوتها، ورقة مشاعرها. نسي حتى حيلها وحبائلها. لونها وعرفها. لا يتذكر أن له زائدة دودية بين فخذيه إلا حين يتبول. شيء ما في داخله يجعله يتمنى أن يكون (ضحية) لأية مغامرة نسوية طائشة. بدا له قربه من امرأة تغيرا هائلا في حياته. تتضارب النوازع في داخله. شيء ما يدفعه لطردها أو للإغلاظ لها في القول حتى تنصرف من نفسها. صوت داخلي يقول له أن يكون مؤدبا معها، وأن لا يسيء إليها ولا يتحاوب معها. وقبل ذلك ينبغي أن يعرف ماذا تريد. ربما كانت مخاوفه من نسيج خياله.

تكلمه مطرقة إلى الأرض تسوي وضع الستارة الملفوفة حول جسمها من الرأس إلى أخمص القدم. لا يظهر منها سوى عينان تبرقان بسحر عجيب. تكرر إصلاح ستارتها بصورة تعكس ارتباكها. تجمد في مكانه. لم يستطع التراجع ولا التقدم ولا الكلام. أخرجته من ورطته قائلة:

- نحن جيران. قلت أمسي عليكم. إذا احتجتو لأي شيء...

- شكرا لكرمك. لن استغني عن جيران طيبين أمثالك.

- هذي بداية معرفة. وانشاء الله يقع خير. مساكم الله بالخير.

مضت بهدوء مطرقة لا ترفع نظرها عن الأرض. أغلق الباب بسرعة. ارتمى في زاوية من الغرفة منهكا. يحس برعدة تسري في كل كيانه. بخضة قوية تهزه هزا عنيفا لا عهد له به. شيء ما في داخله تغير

بسرعة البرق لا يدري ما هو. شل دماغه عن التفكير وجسده عن الحركة. نبضات قلبه وحدها تخفق بسرعة مبالغ فيها. تصبب العرق منه. أنفاسه تكاد تنحبس. (ماذا تريد مني هذه المرأة الغريبة؟ أنا الغريب الضائع بين دهاليز الحياة الجديدة؟). وجد نفسه يمشي في الشارع دون شعور. اتجه نحو الميدان. لا يدري ماذا يريد. يريد أن يهدأ قليلا. أن ينسى هذا الموقف السخيف. لن يسمح بتكراره أبدا. لا وقت لديه يضيعه في اللعب مع امرأة ربما كانت مجنونة. تجرجره إلى مهاوي لا يعرف عاقبتها. يتذكر صوتها الرقيق يهمس في حياء ورقة. لا يمكن أن تريد به شرا. لم يسئ إليها. لا يعرفها حتى يسيء إليها. لماذا تتقصده بسوء وهي لا تعرفه. في الأمر سر خفي. فضوله يدفعه لمعرفة هذا السر. ونفسه تنهره عن التمادي. تدفعه دفعا قويا لإغلاق هذا الباب المشبوه. اتقوا مواطن الشبهات. أصبحت وسواسا ينخر رأسه. كلما طرده عاد ثانية بإلحاح عجيب. يحاول كبح تفكيرة بقوة. يشغله بالتفكير بأمور أخرى. أحيانا ينجح في مسعاه، وأحيانا يستعصي على الطرد. تناول الجريدة اليومية الوحيدة للإنشغال بقراءتها عن وسواس المرأة اللغز. تصفحها بسرعة. لا شيء يستحق القراءة. استقبالات وتطبيل وتزمير. إعادة لأخبار سمعها من جهاز الراديو الذي أصبح صديقه الحميم الذي لا يفارقه. قرأ في زاوية من الصفحة الأخيرة إعلانا من وزارة التربية والتعليم تطلب ممن لديهم القدرة على التدريس التقدم للإمتحان. لم يفكر بهذه المهنة منذ وصل إلى صنعاء. يجيد علوم العربية والفقه وعلوم الدين. ملم بالأدب والتاريخ. لماذا لا يجرب حظه مثل غيره.

دخل الوزارة. في مبتدا الشارع من جهة الميدان. دخل عبر بوابة خشبية قديمة إلى ساحة تظللها شجرتا أثل باسقتان. حول الساحة غرف مبنية بالحجر يسكنها طلبة مدرسة أول شرارة وكذلك الطابق الأرضي من المبنى الداخلي الذي تشغل الوزارة منه الطابق الأول. لم يحتج إلى أن يسأل

عن المكان الذي يريده. دخل في مجموعة من المتقدمين مثله للإمتحان يبدو عليهم انهم يعرفون المكان جيدا. صعد معهم الدرج إلى الطابق الأول. دخلوا إلى أحد المكاتب. استقبلهم كاتب يجلس على كرسي خشبي متهالك كأنه موروث من عهد الأتراك. لاحظ أحمد عمامته المصففة باتقان حول الإطار المصنوع من القماش المحشو بالقطن، وجنبيته القديمة الثمينة الموضوعة في وسطه على نحو مائل ملصقة بحزام محلي مطرز. سجل اسمه بين من سجلوا. الكاتب ينظر إليه في ريبة ظانا أنه من الشاكين ظل الطريق إلى مكتبه. حين كتب اسمه سحب الكاتب الدفتر لفحص الخط والتأكد من أنه يجيد القراءة والكتابة. لا يدري أحمد لماذا ينظر الكاتب منذ البداية إليه بشيء من الريبة. حرر الكاتب رسالة إلى المدرسة المكلفة بامتحانهم تاركا اسمه إلى آخر القائمة مع أنه كان ثالث من سجلوا. المدرسة قريبة، في الجهة المقابلة للوزارة نحو الشمال. سار إليها يملؤه الرجاء والأمل. ربما كان هذا فتحا جديدا في حياته. سيغير حياته تغييرا شديدا. سيترك إلى الأبد هذا العمل غير المضمون: كتابة الشكايا والرسائل. لن ينتظر ما تأتي به الصدفة من مكافأة. هذا عمل لا يوفر إلا دخلا ضئيلا بالكاد يسد الرمق. سيوفر له الإشتغال بالتدريس مرتبا ثابتا يسمح باستقدام زهرته ووليدها الذي يأمل أن يكون قد امتلك من الشجاعة والإقدام ما يجعله يخرج إلى الحياة سالما. سيجد طلبة ومدرسين قادرين على فهمه والتعاون معه في مهمته. سيحركون المدينة كلها وراءهم. سيتبنون القضية ويكسبون الجميع للتجاوب معهم والمبادرة في إيجاد الحلول لها. عندها ستأخذ قضية الأسرى والضائعين منحى آخر. ستصبح قضية عامة تشغل الجميع. لن يعود وحيدا في اهتمامه بها. سيتركها في أيديهم ويتفرغ لعمله. وعندها سيطلبون منه مخططه الذي يحتفظ به بين أوراقه لأنهم سيحتاجون إليه. وسيعطيهم سجل الأسماء والمعلومات التي لن يجدوا مثله في أي مكان آخر. سيلحون على أن يعمل معهم. سيرفض. سيكون مشغولا بعمله أو بزهرته. لن يهمل في

عمله. العمل شرف، والعمل مسؤولية سيتحملها بكفاءة. تدريس الأجيال مهمة صعبة. غيره يستطيعون إكمال المهمة بما لهم من معارف ونفوذ. يكفيه أنه حرك الماء الراكد وجهز الأسماء والمخطط. يكفيه شرف إطلاق المبادرة.

أسرع إلى مقابلة المدير المكلف بإجراء الإمتحان. رجل يقترب عمره من الخمسين لكنه يحرص على الإيحاء بمناسبة وبدون مناسبة بأنه ما يزال شابا. قصير القامة. نحيل الجسم كأنما سكنته المجاعة من أزمان. وجه غريب شبيه بوجه فأر كبير، وفك بارز دقيق. أسمر البشرة. خفيف الحركة كما لو كان ممثل في مسرحية صامتة. يكثر من تحريك يده ورأسه وأجزاء أخرى من جسده كلما تكلم. تبدو حركاته كأنها مفتعلة تماما. عصبي المزاج. واثق من نفسه ومن سعة معارفه مع أنها عادية. يحاول تسريح شعره المكشوف نحو الأعلى دون جدوى بعد أن اعتاد على ارتداء العمامة طوال سنوات. يرتدي ثيابا تجعله يبدو حديثا دون أن يتخلى عما ألفه طوال السنوات الماضية. أول مسؤول يتعرف عليه أحمد من غير العسكريين لا يلبس جنبية. في صوته رقة غريبة مع بحة عميقة. ينتقل فجأة من الهدوء المبالغ فيه إلى الهيجان والصراخ دون أسباب وجيهة.

استقبل أحمد ببسمة عريضة بعثت فيه الأمل في علاقة ثقة وتعاون. دماثته وابتسامته جعلتا أحمد يعد نفسه ناجحا في امتحان القبول. بدأ خياله يشطح إلى ما بعد مباشرة العمل. سأله عن مستواه الدراسي. أجاب انه مثل جميع المتقدمين درسوا على علماء دين. لم يدعه يكمل إجابته. معزوفة يرددها كل من تقدم للإمتحان في بلد لا توجد فيه مدارس ولا نظام تعليمي. الأمية تعم الجميع. والسعيد المحظوظ من يعرف القراءة والكتابة. أول سؤال سأله شفويا اعرب قوله تعالى ﴿إنا فتحنا لك فتحا مبينا...﴾ وقرأ اربع آيات تليها. سر أحمد لأنه بدأ بالإعراب، الموضوع الذي يجيده أكثر من غيره. أجاب دون أدنى خطأ. سر به

المدير أيضا لأن الإعراب هو الموضوع الذي يبرع فيه هـو نفسـه. وجـده محاورا يستطيع أن يستعرض معه أمام التلاميذ والمدرسـين موهبتـه الـتي لا يبارى فيها في الإعراب. اجتهد أحمد في إجابات الأسئلة الأخرى ما عـدا الحساب الذي لم يتجاوز فيه القسـمة. تمنـى لـو يسـأله مـدرس الحسـاب المتجهم مسـألة في حسـاب القـيراط المنكسـر في قسـمة المواريث. أسـر للمدير أنه لم يجب كما ينبغي في الحساب. طمأنه قائلا:

- لن تدرس مادة الحساب. ستتولى تدريس المـواد الـتي تجيدهـا أكـثر من غيرها. ذهل أحمد حين عرض عليـه المدير أن يـبدأ التدريـب العملـي حتى تتم إجراءات التعيين. اطمأن إلى أن تعيينه قد تقرر. لم يكن يظن أن أموره ستتيسر بهذه السهولة. حمد الله. حياتـه توشـك أن تنقلـب رأسـا على عقب. من التشرد والضياع إلى الإستقرار. سر كثـيرا بتعـامل المديـر معه. سينتهز أية فرصة مواتية ليعرض عليه موضوع الأسـرى والمفقوديـن من الحرس الوطني. سيأتيه بما لديه من قوائم ليساعده في البحث عن أسماء جديدة. دائرة معارفه أوسـع، ونفـوذه أقـوى. سيسـتطيع تحريـك المسـألة بسرعة. لا بد من إنقاذ ما يمكن إنقاذه. لا بد من عمل شيء ما. طفـرت دمعة فرح من عينيه وهو يخرج من المدرسـة ليعـود إليهـا للتدريـب غـدا. عندما يستلم أول مرتب سيذهب لزيارة زهرته التي يشتاق إلى معرفـة مـا حل بها وبوليدها.

صعد الـدرج نحو غرفتـه وهـو يدنـدن بأغنيـة حـب قديمـة. لاحـظ وجودها عند المدخل. ارتعش كيانه لمرآها. استعاذ من الشـيطان الرجيـم ومضى دون أن يلتفت. تظاهر بعدم رؤيتها. تبعته عـن قـرب. سمـع وقـع خطاها وراءه ففتح خطواته كي لا تلحق به. ارتبك وهـو يحـاول ايـلاج المفتاح الخشبي في الباب. وجدها وراءه تقول:

- أراك اليوم تغني علـى غـير عـادة؟ يقولـوا (مـا يغـني إلا سـالي والا غاني).

ـ اليوم يوم السلا
ـ خير؟
ـ خير، انشاء ا لله.

أسرع في فتح الباب والدخول دون أن ينظر إليها وأغلق الباب وراءه. حمد ا لله أنها لم تطرق الباب كما اعتادت كلما مرت بمناسبة وبدون مناسبة كأنها تتسلى بإزعاجه وتضيع وقتها بمناوشته. أدرك على الفور سوء تقديره حين سمع طرقها على الباب. لم يجب. ظنها تطرق كالعادة كلما مرت من باب المزاح واللهو. واصلت الطرق. قام غاضبا. سيصرخ فيها ويطردها حتى لا تعود إلى ذلك أبدا. سوى تسريح شعر رأسه وهندم شاربه وفتح الباب. لم يستطع قول كلمة مما كان ينوي قوله. ناولته إبريقا فخاريا فيه ماء مبخر. شكرها وانصرفت دون أن تقول شيئا. أسرع بإغلاق الباب. تحسر لأنها لم تقل شيئا. ينزعج منها ومع ذلك بدأ يألف هذه اللعبة المزعجة. إنها تسليته الوحيدة في وحدته. ومع ذلك يخشى أن تستدرجه إلى لعبة أخطر لا يعرف عاقبتها. لا يريد مشاكل. سيصبح أستاذا. ينبغي أن يحرص على سمعته، وأن يحافظ على القيم. إذا كانت هي مجنونة فهو بكامل قواه العقلية. تناول الماء المبخر الذي أعطته وشرب حتى ارتوى بفرح داخلي عميق. لم يذق ماءا بهذا المذاق العذب. تراءى له أنها لا تريد به سوءا. تبدو له طيبة، تحسن إليه وفاءا لحق الجوار. لا شيء أكثر من ذلك. يجب أن يشكر لها صنيعها. الوفاء قليل في هذه المدن المغلقة في وجه الغريب. فكر بهذه الورطة الجميلة التي يرفضها ويرتاح لها في الوقت نفسه. لا يدري كيف يتصرف معها. حار أمره واضطربت أفكاره كعادته كلما فكر في قصته معها. لم يطق البقاء في الغرفة. خرج يمشي على غير هدى إلى أن وصل جوار مكتب البريد. اتخذ مكانا وبدأ بكتابة الرسائل التي يكسب منها ما يقيم أوده منذ احترف هذه المهنة.

صباحا في ساحة المدرسة، انتظر حتى جاء المدير. وجده مختلفا عما رآه بالأمس. يصول ويجول كأنه جنرال يقود معركة خطيرة. كان الطلبة قد بدؤوا ينتظمون في طوابير في الساحة. أمام كل صف طالب يكبر زملاءه في السن. أغلبهم حفاة. ملابسهم من النوع الخفيف الذي لا يقي من برد. وجوههم نحيلة. شعث غبر. أعمارهم تتفاوت كثيرا. البعض يقتربون من الثلاثين، والبعض دخلوا حديثا العقد الثاني من العمر. البعض يبدون أقرب إلى الكهولة في سيماهم والبعض ما يزالون أطفالا. دفاترهم توشك أن تتقطع من حملها في أيديهم العارية. الكثير منهم لا يحملون دفاتر أو أوراق أو أقلام. البعض يجلسون خارج الصفوف. والبعض منتظم منذ أول لحظة لدخولهم. أسرع الجميع بالإنتظام في الصفوف عندما رأوا المدير متجها إلى وسط الساحة. لحظة أعتادوها كل يوم دراسي. وقف يتلفت يمينا وشمالا كأنما يستعرض قواته قبل أن يكلفها بمهمات حاسمة. بدأ بارتجال خطاب طنان بصوت منخفض صارم وعميق ارغم الجميع على السكوت والإنصات لما يقول. وحين تأكد من جذب انتباه الجميع رفع صوته شيئا فشيئا. اللغة فوق مستوى الطلبة وبخاصة الأطفال منهم. فصحى مقعرة مفتعلة. والأسلوب يشبه أسلوب القاضي الشماحي الذي تعرفه صنعاء. يضمنها أبياتا شعرية من نظمه أو من محفوظه. والمضمون يتناول قضايا العالم المعاصر كما تسمع من أخبار الراديو. اندمج في الأداء وزاد انفعاله شيئا فشيئا حتى زاد عن الحد المعقول. حينها بدا شخصية كاريكاتورية في زئيره. يتنطط شمالا ويمينا، ويتطاير الزبد من فمه حيث اتجه، ويتلوى في كل الإتجاهات. بعض المدرسين يتهامسون ساخرين. كلما زاد انفعاله تلجلج وخانه التعبير وضاعت الكلمات. كاد أحمد أن ينفجر ضاحكا من هذا المشهد الهزلي. بدا المدير بجسمه النحيل وقامته القصيرة متناقضا مع صوته الغريب المرتفع بوضوح بحيث لا يحتاج إلى مكبر صوت. أكثر ما أضحك أحمد أن حركات المدير وهو يلتفت لمخاطبة من

في جنبات الساحة بدت قفزات قصيرة متتالية وتلويحا باليدين، كأنه في مسرحية هزلية يؤديها ممثل واحد. وحين زاد انفعاله حتى ضاعت الكلمات انتهى من خطابه وعلت حينها أصوات الطلبة المتنافرة تنشد:

زمجري بالنار يا أرض الجنوب وامطري بالحقد حبات القلوب.
واعصفي بالغاصب المستعمر

حين ذهب المدرسون لتهنئة المدير على خطابه داخلت أحمد ابتسامة سخرية. لأن الذين كانوا يتهامسون ساخرين هم أول من هنأه وبالغ في الإشادة ببلاغته. ظل أحمد في مكانه. نظر إليه المدير نظرة زاجرة. تهرب منها بالتظاهر بمشاركة الطلبة بالإنشاد مع أنه يسمع هذا النشيد لأول مرة ولا يعرف منه كلمة واحدة.

كلمة التدريب على التدريس التي قالها المدير مبالغ فيها مثل خطابه الطنان الرنان. اكتفى بأن سمح لأحمد بالمجيء إلى المدرسة لمشاهدة المدرسين أحيانا. كثيرا ما يترك بلا عمل في ساحة المدرسة أو في غرفة الإدارة ولم يسمح له بتقديم أي درس. إلا أن أكثر ما سره هو اللقاء بالمدرسين والطلبة. يستغل أية فرصة للحديث معهم. يهمه أن يكسب ودهم، وأن يشرح لهم موضوع الأسرى والمفقودين. يريد أن ينشر الفكرة بينهم وأن يكسب حماستهم. الكثير منهم يعرف موضوع الحرس الوطني. بعضهم شارك فيه شخصيا لبعض الوقت، والبعض عرفوا به من أقارب شاركوا فيه أو سمعوا من يتحدث عنه. لكن لا أحد مستعد للتحرك في نشاط لا ترضى عنه الحكومة. لا يريدون الدخول في مشاكل. يريدون أن يدرسوا بلا إزعاج، وبلا أي اصطدام بالحكومة. لا يريدون التدخل في السياسة. لأول مرة يعرف ان ما يفعله سياسة. هو نفسه لا يحب التدخل في السياسة. لا علاقة لما يفعله بالسياسة في رأيه. إنه عمل خيري. تطوع لإنقاذ أسير وملهوف. لا يدري ما الذي يزعج الحكومة من متابعة موضوع الحرس الوطني، ولا لماذا الحكومة لا تحب

السياسة؟ تمنى لو أحضر دفاتره لتسجيل ما يسمع من معلومات. ذهب إلى المدير للحصول على أوراق وبدأ يسجل المعلومات الجديدة ويناقشها من واقع خبرته السابقة. مر المدير وهو جالس في باب أحد الصفوف بين درسين وحوله حلقة كبيرة من الطلبة والمدرسين يسجل ما لديهم من معلومات. لا يسجل أي إسم إلا بعد أن يناقش المعلومات الجديدة ويجلوها حتى يتأكد الراوي من روايته ومن صدقها. صرخ المدير في التلاميذ والمدرسين يفرقهم بجلافة. صب جام غضبه على أحمد. لا يفهم ما الذي يضايق المدير في هذا العمل. سأله:

- ما الذي يزعج في هذا العمل؟
- نحن هنا في مدرسة. التحريض السياسي ممنوع هنا.
- من الذي يحرض سياسيا؟
- العمل الذي تفعله تحريض خطير ممنوع.
- أنا أسجل وقائع...
- أنت مستعجل على دخول السجن.
- لماذا؟ لم ارتكب جريمة.
- هذه مدرسة لا علاقة لها بالحرس الوطني.
- بعض الطلبة كانوا في الحرس الوطني.
- كانوا. هم هنا طلبة وحسب.

لم يعجب المدير تجرؤ أحمد على مجادلته. تعود أن يأمر فيطاع. لا يجرؤ طالب ولا مدرس على الرد عليه. يتصرف بطريقة بابوية. يقطع في كل أمر باسمهم دون أن يعود إليهم. ما يقوله حق، وما لا يقبله باطل. لا يتردد في ضرب الطلبة والصراخ بأعلى صوته في وجه المدرسين. لجوج في المناقشة. لا يقبل حجج الآخرين متى تعصب حتى لو بدت هذه الحجج في وضوح الشمس في رابعة النهار. أحس أحمد بالإهانة لمعاملته أمام التلاميذ دون أدنى احترام. كيف سيدرسهم وهو يتعرض للإهانة

أمامهم. كظم غيظه حتى عاد المدير إلى الإدارة. تبعه بهدوء. قال له بصوت هادئ، باذلا جهدا كبيرا للسيطرة على غضبه:

ـ سيادة المدير. لم أتوقع أن تسفهني أمام التلاميذ...

لم يدعه يكمل كلامه. رد عليه قبل أن يسمع ما يريد قوله. تنطلق الكلمات من فمه كالرصاص يلعلع بلا ضابط. أحمد يواصل الحديث والمدير يتحدث في الوقت نفسه. كلما علا صوت أحمد علا صوت المدير أكثر. كل يصرخ دون أن يسمع لما يقول الآخر. اقترب منه أحمد. أمسك به مواصلا حديثه. هزه. أمتقع لون وجهه وتجمد الزبد على شفتيه صارخا يطلب النجدة. أقبل المدرسون وبعض الطلبة لنجدة المدير الذي تخشب في مكانه كالمشلول بلا حراك. أمسكوا بأحمد وأبعدوه من الإدارة. قال لهم بهدوء:

ـ لم أمسسه بسوء. أردت فقط أن يسمعني. دعوني ادخل إليه لإفهامه ما أريد قوله.

ظنوا انه يريد الدخول لمهاجمته. منعوه من الدخول. طلبوا منه أن يدخل عندما يكون المدير قد هدأ. فوجيء أحمد بهذا الموقف السخيف الذي يجد نفسه فيه وهو ما يزال متدربا. يخشى أن يؤثر سوء التفاهم غير المقصود على توظيفه. قال لنفسه (كل شيء في بابه. لا دخل للأمور الشخصية في شؤون العمل). حز في نفسه أن يأخذ الجميع عنه فكرة سيئة. لا يريدهم أن يظنوا أنه فج وبلا أدب إلى حد مهاجمة المدير وضربه في مكتبه وهو ما يزال متدربا. هذا غاية الغباء لو حدث منه. لم تهدأ نفسه أبدا. ابتعد عن باب الإدارة حتى يهدأ الجو ويعود في وضع طبيعي للحديث مع المدير. لم يطق الصبر. عاد بعد دقائق قليلة والمدير بمفرده. يتوقع رد فعله. فهو مكابر. لجوج. لا يسامح من أساء إليه شخصيا. ما أن دخل باب غرفة الإدارة حتى حياه المدير باسما. استغرب لهذا التصرف. فرح لأنه ليس غاضبا ولا مستاءا. أقترب المدير منه. أخذه من

يده للجلوس على كرسي معدني من النوع الـرديء الموجـود في المقـاهي الشـعبية. أغلق بـاب الإدارة ووقـف أمـام مكتبـه يلقـي عليـه خطابـا في الأخلاق وواجب المدرس ورسالته السامية. لا جديـد في هـذا الخطـاب. سبق أن سمعه في ساحة المدرسة. بعد هذه المقدمـة الطويلـة توقـف المدير فجأة بحركة مسرحية لا علاقة لها بالمقدمة، وقال:

- اسمع يا أستاذ. سأتحدث معك بصراحة لم يسبق لي أن تحدثت بها مع أي من المدرسين عندي. أنت انسان ضحى وقاتل وأسر. وأنا واجهت الإمام. تظاهرت وأسقطت الإمامة من النفـوس قبـل أن تسـقط في الواقـع. تحس أنك مظلوم ولم تنل المنصب الذي تستحقه، وأنا مظلوم أيضا ولم أنل ما يليق بقدراتي وكفاءتي. أتظن انني سـعيد بهـذه الوظيفـة التافهـة. مدير مدرسة، وغيري يتبوأ المناصب الكبيرة؟ الضباط يا استاذ (زقوا المهره) قالها بلهجة صنعانية مع أنه عادة ما يتكلم بفصحى.

واصـل حديثـه وأحمـد سـاكت لا يقـول كلمـة. لا يريـد أن يعـاود الإشتباك معه من جديد.

- لا تزايد علي.

استفزت أحمد هذه العبارة. قال:

- سيادة المدير. أشكر لك تقديرك لي. لكن دعني أقـول لـك انـي لا أحس بهذا الظلم الذي تقول انه نالني. أنا لست مظلوما. أتمنـى أن يقبـل طلبي لأعمل مدرسا، وأن أواصل اهتمامي بالأسرى والمفقودين...

- ولماذا تثير موضـوع الحـرس الوطـني بمناسـبة وغـير مناسـبة. أليـس للتذكير بدورك الخطير؟

- لا. لا. هذا موضوع آخر. هذه هواية.

- الهوايـة أن تجمـع علـب الكـبريت، أو الطوابـع البريديـة، أو القطـع النقدية، أو خيوط الأحذية، لا أن تحرض الناس على التمرد.

ـ لقد أعطيت للموضوع معنى لا يدور بخلدي. لماذا أحرض على الحكومة؟ وما يضير الحكومة إذا دعوت للإهتمام بالأسرى والمفقودين؟ لكل إنسان هواية. هوايتي أنا التذكير بالأسرى والمفقودين، بالحرس الوطني.

ـ ولماذا تعاملني وكأنني مسئول عن ضياعهم.

ـ تناقشت معك حول إهانتي أمام التلاميذ وليس حول أي شيء آخر.

ـ أراك دائما لا ترتاح لما أقول.

ـ لم يصدر مني ما يسيء.

ـ اقرأ مشاعرك.

ـ لا يعلم السرائر إلا الله.

ـ فلنتفق؟

ـ اتفقنا.

ـ على أن نكون أصدقاء.

ـ نحن أصدقاء.

ـ أنحن متفقون؟

ـ متفقون.

صافح المدير وخرج مسرورا تدوي كلمة اتفقنا في رأسه. لم يجد رغبة في مواصلة الحديث. كان يرغب في سوءاله (متفقون على ماذا؟). كان الجوع يعوي في أمعائه. وتصرفات المدير تجعله يتخوف من مشاكل جديدة. لا يريد الدخول في خلاف مع أحد. يريد فقط أن يحصل على فرصة عمل تحميه من التشرد وتسمح له بمواصلة اهتمامه بعمر وأمثاله من المنسيين. ما يزال هناك أمل في انقاذ الكثيرين. قطع الميدان متجها إلى باب السبح وذهنه مشغول بما حدث له اليوم. آخر ما كان يتوقعه أن يصطدم بالمدير ومنذ البداية. حظ نحس. (لماذا يظن انني ضده؟ لم أفعل شيئا يسيء إليه؟). نسى أن يتوقف أمام أي مطعم شعبي لتناول ما يسد به رمقه. وجبة الغداء دائما (سلته) وخبز (كدم) تباع مما يهرب من

غذاء الجنود. وجد نفسه فجأة عند باب غرفته مستغرقا في التفكير والقلق. هم بوضع كتبه والعودة لشراء الغذاء. ما أن دخل الباب حتى اندفعت وراءه بقوة أرعبته وأغلقت الباب وراءها وهو متخشب في مكانه كالمشلول. أخرجت من (زنبيل) غداءا دسما لم يذق مثله منذ أيام حمامة. لحم بالمرق وسلتة من النوع الممتاز ب (السحاوق) و (ملوج) وقطعة من (بنت الصحن). يود لو يستطيع طردها. لماذا لم يفعل. لا بد أن يطردها. لا يريد أن تتسلل إلى حياته بأي حال. سألها:

ـ ما اسمك؟

أجابت بصوت منخفض تغلب عليه الرقة والحياء دون أن تنظر نحوه:

ـ فاطمة.

تلجلج. تضاربت الكلمات في رأسه. وجد نفسه يقول:

ـ لا داعي لكل هذا. أشكر لك هذا الكرم. لكن ارجو أن لا تكرريها ثانية. لا تعرضيني وتعرضي نفسك للخطر.

ـ أنت وحيد. تحتاج إلى من ترعاك وتوفر لك الراحة.

ـ جميلك لا ينسى. لكن لا تعرضي نفسك للأذى بسببي. لا تهتمي بي. سأتدبر أموري بطريقتي.

ـ لاتقلقوا. لن يصيبني مكروه.

سكت. لم يجرؤ على طردها. ظن أنه لمح لها تلميحا. لعلها فهمت. لا بد أن تفهم. فهم من كلامها أنها امرأة تبحث عن زوج. إذا كانت المرأة لا تذهب لخطبة الرجل فانها في أحيان كثيرة تفعل ما هو أهم من الخطبة. لا تتوجه إلى أسرة الرجل لخطبته. تتوجه إلى قلبه. تلفت نظره. تأسره. تجتذبه. فاطمة تريد زوج. تبالغ في خطبته. هبطت في المطار الخطأ. فهو متزوج. بلا عمل. بلا دخل. مشغول بمهمة تمنعه من الإهتمام بامرأة. سيخبرها بصراحة بكل هذا. ستغير رأيها. ستبحث عن

زوج في مكان آخر. أصبح بينه وبينها عيش وملح بعد ما جلبت له اليوم. لا بد له أن يصارحها.

اقتربت منه تنظر بعينين تبرقان بالجمال وبطفولة عابثة. تنظر في عينيه مباشرة. وجهها مغطى ما عدا خط من البريق يصل ما بين العينين الآسرتين. شيء ما في داخله يعصف به. وقع عينيها ينزل عليه كالصاعقة. لا شيء يجتذبه مثل الجمال. في داخله جبال من حنان وشوق. يحن إلى أنثى. إلى أنيس. إلى حياة. اندفع هاربا إلى الزاوية البعيدة من الغرفة. يخشى أن يضعف أمام الإغراء. قال لها في حسم:

ـ رافقتك السلامة.

كانت قد خرجت في سرعة لم تسمع معها جملته التي ظن انه بها قد طردها من حياته إلى غير رجعة. ارتمى في زاويته لبعض الوقت في حال من الإرباك والإعياء. لا يدري لماذا يشعر بهذه العاصفة الداخلية كلما التقى بها. يتردد بين الإقدام والتراجع. ارتاح إلى أنه قد طردها. طمأن نفسه إلى أنها لن تعود ثانية. حمد الله لما أحس به من جرأة على طردها. هذه نهاية سعيدة لقصة عارضة كادت أن تعصف بحياته. لا يريد أن يتزوج بها. لديه زوجة تحبه ويحبها ولا يريد الزواج بثانية. بدأ من فوره يهتم بمعرفة أي شيء عنها. من هي؟ ما قصتها؟ لا يريد أن يلفت انتباه الناس. يريد أن يعرف بطريقة لا تثير أية شبهة. فضول لا يقاوم يدفعه لمعرفة الكثير عنها. سأل نفسه مرارا عن دوافع هذا الإهتمام بها. كل مرة يأتيه جواب حائر دون سبب وجيه. ولكن لا شيء دون سبب. يرتاح في أعماقه لإهتمامها به، هو الذي كان يظن أن أحدا لن يهتم به، وبخاصة النساء الباحثات عن زوج ميسور يوفر لهن الإستقرار في بيت وأطفال... الخ. اهتمامها به يشعره انه ما يزال رجلا يثير اهتمام النساء. هذا يعني أنه رجل طبيعي. تمنى لو كان عازبا لتزوجها. يزعجه أنها وضعت نفسها في طريقه في هذا الظرف الصعب. ظرف كلب بن

كلب. لماذا لا يتزوجها؟ ربما كانت فأل خير في حياته. الدين يسر وليس عسر. ربما فتحت له أبواب المدينة المغلقة. ربما لقى عندها شيئا من السلوى في هذه الظروف الصعبة. قد تكون مكتوبة له في اللوح المحفوظ. الآن سيكون اهتمامه بها في محله. يجب أن يعرف عنها كل شيء. سيبحث عن أخبارها دون خجل أو خوف. أذهله أن أخبارها تملأ الحي. صدم بأخبارها صدمة شديدة. زادت حيرته. في العقد الثالث من العمر مع أنها تبدو طفلة لاهية. جميلة. لجمالها جاذبية غريبة ولها سحر مميز. فاطمة يتيمة الأب. عاشت في كنف أمها بائعة الخبز البلدي (الملوج) حتى كبرت. فاز بها وعمرها أربعة عشر ربيعا عجوز متصاب مزواج، موظف قديم وميسور. كان حين تزوجها قد دخل العقد السادس من عمره قبل سنوات لا يعلمها إلا هو. منذ بلغ الثامنة والثلاثين وعجلة الزمن لا تدور في خاطره. تسأله عن عمره فيجيب بسرعة قائلا: ثمانية وثلاثين. تأتي إليه بعد سنوات. يجيب الإجابة نفسها: ثمانية وثلاثين. عمره لا يزيد. رغبته في الزواج والطلاق تزداد كلما مرت الأيام. وحدها فاطمة ثابتة في حياته. لا يفكر في طلاقها أبدا. لن يفوز بعد اليوم بمثل جمالها وشبابها. تنتابه عليها غيرة شديدة، لكنه يتسامح مع دلعها. درة مملكته النسائية وتاجها. ولأن لديه أكثر من زوجة، تركها عند أمها. يأتي إليها ليقضي معها اليوم واليومين، والليلة والليلتين كل شهر ثم يهجرها حين يضعف جسده الستيني عن الإستجابة لنزعات الشباب التي تجتاحه. كل سنة تمر تجعل تصابيه تمثيلية هزلية. وكلما زادت سني عمره زادت الحكايات التي تروى عن مغامرات فاطمة بالحق وبالباطل. صارت حكاية لا تنقطع على شفاه الحي. كلهم يتحدثون عن مغامراتها. كلهم يروبها وينسبها إلى مجهول. لا يوجد شاهد عيان في هذا السيل من الروايات المتضاربة عن مغامراتها. جريئة إلى درجة تبعث على الخوف. واسعة الحيلة. كثيرة الضحك. تبدو لامبالية لكنها شديدة الحرص على

الفصل بين شخصيتين مختلفتين داخلها. شخصية ظاهرة عابسة باستمرار، شديدة التدين، محافظة على التقاليد، مترددة، حذرة، منطوية. وأخرى خفية، ساخرة، لامبالية، هازلة، مندفعة، طائشة.

ضحك أحمد ملء شدقيه من سذاجته التي جعلته في لحظة ضعف يحدث نفسه عن الزواج بها. ندم ندما شديدا لأن خاطر التنكر لزهرته قد راوده. أكثر ما أثار انزعاجه من نفسه أنه فكر بالهرب من الورطة التي يجد نفسه فيها إلى الزواج، وأحس بالضلال الذي أوشك أن يغرق فيه حين فكر بالزواج من امرأة متزوجة. زادت حيرته. داخله خوف حقيقي. ليست امرأة تبحث عن زوج. ماذا تريد منه؟ لماذا تضع نفسها في طريقه وسوق الحطب أمامها يعج بالرجال كل يوم. المدينة مليئة بالرجال، لماذا اختارته للعبتها العابثة. قدر أن في الأمر مؤامرة. عبثها ليس مجانيا ولا ساذجا. في الأفق شيء يستدعي الحذر. داخله شيء من الكره لها. لكن، قد لا تكون الأمور بهذا التعقيد الذي يتصور. قد تكون مشاعر بريئة وبحثا عن صداقة عادية. عن أنيس أو صديق. شيئا من الشفقة على غريب وحيد. ينبغي أن لا يتسرع. أن يأخذ الأمور بهدوء أكثر. حرصه على عدم التورط فيما يسيء اليه ثابت في رأسه. لكنها لا تترك له فرصة لرد الفعل العاقل.

حرص في اليوم التالي على حلاقة ذقنه بعناية قبل الخروج، وهندمة شاربه. كوى بنطاله الوحيد بوضعه منذ المساء تحت فراشه. مسح حذاءه الذي يكاد يتمزق ببقايا جريدة. بلل شعر رأسه ليسهل تصفيفه على نحو أنيق، ودهن وجهه بدهان محاولا استعادة بقايا وسامة صبا ضيعها السجن وحوادث الزمن. فتح باب غرفته قبل أن يخرج. تطلع نحو الدرج. يتمنى في أعماقه لو تمر لتراه. أغلق الباب وخرج (لعلها تراني دون أن أراها).

وقف في طابور المدرسة مفكرا في مصير طلب توظيفه. اقترب المدير منه. جذبه خارج الطابور. سأله دون مقدمات:

ـ سمعت يا أستاذ انك تدعو لانشاء جمعية.

ـ نعم.

لا يدري لماذا أجاب بالإيجاب مع أن ذلك غير صحيح. بدت له الفكرة معقولة. يجب أن يدفع سعيه خطوة جديدة تخرجه من الركود الذي وصل إليه. سأله المدير باهتمام:

ـ أية جمعية؟

ـ جمعية الرفق بالحرس الوطني.

ضحك المدير ضحكة عالية لفتت انتباه الجميع واثقا أن أحمد يمزح.

ـ هذا مزاح ظريف.

ـ لا يا أستاذ. بل هذا حد الجد.

ـ غير معقول.

ـ لماذا؟

ـ هذه تسمية جمعيات يكونها الأجانب للرفق بالحيوانات.

ـ هذا في بلاد الأجانب. نحن نحتاج للرفق بالإنسان.

ـ ابحث لها عن تسمية أخرى مناسبة.

ـ مثل ماذا؟

ـ لا أدري. ربما جمعية الإهتمام والعناية بالأبطال الذين...

ـ هذا اسم طويل لا يدل على رسالتها. أريد تسمية مباشرة، بسيطة، يفهمها الجميع.

ـ هذه التسمية إهانة للحرس الوطني.

ـ لقد أهينوا إلى درجة لا مزيد عليها.

ـ دائماً تذكر الحرس الوطني بمناسبة وبدون مناسبة.

ـ هذه هوايتي.

ـ الحرس الوطني وهم من أوهامك. نحن الآن نخوض معارك واسعة، يد تبني ويد تدافع.

ـ من يجروء على القول ان الآلاف من القتلى والأسرى والمشردين والمعوقين وهم من الأوهام؟

ـ الشعب اليمني كله مشردون ومعوقون وجوعى. لماذا لا تسميها جمعية الرفق باليمن؟

ـ لماذا لا تنشيء أنت جمعية لهذا الغرض؟

ـ أوجدت أعضاء لجمعيتك؟

ـ أنت مثلا.

ارتبك المدير.

ـ لا. دعني أنا للمهمات الكبيرة التي تتطلب المواجهة. لن أضيع وقتي في مثل هذا العمل، وتحت هذا الإسم.

بدأت الفكرة تلح على ذهن أحمد. لم يفكر بها من قبل. لم يعد لها العدة. الهرب سهل. تقفز في لحظة مواتية. ان نجحت نفذت. ان فشلت تحملت النتيجة لوحدك. انشاء جمعية لا يعتمد على همتك وحدك، بل يعتمد على همم الآخرين. كان المدير يشير إلى مشكلة حقيقية. لا أحد يقبل الإنضمام إلى الجمعية. بدا لهم أحمد مجنونا يجرهم إلى ما لا يريدون تخطيه في نشاطهم. من سمع اسم الجمعية ضحك وتهرب. اتخذوا من الإسم ذريعة للتهرب. الطلبة وحدهم يبدون حماسة للإنظمام، لكن المدير يمنعه من النشاط في المدرسة. يسمي الدعوة إلى انشاء الجمعية عملا سياسيا مع أنه هو الذي أوحى له بانشائها. تذكر في هذه اللحظة عمر. وا حسرتاه يا عمر. أين أنت؟ لو كنت هنا لاندفعت تدعو الناس للإنضمام إلى الجمعية. سيحاول اقناع المدير من جديد بالسماح له بفتح باب الإنضمام للطلبة. هم الوحيدون المتحمسون. بعضهم شارك في الحرس الوطني. وبعضهم يعرف مفقودين ممن شاركوا. والبعض لديه رغبة في عمل شيء جديد.

توجه منذ الصباح الباكر إلى المدرسة دون أن يتناول أي افطار أو حتى يشرب الشاي. يريد أن يصل مبكرا قبل أن ينشغل المدير بالطابور ويستغرق في إلقاء خطابه اليومي الطنان الرنان. ظن أنه سيصل قبل الجميع. وجد المدير قبله على غير عادة واقفا على باب المدرسة يستقبل القادمين الأول من الطلبة، ويوجه كلمات آمرة زاجرة إلى هذا أو ذاك منهم. لا يتوقف عن إلقاء الأوامر والتوجيهات الناهية. أحس أحمد أن الوقت غير مناسب لإقناعه بأي شيء. حضوره المبكر يوحي بأنه منشغل بأمر مهم أو أنه قلق. قال له بود:

- صباح الخير يا مدير

أجاب ببشر وانشراح بددا بعض مخاوف أحمد:

- صباح الخير والنور والسرور. أهلا وسهلا بالأستاذ...

مضى في مجاملة طويلة بدت غريبة. كأنه يلتقي به لأول مرة. طريقة الترحيب تثير الإستغراب. رسمية وبشوشة أكثر مما ينبغي. في الأمر شيء، قال أحمد لنفسه. عندها قرر أن يستغل هذه اللحظة لطرق موضوعه. قد لا يلاقي أنسب من هذه اللحظة. قال:

- عندي موضوع مهم أود أن أحدثكم عنه...

لم يدع له المدير فرصة لمواصلة حديثه. سحبه من يده اليمنى نحو ناحية من مكان الطابور ومضى يصرخ بالتلاميذ أن يكفوا عن فعل هذه أو تلك من الحركات دون أن يستمع لأية كلمة يقولها أحمد الذي صبر على قطع الكلام وعدم الاستماع. كرر المحاولة دون جدوى. شحنة الحماسة التي جاء بها تتبخر شيئا فشيئا. لا يريد أن ينهزم بسهولة. أمسك بالمدير يهزه هزا خفيفا قائلا:

- أريد أن أحدثكم في أمر مهم.

- أنا الذي أريد أن أحدثك في أمر أهم.

- أظن موضوعي أهم

- لا شيء أهم من السلام واخراج القوات المصرية
- لاشيء أهم من الأسرى والمفقودين
- اذا لم تنته الحرب سيتحول الجميع إلى قتلى ومفقودين وجرحى ومشردين
- يا لطيف. لماذا هذا التشاؤم؟
- أين تعيش يا أستاذ؟ في واق الواق؟ ألا تعرف أوضاع البلاد؟
- إذا كان الوضع العسكري بهذه الخطورة فبقاء القوات المصرية أولى.
- هم سبب هذا الوضع الخطير. اليمني بطبعه يرفض التدخل الأجنبي
- في ١٩٤٨ لم يكونوا هنا، ومع ذلك استبيحت صنعاء ونهبت.
- هل سمعت بمؤتمر السلام في عمران؟
- سمعت أنهم افتتحوا سوقا لمقاولات الحرب. الحرب تجارة. لا توجد مقاولات بناء، استعاضوا عنها بمقاولات الحرب. تقاول على معركة، أو على معارك. مقاولات بطريقة تسليم المفتاح. ومقاولات جزئية، ومقاولات من الباطن. السوق واعد بارباح كبيرة في الجانبين.

واصل هذيانه. لم يكتشف أن المدير قد انصرف عنه إلا حين سمع صوته يلعلع بخطبته اليومية. لم يستمع منها لأية كلمة. أصبحت مألوفة إلى درجة تثير التقزز. يعرف ما سيقول قبل أن يلقيها، تماما مثل نشرة أخبار إذاعة صنعاء. أحس بالجوع. تذكر أنه لم يأكل شيئا منذ البارحة فغادر المدرسة باحثا عما يأكل. يمشي مهموما بحال الدنيا. بحاله مع المدير. مع فاطمة. (آه يا فاطمة من أين جئت لي وأنا في غنى عنك؟ هل أنا في غنى عنك؟ أعيش كالنعجة المربوطة. أخرج في الصباح دون أن يطلب مني أحد الحضور. لا يهتم أحد أحضرت أم غبت. لا أدري أين وصل طلب توظيفي. وهل أنجح والمدير بالمرصاد؟ أعود إلى ذلك القبر الموحش وحيدا مغموما. أعيش على ما أحصل عليه من سوينعات أسرقها لكتابة الشكايا أو الرسائل. أحلام صعبة وحياة أصعب. لست سجينا

لأهرب، ولست حرا لأفعل ما أريد. فاطمة هي الوحيدة بين هؤلاء البشر تضع نفسها في طريقي. تزعجني. تجعلني أحس انني انسان. انني ما أزال رجلا و لم أمسخ فأرا أو حيوانا ضالا. لماذا تضع نفسها في طريقي؟ سؤال يحيرني باستمرار. هل سلطها المدير أو أي شخص آخر علي؟ لا أظن. ماذا تريد مني أنا بالذات؟). يريد أن يتجنب فاطمة بأي شكل. لكنه يحن إلى ما تبعثه فيه مشاغباتها من أنس ووجد. ألفى نفسه عند باب غرفته. ليست المرة الأولى التي ينوي فيها الذهاب إلى مكان آخر ويجد نفسه قد وصل باب غرفته دون قصد. ينجذب إلى قوقعته لاشعوريا كأن بها مغناطيس يشده إليها. قاوم رغبة جامحة تدفعه للإلتفات ليرى ما اذا كانت فاطمة تراه (لا. لا أريد أن أراها. لن أسمح لمشاكساتها أن تجرني إلى ورطة عاطفية، وربما إلى فضيحة). سمع وقع أقدام هابطة. تشاغل بفتح الباب عن سماعها. دخل الغرفة. رد الباب وراءه. وقبل أن يغلقه بالمزلاج، دفعت الباب بعنف واندفعت إلى الداخل بقوة أفقدته توازنه حتى كاد يسقط على الأرض، والتفتت تغلق الباب وراءها بهدوء. ظلت واقفة تنظر إليه باضطراب. لم يتحرك. تخشب في مكانه. لم يتوقع أبدا أن يجد نفسه معها في هذا الوضع. مرت ثوان كأنها ساعات. لا يتحرك. لا تتحرك. استجمعت شجاعتها بعد أن هدأت قليلا وتوجهت إلى مجلسه في ركن الغرفة. جلست ووجهها مغطى.

ـ لماذا أنت واقف هكذا. ألا تقول لي أهلا سهلا؟

أجاب في ذهول وهو على حافة الإنهيار:

ـ أهلا وسهلا.

ـ كيف حالكم يا أستاذ؟

ـ الحمد لله

ـ منذ أيام وأنا أفكر بزيارتكم.

ـ لا داعي لزيارتي.

ـ أريد أن أراكم.

ـ أنت تريني داخلا خارجا.

ـ ألا تريدون أن تروني؟

أنزلت (اللثمة) عن وجهها فكشفت عن وجه جميل ساحر، وعينين عسليتين تبرقان بحدة، وأنف طويل بعض الشيء، وخدين أبيضين متوردين، وشفتين ممتلئتين محمرتين بحمرة طبيعية، وابتسمت عن صفين من أسنان متناسقة ناصعة البياض. هاله المنظر. ذهل لجمالها البديع واندفع كالمخدر يقول:

ـ أحس بفرح لوجودك معي. من لا يرتاح لصحبة هذا الجمال الرائع.

لم تسمع مثل هذا الغزل من قبل. واصل قائلا:

ـ أنا لا أجامل. أنت جميلة حقا. ومغامرة أيضا.

ـ أفكر الآن في طريقة للخروج. أخاف أن يراني أحد خارجة من هنا.

ـ أخرجي بالشجاعة التي دخلت بها.

ـ انتهت شجاعتي بعد دخولي الباب. أرجوك ساعدني في الخروج بسرعة قبل أن يغمى علي من الخوف. أرجوك. أرجوك.

ـ يا حنبتك يا عسيق. من دخلك خرجك.

ـ أرجوك ساعدني في الخروج.

ـ ولماذا دخلت؟

ـ فضول. قلة عقل.

فتح الباب ويداه ترتعشان من الخوف. أطل برأسه. رأى الأطفال يلعبون أسفل الدرج.

ـ اخرجي واتجهي نحو أعلى الدرج.

قالها بوجه صارم مكفهر. أعادت (اللثمة) على وجهها وخرجت في ذعر. التفتت إليه قبل أن تفتح الباب وقالت:

- سأعود في وقت مناسب انشاء الله.

- لا تعودي أبدا. لعنة الله عليك وعلى الظروف التي ألقتني في هذا المكان.

لم تسمع ما قال. كانت منشغلة بالخروج من الورطة التي أحست بها بعد دخول الغرفة. ذعرها في الخروج يماثل شجاعتها واندفاعها في الدخول. أقفل الباب متضائقا من نفسه ومما فعلته معه. عاد إلى مجلسه محاولا ضبط أعصابه والعودة إلى هدوئه. عادت إليه فكرة أن وجودها في طريقه مؤامرة عليه. لم يقتنع بها تماما، لكنه يبحث عن مبرر. أي مبرر. لا يفهم سببا للظرف الصعب الذي يجد نفسه فيه. تناول كتابا. حاول القراءة لطرد الأفكار التي تملأ راسه. قرأ صفحات دون أن يستوعب شيئا. ذهنه مشتت. تمر الكلمات والجمل بلا رابط بينها، بلا معنى. تناول كتلي الشاي وملأه بالماء. أشعل موقد الكيروسين ووضع الكتلي فوقه. تناول علبة الشاي السيلاني، وغسل الكأس الوحيد، وأعد كأسا واحدا من الشاي وشربه في سرعة ساخنا وهو ينظر من النافذة إلى الناس المارين في سوق الحطب. لا يركز على شيء معين. ينظر شارد الذهن. يمضي الوقت دون حساب. لم يطق البقاء في الغرفة. خرج يمشي على غير هدى. توجه من الطبري إلى باب السبح. قطع ميدان التحرير إلى المقهى المجاور للمدرسة. لا يحب الأكل إلا جوار المدرسة. جلس على دكة صامتا. جاء صاحب المقهى ليضع أمامه كأسا طويلا مليئا بشاي أحمر. أخرج من جيبه (كدمه). أكلها مع سلتة كما يفعل في أغلب الوجبات وقت الغداء منذ ترك العرضي. خرج من المقهى لا يدري إلى أين يتجه بعد الظهر. الجميع يتجهون للجلوس ومضغ القات. وهو لا يذوق القات أبدا. اتجه إلى جانب مبنى البريد عله يجد من يطلب أن يكتب له رسالة أو شكية.

وفي الصباح اتجه إلى المدرسة بحكم العادة. لم يعد يتحدث عن موضوع الحرس الوطني في انتظار أن يحسم موضوع العمل. يملؤه الأمل بالموافقة على

توظيفه. واثق من نفسه. معرفته باللغة العربية أفضل من مستوى المدرسين الذين التقاهم، ومعرفته بقواعد الخط وبالشعر القديم وحفظه عن ظهر قلب لمقامات الحريري وللعبرات والنظرات للمنفلوطي، ومعرفته بالتجويد والحديث والسيرة والفقه وتقسيم المواريث مشهودة. نجاحه مؤكد. في أسوأ الأحوال سيعينونه مراقبا. المراقبون الذين عرفهم أشباه أميين. المسألة تحتاج إلى وقت فقط. أيام أو ربما ساعات ويعود الرد بالموافقة. هكذا كان يحدث نفسه. وصل إلى الطابور مبكرا كعادته. استقبله المدير بيشر، وأظهر ودا مبالغا. قال أحمد لنفسه (وصل الرد. يتملقني لأنني أصبحت مدرسا عنده). جذب أحمد من يده واقتاده إلى مكتبه مكررا الترحيب والمجاملات. أمره بالجلوس على كرسي حديدي شبه مكسر، ووقف وراء طاولة المكتب التي تشبه طاولات المطاعم الشعبية متجها بوجهه نحو أحمد. انقلب فجأة من البشر والإنشراح إلى العبوس وعقد الحاجبين، ثم مضى مستغرقا في مقدمة طويلة لم يفهم أحمد قصده منها. اكتفى بالإستماع إليه دون اكتراث حتى انتفض عند سماع جملة:

- حاولت جهدي. لم يوافقوا.

بدأ أحمد يفهم أن الموضوع أخطر مما توقع. قال بانفعال:

- من هم؟
- الوزارة.
- من في الوزارة؟
- الجميع.
- وعدوني.
- بذلت أقصى جهد ممكن. قمت بجهد يفوق طاقة البشر.
- لماذا؟
- المستوى ضعيف. بلا مؤهل.
- أي مستوى؟ أي مؤهل؟

خرج المدير تاركا أحمد يسترسل في تساؤلاته كالمذهول. لم يتوقع أبدا رفض طلبه. تمالك نفسه. غالب دموعه. يحس بنار تشتعل في أنحاء جسده. خرج منكسرا من المدرسة. لن يعود إليها ثانية. لم يعد لديه ما يفعل. مشى كالتائه في شوارع المدينة. طاف بأبوابها السبعة. لامس السور الذي يطوقها كالسوار حول المعصم. ظل يمشي ويمشي مذهولا. وجد نفسه بعد وقت لا يدري مدته يتجه نحو غرفته. التصق بالباب من الخارج كأنه نائم أو مغمى عليه. فتح بيد ترتعش وانسل بهدوء نحو الداخل. يريد أن يرتاح. أن ينام. أن يهدأ. لم يعد يرى شيئا. ولا يحس بشيء. أحس بجسم طري يلتصق به. غرس وجهه بين صدر ناهد مكتنز بالحياة والموت، يستنشق نسائم الشرق وعذوبة المنفى، وبكى من خدر يتجاوز حدود الفرح. وانتابته نوبة جنونية متواصلة من تشنجات هستيرية، ورعشات امتدت إلى كل خلية من خلاياه المشتعلة بلظى لا يقاوم، حتى خر مغشيا عليه. انتفضت أمامه مذعورة تتوسل إليه أن يساعدها في الخروج. كان ذاهلا عنها. لا يستطيع أن يفعل شيئا. غابت عن خاطره كأنها غير موجودة. لا يسمع شيئا، ولا يفهم شيئا. حواسه كلها معطلة. خيل له وهو متكوم على نفسه في مرقده أنه قال لها:

ـ عفوا...

ـ اخرجني من هنا.

ـ لا تعودي ثانية. سأقتلك إذا عدت.

ـ لست مجنونة حتى أعود.

ـ أنت مجنونة حقا.

ـ اخرجني من هنا. أرجوك.

ـ يا حنبتك يا عسيق. من دخلك خرجك.

-١٣-

إنه الحصار من جديد. محشور داخل هذه القشرة الخارجية التي لا يستطيع منها فكاكا، وقد أصاب نظره الحديد كثيرا من الغبش واضطراب الرؤية. حصار قديم. حصار جديد. حصار داخل الحصار. حصاة تفر من مكان إلى مكان، وصخرة صغيرة تتفتت بالتدريج وتستحيل رملا يذروه الرياح في جهات غير محددة. يتقدم ويتراجع بانتظام غير مألوف. وفي كل مرة يجد نفسه متكورا في ركن قصي لا طريق إليه، مبعثرا في زاوية ضيقة من سجن لا يرى له بابا ولا نافذة يستطيع منها الهرب النهائي الذي ينتظره ويستعد له منذ زمن لم يعد يذكر بدايته ولا نهايته. تتكرر الصور غير الواضحة على صفحة مخيلته بسرعة لا تسمح بتبين ملامحها، منذ طفولته المبكرة حتى الحصار الأخير في ذلك المكان المنبوذ داخل وكره الذي اختاره بنفسه في حي الطبري. تتراكب تلك الصور وتتداخل داخل قوقعة رأسه المتشظي بألف حصار وألف هرب، فلا يعود قادرا على تبين مكانه ولا زمانه. تتداخل الأمكنة والأزمنة ويلغي بعضها بعضا. وليس أمامه من مخرج سوى الإندفاع على طريق الهرب من جديد. اهرب تسلم. اهرب إلى الموت أو إلى الحياة. اهرب إلى الحياة والموت. اهرب إلى حيث الأمان المفقود، والعدل

المفقود، والمعنى المفقود، إلى واحة تحتل القلعة كل مساحتها أو يزيد، وتطمر نخلها الباسق الظليل، وماءها العذب السلسبيل، وأكوام القش الذي يستجمع قواه الواهنة كي يشتعل، وأزهار البن التي تضمخ الآفاق بعطرها الممنوع. اهرب إلى بلد لا تبلغه إلا بشق الأنفس، إلى حيث أشباح الخوف والرعب المجنون تعبد الطريق للرمال المسلحة حتى الآذان في زحفها على ما تبقى من مدرجات خضراء ومن بحار جديبة. اهرب، اهرب، اهرب. اهرب إن استطعت، واهرب إن لم تستطع. اهرب إلى زاوية المكان، أوإلى ظلمة السجن، أو إلى فضاء الهاوية الفسيح، أو إلى أنياب المدينة المغلقة، أو إلى اتساع جلدك المدمى. الحصار من أمامك، والحصار من خلفك، وعن شمالك وعن يمينك، وليس أمامك وا لله إلا الهرب.

جلس في مجلسه المعتاد في بيته المشنوق بجربة الجبل بالقرب من القلعة، يستطلع الأفق البعيد المكفهر في حيرة وقلق. يتصفح القرية المتثائبة منشورة أمامه ككتاب مشرع على رياح تهب ولا تهب. حاول بجهد جهيد أن يثبت نظره على بيت والد زهرة هناك في البعيد، حيث زهرته ووليده الذي يقال إنه من الطيش والتهور بحيث تجرأ على اقتحام هذه الدنيا الغريبة العجيبة. كل شيء في مكانه. كل شيء واقف في المكان نفسه في الزمن نفسه. القلعة في مكانها، والبيوت في مكانها. والسجن في مكانه. والسجان في مكانه. إلا أن القلعة مهجورة لأن صعود الجبل مشيا على الأقدام صعب وشق الطريق إليها أصعب. ونزول العسكر إلى الوادي الضيق حيث السوق أيسر من صعود الجبل الوعر. والسوق يقدم تسهيلات من كل نوع. كل شيء متاح، وكل شيء مباح. احترف الناس الهجرة إلى الحرب وإلى الخارج، لأول مرة. وحدها القلعة لم تهاجر. وبيته لم يهاجر ولكنه مهجور يكاد يندثر. لم تعد زهرة تسكنه

ولا يسكنه أحد بعد أن تصالحت في غيابه مع أبيها وذهبت آخذة معها وليده الأول، ابنه الوحيد، الذي أسمته أحمد إحياءا لذكرى أب مات غريبا مشردا في فضاء مجهول. استقر رأيه بسرعة مذهلة على تغيير اسم وليده. سيسميه أي اسم آخر. ليست الأسماء معدومة حتى يسميه أحمد بن أحمد. ما يزال حائرا بين الأسماء التي يرغب في إطلاقها عليه. سيسميه عمر أو جمال أو سيف... أو أي اسم آخر.

لا يدري كيف بلغت إلى مسامعه أخبار بدت له مؤكدة، تقول إن عمر عاد سالما بين من عاد من الحرس الوطني للمشاركة في الثورة في الجنوب. كان حلم عمر، يرحمه الله، أن يخرج الإستعمار وأن يشارك في إخراجه بنفسه. فرح أحمد بهذا الخبر الرائع. لم يهتم بمعرفة ما إذا كان صحيحا أم لا. بدا له كل ما يؤكد نجاح عمر في الهرب ونجاته صحيحا ولا يستدعي أدنى شك. لم يجد بعده صاحبا وصديقا.

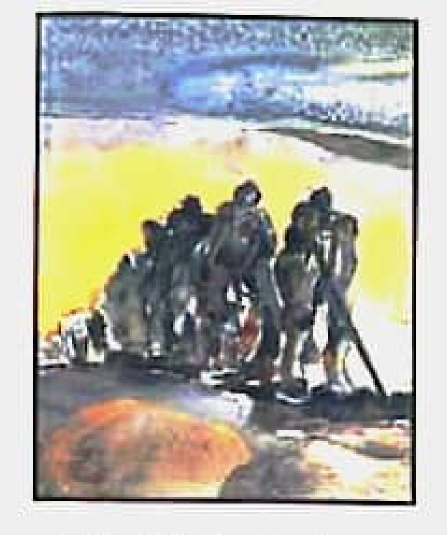
كشف له غرامه بكتابة الشكايا أن الظلم يتناسل كما تتناسل الأرانب والفئران والصراصير. وأن لكل زمان ظالم، ولا تخلو الأرض من ظالم حتى تقوم ساعتهم، وأن لا شيء يعادل المظالم في وفرته في هذه البلاد حتى ولا المجاعة. كأنما بنيت على أسس من ظلم. لماذا لا يخرج الناس رافعين شكاواهم في أيديهم أو فوق ظهورهم. الشاكون أكثر من المشكو بهم. والمظلومون أكثر من الظالمين. بينه وبين الظلم وكثرة الشكايا رابطة غريزية. لولاها لمات جوعا. بينه وبين وزارة الداخلية ووزارة العدل صلة رحم. يدين لهما بكسب عيشه. تضفيان على الظلم صفة رسمية ويكتب الشكايا ليكسب ما يقتات به. لو كان مواطنا لاقترح أن تدمجا في وزارة واحدة تسمى وزارة الظلم.

تراوده رغبة جامحة في التمرد على كتابة الشكايا لكي يكتب أي شيء آخر. في رأسه مشاريع كثيرة للكتابة. أن يكتب سفرا بعنوان

(كتاب الشكايا)، أو (رسالة في الظلم)، أو أن يكتب عن عمر، أو عن محنته مع فاطمة أو محنتها به. عن القلعة المتنقلة من مكان إلى مكان ومن عصر إلى عصر. عن السجن الذي لا يتبدل والسجان الذي لا تتغير ملامحه. عن ذاكرته التي لا يدري أعادت إلى سيرتها الأولى قبل اقتحامها للهاوية السحيقة أثناء هربه من الأسر أم لا. عن الهرب الذي يلازمه كظله. عن وديان وجبال يمتزج فيها شذى أزهار البن بلون الشقاء والمجاعة. أمسك بالقلم بعناية وشغف وخط على الورق أول حرف من جملة غير مفيدة. لم يدرك إلا بعد فوات الأوان أن القلم يجري بلا مداد. واصل الكتابة في غبطة وسرور. تسكره وتطربه حركة القلم على صفحات مرئية وغير مرئية.

عبق أزهار البن يعطر المشهد ويملأ رئتيه بنسائم لا تنسى بمضي العمر في اشتياق إليها. وحدها هذه الرائحة الطروب لم تهاجر ولم تهرب من تلافيف ذاكرته المتداعية على نفسها. تبعث في حشاياه مرارات عمر معجون بأوحال اليتم.

أفاق من كابوس حلمه الطويل مضطربا حائرا مشوش الأفكار منهك القوى. سرح البصر في الأفق المكتسي بألوان الغسق وظلمة الليل، وترجل متمهلا في خطوه يفتح ذراعيه على اتساعهما لاحتضان زهرة.





إنه الحصار من جديد. محشور داخل هذه القشرة الخارجية التي لايستطيع منها فكاكاً. وقد أصاب نظره الحديد كثيراً من الغبش واضطراب الرؤية. حصار قديم، حصار جديد، حصار داخل حصار. حصاة تفر من مكان الى مكان، وصخرة صغيرة تتفتت بالتدريج وتستحيل رملاً تذروه الرياح في جهات غير محددة..

اهرب تسلم. اهرب الى الموت او إلى الحياة.. اهرب إلى الحياة والموت. اهرب إلى حيث الأمان المفقود، والعدل المفقود، والمعنى المفقود، الى واحة تحتل القلعة كل مساحتها أو يزيد، وتطمر نخلها الباسق الظليل، وماءها العذب السلسبيل... اهرب إن استطعت، واهرب إن لم تستطع. اهرب إلى زاوية المكان، أو إلى ظلمة السجن، أو إلى فضاء الهاوية الفسيح، أو إلى أنياب المدينة المغلقة، أو إلى اتساع جلدك المدمى...

أفاق من كابوس حلمه الطويل مضطرباً حائراً مشوش الأفكار منهك القوى. سرح البصر في الأفق المكتسي بألوان الغسق وظلمة الليل. وترجل متمهلاً في خطوه يفتح ذراعيه على إتساعهما لاحتضان زهرة.

الناشر